التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

تأليف

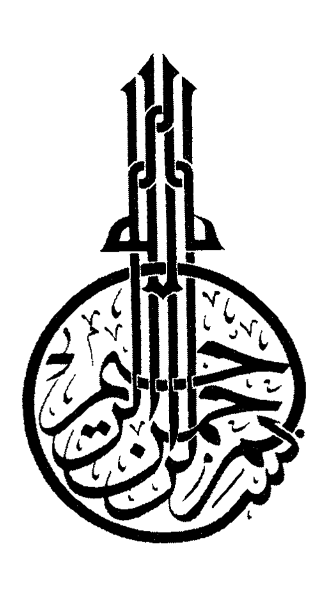
عبد الحميد محمود طهماز

المجلد السابع:

ويحتوي على تفسير هذه السور

سبأ - فاطر - يس - الصافات - ص - الزمر - غافر
فصلت - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية
الأحقاف - محمد - الفتح - الحجرات - ق

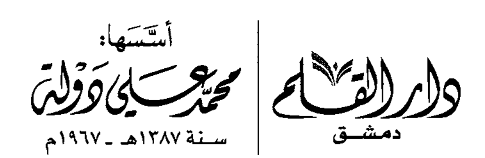




التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

٧



الطبعَة الثانية

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القـلم ـ دمشــق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشـامية ـ بيـروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشـير ـ جـدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤





٣٤

تفسير سورة سبأ

الرِّسَالَةُ والسَّاعَةُ فِي سُورَةِ سَبَأ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة
ومَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ رسالة الله تعالى إلى عباده؛ ومسؤوليتهم عنها يوم الحساب والجزاء أمران ضروريان لتنظيم وضبط حياة المجتمعات البشرية، ولا يغني الناسَ عنهما التقدمُ العلمي والمادي، فالله العليم الخبير يعلم ما يصلح للناس، ولهذا أرسل إليهم الرسل لهدايتهم إلى صراطه صراط العزيز الحميد.

وضرب سبحانه في آيات السورة مثلاً بمجتمعين بشريَّيْن حكمهما نبيان ملكان بما شرع الله تعالى لهما، وهما: داود وسليمان عليهما السلام. فأدى ذلك بهما إلى أن وسع الله عليهما، وأخضع لهما كثيراً من القوى الظاهرة والخفية.

ثم ذكرت آيات السورة بعد ذلك على سبيل المقارنة مجتمعاً بشريّاً ثالثاً في سبأ، كانوا في سَعَة ورَغَد في العيش، فأعرضوا عن رسالة رسل ربهم، فأسرع فيهم الفساد، وانتهى بهم الأمر إلى الضياع والتمزق، حتى أصبحوا أحاديث تُروى بين الناس.

ولا خلاص للمجتمعاتِ البشرية بعد بعثة النبي الخاتم المرسل للناس كافة ﷺ إلا إذا التزمت بمنهج رسالته، وتمسكت بأحكام شريعته، فرسالته رسالة الحق، أنزلها عَلَّام الغيوب، لا غنى للبشرية عنها، وإن لم يبادروا إليها فسيكون مصيرهم كمصير سبأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤].



تفسير سورة سبأ

الرِّسَالَةُ والسَّاعَةُ فِي سُورَةِ سَبَأ

الحكيم الخبير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢﴾.

افتتح الله سورة سبأ بالثناء على نفسه لكمال ملكه وسلطانه في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه المتصف بصفات الكمال التي لا يتصف بها أحد غيره، فقال:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝١﴾.

أي: وهو الحكيم الذي أحكم أمور المخلوقات في الدنيا والآخرة، والخبير ببواطن الأشياء وحقيقتها فيضعها في مواضعها الصحيحة اللائقة بها، وهو يستحق الحمد أيضاً لأنه منعم متفضِّل، فهو منعم على وجه الحكمة والصواب.

وكما أن سلطانه تعالى شامل كل المكونات فعلمه أيضاً محيط بها لا يغيب عنه شيء منها:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم كل ما يدخل في الأرض ويغيب

في طيات ثراها، كماء الأمطار، وأجساد الأموات، وبذور النبات، ويعلم ما يخرج منها من نبات وحيوان ومياه ومعادن.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ أي: ويعلم أيضاً كل ما ينزل من جهة السماء من أمطار وأرزاق وملائكة، وما يصعد في جو السماء كالملائكة والأبخرة والأدخنة وأعمال العباد، فعلمه سبحانه وسع كلَّ المخلوقات المتحركة والساكنة من أعماق الأرض إلى آفاق السماء.

فكم من قطرة بخار صاعدة من بحر، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم، وكم وكم مما لا يعلمه سواه؟! وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة، ولو قضوا الأعمار الطوال في العدِّ والإحصاء؟! وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لمما يوحي بأن هذا القرآن ليس من قول البشر، فمثل هذا الخاطر الكوني لا يخطر بطبيعته على قلب بشر وهو مع هذا يستر ويغفر[١].

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ يرحم عباده المقصِّرين في طاعته، ويغفر لهم، وفيه إشارة إلى أنهم مهما شكروه فإنهم مقصِّرون في حق شكره.

* * *

العلم والساعة

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾.

هذا الإله العظيم المتصف بكمال القدرة والعلم، وتمام الحكمة وطلاقة المشيئة، لا يمكن أن يخلق هذه المخلوقات العظيمة سدًى وعبثاً من غير حكمة تدل على كماله ووحدانيته، ولهذا فإن الرسالة والساعة من الأمور اللازمة الدالة على أنه حكيم عليم:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٥/ ٢٨٩٢.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ قالوا ذلك جحوداً لرسالة النبي ﷺ، وإنكاراً للقضية الكبرى التي أخبرهم بها وطالبهم بالإذعان لها؛ وهي التصديق بيوم القيامة؛ وما فيه من جزاء وحساب.

فجاء الرد عليهم حاسماً جازماً مستعملاً كلمة: (بلى) الدالة على إبطال نفي المشركين ليوم القيامة، ومؤكِّداً بالقسم باسم من أسماء الله المقدسة، الدالة على أنه وحده الخالق المدبر لأمر مخلوقاته، وجاء مع القسم اللام المؤكدة الواقعة في جوابه والنون الثقيلة المؤكدة:

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾.

واختارت الآية من صفاته المقدسة كمال علمه، لبيان الارتباط بين كمال العلم ويوم المسؤولية والجزاء:

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: هو عالم الغيب المغيَّب عنكم، لا يبعد عن علمه أصغر ذرة في أي مكان كانت من السماوات والأرض.

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أي: ولا يبعد عن علمه أيضاً ما هو أصغر من الذرة، وما هو أكبر منها، وكلها مكتوبة أيضاً في كتاب مبين، وهو لوح القدر، فالعلم ثابت لله تعالى بكل معلوم، فهو كقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وأشار قوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ إلى حقيقة علمية، وهي أن في الذرة جزيئات صغيرة، وهذه الحقيقة ما كانت معروفة عند نزول القرآن الكريم.

* * *

الصراع بين الحق والباطل

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٞ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾.

ثم بينت الآيات الحكمة من إثبات يوم القيامة وما فيه من مسؤولية وحساب وجزاء:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾.

أي: أولئك المتصفون بالإيمان والعمل الصالح لهم مغفرة لما فرط منهم من تقصير، ولهم رزق في الجنة طيب لا تعب فيه ولا انقطاع.

وأما مصير الفريق الآخر الذين جحدوا الساعة وكفروا بالرسالة:

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٞ ۝٥﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: والذين سعوا في آياتنا المنزلة، وصد الناس عنها، ظانِّين أنهم يعجزون الله، ويفلتون من قبضة قدرته.

وفي قراءة: (مُعَجِّزِينَ) أي: مثبطين عن الإيمان ومعوقين عنه.

ودلت كلمة (سعوا) على شدة عنادهم وتكذيبهم، وأنهم بذلوا جهداً كبيراً في الصدِّ عَنْ آيات الله، ولهذا فهم يستحقون أسوأ العذاب:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٞ﴾.

ولا يتوقف الصراع بين الحق والباطل؛ فهو مستمر ما دامت الحياة مستمرة، ويقف في مواجهة الساعين في إبطال آيات الله وإطفاء نورها، الفريق المؤمن في ميدان المواجهة ثابتاً قويّاً:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان، أو الذين أسلموا من علماء أهل الكتاب.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ فهم يرون أن القرآن الكريم المنزل إليك من ربك هو الحق الثابت، وأن كل ما يخالفه ضلال.

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: ويهدي إلى منهج الحق الذي شرعه الإلٰه الغالب في سلطانه، المحمود في كل شؤونه، ووصفهم بأنهم الذين أوتوا العلم، فيه تعريض بالكافرين الجاحدين ليوم القيامة، بأنهم المتصفون بالجهل والغفلة والعناد.

* * *

جهل وعناد

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

ومن صور جهلهم وعنادهم:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وهو محمد ﷺ.

﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هكذا جعلهم جهلهم

وعنادهم يتعجبون أشد العجب مما أخبرهم به ﷺ، وهو أنهم سيبعثون بعد الموت للحساب والجزاء، وأن أجسادهم التي تفرقت وتمزقت وصارت تراباً ستخلق بقدرته تعالى من جديد.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: أهو مفترٍ على الله كذباً أم به جنون؟!.

وبادر سبحانه يرد على جهلهم وعنادهم بقوله:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي: ليس فيه شيء من الافتراء والجنون، فهو أصدق الناس وأعقلهم، ولهذا أضربت الآية عن قولهم وكذبته، وبينت أن الأمر ليس كما قالوا، بل إنَّ أصحاب هذا القول في العذاب والضلال البعيد، والمراد من العذاب إما عذاب الآخرة لأن مصيرهم إليه، أو عذاب الدنيا بسبب مكابرتهم للحق، ومحاولة إطفاء نور الله وهو يتمُّ[(١)].

وكذلك بسبب ما يعانون من حيرة وقلق لبعدهم عن الحق، وتخبطهم في الضلال البعيد، فالذي يعيش بلا عقيدة بالآخرة، يعيش في عذاب نفسي، لا أمل له ولا رجاء في نصفة ولا عدل ولا جزاء ولا عوض عما يلقاه في الحياة، وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الإنسان على مواجهتها إلا وفي نفسه رجاء الآخرة[(٢)].

وهذا يبين ضرورة الرسالة وشدة حاجة الناس إلى الشعور بالمسؤولية والجزاء في يوم الحساب.

ثم ذكَّرتهم الآيات بأسلوب الاستفهام الإنكاري ببعض ما يحيط بهم من الظواهر الكونية الدالة على كمال قدرة الله تعالى لكي يشعروا أمامها بضآلتهم وحقارتهم وهوانهم:

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١٢/١٢٨.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/٢٨٩٥.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أعموا فلم ينظروا إلى ما يحيط بهم من كل جانب، ولم يبق من أسباب وقوعه إلا تعلُّق مشيئته تعالى به، فالله قادر على أن يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم قطعاً هائلة من السماء.

ويدل هذا التهديد الشديد على تهويل ما اجترؤوا عليه من تكذيب آيات الله تعالى، واستعظام ما قالوا في حقِّه عليه الصلاة والسلام، وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد أنواع العذاب بهم[(١)].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: إن في ذلك دلالة قاطعة على كمال قدرته تعالى، وأن البعث بعد الموت لا يعجزه.

﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ لكل عبد راجع إليه تعالى متأمل في آيات قدرته.

* * *

صانع الدروع

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

ثم عرضت الآيات نماذج إنسانية أظهرت من خلالها المواقف الطيبة التي ينبغي أن يتصف بها الناس، عندما يتفضَّل عليهم الحق جل وعلا بنِعمه وفواضل إحسانه وجوده.

واختارت الآيات نبيَّيْن كريمين تَفضَّل عليهما سبحانه بنعم دنيوية كثيرة،

(١) روح المعاني: ٢٢/ ١٦١.

مكّنت لهما في الأرض، ووضعت أيديهما على بعض أنواع القوة المادية فيها؛ هذان النبيان الكريمان هما داود وسليمان عليهما السلام:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتينا داود بسبب حُسن إنابته إلى ربه نعمة وإحساناً زيادة على ما أعطي غيره من الأنبياء، والخصوصية لا تقتضي الأفضلية، وقد يكون في المفضول ما ليس في غيره.

ثم بينت الآيات ما أُعطي داود عليه السلام:

﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: وقلنا: يا جبال سبِّحي معه، فكان عليه السلام إذا سبَّح سبَّحت الجبال مثل تسبيحه بصوت يُسمع منها، والله قادر على ذلك، وهو القائل: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والجدير بالذكر أنَّ الحصى سبح في كف نبينا عليه الصلاة والسلام، قال ابن جرير رحمه الله: وقد اشتهر تسبيح الحصى في يده، ففي حديث **أبي ذر الغفاري** رضي الله عنه قال: تناول رسول الله ﷺ سبعَ حصياتٍ فسبَّحن في يده حتى سمعتُ لهنَّ حنيناً، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبَّحن، ثم وضعهن في يد عمر فسبَّحن، ثم وضعهن في يد عثمان فسبَّحن. [أخرجه البزار والطبراني في «الأوسط»].

وروى البخاري [٣٥٧٩]: من حديث **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: ولقد كُنَّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: وسخرنا له الطير تسبِّح معه، وفي قراءة: **(والطيرُ)** بالرفع على أنه معطوف على الجبال باعتبار لفظه وحركته.

والأصل: ولقد آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال والطير، فبدل به هذا النظم لما فيه من الفخامة والدلالة على عظمة شأنه تعالى وكبرياء سلطانه، ونفاذ مشيئته في كل المخلوقات، فما من حيوان وجمادٍ إلا وهو منقاد لمشيئته جل وعلا.

ومن المعلوم أن داود عليه السلام كان حسن الصوت حتى إنَّ النبيَّ ﷺ قال **لأبي موسى الأشعري** رضي الله عنه لما سمعه يقرأ القرآن: «**يا أبا موسى، لقد أُوْتِيْتَ**

مزماراً من مزامير آل داود» [رواه البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣)].

قال الخطابي: أراد داود نفسه، لأنه لم ينقل أن أحداً من أولاد داود أو أقاربه أعطي منْ حُسنِ الصوت ما أعطي[١].

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: جعلنا الحديد في يده عَلَيْهِ السَّلَامُ ليناً كالشمع أو العجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يعمل من الحديد دروعاً يبيعها، وينفق على نفسه منها.

وفي الحديث الشريف: قال ﷺ: «**ما أكلَ أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً مِنْ أنْ يأكلَ مِنْ عَمَلِ يدِهِ، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **كانَ يأكلُ مِنْ عملِ يدِهِ**» [رواه البخاري (٢٠٧٢)].

وفي الحديث فضل العمل باليد وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره، والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة، لأنه كان خليفة في الأرض ابتغى الأكل من طريق الأفضل[٢].

وبيَّن له سبحانه وجه الاستفادة من إلانة الحديد، فعلَّمه صناعة الدروع:

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: اعمل دروعاً واسعة، وضيق في نسجها، لتكون لينة ناعمة، فداود عَلَيْهِ السَّلَامُ أولُ منْ صنع الدروع المنسوجة من خيوط الحديد، وكانت قبله تُصنع من صفائح الحديد، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ويبدو أنَّ أهل داود عَلَيْهِ السَّلَامُ اقتبسوا منه صناعة الدروع، فاتجهت الآية تأمرهم بالإخلاص في العمل وإتقانه وإحسانه:

﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: اجعلوا عملكم كله صالحاً خالصاً لله تعالى، فإني بصير به ومجازيكم عليه.

* * *

(١) فتح الباري: ٩/ ٩٢.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٠٦.

النعمة والشكر

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

وانتقلت الآيات من الحديث عن فضل الله تعالى على نبيه داود إلى الحديث عن فضله تعالى على نبيه سليمان:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح تجري في أول النهار إلى منتصفه مسيرة شهر، وتجري من منتصفه إلى آخره مسيرة شهر، كما مرَّ معنا في **سورة النمل (١٥ ـ ٤٤)**.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ﴾ أي: وأذبنا له معدن النحاس، وسماه عين القطر باسم ما آل إليه، وهذا يدل على أنه تعالى جعل معدن النحاس يسيلُ في الأرض كما يسيل الماء، فكما ألان سبحانه لداود الحديد أذاب لسليمان النحاس.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾ أي: وسخرنا لسليمان من الجن من يعملون أمامه وتحت مراقبته بأمره تعالى.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: ومن يعدل منهم عن أمرنا الذي أمرناه به، وهو طاعة سليمان، نذقه من عذاب النار يوم القيامة.

وقرئ (**يُزِغْ**) أي: يصرف نفسه أو غيره.

ثم ذكرت الآيات الأبنية الكبيرة والإنشاءات العظيمة التي كان سليمان يكلفهم بإقامتها:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: يعملون لسليمان ما يشاء من مساجد، أو الأبنية الكبيرة المرتفعة، **وتماثيل** لبعض المخلوقات غير الحية، أو للمخلوقات الحية، فلعله كان جائزاً في شريعتهم، أما في شريعتنا الإسلامية فهو حرامٌ، كما يعملون له أيضاً **الجفان**، وهي صحاف الطعام الكبيرة، جمع جفنةٍ، وهي تشبه الجوابي، وهي الحياض العظام التي يُجبى فيها الماء ويجمع، وإذا كانت الجفان هكذا فكيف تكون قدورها التي يطبخ فيها؟!:

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي: ويعملون له قدوراً ثابتات لضخامتها، وهذا يدل على كرمه عليه السلام وكثرة إطعامه الطعام.

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي: اعملوا يا آل داود لأجل شكر الله تعالى، أو اعملوا شاكرين الله تعالى، وذلك بأن تجعلوا عملكم خالصاً لله، وأنتم منقادون له مقرُّون بفضله.

وروي: أن داود عليه السلام قال: كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعمُ عليَّ ثم ترزقني على النعمة الشكر، فالنعمة منك والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟! فقال جل وعلا: يا داود الآن عرفتني حق معرفتي(١).

ومر معنا قول سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وظاهر الآية أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان، ولهذا كان نبينا ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع

---

(١) روح المعاني: ٢٢/ ١٢٠.

هذا يا رسول الله وقد غفرَ الله لكَ ما تقدمَ منْ ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحبُّ أن أكونَ عبداً شكوراً**» [رواه البخاري (٤٨٣٧)].

قال ابن حجر: وفي الحديث أنَّ الشكر يكون بالعمل كما يكون باللسان، كما قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي: قليلٌ من عبادي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته، ومع ذلك لا يؤدي حقه، لأنَّ التوفيق للشكر يستدعي شكراً آخر، ولذلك قيل: الشكورُ منْ يرى عجزه عن الشكر[(١)].

وتوالت نِعم الله على نبيه سليمان ﷺ لأنه كان عبداً شكوراً، حتى انتهاء أجله، وبعضها استمر إلى ما بعد وفاته، فبقي الجنُّ يعملون بين يديه وهم لا يعلمون بموته:

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ أي: لما أوقعنا على سليمان الموت ـ ويبدو أنه كان معتكفاً للعبادة، فلا يدخلُ عليه أحد ما دام في محرابه ـ ما دلَّ الجن على موته إلا دابة الأرض، وهي الأرضة التي تأكل الخشب، آكلة عصاه التي كان يتوكأ عليها.

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ أي: فلما سقط على الأرض علمت الجنُّ أنْ لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا موته حين وقوعه، ولم يلبثوا بعد موته يعانون مشقة العمل المهين.

* * *

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ١٢٦.

سيل العَرِم

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

وانتقلت الآيات من بيان حال الشاكرين لنعمه تعالى إلى الحديث عن حال الكافرين المعرضين عن شكره والاعتراف بفضله وإحسانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ **وسبأ**: اسم رجل تنتمي إليه أكثرُ قبائل اليمن، ففي الحديث: عن **فروة بن مُسيكٍ المرادي** رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله؛ ألا أقاتل منْ أدبر من قومي بمنْ أقبل منهم؟ فأذِنَ لي في قتالهم وأمَّرني، فلما خرجتُ منْ عندهِ سأل عنِّي: «**ما فعل الغطيفي؟**» فأخبرَ أني قد سرتُ، فأرسل في أثري، فردَّني، فأتيته وهو في نفر منْ أصحابهِ، فقال: «**ادعُ القومَ، فَمَنْ أسلمَ منهم فاقبلْ منه، ومنْ لمْ يُسْلِمْ فلا تعجلْ حتى أحدِثَ إليكَ**» قال: وأُنزل في سبأ ما أُنزل، فقال رجلٌ: يا رسول اللهِ وما سبأ؟ أأرض أم امرأة؟ فقال ﷺ: «**ليس بأرضٍ ولا امرأةٍ، ولكنَّه رجلٌ ولد عشرةً من العربِ،**

فتيامن منهم ستةٌ، وتشاءَمَ منهم أربعةٌ، فأما الذين تشاءموا فلخمٌ وجُذامٌ وغسَّان وعاملَة، وأما الذين تيامنوا فالأزدُ والأشعريون وحميرُ وكندةُ ومذحج وأنمار» فقال رجل: يا رسول الله وما أنمار؟ قال: «**الذين منهم خثعمُ وبَجِيْلَةُ**» [رواه أحمد (٢٤٣٠٧) والترمذي (٣٢٢٢) وحسنه].

وقُرئ ممنوعاً من الصرف باعتباره اسماً للقبيلة ففيه العلمية والتأنيث.

والمسكن محلُّ السكنى، وهو كالدار يطلق على المأوى للجميع وإن كان قطراً واسعاً. وقرأ الجمهور: (**مساكنهم**) جمعاً أي: مواضع سكناهم.

وقوله: (**آية**) أي علامة دالة على كمال قدرته تعالى، وعظيم فضله وإحسانه وإنعامه ووجوب شكره.

﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: مجموعتان من البساتين تحيط ببلادهم عن يمينها وشمالها، وكل مجموعة لكثرة ظلالها وتقارب أشجارها كأنها جنة واحدة، وقرئ بالنصب: (**جنتين**) على المدح.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: قيل لهم إما على لسان أنبيائهم أو بلسان حال الواقع الذي كانوا عليه: كلوا من رزق ربكم الذي أنعم به عليكم.

﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ بالإقرار بفضله وطاعته وعبادته وحده.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: هذه البلدة التي يسَّر الله لكم فيها السكنى والرزق بلدة طيبة لطيب أرضها وهوائها وكثرة أرزاقها، وربكم الذي أنعم عليكم بها ربٌّ غفورٌ يغفر للمقصِّرين في شكر نعمه سبحانه.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: أعرضوا عن شكر الله تعالى، والتصرُّفِ المحمود فيما أنعم به عليهم، فسلبهم الله تعالى الرخاء الجميل الطيب الذي عاشوا فيه، وأرسل عليهم السيل الجارف، الذي سُمِّي سيلَ العرم، لأنَّه يحمل العرم في طريقه، وهي الحجارةُ لشدَّةِ تدفقه، فحطَّم السدَّ، وانساحتْ

مياهُه على البساتين والجنان فدمَّرتها وأغرقَتها، كما مر معنا، ثم قال تعالى يصف بعض ما ترتب على ذلك:

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي: بدَّلناهم بجنتيهم اللتين كانتا لهم جنتين خاليتين من الخيرات، وقد وصفهما الله تعالى بأنَّهما ذواتا أُكُلٍ خَمْطٍ، أي: شجر ذي شَوْكٍ مُرٍّ، ورائحةٍ كريهةٍ، وأمَّا الأَثْلُ فهو نوعٌ من الشجر ذو شوكٍ كثيرٍ أيضاً، وقليل من السِّدْرِ ذي الثمر.

ثم أكد سبحانه كفرهم بنعمه الكثيرة عليهم فقال:

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: لا نجازي إلَّا شديدَ الكفرِ بنعم الله تعالى عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ويُشْبِهُ موقفُهم هذا موقفَ كثير من الأمم في عصرنا الحاضر، التي جحدتْ فضلَ الله تعالى عليها، وكفرتْ بنعمه.

وقد يتساءل بعضُهم: لكننا نرى بعض الأمم رغم كفرها وفجورها يمدُّها الله تعالى!.

فأقول: هذا استدراجٌ منه سبحانه لهذه الأمم ليزدادوا إثماً، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف].

ومرَّ معنا في مناسباتٍ كثيرة أنَّ أعمار الأمم والشعوب ليست كأعمار الأفراد.

ثم ذكر الله تعالى صورةً من نعمه العظيمة عليهم، وما قابلوها من الجحود والكفران فقال:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي: بينة واضحة، فقد كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى واضحة متواصلة.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلناه بحسب ما يحتاج المسافرون إليه.

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي: ومع تقارب مراحل سفرهم، فإنَّ الأمنَ حاصلٌ لهم في هذا السفر، سواء كان في الليل أو النهار.

ولكن القوم سئموا النعمة، ولم يصبروا على العافية، وسألوا البلاء، وتمنَّوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار:

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وهذه قراءة العامة، وقرأ ابن عامر: **(ربنا بَعِّد)** ومعناهما واحدٌ، وقرأ يعقوب: **(ربُّنا باعَدَ)** بفتح العين والدال على الخبر، كأنه تعالى قال: قربنا لهم أسفارهم فقالوا أشراً وبطراً: لقد بوعدت علينا أسفارنا(١)، فالقوم جحدوا فضله تعالى عليهم.

﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ﴾ أي: وجعلناهم يُتَحَدَّثُ بأخبارهم، وفرقناهم في البلاد كل تفريق، قال الشعبي: لحق الأنصار بيثرب، وغسان بالشام، وأزدُ بعمان، وخزاعة بتهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ، أي: مذاهب سبأ وطرقها(٢).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكل من هو كثير الصبر والشكر، فهو صبار عن المعاصي، شكور للنعم، فهو المنتفع بالآيات والمواعظ.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقق إبليس عليهم ظنه، أو وجده صادقاً، وقُرِئ بالتخفيف: **(صَدَق)** أي: صدق في ظنه.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/٢٩١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اتبعه أهل سبأ.

ويمكن أن يكون المراد بني آدم، إلا فريقاً هم المؤمنون لم يتبعوه، فالإيمان عصمهم من اتباع الشيطان والوقوع في شرك إضلاله وإغوائه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: وما كان لإبليس على الذين صدَّق ظنه فيهم تسلط وقهر وإجبار.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ ولكن ابتليناهم بوسوسته لنميز بين المؤمن بالآخرة ومن لا يؤمن بها.

فالشؤون كلها منكشفة لعلم الله تعالى أزلاً وأبداً، فالعلم هنا محمول على التمييز والإظهار.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: رقيبٌ أو حافظ، لا يعزب شيء عن علمه جل وعلا كما سبق في صدر السورة.

* * *

الخلق والأمر والتدبير

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)﴾

وأمرت الآيات النبي ﷺ تأكيداً لهذه الحقيقة أن يقول للمشركين بأسلوب التحدِّي والتوبيخ:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: زعمتموهم آلهة من دون الله، ادعوهم لما ينزل بكم من نوازل لكي يجلبوا لكم نفعاً، أو يدفعوا عنكم ضرّاً.

ثم أجابَ عنهم الجواب المتعين الظاهر الذي لا يقبل المكابرة والمجادلة فقال:

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فهم لا يملكون شيئاً مهما كان صغيراً في السماوات ولا في الأرض.

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: وليس لهم أيضاً شركة مع الله تعالى في تدبير أمرهما، فهو ﷻ وحده المتفرد في الخلق والتدبير.

﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: وما له سبحانه من معين يعينه على تدبير أمر مخلوقاته كما قال جل وعلا: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فالخلق والأمرُ والتدبير للهِ وحدهُ في الدنيا، وله أيضاً في الآخرة، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: إلا لمن أذن الله له أن يشفع.

وقرئ: **(أُذن له)** بضم الهمزة.

ثم وصفت الآية هول الموقف وشدة ما يعتري الشافعين والمشفوع لهم:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم كما قال تعالى في **سورة الأنبياء**: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ودلت كلمة (حتى) على أنَّ ثمة انتظاراً للإذن وتوقفاً وفزعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم أم لا يؤذن لهم[(١)].

وقرأ ابن عامر ويعقوب: (فَزَع) على البناء للفاعل.

سأل بعضهم بعضاً:

﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: في الشفاعة.

﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ قالوا: قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى.

وقرئ بالرفع؛ أي: مقولة الحق[(٢)].

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: وهو ذو العلو والكبرياء فلا يتكلَّم أحدٌ إلا بأذنه.

واستمرت الآيات تقرر كمال الحق سبحانه واستحقاقه وحده للعبادة، وأن شؤون التدبير كلها منوطة بمشيئته وقدرته.

* * *

الجدل المنصف

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو تأكيد لما سبق تقريره من كون

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٦٠.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤/ ١٦٠.

آلهتهم لا تملك مثقال ذرة من السموات والأرض، أُمر رسول الله ﷺ أن يوجهه إليهم متحدياً وموبخاً؛ أي: من يخلق لكم هذه الأرزاق النازلة من جهة السماء والخارجة من الأرض؟.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ وهو الجواب المتعين لهذا السؤال، والقوم مقرُّون به في قرارة نفوسهم.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهو كلام في غاية الإنصاف جاء بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال دلالة ظاهرة على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، وهو أبلغ من التصريح، لأنه في صورة الإنصاف المسكت للخصم.

وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال، لأن صاحب الهدى كأنه مستعلٍ على فرس جواد، يركضه حيث يشاء، والضال كأنه ينغمس في ظلام، لا يرى أين يتوجه(١).

والجدل على هذا النحو المهذب أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام، المستكبرين عن الإذعان والاستسلام، وهو في غاية الإنصاف والاعتدال والأدب في الجدل القرآني، يوجه الرسول ﷺ ليقول للمشركين: إن أحدنا لا بد أن يكون على هدًى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال، ثم يترك تحديد المهتدي منهم والضال إلى التدبر والتفكر من غير أن تغشى عليه العزة بالإثم والعصبية العمياء، فالنبي عليه الصلاة والسلام هادٍ ومعلم يبتغي هداهم وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم(٢).

وتابعت الآيات تبين للنبي عليه الصلاة والسلام أفضل أساليب الجدال المنصف والمفحم للخصم:

---

(١) تفسير النسفي: ٥/ ١٦١.
(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٠.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥﴾.

وهذا أيضاً أدخلُ في الإنصاف من الأول، وأبلغ حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم، وهو مزجور عنه محظور، وأسند العمل إلى المخاطبين، وهو مأمور به مشكور.

ولا بد بعد هذا أن يستبين الحق ويظهر:

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يجمع ربنا بيننا يوم القيامة، ثم يحكم بيننا بلا جور ولا ظلم.

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: وهو الحاكم العليم بالحكم والحق.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ بأي صفة ألحقتموهم بالله في استحقاق العبادة.

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر وتنبيه، فالقياس باطل وفاسد، ولا يشاركه أحد في استحقاق العبادة.

﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بل هو الله المتصف وحده باستحقاق العبادة وكمال القدرة وتمام الحكمة.

* * *

الرسول البشير النذير

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ
سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ
تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ
صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟
ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وبعد أن قررت الآياتُ عقيدة التوحيد بكل هذا الوضوح والإلزام، وهي أساس رسالة الرسول ﷺ، التفتت إلى النبي ﷺ تؤكد صدق رسالته، وتبين ما امتازت به عن غيرها من رسائل الأنبياء والمرسلين.

وكأن الآيات أرادت إظهار المنزلة الرفيعة للنبي ﷺ، ورد الأقوال القبيحة التي صدرت عن المشركين في حقه عليه الصلاة والسلام، والتي حكتها السورة عنهم في صدرها؛ وهي قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ].

فهذا الرجل الذي قال الكافرون فيه هذا القول هو صفوة الله تعالى من خلقه، المرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وجهل الجاهلين لا يغير هذه الحقيقة ولو كانوا أكثر الناس:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنك الرسول البشير النذير الذي أُرسل إلى الناس كافة عربهم وعجمهم، وأبيضهم وأحمرهم، وهذه من خصائصه التي

خصه الله بها عليه الصلاة والسلام.

ففي الحديث الشريف: قال الرسول ﷺ: «**أعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي: كان كلُّ نبيٍّ يُبْعَثُ إلى قومِهِ خاصّةً، وبُعِثْتُ إلى كُلِّ أحمرَ وأسودَ، وأُحِلَّتْ ليَ الغنائمُ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وجُعِلَتْ ليَ الأرضُ طيبةً طهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركتْهُ الصلاةُ صلَّى حيثُ كانَ، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ بين يدي مسيرةِ شهرٍ، وأعطيتُ الشفاعةَ**» [رواه مسلم (٥٢١)].

وبعد أن بينت الآيات صدق الرسول ﷺ، وما خصَّه الله تعالى من خصائص، عادت إلى بيان صورٍ من عناد المشركين وجحودهم، ومنها إنكار يوم الحساب والجزاء وتساؤلهم قائلين:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ويأتي الجواب على هذا التساؤل متلبِّساً بالتهديد والوعيد، مطابقاً لما قصدوه من التعنت والإنكار:

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال، ولا التقدم إليه بالاستعجال.

وأظهرت الآيات هنا الارتباط الوثيق بين دعوة الأنبياء والرسل وتقدير المسؤولية والحساب، وهي أساسُ دعوة جميع المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وهو ما دفع المشركين الذين عارضوا دعوة النبي عليه الصلاة والسلام إلى إنكار جميع الرسالات:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وما إن فرغت

الآية من حكاية قولهم الذي يدل على شدة عنادهم وجحودهم، حتى انتقلت مباشرة إلى وصف أحوالهم يوم القيامة، وهي تخاطب النبي عليه الصلاة والسلام وتثبته في مواجهة عنادهم و جحودهم، فيوم القيامة أمرٌ ضروري لا يجحده إلا المعاندون:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبوسون عند ربهم.

﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يردُّ بعضهم على بعض، ويجيب بعضهم بعضاً، بعد أن كانوا في الدنيا متحابِّين متعاونين.

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: يقول الأتباع للزعماء والرؤساء: لولا إضلالكم وصدُّكم إيانا عن الإيمان لكنا مؤمنين.

ويردُّ عليهم الزعماء والرؤساء بأسلوب الإنكار والتقريع:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: بل دخلتم الكفر باختياركم وأجرمتم بنظر منكم.

ولكن الأتباع يصرُّون على تحميل رؤسائهم تبعة ضلالهم بتذكيرهم بمكرهم الشديد المستمر في الليل والنهار:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: بل كفرنا بسبب مكركم الدؤوب المستمر في الليل والنهار، فما كان الإجرامُ من جهتنا، بل من جهة مكركم وكيدكم في الليل والنهار.

ولما رأوا العذاب الذي ينتظرهم أخفى كل فريق ما اعتراه من مشاعر

الأسف والندم عن الفريق الآخر، فهي ـ كما قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ ـ حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور، فلا تتفوَّه بها الألسنة، ولا تتحرك بها الشفاه: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ويمكن أن يكون المعنى: أظهروا الندامة لما رأوا العذاب بسبب شدتها، فلم يستطيعوا إخفاءها، فإن كلمة **(أسروا)** من الأضداد تصلح للإثبات وللسلب[١].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: وجعلنا قيود الحديد في أعناق الكافرين من أتباعٍ ومتبوعين.

وهذا تقرير لمسؤوليتهم سواء كانوا أتباعاً أو متبوعين.

* * *

تصحيح القيم وتعديل الموازين

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ولا شك أن مسؤولية رؤساء الضلال وقادة الكفر أكبر، بسبب ما كانوا عليه من ترفٍ وفجورٍ، ومسارعتهم إلى معارضة دعوة الأنبياء والمرسلين، وهو

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥/ ١٦٤.

ما قررته الآيات الكريمة في معرض مواساتها للنبي ﷺ عما يلقاه من عناد رؤوس الشرك والكفر في قومه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

فسبب مسارعتهم إلى الكفر اغترارهم بما هم فيه من ثراء وقوة، فإن انغماسهم في حياة الترف والفجور طمس بصائرهم، فعكس القيم والموازين في نظرهم، حتى ظنوا أن غناهم وترفهم ينجيهم من المسؤولية والجزاء:

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: وما نحن بمعذبين يوم القيامة إن كان هذا اليوم حقاً.

هكذا أدخل الترف والفجور الخلل على تفكيرهم، وهذا يبين لنا ضرورة إرسال الرسل لإعادة الموازين المختلة إلى وضعها الصحيح، فالناس لا يتفاضلون بأرزاقهم إنما يتفاضلون بأعمالهم:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق، وهو ضد (**يبسط**).

وفي قراءة: (**يقدِّر**) بالتشديد. فلا يدل بسط الرزق على رضا الله تعالى، ولا يدل التضييق على سخطه أيضاً.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون هذه الحقائق، فهم محتاجون إلى رسالة الرسل ليضعوا لهم الأمور في مواضعها الصحيحة، ويواجهوهم بالحقائق الواضحة بلا لبسٍ ولا غموض:

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ فهي قيم زائلة وزائفة لا تقربكم عند الله.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: فأولئك الذين يلتزمون طريق الإيمان والعمل الصالح لهم المكانة الرفيعة عند الله ولهم جزاء الضعف يوم القيامة، وهو اسم جنس؛ أي: لهم التضعيف، بعضهم يُجازى إلى عشرة، وبعضهم يصل جزاؤه بفضل الله إلى سبعمئة، كما قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ولهم مع هذا الثواب الكبير أيضاً الأمن والطمأنينة في الدرجات العاليات في الجنة:

﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

وأما المسرفون المترفون الذين يسارعون إلى معارضة دعوة المرسلين:

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ٣٨﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: يسعون في إبطال آياتنا ظانين أنهم يفوتوننا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وهم الذين سبق ذكرهم في صدر السورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ٥﴾.

إن موضوع اختلاف الناس في الأرزاق قد أحدث في المجتمعات البشرية خللاً كبيراً في المعاملات والأخلاق، ولهذا اهتمت الآيات ببيان حقيقته، وأنه منوط بمشيئة الله وحكمته:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ فكما يحدث التفاوت في الرزق بين الأشخاص، يقعُ أحياناً للشخص الواحد باختلاف الأحوال والأوقات، والله تعالى كما يوسّع الرزق ويضيقه على الأشخاص، يوسعه أحياناً

بالنسبة للشخص الواحد، ويضيقه عليه، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين، وما سبق في شخصين أو أكثر فلا تكرير[١].

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: ما أنفقتم من شيء في سبيل الله فهو يعوِّضه عاجلاً أو آجلاً.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: وهو سبحانه خيرُ منْ يُعطي ويرزق، فكل من يرزق غيره من سلطان أو رب أسرة فإنما يرزقه من رزق الله تعالى.

هكذا أظهرت الآياتُ ضرورة الرسالات الإلٰهية للمجتمعات البشرية، فمِن دونها تختل القيم، وتنعكس الموازين، ويسري الخلل والاضطراب إلى حياة الناس، وكل هذه القيم تدور في فلك العقيدة الصحيحة، وتتفرع عنها، ولهذا كانت قضية التوحيد أهم القضايا التي نادى بها المرسلون عليهم الصلاة والسلام، وكل خلل واضطراب في حياة الناس مردُّهُ إلى انحراف الناس عن هذه العقيدة.

ومن مظاهر الشرك التي أحدثت الخلل والفساد في حياة المجتمعات البشرية قبل الإسلام، تقديسُ الملائكة، والتوجُّه إليهم بالعبادة، إذ عبدَ بعضُ مشركي العرب الملائكة طمعاً في شفاعتهم، وهو ما اهتمت الآيات الكريمة في السورة ببيان بطلانه:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾.

وهو استفهام تقريعٍ وتبكيتٍ لمن عبدوا الملائكة.

وفي قراءة: ﴿نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ﴾ بالنون فيهما.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: نحن نتولاك ولا نتولاهم، فبينوا

(١) تفسير البيضاوي: ٥/ ١٦٦.

بهذه الموالاة براءتهم من الرضا بعبادة المشركين لهم، فمن كان موالياً لله تعالى وحده فهو بريءٌ من كل مظاهر الشرك وأنواعه.

﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أي: بل كانوا يعبدون الشياطين؛ حيث أطاعوهم وتأثروا بوساوسهم وإغوائهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: ففي هذا اليوم لا يملك أحدٌ منفعة ولا مضرة لأحد، إذ الأمر يوم القيامة لله تعالى وحده.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: ونقول للذين وضعوا عبادتهم وطاعتهم في غير موضعها: ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون.

* * *

حيرة واضطراب

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

فلا سبيل لتصحيح مسيرة البشر على هذه الأرض إلا بعودتهم إلى الرسالات الإلٰهية، التي ختمها تعالى برسالة النبي عليه الصلاة والسلام، فمن دونها يقع الاضطراب، ويعم الشقاء، ولقد اهتمت آيات السورة بإبراز هذا المعنى من خلال حديثها عن مواقف المعارضين لدعوته عليه الصلاة والسلام، فعندما كان يتلو عليهم آيات التنزيل الحكيم، كانوا يشيرون إليه قائلين:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: يريد أن يصرفكم عما كان يعبد آباؤكم.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: عن القرآن الكريم.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: ما هذا إلا كذب مختلق.

ثم أنكروا أمر النبوة كله ووصفوه بأنه سحر:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: قالوا ذلك من غير تدبر ولا تأمل.

وأظهرت الآية ما في أقوالهم من تناقضٍ وتهافتٍ من خلال تكرير فعل القول، مما يدل على حيرتهم واضطراب مواقفهم، فليس لهم أي دليل سمعي أو عقلي يؤيدهم:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: ما أعطيناهم كتباً يحتجون بها على صحة شركهم وكفرهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي: وما أرسلنا إليهم قبلك نذيراً يدعوهم إلى الشرك، ويتوعدهم على تركه.

ثم توعدهم سبحانه بسُنَّة من سننه في إهلاك الأمم المكذبة قبلهم:

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: ما بلغ مشركو مكة

معشار ما آتينا المكذبين قبلهم من طول الأعمار، وقوة الأجسام، وكثرة الأموال، ولقد أهلكهم الله لما كذَّبوا الرسل، وهي سُنَّة من سننه الماضية في الأمم قبلهم.

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِىۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم بتدميرهم وإهلاكهم، فليحذر هؤلاء المعارضون لدعوة الرسول ﷺ أن يكون مصيرهم مثل هذا المصير.

وأفاد جعلُ التدمير إنكاراً، وتنزيل الفعل منزلة القول، تشديداً في الوعيد ومبالغة فيه.

ويمكن أن يكون المراد من قوله: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: ما بلغ الذين من قبلهم معشار ما آتينا قوم محمد ﷺ من البيان والبرهان، وذلك لأنَّ الكتاب الذي أنزل عليه أكمل من سائر الكتب وأوضح، ومحمد عليه الصلاة والسلام أفضل من جميع الرسل وأنصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، ثم إن المتقدمين لما كذَّبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل، أنكر عليهم، فكيف لا ينكر على من كذبوا بأفصح الرسل وأوضح السبل(١).

* * *

دعوة إلى التفكير الهادئ

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

ومرة ثانية دعتهم الآيات إلى التفكير بإنصاف وروية وموضوعية في أمر النبي عليه الصلاة والسلام، لكي يعرفوا حقيقته، و يتبينوا صدقه:

---

(١) تفسير الرازي «مفاتيح الغيب»: ٢٦/٢٦٨.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: إنما أدعوكم لخصلة واحدة، إن فعلتموها أصبتم الحق، وتخلصتم من الباطل، وهي:

﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: أن تقوموا لوجه الله خالصاً لا لحمية ولا لعصبية، بل لطلب الحق، متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، فإن الاجتماعَ والازدحامَ يشوِّشُ الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من رؤية الحقيقة، إذ يقل معه الإنصاف، ويثير دواعي التعصب، أما التفكير الهادئ المتزن بانفراد أو بحضور شخص واحد فقط، فإنه يساعد على معرفة الحقيقة، والإذعان لها، فإنَّ الإنسانَ شديدُ التأثر بما يحيط به، وكثيراً ما يقع في شرك ما حوله من أضاليل وأباطيل.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: ثم تتفكروا بإخلاص وتجرُّد، فتعلموا حقيقة محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه نبي نذير صادق، لا جنون فيه كما زعموا.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ما هو إلا نذير صادق يحذركم من عذاب شديد إن لم تؤمنوا به و تصدقوا برسالته.

وأنه أيضاً منزه عن أي نفع دنيوي وكسب مادي، فدعوته خالصة لله تعالى، ولا شك أن هذا من أدلة صدقه، ولهذا أُمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي مسألة الأجر من الأساس، كما تقول: ما لي في هذا فهو لك، أي ليس لي فيه شيء.

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: وهو رقيبٌ وحافظٌ على كل

شيء ويعلم أني لا أطلب الأجر منكم، بل أطلبه من الله الذي أرسلني، ومن طلب أجره من الله زهد بما عند الناس.

* * *

جاء الحق وزهق الباطل

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يلقي الحق على من يشاء من عباده ليزهق به الباطل فيبطله ويدمغه، فمن يقفُ للحق الذي يقذف به الله تعالى؟!.

وهذا وعدٌ بإظهار الإسلام وتمكينه وتأييده ونصره، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي: المحيط علمه بجميع الغيوب، وهو جمعُ غيبٍ، وهو الذي غاب وخفي خفاء كبيراً، فالله سبحانه لا يخفى عليه شيء، وهو يقذف عن علم، ولا يخفى عليه هدفٌ، أو هو تعالى يعلم عواقب الأمور، ومراتب الاستحقاق، فيعطي على حسب ذلك.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: قل جاء الحق، وزهق الباطل بمجيئه واضمحل، فلا قدرة له على مواجهة الحق.

ولنتذكر أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام لما أُمِرَ أن يقول لهم هذا، كان في أوج مواجهته للشرك والمشركين، فكم في هذه الآية من تثبيت له عليه الصلاة

والسلام وتأييد وتبشير، ولقد تحقق ذلك لما دخل عليه الصلاة والسلام المسجد الحرام يوم فتح مكة، وكانت الأصنام منصوبة حول الكعبة، وجعل يطعن الصنم منها ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] فتتنكس الأصنام وتتحطم.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لم يبقَ للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة[١].

وصدق ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فمنذ جاء القرآن الكريم استقر منهج الحق واتضح، ومهما يقع من غلبة مادية للباطل في بعض الأحوال والظروف، فهي ليست غلبة على الحق، إنما هي غلبة على المنتمين إلى الحق، وهي موقوتة زائلة[٢].

فالحقُ واضحٌ أبلجُ، ولا عذر لمن ضل عنه، وضلاله نابع من نفسه:

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: إن وبال ضلالي على نفسي، لأن أسباب الضلال نابعة منها.

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ أي: وإن وفِّقْتُ إلى معرفة الحق و اتباعه، فبتسديد من الله تعالى وتوفيقه.

وهذا يدل على كثرة أسباب الضلال وقوتها، وشدة تأثيرها على الإنسان، كما تدل على شدة حاجة الإنسان إلى وحي الله تعالى وإرسال الرسل، فلا يستغني الإنسان بحال من الأحوال عن رسالة المرسلين.

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يسمع أقوال المهتدين والضالِّين، ويعلم أحوالهم وشدة حاجتهم إلى وحيه ورسالة رسله.

* * *

إيمـان البأس

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾

وفي ختام السورة توجهت الآيات بهذا الخطاب، ذي الأسلوب المتميز إلى النبي ﷺ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ أي: ولو ترى يا حامل الرسالة فزعهم عند خروجهم من قبورهم لرأيت أمراً عظيماً وهولاً فظيعاً، فلا مهربَ لهم منه ولا نجاة. وحذفَ جواب (لو) تعظيماً له.

وقد أكدت الآية مضمون ما سبق في أول السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨﴾.

﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ فحيث ما كانوا فإنهم من الله قريبٌ، فلا نجاة لهم من قبضة قدرته جل وعلا.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: آمنا بالحق الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، وهو إيمان اليأس أو البأس الذي جاء في غير أوانه، فلا يقبله الله منهم.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: وكيف يتناولون الإيمان وهم بعيدون عنه؟! فقد كان الإيمان في الدنيا قريباً منهم فأعرضوا عنه وكفروا به.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

فحالهم كحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد، فلا شك أن رميته غير موفقة ولا مسددة، ولن تصيب هدفها.

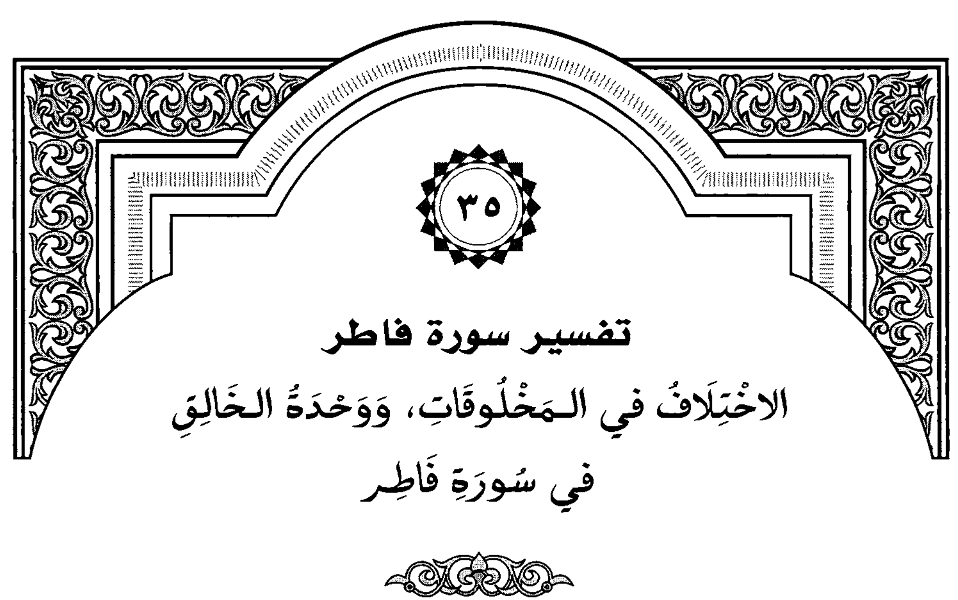
﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ أي: حيل بينهم وبين ما يشتهون من الرجوع إلى الدنيا، كما فُعل بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم السالفة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ أي: كانوا في شك قوي من أمر الرسول ﷺ ومن يوم الحساب والجزاء، وهاهم اليوم في يقين بعد هذا الشك المريب.

وكأنَّ الآية أشارت إلى ما صدر منهم من أقوال سبقت في أول السورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ . . .﴾ [سبأ: ٣]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].





٣٥

تفسير سورة فاطر

الاخْتِلَافُ فِي الـمَخْلُوقَاتِ، وَوَحْدَةُ الخَالِقِ فِي سُورَةِ فَاطِر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنه من الأدلة الدالة على كمال قدرته تعالى؛ وطلاقة مشيئته، الاختلافُ في أشكال المخلوقات وأجناسها وأنواعها وألوانها وخصائصها... إلخ، مع ما بينها من تعاون واتصال، وما يحكمها من سُنَن كونية، ويستوي في ذلك الاختلاف في المخلوقات الخفيَّة كالملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

والمخلوقات الظاهرة كالأحياء الذين يعيشون على الأرض: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ الآية [فاطر: ١١].

وكالبحار العذبة والمالحة: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ الآية [فاطر: ١٢].

وكالاختلاف في الليل والنهار: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ الآية [فاطر: ١٣].

وكالاختلاف في الثمار والجبال والدواب: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر].

ومهما تنوعت أشكال المخلوقات، واختلفت أجناسها وألوانها، فكلُّها فقيرة إلى الله تعالى في إيجادها وإمدادها: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

فسبحان الذي خلق الخَلْق على ما أراد للدلالة على كمال قدرته، وطلاقة مشيئته، وباهر حكمته.

وتظهر ظاهرة الاختلاف أيضاً عند المكلفين لتدل على أنَّ لهم اختياراً وكسباً، وهو أساسُ مسؤوليتهم يوم الحساب والجزاء: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقدَّر سبحانه بحكمته ورحمته تأخيرهم إلى أجلٍ مسمًّى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ [فاطر: ٤٥].

تلك هي الأفكار الأساس لموضوع السورة الذي يؤكد وحدة الخالق وكمال قدرته وطلاقة مشيئته وباهر حكمته.

أسأله تعالى أن ينوِّر قلوبنا بنور معرفته وأن يغفر لنا ذنوبنا، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

۞ ۞ ۞

تفسير سورة فاطر
الاخْتِلَافُ فِي الـمَخْلُوقَاتِ، وَوَحْدَةُ الخَالِقِ
فِي سُورَةِ فَاطِر

الاختلاف في أجنحة الملائكة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

بدأت سورة فاطر (وتسمى أيضاً سورة الملائكة) كما بدأت سورة سبأ بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ وهي السورة الخامسة التي لها البداية نفسها.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: موجد السماوات والأرض على غير مثال سبق.

فالفطر: الإبداع، أخرج عبد بن حميد والبيهقي في «شُعَب الإيمان» وغيرهما: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض،

حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يعني ابتدأتها[١].

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: جاعل الملائكة وسائط يبلغون الرسالة إلى أنبيائه. أو: جاعلهم وسائط يوصلون إلى خلقه آثار قدرته.

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ أي: ذوي أجنحة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، بالمعنى المعروف للجناح عند العرب، بيدَ أنَّا لا نعرف حقيقته وكيفيته، فما ذكر في الآية يدل على الكثرة والتفاوت.

وقد أخرج البخاري [٤٨٥٦] ومسلم [١٧٤] والترمذي [٣٢٧٧]: عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم]: رأى جبريل له ستمئة جناح.

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: يزيد سبحانه في أي خلق كان كل ما يشاء أن يزيده، فاختلاف الملائكة في عدد الأجنحة منوطٌ بمشيئته تعالى.

ولهذا قرر في ختام الآية شمول قدرته لجميع الأشياء فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾.

ثم بيَّن سبحانه كمال قدرته، وطلاقة مشيئته، في جميع المخلوقات الظاهرة والخفية، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، واختلاف جميع المخلوقات في الخصائص والصفات منوط بمشيئته وحده وحكمته:

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾ أي: ما يُطلق ويُرسل من رحمته فلا أحد يقدر على منعها وإمساكها.

---

(١) روح المعاني: ٢٢/ ١٦١.

والفتح: كناية عن العطاء، يدل على أنّ الرحمة من أنفس الخزائن وأعزها، وأفاد تنكير (رحمة) العموم، أي: أيُّ رحمة كانت من صحَّةٍ ورزق وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به، حتى إن عروة بن الزبير كان يقول في ركوب المحمل: هي والله رحمة فتحت للناس. وماذا يقول ﷺ لو أدرك زماننا ورأى السيارات والطائرات وغيرها من وسائل النقل الحديثة، فما أعظم رحمة الله تعالى بنا!.

وذكر بعضهم أن المطر والتوبة من الرحمة، والمراد التمثيل، فإن رحمته تعالى لا تُعد ولا تُحصى، ونعمه من آثار رحمته، وهي كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: وأي شيء يمسكه تعالى فلا أحد يقدر على إرساله من بعد منعه وإمساكه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور، والذي يفعل كل ما يفعل حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وفي الآية دعوة إلى الانقطاع التام إلى الله تعالى، والإعراض عمَّا سِواه ﷻ، وإراحة البال عن التخيُّلات الموجبة للتهويش وسهر الليالي.

وقد أخرج ابن المنذر: عن ابن عبد قيس، قال: أربع آيات من كتاب الله تعالى إذا قرأتُهُنَّ، فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي:

- ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].
- ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].
- ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦][1].

* * *

تحذير وتثبيت

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

ثم توجهت الآيات تنادي كل الناس، مذكرة لهم بنعمه تعالى التي لا تُحصى، داعية لهم إلى توحيده وإفراده بالعبادة، فكما أنه تعالى المستقل بالإيجاد والإمداد والخلق والتدبير، فهو وحده المستحق للعبادة والطاعة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: راعوها و احفظوها بمعرفة حقها، وحقها تخصيص العبادة والطاعة بمولاها وخالقها.

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟! أي: لا خالق إلا الله تعالى

---

(١) روح المعاني: ٢٢/ ١٦٥.

يرزقكم بما ينزل عليكم من جهة السماء كالمطر، وما يخرج لكم من الأرض كالنبات.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو جل وعلا، فمن أي وَجْهٍ تصرفون عن التوحيد إلى الشرك بعد هذا البيان ووضوح هذا البرهان.

والقوم لم ينصرفوا عن عبادة الله إلا عناداً وجحوداً، ولهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تواسيه عمَّا يلقى من عنادهم وجحودهم:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

أي: لك أسوة فيمن سلف قبلك من الرسل، فقد جاؤوا أقوامهم بالبينات، ودعوهم إلى التوحيد، فكذبوهم، وأعرضوا عنهم، وسيجزيهم الله على تكذيبهم أوفر الجزاء وأعدله، لأن مرجع الأمور كلها إلى حكمه ومشيئته.

وتنكير ﴿رُسُلٌ﴾ للتعظيم والتكثير الموجبين لمزيد التسلية والحث على التأسي والصبر على ما أصابه عليه الصلاة والسلام من قومه.

ثم حذَّرت الآيات الناس من الاغترار بالدنيا، والتأثر بوساوس الشيطان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إن وعد الله في الحساب والجزاء حق، فلا تخدعنكم الدنيا بلذَّتها وما فيها عن عمل الآخرة والسعي لها.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: ولا يخدعنكم الشيطان بعفو الله تعالى ومغفرته، فيصرفكم عن طاعته وعبادته، فإنه يمنيكم الأماني الكاذبة فاحذروه على دينكم.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: عاملوه معاملة العدو، وكونوا على حذر منه في جميع أحوالكم وأعمالكم.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: إنما يدعو أشياعه وأولياءه ليكونوا من المعذَّبين معه في جهنم.

ثم بيَّنت الآيات أن الأمر كله مبني على الإيمان وتركه، وليس مبنيّاً على وساوس الشيطان و نزغاته، فليس للشيطان تسلط إكراه على أحد:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

وتساءلت الآيات تقريراً لهذا المعنى وتأكيداً له:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: أفمن زين له سوء عمله بتغلُّب هواه على عقله، فرأى الباطل حقّاً، والقبيح حسناً، كمن لم يُزيَّن له، بل وفِّقَ إلى معرفة الحق واتِّباعه؟ وحذف الجواب لدلالة سياق الكلام عليه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: فإن الله يضل من يشاء ممن علم استحقاقه للإضلال، ويهدي من يشاء ممن علم أنه أهل للهداية، وقد أكد تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ومنها أيضاً: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

فالله عليم بأحوال خلقه، وشأن الإضلال والهداية منوط بمشيئته تعالى.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي: لا تغتم ولا تحزن بسبب إصرارهم على الكفر، فإن أمر الهداية والإضلال لله تعالى وحده، وهو القائل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

والآية تشير إلى حالة يعاني منها الدعاة كلَّما أخلصوا في دعوتهم، وأدركوا قيمتها وجمالها وما فيها من الخير، ورأوا الناس في الوقت ذاته يصُدُّون عنها

ويعرضون، ولا يرون ما فيها من الخير والجمال، ولا يستمتعون بما فيها من الحق والكمال، فعلى الدعاة أن يدركوا هذه الحقيقة التي واسى بها الله سبحانه رسوله ﷺ، فيبلِّغوا دعوتهم باذلين فيها أقصى الجهد، ثم لا يأسوا بعد ذلك على من لم يقدر له الله الصلاح والفلاح.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم على سوء عملهم وكسبهم.

ثم وصفت الآيات صورة من الصور البديعة الدالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وتدبير أمر مخلوقاته:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: الله هو الذي يرسل الرياح، فتحمل السحاب، وتسوقه وتجيء به، ودل اختلاف الأفعال على استمرار حدوث الظاهرة.

﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: أحيينا بالمطر النازل الأرض التي كانت يابسة هامدة، وعدل بالأفعال عن لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم للدلالة على اختصاص هذه الأفعال بقدرته تعالى.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: مثل إحياء الأرض الموات نشور الأموات وبعثهم من قبورهم ليوم الحساب والجزاء.

* * *

العزة لله تعالى

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

وبعد أن عرضت الآيات هذه الصور البديعة الدالة على كمال قدرته تعالى

وباهر حكمته، رسمت لذوي الأقدار الرفيعة والهمم العالية الذين تتطلع نفوسهم إلى القوة والمنعة، طريق الوصول إلى ذلك:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي: من كان يريد الشرف والمنعة فإن العزة كلها مختصة بالله سبحانه، فليطلبها منه، فمن طلبها من الله بصدق وافتقار وخضوع وجدها عنده غير ممنوعة ولا محجوبة، كما قال النبي ﷺ: «**ما تواضعَ أحدٌ للهِ إلا رفعه الله**» [رواه مسلم (٢٥٨٨)].

ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده، وقد ذكر سبحانه قوماً طلبوا العزة من سواه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

فأنبأك نبأً صريحاً لا إشكال فيه أن العزة له، يعزُّ بها من يشاء، ويذل من يشاء[1].

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فمن اعتز بالله أعزَّه الله، ومن اعتز بغيره أذله، ففي الآية دعوة إلى طاعته تعالى وعبادته وحده، فمن كان يريد العزة فليطلبها من الله بطاعته، وهو ما بيَّنه بعد ذلك بقوله:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ فالكلم الطيبُ: التوحيد، والعمل الصالح هو العمل الموافق لشرعه تعالى، وصعودهما إليه مجازٌ عن قبوله إياهما، والضمير المقدر في **(يرفعه)** يعود على الكلم الطيب، فإنَّ العمل لا يقبل إلا بالتوحيد[2].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/٣٢٨.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي: ٥/١٧٨.

فالتوحيد هو الأصل، والعمل فرع عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم].

وأما العمل السيئ المخالف لدين الله فلا يؤدي بصاحبه إلا إلى الذل والهوان:

﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: وعملهم ضائع هالك.

* * *

الحياة أنفاس

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

ثم أكدت الآيات أن العزة لله تعالى ببيان كمال قدرته وعلمه وطلاقة مشيئته في داخل النفس البشرية وفي كيفية خلقها والأطوار المقدرة لها في حياتها، والاختلاف في الأصناف والهيئات والأعمال:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: والله خلقكم ابتداءً من تراب في ضمن خلق آدم منه.

أو: خلق أجسادكم من تراب، فالمني يستخلص من الدم، وهو مستمد من الأغذية التي يتناولها الإنسان وهو من التراب.

ولعل المعنى الثاني هو الأظهر كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقناكم من نطفة، وهو الماء القليل كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: ثم جعلكم أصنافاً ذكراناً وإناثاً.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ فأحوالُ الأجنَّة في بطون أمهاتها معلومة لله تعالى من بداية تكوينها إلى ولادتها كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

والنص مطلق يتجاوز إناث الإنسان إلى إناث الحيوان والطيور والأسماك والزواحف والحشرات وسواها مما نعلمه ولا نعلمه... وتصوير علم الله المطلق على هذا النحو العجيب ليس من طبيعة الذهن البشري أن يتجه إليه لا في التصوير ولا في التعبير، فهو بذاته دليل على أن الله هو منزل هذا القرآن[١].

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: وما يمدُّ في عمر أحدٍ، وسمي معمَّراً باعتبار ما يؤول إليه، ولا يذهب من عمره بما يمرُّ منه وينقضي إلا في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، أو الصحيفة التي تكتبها الملائكة، والتي ذكرت في الحديث الشريف الذي قال فيه النبي ﷺ: «**يدخلُ الملكُ على النطفةِ بعدَما تستقرُّ في الرحمِ بأربعينَ أو خمس وأربعين ليلةً، فيقولُ: يا ربِّ أشقيٌّ أم سعيدٌ؟ فيكتبانِ، فيقول: أيْ ربِّي أذكرٌ أو أنثى؟ فيكتبانِ، ويُكْتَبُ عملُه وأثرُه وأجلُه ورزقُه، ثم تُطْوَى الصحفُ، فلا يزادُ فيها ولا يُنْقَصُ**» [رواه مسلم (٢٦٤٤)].

فحياة كل مخلوق محدودة ومقدَّرة وهي في نقص كما قال القائل:

حياتُكَ أنفاسٌ تُعَدُّ فكلَّما مَضَى نَفَسٌ منها نَقَصَتْ بهِ جُزْءا

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن كل ما سبق ذكره في الآية من خلق وتدبير يسيرٌ على الله جل شأنه.

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٣٢.

البحران عذب ومالح

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن
قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ
بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

ثم أضافت الآيات بيان بعض الظواهر الكونية الآفاقية الدالة أيضاً على كمال قدرته تعالى وحكمته وطلاقة مشيئته، مع ما فيها من اختلاف:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: وما يستوي البحران المالح و العذب في الخصائص والصفات؛ أحدهما شديد العذوبة، يكسر العطش، ويسهل شرابه، فيجري في حلوق الشاربين بيُسرٍ وسهولة. والثاني شديد الملوحة، ومع ذلك ففيهما منافع كثيرة للناس.

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان، ومن المعروف أن اللؤلؤ يستخرج من البحار قرب مصبات الأنهار، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ومن المعلوم أن المياه العذبة تنصب في البحار المالحة فيكون الإخراج منهما جميعاً.

ومن منافعهما أيضاً الملاحة البحرية:

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: وترى السفن تشق الماء بسيرها فيه طلباً للرزق كالتجارة والصيد.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على هذه النعم بطاعته وعبادته والاعتراف بفضله.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل حسب نظام دقيق بديع يدل على كمال قدرته وحكمته.

فالاختلاف في الليل والنهار والشمس والقمر من الظواهر الكونية المشاهدة.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ أي: وسخَّر لفائدتكم الشمس والقمر يجريان حسب نظام دقيق محكم إلى وقت معلوم، يدل على وحدة الخالق المبدع وكمال حكمته وسلطانه.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ﴾ أي: خالقُ ومدبرُ هذه المكونات هو الله، له وحده الملك.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي: والآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله ما يملكون شيئاً ولو كان مقدار **قطميرٍ**: وهو الغشاء الرقيق الذي يحيط بنواة التمر.

وهي أيضاً عاجزة لا تجلب نفعاً ولا ضرراً:

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لكونهم حجارة جامدة.

أو: لا يسمعوه سماع إجابة لعجزهم، ولهذا قال بعد ذلك:
﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لعدم قدرتهم وعجزهم.

أو: لو سمعوا لم ينفعوكم، وقيل: لو جعلنا لهم عقولاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولَمَا استجابوا لكم على الكفر[(١)].

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرؤون منه ويقرُّون ببطلانه.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: الخبير هو الذي يخبر بحقيقة الأمر، والله هو العليم الخبير.

* * *

الفقراء إلى الله تعالى

﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

وبعد أن قررت الآيات هذه الحقيقة، وهي أن الخلق والتدبير لله تعالى وحده، وجهت مرة ثانية نداءها إلى الناس جميعاً:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

أي: أنتم محتاجون إلى الله في كل شيء والله هو الغني على الإطلاق، فلا تضره معصيتكم، ولا تنفعه طاعتكم، وهو المنعم المتفضل المحمود على إحسانه ونعمه.

وتعريف ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ للمبالغة في فقرهم، فإنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، أو إن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به[(٢)].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٣٣٦.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥/ ١٨١.

فالإنسان أشد المخلوقات افتقاراً إلى الله ﷻ، ألا ترى إلى طول طفولته وكثرة احتياجاته وتشابكها وتعقدها.

ومما يؤكد كمال غناه ﷻ أنه غني أيضاً عن وجودهم:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

فوجودهم غير لازمٍ، بل هو منوط بمشيئته، فوجودكم لا ينفعه، وعدمكم لا يضره، كما قال هود عليه السلام لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧].

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ممتنع، فلا يصعب عليه سبحانه، فإن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن؛ فيكون.

إن الناس بحاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة في معرض دعوتهم إلى الإيمان بالله، ليعرفوا فضله عليهم، وهم أيضاً بحاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة، حتى لا يغتروا بأنفسهم وحياتهم، فالغرور من أكبر أسباب الضلال الذي حذَّرتهم الآيات الكريمة منه في صدر السورة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

وبهذا يظهر لنا التناسق والاحتباك بين هذين النداءين الموجهين للناس في السورة.

* * *

المسؤولية الشخصية والاختلاف فيها

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

وهم أيضاً محتاجون ـ دفعاً للغرور عن أنفسهم ـ إلى تذكيرهم بمسؤوليتهم الشخصية يوم القيامة عن أعمالهم وكسبهم، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، فالنفوس الوازرات لا ترى واحدة منهن إلا حاملة وزرها، لا وزر غيرها، فكل نفسٍ وازرة مهمومة بهمِّ وزرها، متحيرة في أمرها.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي: ويوم القيامة إن تدع نفسٌ مثقلة بذنوبها غيرها ليحمل عنها شيئاً من ذنوبها، لا يستجيب لدعوتها أحدٌ، ولو كان المدعو أقرب الناس إليها، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

وقال أيضاً: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج].

وهذا لا يتنافى مع ما مرَّ معنا في **سورة العنكبوت** [١٣]: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، فإنه في رؤوس الضلال وقادته الضالين المضلين، فإنهم يحملون آثام ضلالهم وإضلالهم.

وأشارت الآية إلى أن أحداً لا يحمل عن أحد شيئاً ابتداء، ولا بعد السؤال يوم القيامة، وفي هذا تأكيد لثقل المسؤولية وأنها شخصية فردية، وأنهم مختلفون في مقدارها حسب اختلافهم في أعمالهم وسلوكهم.

ومع ذلك أعرض المعاندون عن دعوة القرآن الكريم، ولم تقشعر منه جلودهم، وترق له قلوبهم، فما أشد قسوتها! وما أعظمَ الفرق بين هؤلاء المعاندين المعرضين، وبين المؤمنين الخاشعين الذين اتجهت الآية إلى الثناء عليهم وهي تخاطب النبي ﷺ وكأنها تواسيه بهم عن إعراض المعاندين الجاحدين! فقد كان النبي ﷺ يتأثر من جحودهم وإعراضهم حتى قال الله له كما مرَّ معنا في السورة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

فإن أعرض هؤلاء عنك فثمة من يستجيب لك من المؤمنين الخاشعين:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: إنما يتعظ بهذه المواعظ والزواجر وينتفع بها الذين يخشون ربهم في خلوتهم، حيث لا يراهم أحد إلا الله تعالى، وهذا يدل على صدق إيمانهم وإخلاصهم، أو يخشون ربهم ولم يروه، لعلمهم أنه تعالى يراهم، وهذا يدل على وصولهم إلى مقام الإحسان، كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**» [رواه مسلم (٨)].

وقد أثنى سبحانه عليهم في آيات كثيرة منها قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ ذكر هذين المعنيين في صنفين من أصناف المؤمنين الذين يكونون يوم القيامة آمنين من أهواله في قوله ﷺ: «**سبعةٌ يظلُّهم الله في ظله... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**» [رواه مسلم (١٠٣١)].

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدوا الصلاة على الوجه المستقيم كما ينبغي، وجعلوها مناراً منصوباً، وعلماً مرفوعاً، لأنها عمود الدين.

وأشار اختلاف صيغة الفعلين (**يخشون**) و(**أقاموا**) إلى استمرارهم وبقائهم في كل أوقاتهم على خشية الله تعالى وتعظيمه ومراقبته، فإقامة الصلاة في أوقاتها، وأما خشيته تعالى ومراقبته ففي جميع الأوقات والأحوال.

وعادت الآيات تؤكِّد كمال غنى الله تعالى وأنه لا تنفعه طاعتهم فقالت:

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: ومن تطهَّر بفعل الطاعات وترك المعاصي فإنما يتزكى لنفع نفسه، فهو المنتفع بعبادة ربه وطاعته، والله غني عن طاعته وعبادته، لا تضره معصية، ولا تنفعه طاعة، كما جاء في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**» [رواه مسلم (٢٥٧٧)].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إلى الله المرجع يوم القيامة فيثيبهم على تزكية نفوسهم، فَنَفعها عائد عليهم في الدنيا والآخرة.

ودلت الآية على أن خشية الله تعالى في السرِّ والعلن، وإقام الصلاة، من أعظم أسباب تزكية النفس وتطهيرها من دنس المعاصي والآثام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

الاختلاف في السلوك والمصير

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

وعادت الآيات مرة ثانية إلى مواساة النبي ﷺ عما يلقى من عناد المشركين وجحودهم، فذكرت مثالين يشيران أيضاً إلى التفاوت والاختلاف بين الناس في السلوك والمصير:

ـ المثال الأول:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

أي: وما يستوي الأعمى عن رؤية بصائر الحق وأدلته الواضحة، والمؤمن الذي أبصر الحق، ورأى أدلته وبراهينه.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ولا تستوي أيضاً ظلمات الكفر وما فيه من شهوات وأهواء، ونور الإيمان ببراهينه الساطعة وحججه الواضحة.

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ولا يستوي الثواب ولا العقاب.

و(**الظل**) الثواب في ظلال الجنة، و(**الحرور**): العقاب في النار.

فإذا اختلفت البدايات اختلفت النهايات، والتسوية بين المتفاضلات مصادم للحق، وهي ظلم وجَوْر.

ويلاحظ الترتيب والاتفاق في الآيات بين الألفاظ والمعاني، فالكافر يعرض عن دعوة الرسول ﷺ كأنه أعمى لا يراها، بينما المؤمن يُقبل عليها لرؤيته لها، ويكون حال الكافر كحال من يتخبَّطُ في الظلمات، ويسير على غير هدًى، بينما يكون حال المؤمن حال من يرى النور، فلا يضل عن الطريق، ومصير كل منهما إما الثواب وإما العقاب؛ وهما الظل و الحرور.

ـ والمثال الثاني:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢)﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ أي: وما يستوي المؤمنون والكافرون، فالأحياء هم المؤمنون الذين أحيا الله قلوبهم بنور الإيمان، والأموات هم الكافرون الذين لم تسرِ في قلوبهم حياةُ الإيمان، ولم تتذوق حلاوته، فالإيمان حياة للقلوب، والكفر موتٌ لها كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: إن الله يسمع دعوتك من يشاء سماع إجابة، فينتفع بما يسمع، ويستجيب لها، وما أنت بمسمع سماعَ إجابة الأموات في القبور كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الروم].

فالمراد سماع الإجابة، فلا يتعارض ما في هذه الآية الكريمة مع ما ثبت عن النبي ﷺ أن الأموات يسمعون.

فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم،

فقام عليهم، فناداهم فقال: «**يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقّاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقّاً**» فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنَّى يجيبوا[1] وقد جُيِّفوا؟ قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما أنتم أسمعَ لما أقولُ منهم، ولكنَّهم لا يقدرون أن يجيبوا**» [رواه مسلم (٢٨٧٤)].

فالله سبحانه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه، فيهدي من يشاء هدايته، ويخذل من يشاء إضلاله، وأما أنت فخفي عليك أمرهم، فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ما أنت إلا نذير، فلا تحزن بسبب إعراضهم وعنادهم، فامضِ في تبليغ الرسالة مبشراً المؤمنين، ومنذراً المعرضين، فإنك على الحق الذي سار عليه جميع المرسلين.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: وما من أمة إلا مضى فيها نذير، ومع أن هؤلاء المرسلين قد أيدهم الله تعالى بالمعجزات الدالة على صدقهم، فقد كذبتهم أممهم، وأعرضوا عن دعوتهم، كما كذبك قومك، وعاندوا دعوتك، لا بسبب تقصير الرسل، ولا نقص في الدليل، فلا تبال بهم وبتكذيبهم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: جاءتهم رسلهم بالبينات الواضحة الدالة على صدقهم وبالصحف المنزلة

---

(١) وقوله: (يسمعوا، يجيبوا) من غير نون، هكذا وجدت في عامة النسخ المعتمدة؛ وهي لغة صحيحة وإن كانت قليلة الاستعمال.

عليهم كصحف إبراهيم، وبالكتاب المبيِّن للشرائع والأحكام كالتوراة والإنجيل.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: ثم عاقبت الذين كفروا فكيف كان إنكاري عليهم وتعذيبي لهم؟!.

وفي قراءة: (**فكيف كان نكيري**) في الوصل دون الوقوف عند ورش، وأثبتها يعقوب في الحالين[1].

* * *

الاختلاف في ألوان المكونات وجمالها

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ومن دلائل الحق التي أبصرها المؤمنون، وعميت عنها أبصار الكافرين، صور الجمال والانسجام والاتساق المبثوثة في المكونات مع ما بينها من اختلاف في الألوان:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾ وهي مع اختلاف ألوانها في غاية الانسجام والجمال.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٣٤٢.

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ ومن الجبال طرائق وشعاب بيض وحمر مختلف ألوانها.

والجدد: جمع جُدة بالضم وهي الطريقة، وقيل: الجدد: القطع، مأخوذة من جددت الشيء إذا قطعته، فيكون المعنى: ومن الجبال قطع مختلف ألوانها.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: ومن الجبال أيضاً غرابيب سود.

والغربيب: هو الذي أبعد في السواد، وأغرب فيه، وهو تأكيد للأسود، وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع، إلا أنه أضمر المؤكد قبله، والذي بعده تفسير للمضمر، وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد؛ حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار جميعاً(١).

ولا شك أن جمال المخلوقات يدل على وجود خالقها، وكمال حكمته ومشيئته لما فيه من دلالة على الإبداع والإحكام، وكثيراً ما نرى الآيات الكريمة تنبهنا إلى ظاهرة الجمال المبثوثة في المكونات كدليل على وجوده سبحانه ونعمته وفضله، كقوله سبحانه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل].

ولهذا قال أيضاً:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كاختلاف الثمار والجبال، فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من تمام الكلام والوقوف عليه حسن بإجماع أهل الأداء(٢).

وبعضهم رأى أن كلمة **(كذلك)** تشير إلى اختلاف أحوال العباد في

---

(١) تفسير النسفي: ٥/ ١١٥.

(٢) روح المعاني: ٢٢/ ١٩١.

الخشية، فقد أخرج ابن المنذر عن ابن جرير: أنه قال في الآية: كما اختلفت هذه الأنعام يختلف الناس في خشية الله تعالى كذلك. لكن الآلوسي في «**روح المعاني**» قال بعد ذلك: هذا عندي ضعيف، والأظهر ما عليه الجمهور(١).

ولكني أرى أن هذا الرأي يتفق مع الحقيقة والواقع أكثر؛ فالناس في خشية الله تعالى متفاوتون كما سيأتي.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي: إنما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به ﷻ، وبما يليق بصفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لِما أنَّ مدار الخشية معرفة المخشي والعلم بشؤونه، فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى له ﷻ، فكأن الآية تكملة لقوله تعالى السابق: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨] تبين من يخشاه ﷻ من الناس(٢).

و﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، فأفادت انتفاء العلم عمن لا يخشى الله.

وفي الحديث الشريف: أن النبيَّ ﷺ كان يقول: «**إنَّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**» [رواه البخاري (٢٠)].

وأفاد تقديم المفعول بيان الخاشعين، والإخبار بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، ولو أخِّر لكان المقصود بيان المخشي والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره كما في قوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

والمقام لا يقتضيه، بل يقتضي الأول، لكونه تعريضاً بالمنذَرين المصرِّين على الكفر، وأنهم جهلاء بالله تعالى وبصفاته، ولذلك لا يخشون الله تعالى، ولا يخافون عقابه(٣).

ويمكن أن تنسحب الآية أيضاً على العلماء ببعض ما في الكون من نظم ونواميس، فإن التفكير فيها بتجرد وإخلاص يملأ القلب خشية من الله تعالى

---

(١) المرجع السابق: ٢٢/١٩٦.
(٢) تفسير أبي مسعود: ٤/١٥١.
(٣) روح المعاني: ٢٢/١٩١.

الذي أبدعها وأحكمها، وقد حثتنا آيات كثيرة على التفكير والنظر في أسرار المكونات لكي نعرف قدرته وعظمته ﷻ، ويكفي أن نذكر منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

ورحم الله سيد قطب الذي شبَّه المخلوقات بكتاب كوني جميل، كلما قرأ الإنسان فيه ازداد خشية لله تعالى وتعظيماً فقال: «وهذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات، العجيب التكوين والتلوين، يفتحه القرآن، ويقلب صفحاته ويقول: إن العلماء الذين يتلونه ويدرسونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله.. يعرفونه بآثار صنعته، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه»(١).

ويَقْرُبُ من هذا المعنى قولُ ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: إنما يخافني مِنْ خلقي من علم جبروتي وعزَّتي وسلطاني(٢).

ولا شك أن رؤية أسرار الملكوت تملأ القلب خشية لله تعالى الذي أبدعها وأحكمها، وهو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «**عُرِضَتْ عليَّ الجنةُ والنارُ فلم أرَ كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**» [رواه مسلم (٢٣٥٩)].

وفي الحديث الشريف أيضاً: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أرى ما لاترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّتِ السماءُ، وحُقَّ أَنْ تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا وملكٌ واضعٌ جبهتُه لله ساجداً، واللهِ لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذَّذتم بالنساءِ على الفُرُشِ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، والله لوددت أني كنت شجرة تعضد**» [رواه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠). وقال الترمذي واللفظ له: هذا حديث حسن غريب. وأصله في الصحيحين مختصراً]. وقوله: «**أطت**»: صوتت من ثقل ما تحمل.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٥/٢٩٤٣.

(٢) تفسير الخازن: ٥/١٥٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي: إنه ﷻ أحق أن يُخشى، لأنه عزيز، وأحق أن يُرجى، لأنه غفور.

* * *

التجارة الرابحة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

ولا بد أن تظهر آثار خشيته تعالى في سلوك أصحابها، ومن أهم آثارها العملية ما ذكره سبحانه في معرض الثناء عليهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يداومون على قراءة القرآن الكريم، ويتبعون آياته علماً وعملاً.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: وتقرَّبوا إلى الله بالعبادات البدنية كإقامة الصلاة، والعبادات المالية بإنفاق المال في الوجوه المشروعة سرّاً وعلانية، فهم ينفقون كيف ما اتفق، سرّاً وعلانية من غير قصد إليهما.

وفي كون الإنفاق مما رزقوا إشارة إلى أنهم لم يسرفوا في الإنفاق، وكونه جاء في معرض المدح مشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب(١).

(١) روح المعاني: ٢٢/ ١٩٢.

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: يرجون تجارة لن تكسد ولن تخسر فهي تجارة رابحة مع الله. **والرجاء**: توقع حصول الثواب.

وفي إخباره تعالى عنهم بذلك إشارة إلى أنهم يتقربون إليه تعالى بأنواع الطاعات، وهم خائفون ألا تقبل منهم، وهي من صفات الصالحين الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون].

ثم بين سبحانه مدى ربح تجارتهم بما يتفضل عليهم من الأجر الكامل والفضل العظيم فقال:

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: ليعطيهم سبحانه أجورهم كاملة، ويزيدهم من فضله، فيغفر تقصيرهم في طاعته، ويتقبل عملهم القليل، ويجازيهم عليه الثواب الجزيل.

* * *

العباد المُصطَفون

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

والاختلاف في خشيته تعالى يؤدي إلى الاختلاف في طاعته وعبادته، وهو ما أبرزته آيات السورة، بعد أن مهدت له ببيان ما تفضل الله به على الأمة المسلمة بنعمة الاصطفاء والتكريم، لتحمل رسالة القرآن الكريم المنزلة على خاتم المرسلين:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)﴾.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فالقرآن الكريم الذي نزل به الوحي على الرسول الكريم ﷺ هو الحق المصدق لما تقدمه من الكتب الإلٰهية وكل ما يخالفه باطل.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: إن الله تعالى عالم بالبواطن والظواهر، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوحِ إليك مثل هذا الكتاب المعجز الشاهد والحاكم على جميع ما تقدمه من كتب، فهو كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولا يخفى ما في الآية من إشادة بالرسول ﷺ وتكريمه، فهو العَلَم الفرد المصطفى من بين سائر الخلق، لحمل رسالة الحق إلى جميع المكلفين من الخلق.

وكما اصطفى الله الرسول ﷺ لتلقي رسالة القرآن الكريم وحملها إلى الناس، اصطفى سبحانه أيضاً أمته لتحمل رسالة القرآن من بعده فقال:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: ثم أورثنا القرآن الكريم الأمة المسلمة التي اختارها الله تعالى من بين سائر الأمم، فجعلها أمة سيد الرسل ﷺ، وخصَّها بحمل أكرم الرسالات وأكملها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

بيَّن سبحانه أنه قدَّر وحكم أن تحمل الأمة المسلمة رسالة القرآن الكريم

عن نبيها ﷺ لأنه خاتم النبيين والمرسلين، فتوريث الكتاب لم يكن إلا لأمة محمد ﷺ، والأوائل لم يورّثوه. و﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ اخترنا وفضلنا[1].

- **التفاضل في حمل رسالة الإسلام:**

بيَّن سبحانه أنهم في حمل هذه الرسالة والقيام بتكاليفها متفاضلون ومختلفون:

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ أي: منهم ظالم لنفسه بتقصيره في حمل رسالة القرآن والعمل بها، فقد ظلم نفسه، وحرمها من شرف حمل رسالة القرآن الكريم والعمل بتكاليفها.

﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ أي: ومنهم متوسط، يعمل تارة لدينه وطاعة ربه، وينشغل تارة أخرى في العمل لشهواته ودنياه.

﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ومنهم متقدم على غيره في طريق الخيرات والأعمال الصالحات بتوفيق الله تعالى و تيسيره، فيصرف كل ما أوتي من وقت وجهد في طاعة ربه، وخدمة دينه، ونشر رسالته.

فالأقسام الثلاثة ـ كما قال ابن كثير ـ في هذه الأمة، والعلماء أغبطُ الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة؛ فإنهم كما روى كثير بن قيس قال: «قدِم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو بدمشق فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديثٌ بلغني أنك تحدثت به عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمْتَ لتجارة؟ قال: لا، قال: أما قدمْتَ لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ سلكَ طريقاً يطلبُ فيه علماً سلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها رضاً لطالب العلم، وإنَّه ليستغفرُ للعالم مَنْ في السماواتِ والأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضلُ العالمِ على العابدِ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماءَ هم ورثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ**

(١) المحرر الوجيز: ١٢/٢٤٧.

لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما ورَّثوا العلمَ، فمن أخذَ به أخذَ بحظٍّ وافرٍ» [رواه أبو داود (٣٦٤١ و٣٦٤٢) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وابن حبان (٨٨)].

وتشير كلمة (**سابق**) إلى صدق مشاعره وإخلاصه، وبذله أقصى ما يستطيع في تحصيل الخيرات والفوز بالدرجات كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ تنبيه على عزة الرتبة، وصعوبة التحقق بها، إلا لمن وفقه الله تعالى ويسرها عليه، فلا يستغني أرباب السلوك السائرون على طريق الحق عن معونته تعالى وتيسيره، وعليهم دائماً أن يتوجَّهوا إليه خاشعين ضارعين، يطلبون منه التوفيق والتسديد والثبات على الطريق كما في قوله الذي نردده في كل صلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة].

ومن الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ بعد كل صلاة: «**اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» [رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائي (٣/ ٥٣) وابن حبان (٢٣٤٥)].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الاصطفاء لتوريث الكتاب وحمل رسالة الإسلام فضل كبير من الله تعالى عليهم من غير سابقة استحقاق.

* * *

دار المقامة

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾.

وكما تفضَّل سبحانه عليهم في الدنيا بالهداية والاصطفاء ليكونوا من حملة الرسالة الإسلامية، يتفضَّل عليهم أيضاً يوم القيامة بالمغفرة ودخول الجنة:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ۝٣٣﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ وقرئ: ﴿جَنَّٰتِ﴾ بالنصب على الاشتغال، وفي تقديم جنات عدن وبناء الكلام عليها إيذان للاهتمام بها أكثر، فإن نظر السامع على المدخول فيه لا على نفس الدخول(١).

بينما قال في **سورة الحج**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤﴾.

ثم فصَّلت الآيات بعض أنواع النعيم في الجنة إظهاراً لفضله تعالى عليهم:

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ أي: يزيَّنون في الجنة بأساور الذهب واللؤلؤ، أو من ذهب مرصع باللؤلؤ، ونُصب عطفاً على محل **(من أساور)**، وقرئ **(لؤلؤٍ)** عطف على ذهب.

﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ أي: ولباسهم من حرير الجنة كما في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ [الكهف: ٣١].

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝٣٤﴾.

أي: الحمد لله الذي أذهب عنَّا وأراحنا مما كنَّا نخاف ونحذر من هموم الدنيا والآخرة، إن ربنا يغفر الكثير، ويُعطي الجزيل على العمل اليسير، وهو اعتراف منهم بتقصيرهم، وإقرار بفضله تعالى عليهم.

﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ۝٣٥﴾.

﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: الذي أنزلنا الجنة دار الإقامة الدائمة بفضله لا بأعمالنا، كما جاء في الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال:

---

(١) تفسير النيسابوري: ٢٢/ ٩٤.

«**ما مِنْ أحدٍ يُدْخِلُه عملُه الجنَّة**» فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني ربي برحمةٍ**» وفي رواية: «**وفضلٍ**» [رواه مسلم (١٨١٦)].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا يصيبنا فيها تعب ولا عناء، ولا يصيبنا فيها ما يتبعه من إعياء وفتور.

فالمراد نفي التعب الجسماني والنفساني، فلا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، بل صاروا في راحة دائمة مستمرة.

* * *

الإعذار في الأعمار

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

وكما عوَّدنا الله في القرآن الكريم انتقلت الآيات من وصف حال المنعَّمين في الجنة إلى وصف حال المعذبين في النار، فهو أسلوب رفيع من أساليب التربية والتهذيب في التنزيل الحكيم:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي: لا يحكم عليهم بموت فيستريحوا من عذاب جهنم، فهم من شدة العذاب يتمنون الموت

ويطلبونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل هم في زيادة مستمرة من العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: مثل هذا الجزاء نجزي كل مبالغ في الكفر مصرٍّ عليه حتى الموت، أو نجزي كل مبالغ بكفران النعم لا جزاء أخف وأدنى منه.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: وهم يصرخون مستغيثين بجهد ومشقة، وهذا يدل على كثرة صراخهم حتى تعبوا فصاروا يعانون ويتألمون منه ويقولون: ربنا أخرجنا من النار لنتلافى ما فاتنا من العمل الصالح. ويأتي الجواب باستفهام فيه توبيخ وتقرير وإفحام:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي: أولم نمهلكم حتى عشتم في الدنيا أعماراً يمكنكم فيها التفكر والتذكر والإيمان والعمل الصالح.

فالعمر حجة على صاحبه، وهو مسؤول عنه، وهو يتناول كل عمر يتمكن فيه المكلف من التفكر والتذكر مهما كان قصيراً، إلا أنَّ الحجةَ عليه أعظم، والتوبيخُ في حقه أشد في العمر المتطاول.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**أعذرَ الله إلى امرئٍ أخَّرَ أجلَه حتَّى بلَّغه ستين سنة**» [رواه البخاري (٦٤١٩)].

المعنى: أنه لم يبق له اعتذار، كأن يقول: لو مُدَّ لي في الأجلِ لفعلتُ ما أُمِرْتُ به، يقال: أَعْذَرَ إليه: إذا بلَّغه أقصى الغاية في العذر، ومكَّنه منه[(١)].

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ أي: وجاءكم الرسول ﷺ فأقام عليكم الحجة، وبيَّن

(١) فتح الباري: ١١/ ٢٤٠.

لكم طريق الهدى، وحذركم من الضلال، وقد يكون المراد جنس النذير، وهم الأنبياء عليهم السلام فكل نبي نذير أمته، ويؤيده أنه قُرئ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ جمعاً.

﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير يمنعهم من العذاب. والمراد **بالظلم**: الضلال والكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

فلا يخفى عليه سبحانه شيء في السماوات والأرض، ويعلم ما تُخفي الصدور، وما تنطوي عليه الضمائر، فهو سبحانه يعلم إصرار الكفار على كفرهم أبداً مهما عاشوا، ولهذا قدَّر خلودهم في العذاب، ويعلم سبحانه أيضاً أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر والعناد كما في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ثم بينت الآيات في مقابل هذا العذاب الشديد شناعة الكفر وشدة قبحه، وأن الناس مسؤولون عنه في جميع أجيالهم:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ﴾ أي: الله جعلكم أجيالاً، يخلف بعضكم بعضاً في الأرض، وملَّككم خيراتها، فمن جحد فضله تعالى فعليه وبال كفره لا على غيره، كما مرَّ معنا عند قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾ [فاطر: ١٨].

فلا يتحمل أحد أوزار أسلافه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: بُـغـضـاً أو أشـد الـبُـغـض والاحتقار، ومع زيادة البغض تزيد خسارتهم.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: إلا خسراناً وهلاكاً.

وأفاد التكرير في الآية بيان شدة قبح الكفر، ووجوب الحذر منه واجتنابه، فكل واحد من الأمرين ـ المقت والخسارة ـ يكفي للحذر منه، فكيف إذا ترتَّب عليه كلا الأمرين؟! وفي الآية إشارة لما سبق تقريره من كمال غنى الله تعالى، وأن كفر الكافرين لا يضره جل وعلا، فلا يعود وبال كفرهم إلا على أنفسهم.

* * *

الإيجاد والإمداد من الله وحده

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

ثم شنَّت الآيات حملة ثانية على المشركين وشركائهم بعد أن بينت قبح الكفر وعواقبه الوخيمة، وأمرت النبي ﷺ أن يقوم بها:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أخبروني عن شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله تعالى، أروني أي جزء خلقوا من الأرض؟ الأرض الممتلئة بالأجناس والأنواع والألوان التي سبق عرضها في الآيات!.

ولا يخفى ما في السؤال من تحدٍّ لهم ولآلهتهم، وتقرير لعجزها وضعفها.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: أم لهم شركة مع الله سبحانه في خلق السماوات، وهذا أعظم استحالة من الأول، فمن عجز عن خلق جزء من الأرض فهو عن خلق جزء من السماوات أعجز.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم آتيناهم كتاباً ينطق بأنا جعلناهم شركاء، فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب، وفي قراءة: **(على بينات)** فيكون إيماء إلى أنَّ الشرك خطير لا بد فيه من تعاضد الدلائل(١).

فالشرك لا يستند إلى أي دليل عقلي أو نقلي، ثم كشفت الآية بأسلوب الإضراب سبب ضلالهم وشركهم.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: ما حملهم على الشرك إلا تغرير الشيطان ورؤساء الضلال الذي سبق التحذير منه في صدر السورة عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

وكما أنه سبحانه وحده الخالق والمدبِّر لأمور المكونات كلها، فهو وحده الذي يُمِدُّها بالوجود والبقاء، فهو قيوم السماوات والأرض ﷻ:

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي: إن الله يمنع السماوات والأرض من أن تزولا، فبقاء المخلوقات كلها، واستمرار وجودها منوط بمشيئته وقدرته ﷻ، فهو وحده قيوم السماوات والأرض كما قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ أي: ولئن قدِّر زوالهما ما أمسكهما أحد غيره.

وفي كلمة ﴿يُمْسِكُ﴾ إشارة إلى أثر الشرك الكبير الخطير على بقاء

---

(١) البيضاوي: ٥/ ١٩٢.

المكونات واستمرار وجودها كما في قوله سبحانه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم].

فإنه تعالى ما أبدع هذه المخلوقات إلا ليعمرها المكلفون بطاعته وعبادته، وعندما لا يبقى أحد في الأرض يعبده ويذكره يقيم الله الساعة، كما في الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**» [رواه مسلم (١٤٨)].

فالإيجاد والإمداد من الله تعالى، ويتوالى عطاء الله على مخلوقاته ببركة من يعبده ويذكره.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فلولا حلمه وغفرانه لزالت السماوات والأرض.

* * *

اختلاف المواقف

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

ومن المفارقات العجيبة أن مشركي العرب كانوا قبل بعثة النبي ﷺ ينتقدون أهل الكتاب بسبب تكذيبهم لرسلهم، واختلافهم فيما بينهم، ويقولون: لو أتانا رسول كما أتاهم لنكونن أهدى منهم، فلما أرسل الله إليهم خاتم رسله ﷺ كفروا به، وكذبوه، وقد ذكَّرهم الله تعالى بتغير مواقفهم فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾.

أي: حلفوا بالله واجتهدوا في تأكيد أيمانهم لئن جاءهم نذير كما جاء الأمم قبلهم ليكونن أهدى منهم، فلمَّا جاءهم محمد ﷺ ما زادهم إنذاره إلا تباعداً عن الحق ونفوراً منه.

والجدير بالذكر أن الله سجَّل عليهم هذا التغير والتناقض في المواقف في **سورة الصافات** وهو قوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى سبب ضلالهم وتغير مواقفهم فقال:

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام لأجل الاستكبار في الأرض والمكر السيِّئ به عليه الصلاة والسلام، فالكِبْرُ والحسد أبرز أسباب ضلالهم وعنادهم.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: لا يحل ولا يحيط العمل القبيح إلا بأهله، كما ورد في المثل: من حفر لأخيه جُبّاً وقع فيها منْكَبّاً.

فالأمور بعواقبها، والله تعالى يمهل ولا يهمل، ووراء الدنيا الآخرة: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ومن مكر في غيره، ونفذ فيه المكرَ عاجلاً؛ ففي الظاهر هو الفائز، وفي الحقيقة الماكر هو الهالك.

وفي قوله: ﴿بِأَهْلِهِ﴾ دون أن يقول: إلا بالماكر؛ إشارة إلى أن من رضي

بالمكر وأعان عليه يندرج في زمرة أهل المكر[(١)]. أسأله تعالى أن يدفع عنا مكر الماكرين.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: ما ينتظرون إلا سنَّته تعالى بإهلاك المكذبين لرسلهم، وهي سُنَّة ثابتة، لا يغيرها ولا يحولها عن أوقاتها.

فالأمور لا تمضي في الناس جُزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً، فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول، والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلِّمها للناس، كي لا ينظروا إلى الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصلية، محصورة بين فترة قصيرة من الزمان وحيِّز محدود من المكان[(٢)].

وحتى يتأكدوا من هذه الحقيقة بأنفسهم دعتهم الآيات إلى الاعتبار بمصائر الأجيال قبلهم:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

فقد كان في الأمم قبل أهل مكة أكثر منهم قوة في العدد، فلم يمتنعوا من عذاب الله تعالى عندما نزل بهم، فلا يعجزه شيء في السماوات والأرض، إنه ﷻ كان ولا يزال عليماً بجميع المكونات وقادراً عليها.

وتأخير عقاب المكذبين لا يعني تغييراً في سنَّته تعالى أو تحويلاً، فهو سبحانه حليم غفور، والخلق والتدبير منوطان أبداً بمشيئته جل وعلا، ولهذا ختم السورة بتقرير هذه الحقيقة فقال:

---

(١) تفسير النيسابوري: ٤/ ١١٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٥٠.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: ولو يؤاخذ الله الناس بما يقترفون من المعاصي والآثام ما ترك على ظهر الأرض أحداً يدبُّ عليها، فشُؤم الكفر والفجور يعمُّ وينتشر، كما قال تعالى في **سورة النحل**: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقال هنا أيضاً:

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي: ولكن يؤخرهم ليوم الحساب أو إلى الأجل المقدر لإهلاكهم، فإذا جاء يوم الحساب فإن الله يجازي كل مكلف عن عمله كما سبق معنا عند قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وبهذا البيان الذي بيَّن الله فيه أنَّ الخلق وتدبير أمر المخلوقات من أصغرها إلى أكبرها يتم بمشيئته تعالى وحده، فجميعهم في قبضة قدرته جل وعلا، وتحت قهر مشيئته، سواء في ذلك المخلوقات الظاهرة والخفية؛ **خَتَم الله تعالى آيات السورة.**





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

ومَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ: أقسمَ الله تعالى في صدر سورة يسٓ بالقرآن الحكيم تأكيداً لصحةِ وصدقِ رسالةِ النبيِّ ﷺ وحاجة الناس الشديدة إليها، فهي مرقاةُ الوصول إلى الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، ومهما أعرضَ عنها المعرضون المعاندون فثمَّةَ مَنْ يستجيبُ لها: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يسٓ: ١١].

إن خطوات المستجيبين على طريق الوصول مكتوبة مأجورة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يسٓ: ١٢].

لقد أرسل الله تعالى ثلاثةَ مرسلين إلى مدينةٍ واحدةٍ فأعرضَ أهلها عنهم، ولم يستجبْ لهم إلا رجلٌ واحدٌ، وأرسل خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة في جميع الأقطار والأجيال، فاستجابَ لدعوته المؤيدة بالأدلة

والآيات الواصلون الفائزون من أصحاب الجنة الذين يقال لهم يوم القيامة: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يسٓ: ٥٨].

وأعرض عنه المعاندون من أتباع الشيطان وعُبَّاده الذين يُقال لهم يوم القيامة: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يسٓ: ٥٩].

أولئك الذين لم ينتفعوا بالدلائل والآيات البينات، فكانت قلوبهم ميتة لا حياة فيها: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يسٓ: ٧٠].

أسأله سبحانه أن يثبتنا على صراط رسوله المستقيم، وأن يجعلنا من الواصلين الفائزين: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢].

اللهم آمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.



تفسير سورة يسٓ

مَرْقَاةُ الوُصُولِ فِي سُورَةِ يسٓ

الرسول والساعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

﴿يسٓ ۝١﴾.

حرفان من الحروف المقطعة النورانية، وقد تقدَّمَ القول في هذه الحروف فيما سلف، ويشيرُ ما بعدها إلى أنَّ فيها خطاباً للنبي ﷺ، وقد ذكر القرطبيُّ عند تفسيره ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] أنَّ بعضهم قال في تفسيره ﴿يسٓ﴾: يا محمد، ثم قال: وهذا القولُ يَبْطُلُ من وجوهٍ كثيرة، **أحدها**: أنَّ سياق الكلام في آل ياسين كما هي في قصَّةِ إبراهيم ونوح وموسى وهارون، وأنَّ التسليم راجعٌ عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام...

فإنَّ ﴿يسٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ ونحو ذلك، القولُ فيها واحدٌ، إنَّما هي حروف مقطعة... وأيضاً فإنَّ ﴿يسٓ﴾ جاءت التلاوةُ فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسماً للنبيِّ ﷺ لقال: (يسنُ) بالضمِّ، كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

ويوحي ما للحرفين من جِرْسٍ ناعم خفيفٍ رقة الخطاب ولطفه وأنسه.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

وهو قسَمٌ مِنَ الله تعالى بالقرآن الحكيم المتضمن للحكمة، والمتصف بها، والناطق أيضاً لها.

أو: قسَم بالقرآن المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ولا شك أن القسم بالقرآن؛ ووصفَه بالحكيم؛ فيه تنويه بشأن الرسول ﷺ المقسم من أجله على أكمل وجه، دل على ذلك قوله تعالى في جواب القسم:

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾.

أي: إنك يا محمد لمن المرسلين الذين اصطفاهم الله تعالى لحمل رسالته، وقد أكد تعالى في هذا القسم صدق رسالته عليه الصلاة والسلام، وردَّ على منكريها الذين سبق في **سورة فاطر** بيان نفورهم وعنادهم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢﴾، ولم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له(١).

وفي تخصيص القرآن بالإقسام به أولاً؛ وبوصفه بالحكيم ثانياً؛ تنويه بشأنه؛ وتنبيه على أنه كما يشهد برسالته ﷺ من حيث نظمه المعجز المنطوي على بدائع الحكم، يشهد به من هذه الحيثية أيضاً(٢).

والجدير بالذكر أنَّ الله نصَّ على اتصافه عليه الصلاة والسلام بصفة الرسالة مع التصريح باسمه في عدد من الآيات؛ منها: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ الآية [الفتح: **٢٩**].

ومنها أيضاً قوله: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: **٢**].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٥.

(٢) تفسير أبي السعود: ٤/ ١٥٨.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾.

أي: إنَّك لمن المرسلين على منهج قويم ودين مستقيم؛ وهو دين الإسلام الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، كما أنه مرقاة الوصول إلى جنة الله تعالى ورضوانه، فهو الصراط المستقيم الذي علَّمنا ربنا أن نسأله أن يثبتنا عليه في كل صلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾.

أي: هذا القرآن تنزيل العزيز في ملكه، الرحيم في خلقه.

وقرئ: (**تنزيلَ**) بالنصب على المدح، أو على المصدرية للفعل المحذوف، وأيّاً كان فهو مصدرٌ بمعنى المفعول، عبَّر به عن القرآن بياناً لكمال عراقته في كونه منزلاً من عند الله ﷻ، وفي تخصيص الاسمين الكريمين المُعْرِبَيْنِ عن الغلبة التامة والرأفة العامة حَثٌّ على الإيمان به ترهيباً وترغيباً، وإشعاراً بأنه تنزيل ناشئ عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧][(١)].

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: لتنذر قوماً ـ وهم العرب كما قال ابنُ كثير رحمه الله ـ ما أُنذرَ آباؤهم الأدنون، وإلا فالأبعدون قد أنذرهم إسماعيل عليه السلام، وبلَّغهم شريعة إبراهيم عليه السلام.

وليس في الآية أنَّ النذارةَ للعرب خاصة، فالبشارة والنذارة عامة في رسالته عليه الصلاة والسلام كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/١٥٩.

ويمكن أن تنسحبَ الآيةُ على اليهود والنصارى أيضاً لأنَّ آباءهم القريبين من زمن بعثته عليه الصلاة والسلام لم ينذروا بعدما ضلوا، فجميعُ الأمم كانوا في أمسِّ الحاجة لبعثته عليه الصلاة والسلام.

﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: فهم غافلون عن يوم القيامة وما فيه من مسؤولية وجزاء، وغافلون أيضاً عن دعوة التوحيد والصراط المستقيم.

وهذه الغفلة تفسد القلوب وتعطلها، فالقلبُ الغافلُ قلبٌ معطل عن وظيفته، معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة، ومن ثَمَّ كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم، الذين مضت الأجيالُ دونَ أن ينذرَهم منذر أو ينبههم منبه(١).

* * *

عناد وجحود

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: والله لقد ثبت وتحقق عليهم قوله تعالى الذي قال للشيطان: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] لا بطريق الإجبار والإكراه، بل بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وإعراضهم عن التذكير والإنذار.

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٥٩.

فثبوتُ القول عليهم بسبب إصرارهم على الكفر، وتماديهم في اتباع خطوات الشيطان، ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بسبب إصرارهم على الكفر، وتماديهم في اتباع خطوات الشيطان، وجحودهم وعنادهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس].

ثم مثلت الآيات لإصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه بما يلي:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾.

أي: إنَّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ثقالاً غلاظاً بحيث تبلغُ إلى الأذقان، فلا يتمكنون معها من طأطأة رؤوسهم أو تحريكها، فهم مرفوعو الرؤوس لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

أي: وجعلناهم محصورين بين سدين هائلين، فغطينا بهما أبصارهم فأصبحوا لا يبصرون شيئاً.

وفي قراءة: (سُدّاً) بضم السين وهو لغةٌ فيه.

وهذا تمثيلٌ لحال من استبدت بهم شهواتهم، وغلبت عليهم أهواؤهم، فحُجبوا بها عن رؤية الحق ودلائله، والاستضاءة بأنواره، والانتفاع ببراهينه، فأدَّى بهم هذا إلى الإصرار على الكفر، والتمادي فيه، حتى وصلوا إلى قمة هرم الجحود والعناد.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

فإنذارك وعدمه متساويان عندهم بسبب عنادهم وجحودهم، كما في قوله

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة].

ويتضمَّنُ توجيهُ الخطابِ للنبيِّ ﷺ تسليته ومواساته عن عنادهم وجحودهم.

* * *

التمسك بالقرآن وخشية الرحمن

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢﴾

وفي مقابل المعاندين الجاحدين ذكرت الآيات المتأثرين بإنذاره عليه الصلاة والسلام، والمستجيبين لدعوته، فالباطلُ مهما أرعدَ وأزبدَ لا يطمس معالم الخير، فالخيرُ باقٍ في الناس، لا ينقطعُ ولا ينتهي، ورسالة الإسلام تقوِّيه، وتمده بأسباب البقاء والنماء، واستمرَّتِ الآيات الكريمة توجه الخطاب للنبي ﷺ:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١﴾

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي: إنَّما ينتفعُ بإنذارك مَنْ تمسَّك بالقرآن الكريم، والتزم بأحكامه، وخاف الرحمن، وعظَّمه في السر والعلن، ممَّا يدلُّ على صدقه وإخلاصه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وفي ذكر **الخشية** مع تعقيبه باسم **الرحمن** إشارة إلى أنَّ قهره تعالى مقرون بلطفه، فإنه رحيم غفار، كما أنه منتقم قهار.

فالتمسُّكُ بالقرآن، وخشيةُ الرحمن في السر والعلن، هما مرقاةُ الوصول للفوز بالجنة والرضوان، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: فكما أنذرت المعاندين يا محمد، فبشّر المؤمنين بعفوه تعالى عن تقصيرهم، وبأجر كريم على خشيتهم الرحمن، وخوفهم منه، وتعظيمهم له في السر والعلن، بشرهم بالوصول إلى الجنة والرضوان، وما أجملها من بشارة حملها الرسول الكريم إلى المؤمنين من ربهم الغفور الرحيم، تثبيتاً لهم على الطريق، ليكونوا بفضله تعالى من الواصلين.

ويحقق تعالى مضمون هذه البشارة لهم يوم إحياء الموتى، وبعثهم من القبور، وهو ما أكدته الآياتُ بأسلوب الخبر المؤكد المعظم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: إنا نحن القادرون على إحياء الموتى يوم القيامة.

وفي ضمير العظمة إشارة إلى جلالة إحياء الموتى، فإحياءُ الموتى عمل عظيم، لا يقدر عليه غيرنا، وقد احتجَّ به إبراهيم عليه السلام على الطاغية الذي حاجَّه في ربه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨].

وفيها إشارة إلى أنه تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين ماتت قلوبهم بالضلال، بهدايتهم إلى الحق، فالإيمانُ حياةُ القلوب، والكفر موت لها، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ﴾ أي: ونكتبُ ما عملوا في حياتهم من خير، وما تركوا بعد موتهم من أثر حسن.

ففي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ سَنَّ في الإسلامِ سُنةً حسنةً فعُملَ بها بعدَه، كُتِبَ له مثل أجرِ مَنْ عَمِلَ بها، ولا ينقصُ من أجورِهِمْ شَيْءٌ...**» [رواه مسلم (١٠١٧)].

فيدخل فيه كل علم علّموه، أو كتاب ألّفوه، أو حبيس وقفوه... إلخ، وغير ذلك من وجوه الخير والبر.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وأحصينا كل شيء من خير أو شر في أصل عظيم الشأن، يؤتم به ويتبع ولا يخالف، وهو اللوح المحفوظ، وقد يرادُ به كتابُ أعمالهم الذي قال تعالى فيه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي الحديث الشريف: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: خلتِ البقاعُ حول المسجدِ، فأرادَ بنو سلمةَ أن ينتقلوا إلى قربِ المسجدِ، فبلغَ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ فقال لهم: «**إنَّه بلغني أنَّكم تريدونَ أن تنتقلوا قربَ المسجد**» قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: «**يا بني سلمةَ ديارَكم تُكْتَب آثارُكم، ديارَكم تُكْتَب آثارُكم**» [رواه مسلم (٦٦٥)].

ومعناه: الزموا دياركم فإنكم إذا لزمتموها كتبت آثاركم وخطاكم الكثيرة إلى المسجد.

* * *

أصحاب القرية

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: اضرب يا محمد مثلاً للمشركين المعاندين في إصرارهم وإعراضهم عن الصراط المستقيم أصحاب القرية عندما جاءها المرسلون.

أو: اجعل أصحاب القرية مثلاً للمشركين في عنادهم وإصرارهم على الكفر، وتكون القصة بهذا المعنى مسوقةً لمواساة النبيِّ ﷺ عمَّا يلقى من عناد قومه وإصرارهم على الشرك.

والعجيبُ أنَّ كثيراً من المفسرين ذكر أنَّ هذه القرية هي **أنطاكية** في شمال بلاد الشام، وأنَّ الرسولينِ هما من الحواريين أرسلهم عيسى عليه السلام وهما **شمعون ويوحنا**، وأنَّ الثالث الذي انضمَّ إليهما بعد ذلك هو **بولس** والذي كان اسمه **شاؤول**.

وقد تأثروا بالمصادر النصرانية التي تذكر أنَّ مرقص صاحب الإنجيل اسمه يوحنا، وأنه لازم خاله **برنابا** و**بولس** في رحلتهما إلى أنطاكية، وتبشيرهما بالمسيحية فيها[١].

وقد رد ذلك ابنُ كثير في «**تفسيره**» وقال: وفي ذلك نظرٌ من وجوه:

أولها: أنَّ ظاهر القصةِ يدلُّ على أنَّ هؤلاء كانوا رسلَ اللهِ ﷻ لا من جهةِ المسيح عليه السلام.

ثانياً: أنَّ أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانت أوَّلَ مدينةٍ آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع اللاتي فيهن بطاركة.

ثالثاً: أنَّ قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكرَ غيرُ واحدٍ من السلف أنَّ الله تبارك وتعالى بعد إنزال التوراة لم يهلك أمةً من الأمم عن آخرهم بعذابٍ يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين.

فعلى هذا يتبيَّنُ أنَّ هذه القرية المذكورة في القرآن غير أنطاكية، فإنَّ هذه لم يُعرف أنها أُهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك.

- **تكذيب المرسلين:**

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إذ أرسلنا إلى القرية رسولين فكذَّبوهما فقويناهما برسول ثالث. وفي قراءة: (**فعزَزْنا**) بالتخفيف. فقالوا لأهل القرية: إنا إليكم مرسلون.

(١) انظر كتاب: محاضرات في النصرانية.

واستمرَّ أصحابُ القرية على عنادهم وإصرارهم على الكفر، وكذبوا المرسلين الثلاثة، كما فعل مشركو مكة، الذين استمروا على عنادهم وجحودهم للبينات الواضحات، التي أيَّد اللهُ تعالى بها النبيَّ ﷺ، وهي آيات التنزيل الحكيم التي كانت تنزل على النبي ﷺ تعززه وتسلِّيه، وتشهدُ بصحة رسالته وصدق نبوته.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: قال أصحاب القرية للمرسلين الثلاثة: ما أنتم إلا بشر مثلنا، فلا مزية لكم علينا توجب اختصاصكم بما تدعونه.

فالحسدُ هو الذي حمل أصحاب القرية على تكذيب المرسلين، وجحد رسالتهم قائلين:

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي: وما أنزلَ الرحمنُ من شيءٍ، وما أنتم بدعواكم الرسالة إلا كاذبون.

ويدل ظاهِرُ كلامهم على إقرارهم بالربوبية، لكنَّهم ينكرون الرسالة كما كان مشركو مكة، الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

فما كان من المرسلين إلا أنْ أكدوا صدق رسالتهم:

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

استشهدَ المرسلون على صدقهم بعلم الله، وهو يجري مجرى القسم في التأكيد، فزادوا اللام المؤكدة، فكأنَّهم قالوا: إن تكذيبكم لا يؤثر على صدق رسالتنا، فربنا يعلمُ صدقنا، ولن يمنعنا تكذيبكم من التبليغ الواجب علينا للرسالة الواضحة.

* * *

المتشائمون من دعوة المرسلين

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وعندما رأى أصحاب القرية المعاندون ثقةَ المرسلين بصدق رسالتهم وتصميمهم على تبليغها؛ لجؤوا إلى التهديد والوعيد، ومهدوا له باتهام الرسل بتهمة باطلة:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أي: إنَّا تشاءمنا بكم، ولم نرَ خيراً على وجوهكم.

وهو ديدنُ المعاندين الجاحدين في كل زمان ومكان، يتفاءلون بما يوافق أهواءهم وشهواتهم، ويتشاءمون بما لا يوافقها، حكاه الله تعالى عن المعارضين لدعوة المرسلين كفرعون وقومه: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وحكاه تعالى أيضاً من أقوال أعداء نبينا عليه الصلاة والسلام من اليهود والمنافقين: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: لئن لم تتركوا دعوتكم هذه لنرجمنكم بالحجارة حتى الموت، وليصيبنكم منا عذاب أليم.

لكنَّ الرسلَ عليهم السلام لم يتأثروا بوعيدهم وتهديدهم، وردوا عليهم بثقة وثبات وشجاعة:

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: شؤمكم منكم، بسبب كفركم وتكذيبكم.

وأضافوا مستنكرين تهديدهم ووعيدهم:

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: أإن ذكرتم ودعيتم إلى ما فيه سعادتكم تتطيرون أو تتوعدون؟! وقرئت بهمزتين: الأولى همزة استفهام، والثانية همزة إن الشرطية، حققها الكوفيون وابن عامر، وسهَّلها باقي السبعة[١].

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم، متمادون في غيِّكم، حيث تتشاءمون بما هو سبب سعادتكم.

واستعمل الرسلُ أسلوبَ الإضراب والانتقال ليبيِّنوا لأصحابِ القريةِ أنَّهم على عكس ما يقتضيه النظر الصحيح.

* * *

الناصح في الحياة وبعد الممات

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ويبدو أنَّ أصحابَ القرية همُّوا بقتل الرسل، وتنفيذ وعيدهم، فجاءهم رجلٌ من أطراف المدينة يسعى لنصرة المرسلين والدفاع عنهم:

---

(١) روح المعاني: ٢٢/ ٢٢٤.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ أي: يعدو ويسرعُ في مشيه، حرصاً على نصح قومه، ونصر الرسل، والدفاع عنهم.

ويلاحظ تقديم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقدم إظهاراً لفضله، فقد هداه الله تعالى مع بُعده عنهم، ولهذا عبَّر بالمدينة هنا إشارة إلى سَعَتها، وأنَّ الرجلَ بذل جهداً كبيراً في سعيه، ولا شكَّ أنَّ الله تعالى كتبَ آثاره الكثيرة هذه، وهو يسعى إلى الوصول للفوز بالرضوان والجنان، ودلَّ هذا على أنَّ الرسل ما قصَّروا في التبليغ والإنذار حتى وصل خبرُهم إلى القريب والبعيد، والظاهر أنَّ الرجلَ لم يكن ذا جاه أو سلطان، ولم يكن في عزَّةٍ من قومه، أو منعة في عشيرته، ولكنَّها العقيدةُ الحية في ضميره دفعته وجاءت به من أقصى المدينة إلى أقصاها لكي ينصح قومه ويقول لهم بلغة الناصح المشفق:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: اتبعوا المرسلين بتصديقهم، والإيمان بالله تعالى وحده وعبادته.

ثم كرَّر نصيحته فبيَّن صدقَ المرسلين وإخلاصهم، وكيف أنهم نزَّهوا دعوتهم عن أي غرض دنيوي مادي، فلم يسألوا عليها أجراً:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾.

أي: وهم على هدى من الله تعالى.

ثم تلطَّفَ في إرشادِ قومه ودعوتهم، وأراهم أنَّه اختارَ لهم مثل ما اختار لنفسه، وذكَّرهم في الوقت نفسه بأسلوب التعريض بمسؤوليتهم عن أعمالهم أمام الله تعالى يوم القيامة فقال:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾.

أي: وما لي لا أعبد الذي خلقني من العدم، وإلى حكمه المرجع يوم القيامة.

واستمرَّ على التلطُّف في دعوتهم وإرشادهم مع شيءٍ من الإنكار والتقريع لتركهم عبادة خالقهم، وعبادة آلهة لا تضر ولا تنفع:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: لا تدفعُ عني شفاعتهم شيئاً من المكروه، ولا يستطيعون إنقاذي منه.

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: إني إذا عبدتُ غيرَ اللهِ الخالق القادر لفي ضلال واضح ظاهر، لا يخفى على أحد.

ثم نزَّه نفسَه عن مثل هذا الضلال، وأعلنَ إيمانه، وصدعَ بالحقِّ في وجوه قومه بأسلوب المتحدي لهم:

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إنِّي آمنتُ بربكم الذي هو خالقكم ومالك أمركم شئتم أم أبيتم، فاسمعوا قولي، فإنِّي لا أبالي بما يكون منكم.

ولم يستجب لدعوة الرسل الثلاثة سوى رجل واحد من هذه المدينة هو هذا، فما أشدَّ جحودهم! ويظهر أنَّ قومه هددوه، وتوعدوه بالقتل، كما فعلوا بالرسل، فأخبرهم أنه لا يبالي بوعيدهم وتهديدهم، فنفَّذوا تهديدهم، وقتلوه، وكتموا أنفاسه، وحبسوا كلمة الحق التي كان يصرخ بها في وجوههم، ولم تصف الآيات كيفية قتله، ويبدو أنهم قتلوه رمياً بالحجارة، وهي الوسيلة التي توعَّدوا فيها المرسلين عندما قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يسٓ: ١٨] دل على قتله قوله تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ أي: ادخلها دخولَ الشهداء الأبرار، وصلَ الرجلُ وربِّ الكعبة، ودخل الجنة، وفاز بالرضوان.

وحكت لنا الآياتُ أقواله عندما أكرمه الله بنعيم الجنة، فظهر لنا من خلالها صفاء نفسه ونبل أخلاقه:

﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ تمنَّى الرجلُ وهو في الجنة أن يَعْلَمَ قومُه بحاله، وأنه تعالى غفر له، وأكرمه بالجنة والفوز بالرضوان لكي يؤمنوا ويفوزوا بمثل ما فاز من المغفرة والكرامة.

نصحَ الرجلُ قومَه حيّاً وميتاً كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، نصح قومه في حياته عندما قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يسٓ: ٢٠]، وبعد مماته في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾.

هكذا أصبحَ الرجلُ من الواصلين، وفاز بما سبق ذكره في البشارة: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يسٓ: ١١].

* * *

حسرة على العباد

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ۝٣٢﴾

وانتقم الله من قومه الذين كذبوا رسله، وقتلوا وليّاً من أوليائه:

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾.

أي: ما أنزلنا لإهلاكهم ملائكةً من السماء، وما صحَّ في حكمتنا ذلك.

فأمرُ هلاكهم يسيرٌ، لا يحتاجُ لإنزال ملائكة من السماء، من هنا يظهر فضلُ نبينا ﷺ على غيره، فقد أنزلَ اللهُ لأجله جنوداً من السماء يوم بدر والخندق وحنين، وما أنزلها لغيره(١).

قال القرطبيُّ رحمه الله: «وكأنه أشار بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ و﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ إلى أنَّ إنزال الجنودِ من عظائم الأمور، التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعل لغيرك، فقد فضَّلَ الله محمداً ﷺ بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً، فمن ذلك أنه أنزل له الجنود من السماء»(٢).

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾.

أي: ما كانت عقوبتُهم إلا صيحةً واحدةً فإذا هم ميتون لا حراك بهم.

وكان أول تعقيب على القصة بقوله تعالى:

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾.

أي: يا حسرةً تعالي فهذا وقتُ حضوركِ، وهي شدة الغم والندم.

والفائدة من ندائها تنبيه القارئ أو المستمع إلى أنَّ هذه الحالة تقتضي الحسرة، فالقومُ جديرون بأن يتحسَّر عليهم كل من عرف خبرهم، وقرأ قصَّتهم، لتعظيم ما جَنَوْهُ على أنفسهم حين كذَّبوا الرسل واستهزؤوا بهم.

أو يا حسرةَ العبادِ على أنفسهم كيف كذَّبوا رسل الله واستهزؤوا بهم!.

---

(١) تفسير النيسابوري: ٢٣/ ١٣.

(٢) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢١.

ووجهت الآياتُ في التعقيب الثاني على القصة سؤالاً للمشركين المكذبين للرسول ﷺ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: ألم يعلموا كثرة إهلاكنا الأجيال قبلهم، وأنَّ هؤلاء الهالكين غيرُ راجعين إليهم.

فالآيةُ تدعوهم إلى الاتعاظ بالأمم الهالكة قبلهم، المكذبين للرسل، الذين أهلكوا إهلاكاً لا رجعةَ بعده إلى الدنيا، وإنَّما رجوعُهم كلهم إلى المحشر يوم القيامة.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: ما كلهم إلا مجموعون لدينا، محضرون للحساب والجزاء.

فـ (**إن**) نافية، وتنوين (**كل**) عوض عن المضاف إليه، و(**لما**) بمعنى إلا، و(**جميع**) فعيل بمعنى مفعول[(١)].

* * *

دلائل ونعم

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ثم ذكَّرتهم الآياتُ ببعض البراهين الدالة على وحدانيته تعالى وكمال قدرته

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ١٦٦.

على بعثهم للجزاء والحساب، وهي في الوقت نفسه نِعَمٌ تفضَّلَ سبحانه بها عليهم، كما أنها علامات يهتدي بها السائرون على طريق الوصول إلى رحمته ورضوانه:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: وآيةٌ تدلُّهم على قدرته تعالى وفضله، الأرض اليابسة أحياها الله بالمطر، وأخرج منها حبّاً كالحنطة والشعير والأرز فمنه يأكلون، وأفاد تقديمُ الجار والمجرور (منه) أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: وجعلنا في الأرض بساتين من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها أيضاً عيون الماء.

فما أعظمَ هذه النعم التي تدلُّ على وُجودِه تعالى وُجُوده، فالأرضُ **نعمةٌ**، لأنها ممهدة لحياتهم، وإحياؤها بالمطر **نعمة ثانية**، وإخراجُ الحبِّ منها **نعمة ثالثة**، وجعل الجنات فيها **نعمة رابعة**، ثم تفجير العيون فيها **نعمة خامسة**، ولهذا قال سبحانه ممتنّاً عليهم بنعمه ومطالباً لهم بشكر هذه النعم:

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ليأكلوا مما خلق الله من الثمر، ومما يتخذون منه بأيديهم كالعصير والدبس، أفلا يشكرون الله على نعمه بعبادته وحده، واتباع رسوله ﷺ، ففيه استبطاء لشكرهم وحث لهم عليه.

وقد تكون (**ما**) نافيةً، فيكون المعنى المراد أنَّ الثمر بخلق الله لا بفعلهم، ويؤيد المعنى الثاني قراءة: (**وما عملتْ أيديهم**) بلا هاء(١).

(١) تفسير البيضاوي: ٥/٢٠٨.

ثم نزَّه ﷻ ذاته عن كلِّ ما لا يليقُ به من صفات النقص، وذكر بعد ذلك مع التنزيه أدلة أخرى تدل على كمال قدرته وباهر حكمته:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: سبحان الله خالق الأصناف كلِّها من النبات والإنسان والحيوان ومما لا يعلمون.

والزوج: الصنف، سمَّاه الله زوجاً، لأنَّ له زوجاً آخر يقابله من جنسه، فالزوجيةُ مبثوثةٌ في الإنسان والحيوان والنبات، ومثلُها أيضاً زوجيةُ السالبِ والموجبِ الموجدة في أعماق الذرة، فهي حقيقةٌ علميةٌ مشاهدَةٌ في أصناف جميع المخلوقات، أكَّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

و(**سبحان**) علمٌ على التسبيح، الذي هو التبعيدُ عن السوء اعتقاداً وقولاً، أي: تنزَّهَ جلَّ وعلا عن كلِّ ما لا يليقُ بكماله وجلاله ووحدانيته، فالجملةُ على هذا إخبارٌ منه تعالى بتنزُّهه وبراءته عن كلِّ ما لا يليقُ به من صفات النقص، أو هو حكمٌ منه ﷻ بذلك، وتلقينٌ للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوه ولا يخلُّوا به، ولا يغفلوا عنه، فإنَّه من أسباب وصولهم إلى رحمته تعالى ورضوانه.

وهذه التسبيحةُ تنطلِقُ في أوانها وفي موضعها، وترتسمُ معها حقيقةٌ ضخمةٌ من حقائق هذا الوجود، حقيقة وحدة الخلق، ووحدة القاعدة والتكوين، فقد خلق الله الأحياء أزواجاً، النبات فيها كالإنسان، ومثل ذلك غيرهما، وإنَّ هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة لهذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله[1].

* * *

المستقر الزماني والمكاني للشمس

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾.

ولما فرغت الآياتُ من الاستدلال بالمكان شرعت في الاستدلال بالزمانِ، وبيان الإحكام الدقيق في نواميسه ونظمه:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾.

أي: ننزع منه النهار ونزيله، فإذا هم داخلون في الظلام، فالأصلُ الظلمةُ، ونورُ النهار طارئٌ عليها، فإذا غربتِ الشمسُ عادتِ الظلمةُ، فالمسلوخُ منه يكون قبل المسلوخ، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في موضع آخر: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤] أي: يغطِّي الليلَ بالنهار.

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾.

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ أي: الشمس تسيرُ إلى منتهى سيرها المقدَّر لها وهو يوم القيامة، عندما تتغير النظم الكونية والنواميس الفلكية، فيبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتكور كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ [التكوير: ١].

وهذا هو مستقرُّها الزماني ـ كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فالشمسُ لا تزال تطلع وتغيب بقدرته تعالى ومشيئته حتى يوم القيامة.

وأما ما وردَ في الحديث الشريف: عن **أبي ذر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في المسجدِ عندَ غروب الشمس فقال: «**يا أبا ذر أتدري أينَ تغربُ الشمسُ؟**» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنَّها تذهبُ حتَّى تسجدَ تحتَ**

العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾» [رواه البخاري (٤٨٠٢)].

فلعلَّ المرادَ منه فلكُها الذي تسير فيه، وهو مستقرها المكاني، وهي أينما كانت تحت العرش هي وجميعُ المخلوقات، إذ العرشُ أعظمُ منها، فلا غرابة فيما جاء في الحديث الشريف من سجود الشمس تحت العرش، واستئذانها، وسجودها تحت العرش لا يقتضي خروجها عن فلكها.

ورأى بعضُهم أنَّ في الحديث الشريف إشارةً إلى استمرارها مسخَّرةً بأمره تعالى لما خلقت له، المعبَّر عنه بالسجودِ والاستئذانِ كلَّ يوم[1].

ويستأنس لهذا الرأي بقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [الحج: ١٨] فقد فسَّر بعضهم سجود هذه المخلوقات بخضوعها لما أراد الله منها.

ومهما قيل في معنى الآية فهي تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ للشمس حركة، فهي غير ثابتة، وأنَّ حركتها محكمةٌ دقيقةٌ حسب نظام كوني محكم يدل على كمال قدرته تعالى وعلمه وحكمته، ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي: ذلك النظام المحكم تقدير الإلـٰه الغالب بقدرته على كل شيء، والعليم بكل شيء جَلَّ جَلَالُهُ، كما قال في **سورة الأنعام**: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾.

وكان علماء الفلك إلى عهد قريب يظنُّون أنَّ الشمسَ ثابتةٌ لا تتحرك، لكن عرف أخيراً ـ كما جاء في الظلال ـ أنها ليست مستقرة في مكانها، إنَّما هي تجري فعلاً، تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة، حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية[2].

* * *

(١) قرة العينين على تفسير الجلالين.

(٢) الظلال: ٥/٢٩٦٨.

منازل القمر

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي: قدرنا له المنازل.

ومعنى **قدر**: صير، فالمراد صيرنا سيره منازل، وهي جمع منزل، وهي المسافة التي يقطعها القمرُ في يوم وليلة[1]، ويستدل بهذه المنازل على مضي الشهور القمرية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليلَ النور، ثم يزدادُ نوراً في الليلة الثانية، ويرتفعُ منزلةً، ثم كلَّما ارتفع ازداد ضياءً، وإن كان مقتبَساً من الشمس، حتَّى يتكاملَ نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرعُ في النقصِ إلى آخر الشهر حتى يصيرَ كالعرجون القديم[2].

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: حتى يصيرَ في آخر منازله مثل عود عنقود النخيل القديم الذي عليه الثمر، فإنه إذا تقادم عهده يرق ويتقوَّسُ ويصغر، وهي أوجه التشبيه.

وفي كلمة **(قدرناه)** إشارة إلى دقة النظام وإحكامه، وهو ما صرحت به الآية بعد ذلك بقوله سبحانه:

---

(١) روح المعاني: ٢٣/١٦.

(٢) تفسير ابن كثير للآية.

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ أي: لا يصحُّ ولا يستقيمُ للشمس أن تؤثر على سير القمر في منازله، أو تجتمع به، فلكل من الشمس والقمر نظام دقيق محكم لا يلحقه أي خلل أو اضطراب، وهذا النظام مستمر بتقدير العزيز العليم إلى قيام الساعة، عندما يختل النظام ويتغير، ويجمع الله بين الشمس والقمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩].

ولعلَّه تعالى لم يقل: ولا القمر سابق الشمس، لأن القمر جِرْمٌ صغير تابع للأرض، ويستمدُّ نوره من الشمس.

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ فهما يتعاقبان بحساب معلوم، فلا يجيء أحدهما قبل وقته المحدد له.

﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ أي: وكلهم في فلكٍ يسيرون.

فالتنوين في (كلٌّ) عوض عن المضاف إليه، والضمير للشمس والقمر. أي: وكل واحد من الشمس والقمر، إذ هما المذكوران صريحاً. وبعضهم أرجع الضمير إلى النجوم والكواكب، فكلها لها أفلاك تسير عليها، والله أعلم.

* * *

السابحات في البحر والبر

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ٤٢ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٤٤﴾

وكما تسبحُ النجومُ في جو السماء بقدرته تسبح السفن في البحار بقدرته تعالى أيضاً، فهي من الآيات الدالة على فضله وإحسانه وكمال قدرته:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

أي: المملوء، **والذرية**: الأولاد، وفي قراءة: **(ذرياتهم)** وتخصيصهم بالذكر لضعفهم، فالنعمة فيهم أظهر.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: وخلقنا لهم من مثله ما يركبون عليه في البر كالإبل، فإنَّها سفائن البر.
وقد قرن تعالى بينهما في عدد من الآيات منها: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون].
ومنها أيضاً: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: وإن نشأ إغراقهم في الماء نغرقهم والسفن التي تحملهم، فلا مغيثَ لهم يحفظهم من الغرق، ولا هم ينقذون من الموت والهلاك، فالأمرُ منوطٌ بمشيئته تعالى، والسفنُ أسبابُ السلامة، والله سبحانه خالق الأسباب والمسببات، وما أكثرَ السفنَ التي أغرقها تعالى بِمَنْ فيها، مع أنَّها مزودةٌ بكل ما توصَّل إليه الإنسان من أسباب السلامة والوقاية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى].

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: ولا نجاةَ لهم إلا أن يرحمهم الله ويمتعهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم.

* * *

عناد وإعراض

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ومع كل هذه الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وصدق النبيِّ عليه الصلاة والسلام في دعوته، عاندوا وأعرضوا، دل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: اتقوا ما تقدم من ذنوبكم بتركها والتوبة عنها، وما تأخَّر مما أنتم تعملون، لعلَّ الله تعالى يرحمكم؛ أعرضوا وأصروا على ذنوبهم، وحذف الجواب لدلالة ما بعده عليه:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

فدأبُ القومِ العنادُ والإعراضُ عن كل آية وموعظة. ومن صور عنادهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أنفقوا على الفقراء.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ

مُّبِينٍ﴾ أي: أنرزق من لو يشاء الله رزَقَه؟! ما أنتم باتباعكم محمداً إلا في ضلال بيِّن واضح.

ويتمسَّكُ بقولهم هذا البخلاءُ، يقولون: لا نعطي مَنْ حرمه الله، وهو قولٌ باطلٌ فاسدٌ، لأنَّه تعالى أغنى بعض خلقه، وأفقرَ بعضهم ابتلاءً، كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله: (**أنطعم**) دون قوله: أننفق، إظهار لغاية خستهم، فإن الإطعام أدونُ مِنَ الإنفاق.

ومن صور عنادهم أيضاً إصرارهم على إنكار يوم القيامة الذي سبق تأكيده في عدة مواضع من آيات السورة:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: إن كنتم صادقين فيما تقولون عن يوم القيامة، والخطاب موجَّه للرسول ﷺ والمؤمنين. ويأتي الرد على إنكارهم قويّاً عنيفاً:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة تصعقهم وهم يتخاصمون ويتحاورون في أسواقهم ومتاجرهم، لا يخطر أمرها ببالهم.

والمرادُ من الصيحة نفخة الصعق الأولى، التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فالساعةُ تأتيهم وهم أغفلُ ما كانوا عنها مستغرقين في شؤون الدنيا، كما في الحديث الشريف الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «**ولتقومَنَّ الساعةُ وقد نشرَ الرجلانِ ثوبَهما بينَهما، فلا يبتاعانه، ولا يطويانه، ولتقومَنَّ الساعةُ وقد انصرفَ الرجلُ**

بلبنِ لقحتهِ، فلا يَطْعَمُه، ولتقومَنَّ الساعةُ وهو يليطُ حوضَهُ، فلا يسقي فيه، ولتقومَنَّ الساعةُ، وقد رفعَ أكلتَهُ إلى فيهِ، فلا يطعمُها» [رواه البخاري (٧١٢١)].

وأصل (**يخصِّمون**): يختصمون، سكنت التاء، وأدغمت في الصاد، وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين، وفي قراءة بفتح الخاء: (**يخَصمون**) بإدغام التاء في الصاد ونقل حركتها وهي الفتحة إلى الخاء.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: لا يقدرون على الإيصاء ولا الرجوع إلى أهلهم وبيوتهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

وفي قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ ـ دون أن يقول: فلا يوصون ـ مبالغةٌ، لأنَّ مَنْ لا يوصي قد يستطيعها، وكذلك في تنكير (**توصية**) الدالّ على التقليل، وكذا في نفس (**التوصية**) لأنها بالقول، والقولُ يوجَدُ أسرع من الفعل، وقد تحصل التوصية بالإشارة، فالعاجزُ عنها عاجز عن غيرها[1].

* * *

النفخ في الصور والبعث من القبور

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ
هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ونفخ في الصور نفخة البعث، أو صيحة البعث كما سيأتي، فإذا هم من

(١) تفسير النيسابوري: ٢٣/ ٢٥.

القبور يُسرعون إلى أرض المحشر، تنفيذاً لأمر ربهم، كما قال تعالى في **سورة المعارج**: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ويدل تأثير النفختين في أمرين متضادين: الإماتة والإحياء، على كمال قدرته تعالى، ونفاذ مشيئته، فهو الخالق الحقيقي، ولا تأثير للأسباب إلا إذا وافقت مشيئته سبحانه، كما مرَّ معنا في موضوع **سورة الرعد**.

والصُّوْرُ في اللغة: الآلةُ المعروفةُ على هيئة القرن، ينفخ فيه، وأما حقيقته وكيفيته فلا يعلمها إلا الله تعالى.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ أي قالوا: يا هلاكنا من أخرجنا من قبورنا، فهم يدعون على أنفسهم بالهلاك عندما يرون هول الخروج من القبور.

ويزدادُ دعاؤهم على أنفسهم بالهلاك إذا أُلقوا في جهنم، وذاقوا ألوانَ العذاب، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان].

والمرقد: المضجع، مكان النوم.

وقد أشكل على بعض المفسرين قولهم هذا مع أنهم كانوا معذَّبين في قبورهم، وأجاب بعضُهم بأنَّ عذاب القبر يرفع عنهم بين النفختين؛ الصعق والبعث. وبعضهم رأى أنَّ قولهم هذا يدل على اختلاطٍ في عقولهم عند خروجهم من بطن الأرض، حتى ظنوا أنهم كانوا نياماً في بطنها. وبعضهم قال: إنَّ الكفَّار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب، صار ما عُذِّبوا به في قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم.

وإني أرى أنَّه لا وجهَ لهذا الإشكال، لأنَّ قولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ يدل على أنهم شعروا أنَّ ما يستقبلون من أهوال يوم القيامة أشد من عذاب البرزخ في القبور، فهو يوم الفزع الأكبر كما وصفه سبحانه في قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾

[الأنبياء: ١٠٣]، وهم يدركون شدته وعسره عند خروجهم من قبورهم، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

فهم يواجهون الحقيقة التي كذَّبوا بها عندما أخبرهم الرسلُ عنها في الدنيا، فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار، وأتاهم الجوابُ من داخل نفوسهم الممتلئة بالحسرة والندم:

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وتدل كلماتهم هذه على أنَّ الحسرة تملأ قلوبهم حزناً وأسفاً، وهي التي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يسٓ: ٣٠] فهذا أوانُ الحسرةِ قد حضر، حسرتهم على أنفسهم لا حسرة العباد عليهم.

وصدق المرسلون، وصدق إمامهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ الذي أقسم الله في أول السورة بالقرآن الحكيم إنه لمن المرسلين.

ولا شكَّ أنَّ المرسلين إلى القرية التي سبق ذكرُها قد صدقوا أيضاً، ولا بدَّ أن يعترف أصحاب القرية يوم القيامة بصدقهم، ويتحسرون على ما فاتهم من تصديقهم، ويندمون أشد الندم على تكذيبهم.

والجديرُ بالذكر أنَّ أقوالَ المفسرين تعدَّدت في قائل هذا القول، فأسنده بعضُهم إلى الله ﷻ، وبعضهم أسنده إلى الملائكة، وآخرون أسندوه إلى المؤمنين، ورأى بعضهم أنَّ الكفار هم الذين قالوا هذا القول، وهو في رأيي أنسبُ الأقوال، وآثروا اسمَ الرحمن طمعاً في أن يرحمهم، وهيهات؛ ليس لكافرٍ يومئذٍ نصيبٌ في رحمته تعالى.

* * *

الوصول إلى دار السلام

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: محضرون في أرض المحشر للحساب والجزاء.

وهذا يدل على كمال قدرته تعالى، فكما أهلكهم بصيحة واحدة ـ كما مرَّ معنا ـ فإنه يجمعهم بصيحة واحدة أيضاً، وهي صيحةُ البعثِ من القبور، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات].

ثم بيَّن سبحانه ما يكون في هذا اليوم:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

فلا يكونُ في هذا اليوم ظلمٌ أبداً، ولا تُجزى كلُّ نفسٍ إلا بحسب عملها بعدله تعالى.

ووصفت الآياتُ أحوال المنعمين الواصلين إلى مستقر رحمته ورضوانه:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: إنهم مشغولون بما أكرمهم الله تعالى به من أنواع النعيم في الجنة.

وفي قراءة: **(في شُغْل)** بضمة وسكون، وتنكير **شغل** وإبهامه تنبيه أنه أعلى ما تحيطُ به الأفهامُ، ويعرب عن كنهه الكلام.

والفَكِهُ: المتنعِّم المتلذِّذ، ومنه الفاكهة لأنها مما يُتلذذ به، وكذا الفكاهة[١].

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: هم وأزواجهم في ظلال أشجار الجنة على السرر متكئون.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ولهم ما يتمنون أو ما يطلبون، فالله سبحانه يكرمهم بكل ما تشتهيه أنفسهم من أنواع النعيم. ويكرمهم ويتفضَّل عليهم أيضاً بالسلام:

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: لهم سلام يقال لهم من رب رحيم.

لقد وصل القوم إلى دار السلام، وأكرمهم ربهم الرحيم بالسلام: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

هكذا بيَّنت الآيات حال الواصلين الفائزين بالجنة والرضوان والسلام.

* * *

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٥/ ٢١٤.

المعرضون عن الصراط المستقيم

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾

ثم بيَّنت الآيات في المقابل حال المجرمين المحرومين:

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾.

أي: اعتزلوا عن كل خير وانفردوا عن المؤمنين.

ثم حكت الآياتُ ما يقال لهم توبيخاً وتقريعاً لتزيد في حسرتهم وندمهم:

﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾.

أي: ألم آمركم وأوصيكم يا بني آدم ألا تطيعوا الشيطان، فإنَّ عداوته لكم ظاهرةٌ، فلا يدعوكم إلا لما فيه شقاؤكم وتعاستكم.

فطاعةُ الشيطانِ عبادةٌ له مِنْ دون الله، فمن أطاعَ غيرَ الله فكأنما اتخذه معبوداً من دونه، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾.

أي: وأمرتُكم بعبادتي وطاعتي وحدي، وهو الصراط المستقيم الموصل

إلى رحمتي ورضواني، والذي دعا إليه المرسلون جميعاً، أقسم تعالى في صدر السورة أن سيدنا محمداً ﷺ سار عليه ودعا إليه.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: واللهِ لقد أضل منكم خلقاً كثيراً، فلم تنتفعوا بعقولكم، وتدركوا ما يريد الشيطان منكم.

والجِبِلُّ: الخلق والجماعة العظيمة، أُطلقَ عليهم تشبيهاً بالجبل في العظم. وقرئ: (**جُبْلاً**) بضم الجيم وإسكان الباء، كما قرئ بضمتين (**جُبُلاً**) مع تخفيف اللام[1].

﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: هذه التي ترونها جهنم التي وعدتم بدخولها على ألسنة المرسلين.

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: قاسوا حرها، وصيروا وقوداً لها بسبب إصراركم على الكفر وعنادكم، ولا يخفى ما في الأمر من تحقير وإهانة.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: نمنعهم عن الكلام.

﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يُنْطِقُها الله تعالى الذي أنطق كل شيء، لتشهدَ على أصحابها بما عملوا من المعاصي والآثام في الدنيا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا

(١) روح المعاني: ٢٣/٤١.

يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت].

فيومُ القيامة يومٌ طويل، يُنْطِق الله تعالى فيه ألسنتهم، وتارة يمنعون عن الكلام، وتنطق أيديهم وأرجلهم وجوارحهم.

وفي الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: كُنَّا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ فضحكَ فقال: «**هل تدرونَ مِمَّ أضحكُ؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «**مِنْ مخاطبةِ العبدِ ربَّه، يقولُ: يا ربِّ! ألم تُجِرْني مِنَ الظُّلْمِ؟ يقولُ: بلى، فيقولُ: فإنِّي لا أجيزُ على نفسِي إلا شاهداً منِّي. فيقولُ: كفى بنفسِكَ اليومَ عليكَ شهيداً، وبالكرامِ الكاتبينَ شهوداً، فيختِمُ على فيه، فيقالُ لأركانِهِ: انطقي، فتنطِقُ بأعمالِهِ، ثم يخلَّى بينه وبينَ الكلامِ فيقولُ: بُعْداً لَكُنَّ وسُحقاً، فعنكنَّ كنتُ أناضِلُ**» [رواه مسلم (٢٩٦٩)].

* * *

التنكيس في الخلق

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

ثم ذكَّرتهم الآياتُ بشدة ضعفهم، وأنهم مفتقرون إلى الله تعالى في جميع أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: ولو نشاء أن نطمسَ على أعينهم، فأعميناها لفعلنا، فإنا قادرون على ذلك.

والطمسُ في اللغة: تغطيةُ شق العين فتصبحُ ممسوحةً، ومفعول المشيئة محذوف للدلالة على أنه مضمون الوقوع.

﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أي: فبادروا إلى الطريق، فكيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم.

ونصب **(الصراط)** بنزع الخافض، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ شأنَ الهداية والضلال منوطٌ بمشيئته تعالى، فكأنه تعالى يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، وتركناهم عُمْياً يترددون، فكيف يبصرون الطريق حينئذٍ؟![1].

وقد سبق التمثيل لمثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس].

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: ولو نشاء لأبطلنا قواهم بحيث يجمدون في مكانهم، ويصبحون كالحجارة. وفي قراءة: **(مكاناتهم)**.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: فلا يستطيعون الحركة ذهاباً وإياباً.

فهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقَّاء أن يُفعلَ بهم ذلك، ولكنا لم نفعل لشمول الرحمة لهم، واقتضاء الحكمة إمهالهم[2].

وأقرب مثال واقعي ملموس على قدرته تعالى على طمس أعينهم وإبطال قواهم، ما يحدثه الله من تغير في بُنيتهم:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ومن نمد في عمره نرده على عكس ما كان من القوة إلى الضعف،

---

(١) تفسير الخازن: ٥/٢١٨.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥/٢١٨.

أفلا يعقلون هذه الحقيقة، ويعلمون أنَّ الله قادر على ذلك؟! قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

* * *

القرآن والشعر

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

وعادت الآياتُ إلى القرآن الحكيم الذي أقسم الله به في صدر السورة، عادت تنوِّه به، وتذكِّر المعاندين بدلائل الإعجاز في نظمه البديع المتميز:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

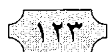
﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: ما علَّمنا رسولنا الشعر، وما هو من طبعه، ولا يَسهل له إنْ أرادَ نظمه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١].

وما جرى على لسانه عليه الصلاة والسلام أحياناً من كلمات موزونة شبيهةٍ بالشعرِ لا يعدُّ شعراً، بل صدر منه عليه الصلاة والسلام على السليقة من غير تكلُّف ولا التفات إلى أنه جاء موزوناً، فمثله يجري في كلام الناس كثيراً، ولا يسمِّيه أحدٌ شعراً، كقوله عليه الصلاة والسلام يومَ حنين [البخاري (٤٣٣٦)]:

«أنا النبيُّ لا كَذِبْ   أنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ»

وقوله ﷺ أيضاً عندما كان يمشي فأصابه حجرٌ فعثر، فدميت إصبعه فقال [البخاري (٦١٤٦)]:

«هَلْ أَنْتِ إلا إصبعٌ دُمِيْتِ   وفي سبيلِ اللهِ ما لَقِيْتِ»



فسجيته عليه الصلاة والسلام تأبى الشعرَ، وهي من صفات كماله، لأنَّها دليلُ صدقِ رسالته، وصحة نبوته كأُمِّيته، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فالقرآن الكريم ليس شعراً ولا يشبه الشعر، ولا يشبه كلاماً قبله ولا كلاماً بعده:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هو إلا عظة تُذكِّر بالله ﷻ، وقرآن بيِّن واضح، يبين الله فيه طريق الوصول إلى جنته ورضوانه.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذرَ الرسول عليه الصلاة والسلام مَنْ كان حيّاً بالإيمان، وفي قراءة: (لتنذر)، فإنما ينتفع بنذارته مَنْ هو حي القلب مستنير البصيرة.

وقد مر معنا في مواضع كثيرة تقرير هذه الحقيقة قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

وسبق معنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يسٓ: ١٢]: أنها تشير إلى هذا المعنى، وأنَّها تؤكد ما قرره تعالى في صدر السورة بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يسٓ: ١١] فالتمسُّك بالقرآن الكريم وخشية الرحمن بالسر والعلن مرقاةُ الوصول إلى مستقر رحمته والفوز برضوانه.

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولتقوم الحجة على الكافرين مستحقي العذاب، أو ليثبت عليهم قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

ولقد سبق أيضاً هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يسٓ: ٧].

* * *

تسخير الأنعام

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ثم ذكَّرتِ الآياتُ المعاندين الجاحدين بخلق الأنعام وتسخيرها لهم، ولا شكَّ أنَّ نعمَ الله كثيرة، ولكنَّها اختارت التذكيرَ بنعمة الأنعام تفصيلاً لما سبق ذكره إجمالاً في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يسٓ: ٤٢].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: ألم يعلموا أنَّا تولينا خَلْقَ الأنعام لهم من غير إعانة أحد، وجعلناهم مالكين لها، يتصرَّفون بها تصرف المالك.

﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ أي: وجعلناها مسخرةً مذللةً لهم، فلولا أنه تعالى جعلها مُسَخَّرة لهم ما تمكَّنوا من الانتفاع بها كما في قوله سبحانه: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]، فلو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه، وسار معه منقاداً ذليلاً:

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وهو بيان لبعض أوجه الانتفاع منها، فصَّله تعالى في مواضع كقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ

لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل].

وفي قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ حَثٌّ لهم على الشكر، واستبطاء له، فعليهم المسارعة إلى الشكر بطاعته تعالى قبل أن يفوتهم، ويتحسَّروا عليه.

* * *

إحياء العظام البالية

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

ومع ذلك أعرض المعاندون عن الشكر، ووضعوا الشرك مكان الشكر فما أظلمهم!.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: عبدوا آلهة مِنْ دون الله تعالى رجاءَ أن ينصروهم في أوقات الأزمات والشدائد!.

والأمرُ على الضدِّ مما يرجون، لأنَّ هذه الآلهة المزعومة عاجزةٌ ضعيفةٌ، لا تستطيعُ حماية نفسها، فضلاً عن حماية غيرها:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: لا تقدر الأصنامُ على نصر المشركين، بل المشركون جندٌ حاضرون

حولها، يحفظونها وينصرونها، فهي عاجزةٌ عن حفظ نفسها بَلْه غيرها، ففاقدُ الشيء لا يعطيه.

ثم التفتت الآياتُ التفاتةً رائعةً، لها نظائرُ كثيرةٌ في التنزيل الحكيم، إلى رسول الله ﷺ تواسيه عما يلقى من شدة عنادهم وجحودهم وإعراضهم عن الأدلة القاطعة الدالة على صحة نبوَّته وصدق رسالته:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: إنا نعلم كل ما يصدر عنهم من كيدٍ خفي، وفجور جلي، فنحبط كيدهم، ونرد مكرهم.

ووقعت هذه الالتفاتةُ في موقعها المحكم من آيات السورة، إذ جاءت تعقيباً على ما سبقها، وتمهيداً لسياقها، ثبَّتتْ به النبيَّ ﷺ في وجه وقاحة بعض المشركين، وجرأتهم عليه:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: أما علمَ الإنسانُ أنَّا خلقناه من ماء قليل ضعيف مهين، فإذا هو بيِّن الخصومة، يتصدَّى لمخاصمة ربه، ويتجرأ على رسوله ﷺ، وينكر قدرتنا على إحياء الأموات بعد تفرق عظامهم.

فالآيةُ تذكِّر الإنسانَ المخاصِمَ المجادلَ المعاندَ، الذي أنكر قدرة الله تعالى على بعث الأموات من قبورهم يوم القيامة، تذكره بأصله الضعيف المهين كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق].

والأعجبُ مِنْ ذلك أَنْ يكونَ خصامه في ألزم وصف له، وألصقه به، وهو كونه منشأً من موات، وهو ينكِرُ إعادة إنشائه من مواتٍ، وهو غاية المكابرة.

نزلت هذه الآية في أُبَيِّ بن خلف الجُمحي من رؤوس المشركين في مكة،

خاصم النبيَّ ﷺ في إنكار البعث، وأتاه بِعَظْمٍ قد رمَّ وبلي، ففتَّه بيده، وقال: أترى يحيي الله هذا بعدَ ما رمَّ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**نَعَمْ، ويبعثُكَ ويدخِلُكَ النارَ**». فأنزل الله تعالى هذه الآيات. [رواه الطبري (٢٣/ ٣٠) والحاكم (٢/ ٤٢٩) وصححه ووافقه الذهبي][(١)].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ﴾ أي: وضرب لنا مثلاً في إنكار قدرتنا على بعث الأموات بالعظم البالي، ونسيَ أنَّا خلقناه من العدم إلى الوجود، ففي نفسه من دلائل القدرة ما هو أعظمُ مما استبعده وجحده.

﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: قال مستنكِراً مستبعِداً: مَنْ يحيي العظام وهي بالية؟!.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ﴾ فمن قَدِرَ على الخلق أول مرة قادر على إعادته مرة ثانية، وهو أمرٌ منطقي وبدهي، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وَسِعَ علمُه كلَّ شيءٍ، فهو يعلم العظامَ المتفرقة في باطن الأرض أينَ ذهبتْ أجزاؤها، وأينَ استقرَّتْ ذرَّاتُها، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤].

ويعلمُ الله أيضاً الأجزاء الأصلية من الأجزاء الدخيلة، ويجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع وبطون السباع، وفي الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ رجلاً حضرَهُ الموتُ لمَّا أيسَ من الحياةِ أوصى أهلَه: إذا مِتُّ فاجمعوا لي حطباً**

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ٢٢٢

كثيراً، فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذرُّوني في يوم عاصفٍ، ففعلوا، فجمعَهُ الله ﷻ فقال: ما حملك؟ قال: مخافتُكَ، فتلقَّاه برحمته» [رواه البخاري (٣٤٧٨)].

* * *

خلق الضد من الضد

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾.

أي: الذي أنبتَ الشجرَ الأخضرَ بالماء، ثم جعله حطباً يابساً توقدون منه النار، كذلك هو قادرٌ على إعادة الغضاضة والطراوة إلى ما كان غضّاً طريّاً في الحياة، فيبس وبلي بعد الممات، فالله قادر على إخراج الضد من الضد.

ثم ذكر تعالى ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ﴾ أي: قال: بلى هو قادر على ذلك.

وهو جوابٌ آخرُ بدهي ومنطقي أيضاً ولازم وملزم، فإنَّ خالقَ هذا الكون العظيم قادِرٌ على خلق أمثالهم من المخلوقات الصغيرة الضعيفة أو الكبيرة القوية مهما كانت: سماءً أو أرضاً، ذرة أو نملة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: وهو الذي يخلق خلقاً بعد خلق، العليم بجميع ما خلق، فمن اتصف بكمال القدرة والعلم لا يعجزه شيء من الممكنات.

وممَّا يدلُّ على كمال قدرته جل وعلا أنه لا يحتاجُ إلى أسباب ووسائل ومقدمات لما يريد إحداثه وتكوينه:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: فيحدث ويوجد من غير امتناع أو توقف، فجميع المكونات بتخليقه وتكوينه مهما كانت صغيرة أو كبيرة، ووجودها متوقِّفٌ على تعلُّق إرادته سبحانه بإيجادها، وقدرته هي المؤثرة في مراده جل وعلا.

وتدلُّ الآيةُ أيضاً على سرعة الإيجاد وحدوث المراد، فهو يأمر أمراً واحداً لا يحتاجُ إلى تكرار أو تأكيد كما مرَّ معنا في آيات الصيحات، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وكما انطلقتِ التسبيحةُ الأولى في أوانها وفي موضعها، تنطلق التسبيحةُ الثانية أيضاً في أوانها وفي موضعها تُتَوِّج خاتمة السورة:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: تنزيه له عما ضربوا له من الأمثال، وهو مالكُ كلِّ شيء، والمتصرِّفُ فيه، فكلُّ شيءٍ منوطٌ بمشيئته، وفي قبضةِ قدرته جلَّ وعلا، ومع التنزيه تعجيبٌ مما قالوا في شأنه ﷻ.

والفاء في قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ جزائيةٌ، أي: إذا عُلم ذلك الذي سبق تقريره في الآية السابقة فسبحان، أو سببية، لأنَّ ما قيل سببٌ لتنزيهه سبحانه.

والملكوتُ: مبالغةٌ في الملك، كالرحموت والرهبوت، فهو الملك التام[١].

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: وإليه تُرجعون بعد الموت لا إلى غيره.

وهو وعدٌ للمتمسكين بالصراط المستقيم، المتبعين آثارَ الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ووعيد للمعرضين الجاحدين.

نسأله تعالى أن يثبتنا على الطريق المستقيم، ويجعلنا من الواصلين إلى مستقرِّ رحمته، والفائزين برضوانه.



(١) روح المعاني: ٢٣/٥٧.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

ومَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ **مقام العبودية لله تعالى** من أعلى المقامات وأشرفها، يستدعي غايةَ الخضوع والتذلل لله وحدَه، مع غايةِ المحبَّة له ﷻ، اتصف به، وحققته الصفوة الممتازة من الأنبياء والمرسلين، ومن صدَّقهم واستجابَ لدعوتهم من المؤمنين.

وقد أبرزت الآياتُ في سورة الصافات هذا المعنى، وأكده سبحانه في صدر السورة، فأقسم بجماعات من عباده أنَّه وحده المستحق للعبادة: ﴿وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾.

ثم قارنت الآياتُ بين مصير المعرضين عن عبادته يوم القيامة، ومصير المنقادين لطاعته.

ثم عرضت نماذج لبعض **مواقف عباد الله المخلَصين**، بدأت بنوح عليه السلام، وتوقفت عند إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، وأبرزت المستوى الرفيع لمقام العبودية الذي حققه هذان النبيان الكريمان في قصة الذبح والفداء. ثم ذكرت

الآياتُ موسى وهارون وإلياس ولوطاً ويونس عليهم السلام، وأثنت على تحقيقهم عبوديتهم لله تعالى.

وختمت ذلك بالتنويه **بالملائكة وإخلاصهم في عبادتهم لله**، وبراءتهم ممن عبدوهم من دونه تعالى.

وخُتمت السورة بالبشارة بتأييدِ الله تعالى ونصره لرسوله ﷺ والمؤمنين، وتنزيهه سبحانه عن كل ما لا يليقُ بجلاله وكماله، مع السلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

مَقامُ العُبُودِيَّةِ للهِ تَعالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ
مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا
مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن
طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)
وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)
قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠)
هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢)
مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ
الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا
بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ
إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ
بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ
(٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ
لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ

بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ
أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ
فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾
أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ
هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾
إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا
فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

• **المصطفون للعبادة:**

أكد الله تعالى في صدر سورة الصافات أنَّه وحدَه المستحقُّ للعبادة، فأقسمَ بجماعاتٍ من عباده الذين اصطفاهم لعبادته، وشرَّفهم بطاعته، أنه وحده المعبود، فقال:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾﴾.

والمراد من **الصافات**: الجماعات التي اصطفاها سبحانه لعبادته من الملائكة ومن غيرهم، فهو قَسَمٌ بالذين حققوا عبوديتهم لله تعالى بطاعته وحده وعبادته، والمرادُ من القسم التنويه بالمقسم به وتعظيمه.

والزاجرات: الجماعات الزاجرون عن ارتكاب المعاصي بأقوالهم وأفعالهم، فإنَّ ارتكابَ المعاصي خروجٌ على معنى العبودية.

والتاليات ذكراً: الجماعاتُ التالية لآيات الله تعالى تعبُّداً وتعليماً.

وقد تجتمع هذه الصفاتُ في بعض الأشخاص، وقد تفترق، ولعل الترتيب

على سبيل الترقي، فالاصطفافُ للعبادة كمالٌ، والزجر عن ارتكاب المعاصي أكمل، وتلاوةُ آياتِ الله تعالى للعبادة والتعليم أكمل وأكمل.

وقد يكونُ المرادُ جماعات الملائكة على وجه الخصوص، ويقوِّيه قوله تعالى حكاية عنهم في آخر السورة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾.

جواب القسم، وفائدته تعظيمُ المقسم به، وهم المتصفون بعبادته تعالى، وتأكيد المقسم عليه، وهو استحقاقه العبادة وحده جل وعلا.

ونبَّه سبحانه بهذا القسم على أنَّ هذه المخلوقات شَرُفَتْ بعبادته، وكملت بطاعته، وله تعالى أن يقسمَ بما يشاء من مخلوقاته، تعظيماً لها وتشريفاً، وليس لنا أن نقسمَ بغيره جَلَّ جَلَالُهُ.

ثم بيَّن سبحانه وجه استحقاقه العبادة وحده فقال:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾.

فهو وحده خالق ومالك ومدبر أمر السماوات والأرض وما بينهما.

وإعادة ذكر (رب) مع المشارق لغاية ظهور آثار الربوبية فيها، وتجددها كل يوم، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

وصرح بها في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].

وأراد بقوله في **سورة الرحمن**: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ مغرب ومشرق الشمس والقمر في الشتاء والصيف.

- **زينة وحرس:**

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾.

أي: إنَّا زينا أقربَ السماوات من الأرض بزينةٍ بديعةٍ عجيبةٍ هي الكواكب،

وهي زينة للسماء، تبدو كأنها على سطحها، فالكواكبُ بدل من الزينة، ويجوزُ أن تكونَ عطفَ بيانٍ، وقرأ الأكثرون (بزينةِ الكواكبِ) بالإضافة على أنها بيانية، فالزينةُ مبهمةٌ صادقةٌ على كل ما يزين به، فتقع الكواكب بياناً لها.

والزينة في الكواكب نفسُها ومواقعُها من بعضها، وفي أنوارها أيضاً، فإنَّها تبدو لأهل الأرض كجواهر مشرقة متلألئة بأشكال مختلفة على سطح أزرق، فضلاً عن ذلك فهي بمثابة مصابيح مضيئة لأهل الأرض.

والسماءُ وتناثرُ الكواكب فيها أجملُ مشهد تقعُ عليه العين ولا تملُّ طولَ النظر إليها، وكل نجمةٍ توصوص بضوئها، وكل كوكبٍ يوصوص بنوره، وكأنَّه عينُ مُحِبَّةٍ تخالسُك النظرَ، فإذا أنتَ حدَّقتَ فيها أغمضتْ وتوارتْ، وإذا أنتَ التفتَّ عنها أبرقتْ ولمعتْ(١).

ولهذه الكواكب وظيفة أخرى تؤديها:

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾.

فهو معطوف على زينة باعتبار المعنى، كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً لها من كل شيطان مارد، وهو المتمرد الخارج عن الطاعة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

ودلت الآية دلالة قاطعة على أن حقيقة السماء مغايرة لحقيقة النجوم والكواكب، كما دلت آيات كثيرة على هذه المغايرة؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار].

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٩٨٤.

ولا شك أن الزينة غير المزين.

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى، وَيُرْمَوْن من كل ناحية يصعدون إليها.

والملأُ الأعلى: هم الملائكة عليهم السلام سكان السماوات. وقرئ: **(لا يَسْمَعُون)** بالتخفيف.

فكما جعل سبحانه الكواكب زينة السماء الدنيا جعلها أيضاً مراكز لحراسة السماء وحفظها من الشياطين، حكى سبحانه ذلك صراحة على لسان الجن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن].

ودلت هذه الآيات على أنَّ السماءَ ما كانت محروسة قبلَ بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن الكريم، فقد كان بعض الجن والشياطين يصعدون إلى السماء، ويسترقون السمع من الملائكة، ويبدو أنهم كانوا يصعدون في جو السماء وجهتها؛ لقوله ﷺ: «**إنَّ الملائكةَ تنزِلُ في العنانِ ـ وهو السحاب ـ فتذكرُ الأمرَ قُضِي في السماءِ، فتسترقُ الشياطينُ السمعَ فتسمعه، فتوحيه إلى الكُهَّانِ، فيكذبون مع الكلمةِ مئة كذبةٍ مِنْ عندِ أنفسِهم**» [رواه البخاري (٢٢١٠)].

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾.

أي: ويقذفون للدحور، وهو الطرد والإبعاد، ولهم في الآخرة عذاب دائم لا ينقطع.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

أي: إلا من اختلس وأخذ بخفة وسرعة شيئاً من كلام الملائكة، فتبعه

ولحقه شهاب ثاقب مضيء، كأنه يثقب الظلام بضوئه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣].

وهو في الأصل الشعلة الساطعة من النار؛ قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

ويطلق أيضاً على الكوكب المضيء اللامع، وعلى بعض الأجزاء الصغيرة الملتهبة المنفصلة عن بعض الكواكب.

ومن الثابت علمياً: أنَّ بعضَ النجوم القريبة من الشمس ذاتُ حرارة عالية ملتهبة، وما ينفصل عنها من أجزاء ملتهب مثلها، وتزداد التهاباً وحرارة عندما تصل إلى جو الأرض وتحتكُّ بهوائها.

• **الطين اللازب:**

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي: فاستخبرهم واسألهم سؤالَ التوبيخ والتبكيت: أَهُمْ أقوى خِلقةً، وأمتن بنيةً أمَّنْ خلقنا من السماوات والأرض وما بينهما؟! وقد يكون المراد: أهم أصعب خلقاً وأشق إيجاداً. . .؟!.

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ أي: إنا خلقناهم بخلق أبيهم آدم من طين لاصق أو لازم، يلتصق بعضه ببعض.

وهو شهادة عليهم بالضعف، لأنَّ ما يُصنع من الطين لا يتصف بالصلابة والقوة، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ينكرون البعث وهم يشاهدون من الظواهر في الخلق ما هو أعظمُ ممَّا ينكرون، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

فلماذا يعبدون غيرَه تعالى، ويجعلون عبادتهم وخضوعهم لآلهة مزعومة عاجزة لا تستحق العبادة. . .؟!.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: بل عجبتَ يا محمَّد من تكذيب المشركين وعنادهم، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقُرِئَ بالضم: (**عجبتُ**) على إسناد التعجُّب لله تعالى، على الوجه اللائق بكماله وجلاله، وليس هو كالتعجب من الآدميين، إذ هو بهذا المعنى لا يجوز على الله تعالى.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وإذا وعظوا بشيء لا يتعظون، وهذا يدل على قسوة قلوبهم، وتحجُّر عقولهم، وقلة تفكيرهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وإذا رأوا معجزة يستدعي بعضهم بعضاً ليسخروا منها، أو: يبالغون في السخرية.

﴿وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

أي: ما هذا الذي نراه إلا سحر بيِّن واضح.

فالحاصل أنهم لا تفيد معهم البراهين الضرورية، ولا المقدمات الوعظية، ولا المعجزات الدالة على صدق ما تخبرهم به من أمر بعثهم من قبورهم للحساب والجزاء، ويصرُّون على قولهم:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: الأقدمون، فبعثهم كما يتصورون أبعدُ وأبطلُ لبُعدِ زمانهم. وقرئ بتسكين الواو: **(أوْ آباؤنا)** على معنى الترديد.

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قل: نعم تُبعثون وأنتم صاغرون أذلاء.

واكتفى بهذا الجواب الحاسم لما سبق من الأدلة الدالة على وقوعه.

ثم بيَّن تعالى سهولةَ بعثهم، وأنَّه ليس أمراً صعباً عليه فقال:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

والزجرة: الصيحة، من زجر الراعي غنمه إذا صاح بها، والمراد بها نفخة البعث الثانية في الصور، كما قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يسٓ: ٥٣].

فصيحة واحدة تكفي لبعثهم وإخراجهم من قبورهم أحياء ينظرون.

- **السوق إلى أرض المحشر:**

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وقال المبعوثون المنكرون ليوم القيامة: يا ويلنا هذا يوم الحساب والجزاء.

ثم أضافوا إلى إقرارهم واعترافهم كلمات يوبِّخ فيها بعضهم بعضاً:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

ويأتي الأمر الإلٰهي بعد بعثهم من قبورهم بسوقهم إلى أرض المحشر:

﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: وأشباههم وأمثالهم فكل طائفة مع مثلها.

أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والحاكم وصححه: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنَّه قال: **أزواجهم**: أمثالُهم الذين هم مثلُهم، يُحْشَرُ أصحابُ الربا مع أصحاب الربا، وأصحابُ الزنى مع أصحاب الزنى، وأصحابُ الخمرِ مع أصحاب الخمر.

وأصلُ **الزوجِ**: المقارِنُ، كزوجي النعل، فأطلق على لازمه، وهو المماثل.

﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: واحشروا معهم الشياطين التي زينت لهم عبادة غير الله تعالى كما في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف].

أو احشروا معهم أصنامهم وأوثانهم زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء].

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: فعرِّفوهم طريق النار وأروهم إياه، والتعبير بالصراط والهداية للتهكم بهم.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: مسؤولون عن عقائدهم وأعمالهم كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر].

وهو سؤال توبيخ وتقريع، لا سؤال استعلام، فلا يسألهم هل عملتم كذا وكذا، لأنَّه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟ فلا يتعارضُ مع قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

أو نقول: يوم القيامة يوم طويل فهذا في حال، وثَمَّ في حال آخر، كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد يكونُ المراد من السؤال قوله تعالى المذكور بعد ذلك:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: لماذا لا ينصرُ بعضُكم بعضاً كما كنتم تقولون في الدنيا: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: بل أسلم بعضهم بعضاً وخذله، وطلب كل واحد منهم سلامة نفسه.

أو: بل هم اليوم مذعنون منقادون لعجزهم، وانسداد الحيل عليهم.

وأصلُ **الاستسلام** طلب السلامة، والانقياد من لوازمه عرفاً، ولهذا استعمل فيه.

- **لوم وعتاب:**

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: يسأل بعضهم بعضاً سؤال لوم وتقريع وخصام.

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: قال الأتباع لرؤسائهم في الكفر والضلال: إنكم كنتم تصدوننا وتمنعوننا عن الخير، وهو الإيمان بما يجب الإيمان به.

ويمكن أن يكونَ المرادُ من اليمين القوة والقهر، فإنَّها موصوفة بالقوة، وبها يقعُ البطش، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣].

والمعنى: إنكم كنتم تحملوننا على الكفر والضلال وتكرهوننا عليه، ويؤيد هذا المعنى قول الرؤساء لهم:

﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩﴾.

أي: بل أبيتم الإيمان باختياركم غير مكرهين ولا ملجئين.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ۝٣٠﴾.

أي: وما كان لنا عليكم من تسلط نجبركم به على الكفر والضلال، بل كنتم قوماً ضالين باختياركم وكَسْبِكُم، وهو كقول إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١﴾.

أي: وجب علينا جميعاً قول ربنا إنا لمعذبون بالنار لعلمه بحالنا وإصرارنا على الكفر والطغيان، وغاية ما فعلنا بكم أن دعوناكم إلى الضلال لتكونوا أمثالنا فيه.

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ۝٣٢﴾.

أي: فأضللناكم إنا كنا ضالين.

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٣﴾.

أي: فإنَّ الأتباع والمتبوعين في العذاب مشتركون كما كانوا في الضلال مشتركين.

• **المنسلخون عن العبودية:**

وهو أمر عام قدره تعالى على جميع المجرمين الذين سلخوا أنفسهم عن العبودية لله تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

سواء كانوا رؤساء أو مرؤوسين.

ثم بيَّنت الآياتُ أنَّ أعظمَ جرائمهم استكبارُهم عن عبادة الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: يستكبرون عن الإذعان لها والإقرار بعبوديتهم لله ﷻ.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾.

وأرادوا به النبي ﷺ. وقد جمعوا بقولهم هذا بين إنكار الوحدانية وإنكار الرسالة، وردَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

فالتوحيدُ الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام هو الحق الثابت المؤيد بالبراهين والذي دعا إليه جميع المرسلين.

وبعد أن ردَّت عليهم الآياتُ التفتت تخاطبهم بقوله تعالى الدال على شدة غضبه عليهم:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

بسبب الشرك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وما تجزون إلا بمثل ما عملتم.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: الذين أَخْلَصَهم الله لعبادته، فلا يذوقون العذاب الأليم، بل يغفر الله سيئاتهم، ويعفو عنهم، ويدخلهم بفضله الجنة.

وقرِئت بالكسر: (**المخلِصين**) أي: الذين حققوا معنى عبوديتهم لله، فأطاعوه وحده، وأخلصوا في عبادته.

● **الرزق المعلوم:**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾.

أي: معلوم الصفة من طيب طعم، ولذة، ورائحة، وحسن منظر.

أو: معلوم أنه من رزق الجنة فلا يوجد في غيرها.

﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: ورزقهم فواكهَ يُتلذَّذ بها ولا يتقوت، لأنهم مستغنون عن القوت، وهم مكرمون في تناوله، يصل إليهم من غير تعب وسؤال.

ثم وصفت الآيات مجالسهم ومشاربهم بعد وصف طعامهم:

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: في جنات ليس فيها إلا النعيم.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: خارج من العيون، وهو صفة خمر الجنة، لأنه يجري في أنهار، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: بيضاء صافية نقية يلتذ بها الشاربون، أو يشتهيها الشاربون.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: ليسَ فيها غائلةٌ تغتال عقولهم، وتؤذي أبدانهم، كما في خمر الدنيا، ولا هم منها يسكرون، فلا يوجَدُ في خمر الجنة ما يوجد من الفساد في خمر الدنيا كالسُّكْر وذهاب العقل وصداع الرأس والأسقام التي تسببها للأبدان.

ثم وصفت الآياتُ أزواجهم في الجنة:

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وعندهم نساءٌ عفيفاتٌ حييَّاتٌ، لا ينظرن إلى غير أزواجهن حياء، حِسان الأعين مع رقة ولطف وعفة ونعومة.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: في صفاء البيض المصون المستور، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.

- **ذكريات ومسامرات:**

ثم وصفت الآياتُ أحاديثَ أهل الجنة ومسامراتهم في مقابل ما سبق من حكاية تخاصم أهل النار:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: يتساءلون عما جرى لهم في الدنيا، وما أحلى الذكريات عند رفاهية الحال وفراغ البال.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

أي: كان لي في الدنيا مقارن أو مصاحب أو مجالس، ينكر البعث والحساب والجزاء.

﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: يقول موبِّخاً لي على الإيمان بيوم القيامة والتصديق بالبعث:

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: لمجزيون ومحاسبون، وهو استفهام إنكاري.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

قال المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة: هل أنتم مشرفون على النار؟!.

﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فأشرف على أهل النار فرأى قرينَه في وسطها.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: قال المؤمن المنعَّم لقرينه المعذَّب: واللهِ لكدتَ أن تهلكني، (إنْ)

مخففة من الثقيلة، وهي تدخلُ على (كادَ)، كما تدخل على (كان)، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ولولا نعمة ربي علي بالهداية والتثبيت لكنتُ من المحضرين معك في العذاب.

ويتابع المؤمنُ كلامه يتحدَّثُ بنعمة الله عليه على مسمعٍ من قرينه ليكونَ توبيخاً له:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: نحن مخلَّدون منعَّمون، فما نحن بميتين إلا الموتة الأولى التي كانت في الدنيا، وما نحن أيضاً بمعذَّبين.

وبعد أن فرغتِ الآياتُ من وصف نعيم أهل الجنة ومسامراتهم وذكرياتهم عقَّبت عليه بقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

وهو النجاة من النار، والفوز بالجنة والرضوان.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: للوصول إلى هذا الفوز يجب أن يعمل العاملون، لا من أجل حطام الدنيا الزائلة.

فالتنافس والتسابق على طريق الجنة أمرٌ محمودٌ، قال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

أمّا التنافسُ من أجل حطام الدنيا الزائلة فأمرٌ مذموم، لأنَّه يؤدِّي إلى الحرمان من هذا النعيم، وإلى مقاساة أنواع العذاب في الجحيم.

• **شجرة الزقوم:**

ومن هذا العذاب الأكل من شجرة الزقوم:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: أذلك الرزق المعلوم في الجنة خيرٌ رزقاً أم شجرة الزقوم.

والنزُل: ما يقدم للنازل بالمكان من الرزق. **وشجرة الزقوم**: مشتقة من التزقّم، وهو البلعُ على جهدٍ لكراهتها ونتنها، يأكلُ منها أهل النار، وهي طعامهم كما سيأتي.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: إنا جعلناها محنة وعذاباً للظالمين في الدنيا والآخرة، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار ولا تحترق؟! وبهذا كانت اختباراً وامتحاناً للناس لإظهار مَنْ يصدِّق منهم ومن يكذِّب، وهي عذابٌ لهم في الآخرة، لأنَّها طعامهم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: تنبت في قعر جهنم.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: ثمرها الذي يطلع منها كأنه في القبح رؤوسُ الشياطين، وهو تشبيه

تخييلي، شبَّه ثمرها بالشياطين لقبحهم عند الناس، والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت: كأنَّه رأسُ شيطانٍ.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: إنَّ الظالمين لآكلون من شجرة الزقوم حتى تمتلئ بطونهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: ثم إنهم يشربون الحميمَ على الزقوم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقعة].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ثم إنَّ مرجعهم بعد هذا العذاب إلى نارٍ تتأجَّجُ، وجحيمٍ تتوقد، وسعير تتوهَّجُ.

ويبدو أنهم يساقون إلى الحميم كما تساقُ الإبل إلى الماء، ثم يردُّون إلى وسط الجحيم، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

فإنَّ في جهنم مواضع كثيرة أعدَّ الله لهم في كلِّ موضع لوناً من العذاب.

ثم بيَّنَ تعالى سببَ استحقاقهم لهذا العذاب الأليم فقال:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أي: وجدوا آباءهم ضالين، فساروا على طرقهم من غير تدبُّر ونظر.

والإهراع: الإسراع الشديد، وفي بناء الفعل للمفعول إشارةٌ إلى مزيد رغبتهم في الإسراع على آثار آبائهم من غير توقُّف وتفكير، فالقوم قلَّدوا آباءهم، وعطلوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولو لم يكن في ذم التقليد الأعمى إلا هذه الآية لكفى.

والتقليدُ الأعمى من أعظم أسباب الضلال، وأكثرها شيوعاً وذيوعاً بين الأمم:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)﴾.

أي: بسبب التقليد الأعمى، وتعطيل وسائل النظر والتفكير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢)﴾.

يبيِّنون لهم عاقبة الضلال، ويحذرونهم من سطوة الله وانتقامه.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾.

أي: انظر كيف أهلكناهم، فكانت عاقبتهم في غاية الشدة والفظاعة.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)﴾.

أي: إلا الذين آمنوا وأخلصهم الله لعبادته وطاعته.

أو: إلا الذين آمنوا وأخلصوا في تحقيق عبوديتهم لله (على القراءة بكسر اللام)، نجوا من العذاب، الذي أنزله الله بالمكذبين كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

والخطابُ وإنْ كان لرسول الله ﷺ لكنَّ المقصودَ به قومُه، فلا بدَّ أن يكونوا قد سمعوا أخبار الأمم السابقة ورأوا آثارهم.

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ الثَّانِي

بَعْضُ مَوَاقِفِ عِبَادِ اللهِ المُخْلَصِينَ

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ
هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ
(٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٨٢) ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ
رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا
ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ
إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ
يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى
ٱلْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ
لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ
أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ
أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥)
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ
إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ (١١٣) وَلَقَدْ
مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟
هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١)
إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤)

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ
(١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠)
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣)
لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن
يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾

• **الإيمان والعبودية:**

ثم شرعت الآياتُ تفصِّل ما أجملت في سياقها، وتعرضُ بعض أخبار الكُمَّل من الأنبياء والمرسلين، الذين حققوا عبوديتهم لله جلَّ وعلا في أسمى صورها، فكانوا الأسوةَ الطيبةَ الصالحةَ في جميع ميادين الخير.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥)﴾.

أي: ولقد دعانا نوح فأجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه.

والتقدير: فوالله لنعم المجيبون نحن، فحُذِفَ منه ما حُذف لقيام ما يدل عليه، والجمعُ دليل العظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)﴾.

أي: ونجّيناه وأهله من الغم الشديد، وهو التكذيب والأذى الذي استمر ألف سنة إلا خمسين عاماً كما مرَّ معنا عند قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

والمراد بـ **(أهله)**: المؤمنون، أما امرأته وولده الكافر فكانوا من المغرَقين،

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

وقال أيضاً: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود].

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

فهو الوالد الثاني للبشرية بعد آدم عليه السلام.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: أبقينا له ثناءً حسناً، وذكراً طيباً، فيمن أتى بعده من الأمم، فلا يذكر إلا بخير.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: سلامٌ على نوح في كل العالمين كعالم الملائكة وعالم الإنس وعالم الجن. و(سلام) نكرة جاز الابتداءُ به لما فيه من معنى الدعاء.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

أي: هذا الذي أكرمناه به مجازاة على إحسانه في تحقيق عبوديته لربِّه، وتبليغ رسالته، وصبره على أذى قومه كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: إنه من الذين حققوا عبوديتهم لله تعالى حتى استحقوا أن يشرفوا

بالإضافة إلى ذاته بهذه الصفة، صفة العبودية.

وهي شهادةٌ من الله تعالى في معرض الثناء على نوح ﷺ، دلَّت على علوِّ مرتبتيِ الإيمانِ والعبوديةِ، وأنهما من أعظم صفات المدح والتكريم.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: أغرقنا المعاندين المكذبين الذين سلخوا أنفسهم عن مقام عبوديتهم لله تعالى.

ثم انتقلت الآيات إلى الحديث عن إبراهيم ﷺ:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: إنَّ إبراهيم من شيعة نوح ﷺ، ونجَّاه الله تعالى من الحرق، كما نجَّا نوحاً من الغرق، وجعله والدَ جميعِ الأنبياء والمرسلين الذين بعثوا بعده.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: أخلصَ لله قلبه، وأقبل على عبادته وحده، فلم يكن في قلبه شيءٌ من العلائق الدنيوية، كما سيأتي بيان ذلك في قصة الذبح والفداء [الآيات: ١٠٢ ـ ١١١].

• **تكسير الأصنام:**

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وهو استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ، أتبعه باستفهام توبيخي آخر:

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: تأفكون إفكاً، وتعبدون آلهة سوى الله تعالى. **والإفكُ**: أسوأُ الكذبِ، وأفادَ تقديمُه تقرير أنهم على باطل، وأنَّ أمرهم مبني على الإفك.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: ما ظنُّكم أنَّه فاعل بكم وقد عبدتم غيره.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: نظرَ في النجوم نظرَ المتفكِّر في قدرة الله الذي خلقها وأبدعها.

﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: إني مريضُ القلبِ من عبادتكم غير الله تعالى.
فظنَّ قومه أنه مريض حقّاً:

﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

أي: فتركوه، وانصرفوا عنه إلى عيدٍ لهم خارج البلد.
وبهذا تمكَّن عليه السلام من الانفراد بأصنامهم لكي يحطمها، ويحقق قسَمه الذي صدر منه عندما قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

أي: ذهبَ إليها سرّاً وقال مستهزئاً: ألا تأكلون؟! ويبدو أنَّ قومه تركوا عندها طعاماً يرجون بركتها فيه.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

وهو سؤال المتعجب من عبادة قومه لهذه الأصنام العاجزة عن الكلام.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: مال عليهم ضارباً ضرباً شديداً بيمينه حتى كسرها، وجعلها قطعاً كما

قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾.

أي: أقبلَ قومه إليه يسرعون بعد أن رجعوا إلى أصنامهم ورأوها مكسَّرةً محطمةً. وفي قراءة: (يُزفون) أي يدفع بعضهم بعضاً.

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: أتعبدون ما تنحتون من الأصنام بأيديكم؟! وهو سؤال إنكار وتوبيخ.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

أي: وتعرضون عن خالقكم وخالق أعمالكم.

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾.

أي: ابنوا له بنياناً مشرفاً على النار التي أوقدوها فألقوه فيها.

ولم يتزعزع عليه السلام، ولم يضطرب، بل بقيَ رابطَ الجأش، ثابتَ القلبِ، ولم تؤثر فيه ألسنةُ النيران المتصاعدة في جو السماء، ولا صرخاتُ الجماهير المزدحمة حوله، وكان عليه السلام يردِّدُ بقلبه ولسانه: **حسبي الله ونعم الوكيل**.

ففي «**صحيح البخاري**» [٤٥٦٣] عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: **حسبنا الله ونعم الوكيل**، قالها إبراهيمُ عليه السلام حين أُلقيَ في النارِ، وقالها محمَّدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

أي: أرادوا به شرّاً فأبطله الله، وجعلهم المقهورين، وسلَّمه الله من شرهم

وكيدهم، فجعل النارَ برداً وسلاماً عليه كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ومع وضوح المعجزة الدالَّة على صدق إبراهيم؛ وصحة دعوته؛ أصرَّ قومُه على عنادِهم وكفرهم، فأهلكهم الله بعدَ أنْ أمرَ إبراهيمَ بالهجرة إلى بلاد الشام.

- **الهجرة إلى بلاد الشام:**

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: إنِّي ذاهبٌ إلى حيثُ أمرني ربِّي سيرشدني إلى مقصدي، ويوفِّقني في مذهبي.

وهذا يدل على ثقته عليه السلام بربه، وتوكله عليه، وتوجُّه عليه السلام إلى الأرض المباركة كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وسأل الله تعالى في طريق الهجرة أن يرزقه الولدَ الصالحَ، لكي يكونَ معيناً له في الدعوة، ويؤنسه في الغربة:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

أي: فاستجاب الله دعاءه، وبشَّره بغلام حليم.

ولنا أن نتصوَّر فرحة إبراهيم المهاجر الغريب بهذا الغلام الذي وصفه ربُّه بأنه غلام حليم، وسنرى آثار حلمه في قصَّة الذبح والفداء، وسيكشفُ لنا سرَّ وصفِ الله تعالى له بهذه الصفة، وقيل: ما نعتَ الله نبيّاً بالحلم لعزَّةِ وجوده غير إبراهيم وابنه عليهما السلام، وحالهما المذكورة بعدُ تشهد له.

وهذا الغلامُ الحليم هو إسماعيل عليه السلام، فهو الذبيح. أما إسحاق فقد بُشِّرَ به بعد ذلك، قال الله بعد قصة الذبح: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

قال الأصمعي رحمه الله: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح أإسحاق كانَ أم

إسماعيل؟ فقال: يا أصمعيُّ أينَ ذهبَ عقلكَ؟! متى كان إسحاقُ بمكةَ؟! وإنَّما كان إسماعيلُ، وهو الذي بنى البيتَ مع أبيه.

وأيضاً فإنَّ الله تعالى قال في سورة هود: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هُود: ٧١]، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بأن يرى ولد ولده؟![١].

● **رؤيا الأنبياء:**

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: لما كَبِرَ وترعرعَ، وصار يَقْدِرُ على المشي مع أبيه في حوائجه، وبهذا السنِّ يزدادُ تعلق الوالد بولده.

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ وفي قراءة: **(يا بنيِّ)** بكسر الياء، يحتمل أنَّه رأى ذلك أو رأى ما هو تعبيره، ولم يقل: (رأيت) لأنه رأى مرة بعد مرة.

ورؤيا الأنبياء وحيٌ كالوحي في اليقظة، فإنَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تنامُ أعينهم، ولا تنام قلوبهم، كما في الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**جاءه ثلاثةُ نفرٍ قبلَ أنْ يوحَى إليه، وهو نائمٌ في المسجدِ الحرامِ، فقال أولُهم: أيُّهم هو؟ فقال أوسطُهم: هو خيرُهم... والنبيُّ ﷺ نائمةٌ عيناه، ولا ينامُ قلبُه، وكذلك الأنبياءُ، تنامُ أعينُهم، ولا تنامُ قلوبُهم**» [رواه البخاري (٣٥٧٠)].

وعن **عائشة** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: ما كان النبيُّ ﷺ يزيدُ في رمضانَ ولا غيرِه على إحدى عشرةَ ركعةً، يصلِّي أربعَ ركعاتٍ، فلا تسألْ عَنْ حُسْنِهنَّ وطُولهنَّ، ثم أربعاً، فلا تسألْ عن حسنهنَّ وطولهنَّ، ثم يصلِّي ثلاثاً، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ تنامُ قبلَ أن توترَ؟ قال: «**تنامُ عيني ولا ينامُ قلبي**» [رواه البخاري (٣٥٦٩)].

ولا شك أنَّ التكليفَ بالذبح بواسطة الوحي في أثناء النوم أكملُ في

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥/ ٢٤٢.

الابتلاء من التكليف به في اليقظةِ، أظهرَ الله تعالى به المزيدَ من فضل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام في قصة الذبح والفداء، واستسلامهما وإذعانهما للتكليف الإلٰهي.

قال البيضاوي رحمه الله: «ولعلَّ الأمرَ به في المنامِ دون اليقظةِ، لتكونَ مبادرتهما إلى الامتثالِ أدلَّ على كمالِ الانقياد والإخلاص»(١).

فهذا التكليفُ وحيٌ، ولا يصحُّ أن نقولَ عنه: إنَّه إشارة ومجرد إشارة فقط، كما قال سيد قطب رحمه الله في «**الظلال**»: نعم إنَّها إشارة مجرد إشارة، وليست وحياً صريحاً، ولا أمراً مباشراً، ولكنّها إشارة من ربه، وهذا يكفي ليلبِّي ويستجيبَ دون أن يعترضَ ودونَ أن يسألَ ربه: لماذا يا ربي أذبحُ ابني الوحيد.

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ أي: ما تُريك نفسُك من الرأي.

وفي قراءة: **(ماذا تُري)** بضم التاء وكسر الراء، أي: ماذا تبدي من رأيك.

وواضحٌ أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يشاور إسماعيلَ ليرجعَ إلى رأيه، وإنَّما شاوره ليعلمَ ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى، وليعلمَ صبره على أمرِ اللهِ، وعزمَه على طاعته، أو لتقرَّ عينُه بما يرى من طاعة ابنه واستسلامه لأمر الله.

ودلّتْ هذه المشورةُ أيضاً على ثقته عليه السلام بولده، وحُسن ظنه به، وأنَّه سيكون عوناً له على تنفيذ أمر الله تعالى، وتَحقَّق ما كان يرجوه إبراهيم من ولده عليهما الصلاة والسلام.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: افعل ما أُمرتَ به.

ودلَّ قولُهُ هذا على علوِّ مداركه عليه الصلاة والسلام، وهو لا يزالُ في بواكير عمره، فقد أدرك أنَّ رؤيا الأنبياءِ وحيٌ، وأنَّ رؤيا والدِه أمرٌ إلٰهيٌّ، فحثَّه على تنفيذه مع أنَّ والدَه أعلمَه بالأمرِ بأسلوب الاستشارة.

ولمَّا كان خِطابُ الوالدِ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بأسلوبِ الترحُّمِ كان خطاب الولد ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بأسلوب التوقيرِ والتعظيمِ. وفي قوله:

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥/ ٢٤٣.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ما فيه من التواضع والاستسلام لأمر الله تعالى، وفيه أيضاً عزاءٌ لأبيه على الصبر، لما يعلمُ من شفقته عليه مع عظم البلاء، حيث أشارَ إلى أنَّ لله تعالى عباداً صابرين(١).

• **الاستسلام وتصديق الرؤيا:**

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾.

أي: فلمَّا استسلما لأمر الله تعالى وانقادا وخضعا له، وذلك أنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسلم ابنه، وإسماعيلَ سلَّم نفسَه، فحققا بذلك كمال العبودية لله ﷻ، وأضجعه على جبينه على الأرض.

وأصلُ **التلِّ**: الرميُ على الترابِ، وهو الترابُ المجتمع. **والجبين**: جانبُ الجبهة.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ أي: قد حققت ما أمرناك به في الرؤيا، وحصل المقصودُ منها، وأظهرتَ كمال الاستسلام والانقياد لأمر الله تعالى.

فإن قيل: كيف صدَّق الرؤيا وكان قد رأى الذبحَ ولم يذبحْ، وإنَّما كان تصديقُها لو حصل الذبح؟.

قلتُ: جعله مصدِّقاً، لأنَّه بذلَ وسعه ومجهوده، وأتى بما أمكنه، وفعل ما يفعله الذابحُ، فقد حصل المطلوبُ، وهو إسلامهما لأمر الله تعالى، وانقيادهما لذلك، فلذلك قال له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾.

وجواب ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ محذوفٌ تعظيماً له، ليذهبَ الخيالُ في تقديره كلَّ مذهب، إذ صدَّقَ إبراهيمُ الرؤيا، وكان ما كانَ ممَّا ينطقُ به العيان، ولا يحيط

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥/ ٢٤٤.

به البيانُ من استئثارهما بما أنعمَ الله عليهما من دفع البلاء، وبما اكتسبا في تضاعيف ذلك من الثواب والثناء، وقد أشيرَ إلى جميعِ ذلك بقوله:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نَصْرِفُ عمَّنْ أحسنَ طاعتنا وعبادتنا المكارهَ والشدائدَ، ونجعلُ لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً كما قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

أي: إنَّ هذا لهو الاختبار البيِّن الواضح، الذي يتميز فيه المخلصون عن غيرهم، أو المحنة الشديدة الظاهرة الشدة التي اجتازها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بنجاح.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

أي: وفديناه بحيوان عظيمِ القدرِ، يُذْبَحُ بدله، وهو ـ كما ذكر المفسرون ـ كبش أبيض أقرن.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

أي: وتركنا لإبراهيم ثناءً حسناً فيمن يأتي بعده، فما مِنْ أمةٍ إلا تصلِّي عليه وتحبه قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

والجديرُ بالذكر أنَّ مناسك الحج التي تؤدَّى في منى قد شرعت بعد حادثةِ الذبح والفداء، قال ابن عباس ﵄: لمَّا أُمرَ إبراهيمُ بذبح ابنه عرضَ له الشيطانُ عند جمرةِ العقبةِ، فرماه بسبع حصياتٍ حتَّى ذهبَ، ثم عرضَ له عندَ الجمرةِ

الوسطى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهبَ، ثم عرضَ له عندَ الجمرةِ الأُخرى، فرماه بسبع حصيات حتّى ذهبَ، ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى(١).

وشرعت أيضاً الأضاحي في أيام النحر والتشريق، وهي أيام منى، وأنزل الله فيها قوله الكريم: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾.

وهذا السلام نعمةٌ أخرى من نعم الله التي تفضَّل بها على إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

وهو إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل والسلام عليه، بينما قوله السابق: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥] أي: نصرف المكاره عن من أحسن طاعتنا وتحقق بالعبودية لنا، فلا تكرار، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾.

أي: إنَّه من الذين حققوا صفة العبودية لنا بأسمى صورها.

• **النبي العبد:**

والجدير بالذكر أنَّ نبينا محمداً ﷺ قد تحقَّقَ بكمال العبودية لله، فوصفه ربه سبحانه بصفة العبودية في عدد من الآيات الكريمة، وهو في أعلى المقامات، ففي مقام الإسراء قال تعالى فيه: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/١٠٦.

ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وفي يوم بدر أنزل الله تعالى فيه أيضاً: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وفي مقام تبتُّله وعبادته قال تعالى فيه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

فهو عليه الصلاة والسلام المتفرِّدُ بكمال العبودية لله تعالى، الذي اختار أن يكونَ نبيّاً عبداً على أن يكونَ نبيّاً ملكاً، ففي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا عائشةُ لو شئتُ لسارت معي جبالُ الذهب، جاءني مَلَكُ، وإنَّ حجزتُه لتساوي الكعبة** (أي: وسطه) **فقال: إنَّ ربَّكَ يقرأُ عليكَ السلامَ، ويقولُ لكَ: إنْ شئتَ نبيّاً عبداً، وإنْ شئتَ نبيّاً ملكاً، فنظرتُ إلى جبريلَ** عليه السلام**، فأشارَ إليَّ أنْ ضَعْ نفسَك فقلتُ: نبيّاً عبداً**» [قال في «كنز العمال» (٣٢٠٢٨): رواه ابن سعد والطبراني في الكبير وابن عساكر].

وفي رواية ابن عباس: فالتفتَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى جبريلَ كالمستشيرِ له، فأشارَ جبريلُ بيدِهِ أَنْ تواضعْ، فقلتُ: «**نبيّاً عبداً**» [رواه ابن عساكر].

قالت عائشة: فكان رسولُ اللهِ ﷺ بعد ذلك لا يأكلُ متكئاً يقول: «**آكُلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ**» [أخرجه أحمد في الزهد، والبيهقي في الشُّعَب، وأبو يعلى والبغوي وابن سعد وأبو الشيخ].

قال القاضي عِياض رحمه الله: «وأما تواضعه ﷺ على علوِّ منصبه ورفعة تبتله فهو أشدُّ الناس تواضعاً وأقلهم كبراً، وحسبك أنه خُيِّرَ بين أن يكون نبيّاً ملكاً أو نبيّاً عبداً، فاختار أن يكون نبيّاً عبداً، فقال له إسرافيل عند ذلك: فإنَّ الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول شافع»(١).

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص١٧٣.

وعلَّق القاري في الشرح على قوله: (**وأقلُّهم كبراً**): كذا في الأصول المصححة، ولعلَّه أراد بأنَّه كان يتكبَّر أحياناً لظهور كبرياء الله ﷻ فيه بالنسبة إلى بعض المتكبِّرين، لما ورد من أنَّ التكبر على المتكبر صدقة، وفي أصل الدلجي: وأعدمهم كبراً.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

أي: وبشرنا إبراهيم بإسحاق، وأنَّه سيكونُ نبيّاً من الصالحين.

ولا شك أنَّ وَقْعَ البشارة على قلبِ إبراهيم أعظمُ عندما يعلمُ أنَّ ولده سيكون نبيّاً من الصالحين، وهذا يؤكِّدُ أنَّ الذبيحَ إسماعيلُ، فإنَّه وُصِفَ بقصة الذبح بأنه غلام حليم، وقال تعالى بعد ذلك تعقيباً على القصة: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ولمَّا حملت الملائكةُ البشارةَ إلى إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

فإسماعيل وصف بالحلم، وهو مناسِبٌ للمقام، كما وصف أيضاً بالصبر وصدق الوعد في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وقوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

وهذه الصفاتُ توافِقُ ما اتَّصفَ به في قصة الفداء والذبح وقوله لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

أي: أفَضْنَا عليهما خيرات الدين والدنيا، وجعلنا من ذريتهما مَنْ يحسِنُ تحقيق عبوديته لله تعالى، ومنهم من يظلِمُ نفسَه بالكفر والمعاصي ظُلماً ظاهراً

كما قال الله لإبراهيم عندما سأل الإمامةَ لذريته: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وفي ذلك دليلٌ على أنَّ النسبَ لا أثرَ له في الهدى والضلال، وأنَّ الظلم في الأعقاب لا يعودُ على الأصل بنقيصة وعيب(١).

ولهذا قال النبيُّ ﷺ حين أنزلَ الله عليه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «**يا معشرَ قريشٍ! اشتروا أنفسَكم، لا أغني عنكم مِنَ اللهِ شيئاً، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم مِنَ اللهِ شيئاً، يا عبَّاس بن عبد المطلب! لا أغني عنك مِنَ اللهِ شيئاً، ويا صفيْةُ عمَّةَ رسولِ اللهِ! لا أغني عنكِ مِنَ اللهِ شيئاً، ويا فاطمةُ بنتَ محمَّد! سليني ما شئتِ مِنْ مالي لا أغني عنكِ مِنَ اللهِ شيئاً**» [رواه البخاري (٤٧٧١)].

- **المِنَّة على موسى وهارون:**

وتحولت الآيات بعد أن فرغت من قصة الذبح والفداء إلى ذكر نبيين كريمين تحقَّقا بكمال العبودية لله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

أي: أنعمنا عليهما بنعم كثيرة، منها:

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾.

وهو ظلم فرعون وطغيانه.

﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

أي: كانوا هم الغالبين لفرعون وجنوده.

---

(١) روح المعاني: ٢٣/ ١٣٣.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

أي: المستنير أو البليغ في بيانه، وهو التوراة.

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾.

أي: بيَّنا لهما طريق الوصول إلى الحق والفوز برضوان الله تعالى.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: جعلنا لهما ثناءً حسناً فيمن يأتي بعدهما.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

أي: الذين أحسنوا في تحقيق عبوديتهم لله تعالى وطاعته، ولهذا شهد الله لهما بأنَّهما من عباده المؤمنين فقال:

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

- **سلام على إل ياسين:**

ثم أضافت الآياتُ ذكر إلياس عليه السلام:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وقد تعددت أقوال المفسرين في قومه الذين أُرسل إليهم وفي زمن إرساله، والأَولى الاكتفاء بما ذكر القرآن الكريم، فهو من المرسلين، ذكره تعالى هنا، وذكره أيضاً في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

وستأتي معنا الإشارةُ إلى البلد الذي أرسل إليه، والأرجح أن يكونَ النبيَّ المعروف في العهد القديم باسم إيلياء، وقد أُرسل إلى قوم في سورية من بلاد

الشام، كانوا يعبدون صنماً يسمونه بعلاً، ولا تزال آثار هذه العبادة قائمة في مدينة بعلبك.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

أي: ألا تخافون الله فتطيعوه وتعبدوه وحده.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: أتعبدون بعلاً، وتعرضون عن عبادة الله أعظم الخالقين؟!.

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

قرئ بالنصب على البدل من (**أحسن**) وبالرفع على الابتداء.

و(**بعل**) اسم صنمهم، ويبدو أنَّ مدينة بعلبك سُمِّيت به، وهي مدينةٌ عامرةٌ تقع في سهل البقاع من لبنان في بلاد الشام، فيها قلعة مشهورة بآثارها القديمة الرومانية، وفيها أيضاً آثار إسلامية كثيرة، واسم بعلبك مركب تركيباً مزجيّاً من (**بعل**) اسم الصنم و(**بك**) اسم رجل كان ملكاً فيها[١].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

أي: إنهم لمُحْضَرون في العذاب، وأطلقت لأنها مخصوصة بالعذاب كما سبق معنا في قوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

أي: الذين أخلصهم الله لعبادته وطاعته.

---

(١) الصحيح أن (**بك**) تعني بيت العبادة، ومنه سُميت مكة أو بكة، أي: بيت العبادة، أي مسجد، فبعلبك بيت عبادة الإلٰه بعل (ن).

وقرئت بالكسر (**المخلِصين**) أي: الذين أخلصوا في عبادة الله وحده، وتحققوا بمقام العبودية له. والاستثناء من الواو في (**لمحضرون**).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أي: تركنا له ذكراً حسناً في الآخرين كما ترك للأنبياء السابق ذكرهم.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أي: سلام على إلياس وقومه المؤمنين.

ومع السلام ثناء وشهادة من الله تعالى بأنه من المحسنين الذين حققوا مرتبة الإحسان في عبادة الله تعالى، التي ذكرها النبيُّ ﷺ في قوله: «**الإحسانُ أن تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإن لَمْ تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ**» [رواه مسلم (٨)]:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

- **المنة على لوط:**

ثم مرَّت الآياتُ سريعاً على ذكر نبي الله لوط، وما أنزل الله بقومه من العذاب:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

وهي امرأته، التي بقيت مع المعذبين بسبب كفرها.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

أي: ثم أهلكنا الآخرين.

ثم توجَّهتِ الآيات تخاطِبُ قومَ النبي ﷺ داعية لهم إلى الاتعاظ والاعتبار بآثار الهالكين التي يمرُّون عليها في أسفارهم:

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

- **صاحب الحوت:**

وتوقفت الآياتُ عند ذكر نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لتبرزَ قصته الفريدة العجيبة:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾.

أي: إذ هرب وترك قومه قبل أن يأذنَ له ربُّه، وركب سفينة مملوءة.

ويطلق **الإباقُ** في الأصل على الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه؛ حَسُنَ إطلاقه عليه.

ومرَّ معنا ذكره في **سورة الأنبياء** في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

وهذا القولُ أولى ممَّا نقله القرطبي عن الحكيم الترمذي: أسماه آبقاً، لأنه أبق عن العبودية، وإنَّما العبوديةُ تركُ الهوى، وبذلُ النفسِ عند أمور الله.

فيونسُ رسولٌ كريم لا يليقُ أن نقولَ عنه: (أبق عن العبودية) وكل ما فعله أنَّه تركَ قومه مغاضباً منهم، لأنَّهم لم يستجيبوا لدعوته قبل أن يأذنَ له ربُّه، وهو الأنسبُ بحال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

وحتى لا يسيءَ أحدٌ الظنَّ بيونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويصفه بما لا يليق بحال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قال رسول الله ﷺ: «**لا يقولَنَّ أحدُكم: إنِّي خيرٌ من يونسَ**» [رواه البخاري (٣٤١٢)].

قال ابنُ حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما قال ﷺ ذلك تواضُعاً إنْ كانَ قاله بعدَ أنْ أُعلِمَ أنه أفضلُ الخلقِ، وإنْ كانَ قاله قبلَ علمهِ بذلك فلا إشكالَ، وقيل: خَصَّ يونسَ

بالذكر لِمَا يُخشى على مَنْ سمعَ قصته أن يقعَ في نفسه تنقيصٌ له، فبالغَ في ذكر فضله لسدِّ هذه الذريعة»[1].

ويبدو أنَّ السفينةَ أوشكت على الغرق لكثرة مَنْ فيها كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فأرادوا تخفيفَ حمولتها، فاقترعوا على مَنْ يرمونه في البحر، فخرجت القرعةُ على يونس عليه السلام:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

أي: فكان من المغلوبين في القرعة.

- **القرعة في الإسلام:**

والاقتراعُ على إلقاء آدمي في البحر لا يجوزُ، إنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته، وعليهم أن يصبروا على قضاء الله عز وجل، وهي مشروعةٌ في الإسلام لقطعِ التنازُعِ بين أصحاب الحقوق المتساوية، كالسفر بإحدى الزوجات، وتعيين أصحاب الحصص في القسمة بين الشركاء، أو بين المستحقين في قسمة الميراث.

وقد بوَّب الإمامُ البخاري في «**صحيحه**» في [٥٢] كتاب الشهادات فقال: [٣٠] بابُ القرعةِ في المشكلات، ثم أخرجَ عدداً من الأحاديث الشريفة:

منها قوله عليه الصلاة والسلام: «**مثلُ المُدْهِنِ في حدودِ اللهِ والواقعِ فيها مثلُ قومٍ استهموا سفينةً، فصارَ بعضُهم في أسفلِها، وبعضُهم في أعلاها...**» الحديث [٢٦٨٦].

ومنها قول عائشة رضي الله عنها: **كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا أرادَ سفراً أقرعَ بين نسائهِ، فأيتهنَّ خرجَ سهمُها خرجَ بها معه...** الحديث [٢٦٨٨].

ومنها أيضاً قوله ﷺ: «**لو يعلمُ الناسُ ما في النداءِ والصفِّ الأوَّلِ، ثم لم**

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٥٢.

يجدوا إلا أن يَسْتَهِمُوْا عليه، لاسْتَهَمُوْا» [٢٦٨٩]. انظر أحاديث الباب في البخاري.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

أي: فابتلعه الحوتُ وهو آتٍ بما يُلام عليه، فلمَّا أتى بما يستحق اللوم عليه صار ذا لوم.

والذي أتاه ـ كما مر معنا ـ أنه ترك قومَه مغاضباً لهم، قبل أن يأذن له ربُّه بتركهم، ونظراً لعلوِّ مقامه تعرَّضَ للوم والمؤاخذة من الله تعالى، **وحسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبين.**

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

أي: لولا أنَّه كان من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، ومنه ما حكاه الله عنه وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] كما مرَّ معنا من قبلُ.

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

أي: لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، فيكون بطنُ الحوت قبراً له.

وفيه حَثٌّ على الإكثار من ذكر الله تعالى، وتعظيم شأنه، ومَنْ أقبلَ عليه في السَّرَّاء أخذ بيده عند الضراء كما في الحديث الشريف: «**تعرَّفْ على اللهِ في الرخاء يعرفك في الشدة**» [رواه أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٢٥١٦)].

﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

أي: فطرحناه في أرض لا نباتَ فيها ولا شجرَ، على ساحل البحر، وهو عليل ضعيف مما أصابه في بطن الحوت.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ مدة لبثه في بطن الحوت كانت مديدةً.

وأضاف سبحانه النبذَ إلى نفسِه، وإن كان الحوتُ هو النابذ، لأنه نبذه بأمره تعالى وقدرته ومشيئته، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقال تعالى أيضاً: ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩].

ففيها أنَّ الله ﷻ أخبر أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم، ولولا رحمته به لنبذ بالعراء وهو مذموم(١).

- **شجرة اليقطين:**

﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾.

وهو القَرْعُ المعروف، ويسمى الدُّبَّاء، وكان النبيُّ ﷺ يحبُّه.

ففي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: **أنَّ خيَّاطاً دعا رسولَ اللهِ ﷺ لطعامٍ صنعه، قال أنسُ: فذهبتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ، فرأيتُهُ يتتبَّعُ الدباءَ مِنْ حوالي القَصعةِ، فلم أزلْ أُحِبُّ الدباءَ من يومئذٍ.** [رواه البخاري (٢٠٩٢)].

وأخرجه مسلم من هذا الوجه [٢٠٤١] بلفظ: **كان يعجبه القرع.**

وللنسائي في الكبرى [٦٦٣٠]: كان يحب القرع ويقول: «**إنها شجرة أخي يونس**».

ولا بدَّ أن يكونَ للقرع فوائد كثيرة، وذكروا من فوائده سرعةَ نباته، وتظليلَ ورقه ونعومته، وأنَّه لا يقربها الذُّباب، وجودةَ تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً، كما ذكروا أنَّ ورقَ القرعِ نافعٌ لمن انسلخ جلدُه.

واستشكل بعضُهم أنَّ الشجر ما كان على ساق، بينما الدباء لا ساق له، والجواب أنه يحتمل أنَّ الله سبحانه أنبتها على ساق لتظلَّه خرقاً للعادة، أو

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ١٢٩.

يقال: هذا تخصيصُ العامة، وعند العرب كل شيء له جذر فهو شجر، ويشهد له قول أفصح الفصحاء ﷺ: «**شجرة الثوم**» والحديث المشار إليه **أخرجه البخاري** [٨٥٣] **عن ابن عمر** رضي الله عنهما: أن النبيَّ ﷺ قال في غزوة خيبر: «**مَنْ أكلَ مِنْ هذه الشجرة** ـ يعني: الثومَ ـ **فلا يقربنَّ مسجدَنا**».

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

أي: بل يزيدون.

والمراد وصفُهم بالكثرة، وأنَّهم ليسوا أنقص من ذلك، بل أزيد، ومثله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

أي: صدَّقوا برسالة يونس عليه السلام، فكشف الله عنهم العذابَ، ومتَّعهم بالحياة إلى أن تحينَ آجالُهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].



الفَصْلُ الثَّالِثُ
المَلائِكَةُ وَعِبادَتُهُمْ وَإِخْلاصُهُمْ للهِ تَعالَى

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠)
أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)
وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)
وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ
أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)﴾

- **القسمة الباطلة:**

وبعد هذه الوقفة عند نبيِّ الله يونس عليه السلام عادتِ الآياتُ للمرة الثانية تأمر النبيَّ ﷺ أن يسأل المشركين سؤال التوبيخ والتبكيت:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩)﴾.

وهو سؤال إنكار لما كان بعض مشركي العرب يقولونه عن الملائكة بأنهم بنات الله، حتى إنَّهم أطلقوا على بعض أصنامهم أسماء الإناث؛ قال تعالى في **سورة النجم**: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢)﴾.

فهي قسمةٌ باطلة بيَّنَ سبحانه بطلانها في عدد من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

فكيف جعلوا لله تعالى البنات وقالوا: الملائكةُ بناتُ الله، مع أنهم كانوا يكرهون البنات كُرهاً شديداً، بينما جعلوا لأنفسهم الذكور؟! وبهذا زادوا على الشرك ضلالات كثيرة وكبيرة، فقد وصفوا الله بصفاتٍ لا تليقُ بكماله وجلاله، فإنَّ الولد والولادة من صفات المخلوقات الفانية، وفضَّلوا أنفسَهم عليه تعالى فجعلوا أضعفَ الصنفين له، وأقواهما لهم، واستهانوا أيضاً بالملائكة، ووصفوهم بالأنوثة، وهي صفات الضعفاء، ولهذا شدَّد تعالى الإنكار عليهم فقال:

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

أي: وهم حاضرون عندما خلق الله الملائكة إناثاً، فالأنوثةُ لا تُعْلَمُ إلا بالمشاهدة.

ولا يخفى ما في الآية من استهزاء بهم لفرط جهلهم وغبائهم، ثم حكمتِ الآياتُ عليهم بالكذب، وبيَّنت أنه صادِرٌ عن صفة عريقة فيهم؛ وهي الإفك الذي هو أشد الكذب:

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

وقرئ: (**ولدُ اللهِ**) بالإضافة، ورفع (**ولد**) على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: ليقولون: الملائكةُ ولدُ اللهِ!.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

وهو استفهام إنكاريّ، المراد منه إثباتُ إفكهم، وتأكيدُ كذبهم.

والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء، وفي قراءة: (**اصطفى**) بكسر الهمزة على تقدير حذف أداة الاستفهام.

ثم التفتت الآياتُ تخاطبهم وتوبخهم:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

أي: كيف تحكمون بهذا الحكم الباطل الذي تقضي ببطلانه بداهة العقول؟!.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

أي: أفلا تتذكرون أنه تعالى منزَّهٌ عن اتخاذ الولد، فإنَّه أَمْرٌ في غاية الوضوح يتذكره كل ذكي وغبي.

وبعد أن وبَّختهم الآياتُ هذا التوبيخَ الشديدَ، وجرَّدتهم من أي دليل عقلي انتقلت بأسلوب الإضراب والتحدي لتبيِّنَ أنَّ قولَهم الباطلَ هذا لا يستنِدُ إلى أي دليل سمعي أيضاً:

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

أي: هل لكم برهان واضح منزل عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله سبحانه، فأتوا بكتابٍ يشهدُ لكم إنْ كنتم صادقين.

وواضحٌ أنَّ الأمر للتعجيز، وأنَّ إضافةَ الكتاب إليهم للتهكُّم بهم.

ودلَّت الآياتُ على السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم، والاستبعاد الشديد لأباطيلهم، وتسفيه أحلامهم وتجهيلهم.

• من نزغات الشياطين:

ثم كشفت الآيات مصدر هذه الضلالات والأباطيل، فبيَّنت أنها من نزغات الشياطين ووساوسهم:

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ﴾ أي: وجعلوا بينه تعالى وبين الشياطين مناسبة،

فأشركوهم مع الله تعالى في استحقاق العبادة، وأطاعوهم فيما وسوسوا في صدورهم من أمثال هذه الأباطيل والضلالات، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ].

وطاعتهم للشياطين عبادة لهم، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يسٓ].

والمراد من الجن: الشياطين، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: لمحضرون في العذاب يومَ القيامة، ولو كانوا يستحقُّون العبادة ما عذبهم ربهم، قال تعالى في **سورة الشعراء**: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

أي: يتنزه الله عن كل وصف لا يليق بكماله وجلاله ووحدانيته.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

أي: إلا عباد الله المخلصين من الجن لا يحضرون العذاب.

فالجنُّ المؤمنون الذين أخلصوا في تحقيق عبوديتهم لله تعالى ناجون من العذاب، وكما أنَّ في عالم الجن الكفرة والمردة والشياطين، ففيهم أيضاً المؤمنون الصالحون، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن].

- **براءة الملائكة ومقامهم في العبادة:**

ثم وجهت الآياتُ خطابها إلى الكفَّار من الإنس والجن، تبيِّن لهم كمالَ قدرته تعالى ومشيئته وعلمه:

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ (١٦٣)﴾.

أي: إنكم أيها الكفار من الجن والإنس لا تستطيعون أن تضلوا أحداً إلا أصحاب النار، الذين سبق في علمه تعالى أنهم بسوء أعمالهم يستوجبون العذاب فيها، يقال: فَتَنَ فلانٌ على فلانٍ امرأته؛ أي: أفسدها عليه.

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: لو أرادَ اللهُ ألا يُعصى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة، وإنَّ في ذلك لعِلماً في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ عرفه من عرفه، وجهله من جهله، ثم قرأ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢)﴾ إلا من كتب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه أن يصلى الجحيم، وقال: فصلت هذه الآية بين الناس. وفيها من المعاني: أنَّ الشياطينَ لا يصلون إلى إضلال أحدٍ إلا مَنْ كتبَ الله عليه أنه لا يهتدي، ولو علم الله عَزَّ وَجَلَّ أنه يهتدي لحال بينه وبينهم(١).

ثم أعلنتِ الآياتُ براءة الملائكة مما وصفهم به الضالُّون المضلون، وإعلانهم عبوديتهم لله جَلَّ جَلَالُهُ، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله ووحدانيته:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤)﴾.

أي: وما منا مَلَكٌ إلا له مكان معلوم في العبادة لا يتجاوزه.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي ذر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمعُ ما لا تسمعون، أَطَّتِ السماءُ، وحُقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضعُ أربع أصابعَ إلا ومَلَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجداً للهِ، واللهِ لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً، ولبكيتُم كثيراً، وما تلذذتم بالنساءِ على الفُرُشِ، ولخرجتُم إلى الصُّعُداتِ تجأرون إلى اللهِ تعالى**» [رواه الترمذي (٢٣١٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه ابن ماجه (٤١٩٠) وهو في الصحيحين مختصراً].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/١٣٦.

وكأنهم يقولون: وكيف نكون مناسبين لرب العزة وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه، لكل منا مقام معلوم من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفراً، خشوعاً لعظمته[1].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

أي: لنحن الصافُّون للعبادة والطاعة.

وفي الحديث الشريف: عن **جابر بن سمرة** رضي الله عنه قال: خرجَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكةُ عند ربِّها؟**» فقلنا: يا رسولَ اللهِ وكيف تصفُّ الملائكةُ عندَ ربِّها؟ قال: «**يتمُّونَ الصفوفَ الأُولى، ويتراصُّونَ في الصفِّ**» [رواه مسلم (٤٣٠)].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

أي: وإنَّا لنحنُ المصلُّون، أو المنزهون الله عما وصفه به المشركون.

والمراد أنهم يخبرون بأنهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة، وليسوا معبودين، ولا بنات الله، كما زعم المشركون وشياطينهم.

وفي (**إنَّا**) و**اللام** وتوسيط ضمير الفصل (**نحن**)، تأكيد وتخصيص بأنهم المواظبون على العبادة والتسبيح من غير فترة دون غيرهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء].

ثم أبرزت الآياتُ بعضَ المفارقات والتناقضات في مواقف المشركين:

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾.

أي: كان المشركون يقولون قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام: لو أنَّ عندنا كتاباً مثل كتب الأولين لأخلصنا العبادة لله، وما خالفْنا كما خالف الأولون.

---

(١) تفسير النسفي: ٥/ ٢٥٧.

﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠﴾.

أي: فلمَّا بُعِثَ النبيُّ ﷺ، ودعاهم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده كفروا به، وأعرضوا عن دعوته، فسوف يعلمون عاقبةَ كفرهم وإعراضهم.

وهذا التناقضُ في مواقف المشركين سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].





الفصل الرابع
بشائر النصر والتأييد لعباد الله المخلصين

- **وجاءت البشائر:**

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

ثم حملت الآياتُ البشائر لعباد الله المخلَصين بالنصر والتأييد على الذين سلخوا أنفسهم عن مقام العبودية لله ربِّ العالمين:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

أي: سبق وعدنا لهم بالنصر والتأييد، كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ورأى بعضُ المفسرين أنَّ المراد بقوله سبحانه: **(كلمتنا)** هو المذكور في قوله بعد ذلك:

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

فهو تفسير أو بدل من **(كلمتنا)** والمراد بالجند أتباع المرسلين، وأضافهم

تعالى إليه تشريفاً لهم وتكريماً، فطاعتهم للمرسلين طاعة لله تعالى القائل: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وما أعزَّ إنسانٌ نفسَه بمثل تحققه بالعبودية لله تعالى واستسلامه لأمره، والتزامه بشرعه، وما أذلَّ إنسانٌ نفسَه إلا بمعصية الله، والانسلاخ عن تحقيق عبوديته له، وصدق الله تعالى القائل: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

والقائل أيضاً: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

ثم خصَّت الآياتُ النبيَّ ﷺ بالبشارات تثبته بها وتتوعَّد أعداءه:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

أي: أعرضْ عنهم واصبر حتى يحينَ وقت قتالهم، فإنَّ الله ناصرك عليهم.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾.

أي: وأبصر ما يصيبهم يومئذ من الهزيمة والقتل فسوف يبصرون ذلك.

والمراد بالأمر (**أبصرهم**) الدلالة على أن ذلك قريب كأنه قدامه، و(**سوف**) للوعيد لا للتبعيد[(١)].

ولمَّا سمعَ المشركون هذا الوعيدَ الشديدَ المؤكد تساءلوا عنه منكرين ومستعجلين له! فنزلت:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

وهو استفهامُ توبيخ وتجهيل.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥/٢٥٨.

وإضافة العذاب إلى الله ﷻ بضمير العظمة يفيد هول هذا العذاب وشدته.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٧﴾.

أي: فإذا نزل العذاب بفنائهم بغتة فبئس صباح الكافرين الذين أنذروا به.

والصباحُ: مستعارٌ من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب، وكانت عادتهم أن يُغِيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً؛ وإن وقعت في وقت آخر.

وفي الحديث: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أتى خيبرَ ليلاً، وكان إذا أتى قوماً بليلٍ لم يَقْرَبْهم حتَّى يصبحَ، فلمَّا أصبحَ، خرجتِ اليهودُ بمساحيهم ومكاتِلِهم، فلمَّا رأوه قالوا: محمَّدٌ واللهِ، محمَّد والخميس. فقال النبيُّ ﷺ: «**خربتْ خيبرُ، إنا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ، فساءَ صباحُ المُنْذَرِين**».

وفي رواية ثانية: قال: «**اللهُ أكبرُ خربتْ خيبرُ**» [رواه البخاري (٤١٩٧)].

ثم أضافت الآيات تأكيداً جديداً زيادة في تثبيته عليه الصلاة والسلام ومواساته عما يلقى منهم:

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٩﴾

ويلاحظ الإطلاق في: ﴿وَأَبْصِرْ﴾ بعد التقييد ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ [الصافات: ١٧٥]؛ للإشعار بأنه يبصر ما لا يحيط به الوصف من أصناف المسرَّة، وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أنواع المساءة. أو: الأول لعذاب الدنيا، والثاني لعذاب الآخرة.

- **تسبيح وسلام وحمد:**

وفي الختام توَّجَ الله السورةَ بآياتِ التسبيحِ والسلامِ والحمدِ:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾

وسبحان ـ كما مرَّ معنا ـ عَلَمٌ للتسبيح الذي هو التبعيدُ عن كل نقص اعتقاداً

وعملاً، وهو إخبارٌ بتنزُّهه تعالى عن كلِّ ما لا يليقُ به، وهو أيضاً حُكْمٌ فيه تكليفٌ؛ أي: قولوا: سبحان ربك.

وأضيفَ التسبيحُ هنا إلى اسم من أسمائه الحسنى، وهو (**الرب**) المضاف إلى ضمير المخاطب، وهو سيدنا رسول الله ﷺ، وفي هذا تشريفٌ له عليه الصلاة والسلام، وتنويه بمكانته الرفيعة، فالله هو الرب، وأنت يا محمد المربوب.

وأضيفَ الربُّ مرةً ثانيةً إلى العزة، لأنَّ العزةَ منوطةٌ بمشيئته تعالى وقدرته، يعزُّ بها من يشاء، ويذل من يشاء، كما سبقَ معنا عند قوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠].

فكأنه سبحانه قال: سبحان مَنْ هو مربيك ومكمِّلك ومعزُّك عمَّا قاله المشركون فيه مما سبق ذكره في السورة.

والعزّةُ يحتمل أن تكون صفةَ ذاتٍ، بمعنى القدرة والعظمة، وأن تكونَ صفة فعلٍ، بمعنى القهر لمخلوقاته والغلبة لهم، ولذلك صحت إضافة اسمه إليها.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

أي: سلامٌ على جميع المرسلين، وهو تعميم بعد تخصيص السلام ببعض المرسلين، كما سبق في قوله:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩].

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

على كماله وجلاله وإحسانه، وإرسال رسله، وإظهار دينه، وإعزاز عباده. نسأل الله سبحانه أن يجعلنا منهم.

❁ ❁ ❁



٣٨

تفسير سورة صٓ

القُرْآنُ والـمُغَيَّبَاتُ فِي سُورَةِ صٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعدُ: فقد اهتمَّت سورة صٓ بإبراز وجهٍ من وجوه إعجاز القرآن الكريم الدالة على أنَّه كلام الله تعالى:

- إذ لفتت الأنظارَ إلى **أخبار الغيب** المذكورة فيه، فهو من هذه الناحية ذكر، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [صٓ: ١] ومع ذلك أعرض المعاندون عنه، وكذَّبوا الرسل، كما كذبت قبلهم الأممُ الكافرةُ المعاندةُ.

- ثم عرضتِ الآياتُ **بعضَ الوقائع المغيبة من أخبار بعض الأنبياء** الخاصَّة بهم:

ـ **داود** عليه السلام، وهو في معتكفه مع الخصم الذين تسوروا محرابه.

ـ **وسليمانُ** عليه السلام وحبُّه للخيل والنساء، وتسخير الشياطين له.

ـ **وأيوبُ** عليه السلام وصبره على البلاء، وكفارة يمينه التي صدرت منه بشأنٍ من شؤون زوجه.

- ثم عرضتْ بعضَ أخبار الملأ الأعلى، وما حدث بينهم من حوار عند خلق **آدم** عليه السلام، لتقرِّرَ أنَّ القرآن الكريم نبأٌ عظيم، ومع ذلك فهم عنه معرضون.

● ثم لتشيرَ في آخر السورة إلى **المغيبات المستقبلة** التي قدر الله حدوثها، والتي أشارت إليها آيات كثيرة في مواضع متعددة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [صٓ].



الفَصْلُ الأَوَّلُ

الإِخْبَارُ بِالغَيْبِ
وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الإِعْجَازِ القُرْآنِيِّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾.

- **تبليغ واستكبار:**

افتتح الله ﷻ السورة بقوله الكريم:

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾.

﴿صٓ﴾ حرف من الحروف النورانية المقطعة، التي افتتح الله تعالى بها عدداً من السور القرآنية سبق الحديثُ عنها، وهذه السورة أول السور القرآنية المبدوءة بحرفٍ واحدٍ، وثانيها **سورة قٓ**، وثالثها **سورة القلم**، والجديرُ بالذكر أنَّ السورة سُمّيت باسم الحرف الذي افتتحت به ﴿صٓ﴾ كما سمِّيت ﴿يسٓ﴾ و﴿طه﴾ باسم ما افتتحت به من الحروف.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ **الواو** للقسم لا للعطف كما هو ظاهر، **والذِّكر**: الشرف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقوله أيضاً: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

أو لأنه يذكِّر بالله تعالى كما في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أو لما ذكر فيه من تشريع وأحكام ومواعظ وزواجر تنبِّه الغافلين، وتردُّ الشاردين إلى الصراط المستقيم، مع أخبار مستقبلة ومغيَّبات ماضية.

وانتقلتِ الآياتُ بأسلوب الإضراب من القَسَم والمقسم به إلى الحديث عن جحود المشركين وإعراضهم عن رسالة النبي ﷺ:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

أي: بل الذين كفروا في تكبر عن الإذعان للحق ومخالفة له، فما كفروا به إلا استكباراً، والمراد بالعزة ما يظهرونه من استكبار، لا العزة الحقيقية التي ذكرها تعالى في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾ [فاطر: ١٠].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وأصل معنى **الشقاق**: المخالفة، وكونك في شق غير صاحبك، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وكأنَّ الآيات في صدر السورة تتجه إلى مواساة النبي عليه الصلاة والسلام عمَّا يلقى من عنادِ قومه وإعراضهم، وتقول له: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ ما أنتَ يا محمَّد مقصراً في تبليغ الذين كفروا وتذكيرهم، بل هم مقصِّرون لعدم اتباعك، والاعتراف بصدق رسالتك.

وفي ذلك ما فيه من تعظيم النبيِّ ﷺ، وتنويه بجهوده التي يبذلها في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة.

فكفرهم كفر جحود وعناد، ولهذا اتجهت الآيات بعد هذا الاستفتاح تتوعدهم بسبب استكبارهم وشقاقهم.

• **الذنب الكبير:**

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾.

أي: كم أهلكنا من الأمم الخالية قبلهم، فاستغاثوا حين نزول العذاب وحلول الانتقام، والحال أن ليس الحينُ حينَ مناص، أي: نجاة، من ناصه: أي فاته، فـ **(لا)** هي المشبهة بـ **(ليس)** زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، والأكثر حذف اسمها.

ثم ذكرت الآيات بعض أباطيلهم وأضاليلهم المتفرعة عن استكبارهم وشقاقهم:

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: وعجبوا أن جاءهم رسول من جنسهم، فعدُّوا ذلك أمراً عجيباً أنكروه أشد الإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

﴿وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: قال الكافرون العريقون في الكفر: هذا ساحر كذاب، ووضع الاسم الظاهر: **(الكافرون)** موضع الضمير غضباً عليهم، وذمّاً لهم، وإشعاراً بأنَّ كفرهم جرَّأهم على هذا القول، فهو ذنبٌ كبير، لا يقدمُ عليه إلا الكافرون المتوغِّلون في الكفر، المنهمكون في الضلال، إذ لا كفرَ أبلغُ من أن يسمُّوا من صدَّقه الله كاذباً ساحراً، وتعجبوا من التوحيد، وهو الحقُّ الأبلج، ولم يتعجَّبوا من الكفر وهو باطل لجلج[١].

---

(١) تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٥/ ٢٦٢.

﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

أي: إنَّ هذا الذي يدعو إليه محمد في غاية العجب، وهو عبادة إلٰه واحد، وفي قراءة (**عُجَّاب**).

ودلت الآيةُ على شدَّة تمسُّكهم بالشرك، الذي تلقَّوْه عن آبائهم، وتشرَّبته قلوبهم، فلمَّا دعاهم رسولُ اللهِ ﷺ إلى خلعه من قلوبهم، أعظموا ذلك وتعجَّبوا.

أخرج أحمد [٢٠٠٨]، وابن أبي شيبة، والترمذي [٣٢٣٢] وصححه، والنسائي [٤٥٦] وغيرهم: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: لمّا مرضَ أبو طالب دخل عليه رهطٌ من قريش منهم أبو جهل فقالوا: إنَّ ابنَ أخيك يشتمُ آلهتنا، ويفعلُ، ويقولُ ويقولُ، فلو بعثتَ إليه فنهيتَه.

فبعثَ إليه فجاءَ النبيُّ ﷺ فدخلَ البيتَ، وبينهم وبينَ أبي طالبٍ قدرُ مجلسٍ، فخشي أبو جهل إنْ جلسَ إلى أبي طالب أن يكونَ أرقَّ عليه، فوثبَ فجلسَ في ذلك المجلسِ، فلم يجدْ رسولُ اللهِ ﷺ مجلساً قُرْبَ عمِّه، فجلسَ عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بالُ قومِكَ يشكونك، يزعمون أنَّكَ تشتمُ آلهتَهم وتقول وتقول؟! قال: وأكثر عليه من القولِ.

وتكلَّم رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**يا عمِّ إنِّي أريدُهم على كلمةٍ واحدةٍ يقولونها، يدينُ لهم بها العربُ، وتؤدِّي إليهم بها العجمُ الجزيةَ**».

ففرحوا لكلمتهِ، ولقولِهِ. فقال القوم: ما هي وأبيكَ؟ لنعطينَّها وعشراً. قال: «**لا إلٰه إلا الله**». فقاموا فزعينَ، ينفضونَ ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

وفي روايةٍ: أنهم قالوا: سلنا غيرَ هذا. فقال عليه الصلاة والسلام: «**لو جئتموني بالشّمْسِ حتى تضعوها في يدي ما سألتُكُم غيرَها**». فغضبوا وقاموا غضاباً وقالوا: واللهِ لنشتمنَّكَ وإلٰهَكَ الذي يأمرُكَ بهذا[١].

---

(١) روح المعاني: ٢٣/ ١٦٦، وقال الشيخ أحمد محمد شاكر مصحح المسند: إسناده صحيح.

وفي روايةٍ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**يا عمِّ، واللهِ لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمرَ حتى يظهِرَهُ اللهُ أو أهلِكَ فيه؛ ما تركتُه**»(١).

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾.

أي: خرجوا من مجلس أبي طالب يقول بعضُهم لبعض: استمروا على دينكم، ولا تستجيبوا لدعوة محمَّد، فهو أمرٌ يرادُ بنا، لا ينفعُ فيه إلا الصبر والثبات.

أو: إنَّ هذا لشيءٌ عظيمٌ يريدُ محمد إمضاءه وتنفيذه من غير صارف يلويه، ولا عاطف يُثنيه، فلا أمل في صرفه عنه، وهذا المعنى أوجه لما اشتهر من ثباته عليه الصلاة والسلام.

● **حسد وتكذيب:**

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧﴾.

أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعو إليه محمَّد في الملَّة الآخرة، وهي النصرانيةُ فما هو إلا كذب.

وهذا يدلُّ على أنَّ البشريةَ كانت عند بعثة النبيِّ عليه الصلاة والسلام في أمسِّ الحاجة إليها، فقد اندرست معالمُ التوحيد تماماً وانطمست، وعمَّت ظلماتُ الجاهليةِ وانتشرتْ، بسبب انقطاع الوحي الإلٰهي لفترة امتدت من عهد عيسى عليه السلام إلى بعثة نبينا الخاتم ﷺ، ودامت زهاء ستة قرون، وهي الفترة التي قال الله فيها: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٤٠، صرح ابن إسحاق بالسماع، وسنده منقطع، فالحديث ضعيف.

ثم بيَّنت الآيات حقيقة البواعث التي دفعتهم إلى اتهام النبي ﷺ بالكذب والسحر:

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ أي: كيف أُنزل عليه الذكر، وهو دوننا في الوجاهة والغنى؟!.

وهذا يدل على أنَّ الحسدَ هو الذي جعلهم يُعْرِضون عن دعوته عليه الصلاة والسلام، ويتقوَّلون عليه الكذب والبهتان، كما حكى الله عنهم في **سورة الزخرف** حيث قال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ أي: بل هم في شك من القرآن المنزل على رسولي، والمؤيد بالحجج والبراهين، ولم يذوقوا عذابي بعدُ، فإذا ذاقوه زال عنهم الشك والحسد.

فالقوة هي أنسب وسيلة لدرء حسد الحاسدين، وردِّ عناد المعاندين، وقمع جحود الجاحدين، لأن أمثال هؤلاء لا ينقادون إلى الحق بالدليل والبرهان.



الفَصْلُ الثَّانِي

بَعْضُ الوَقَائِعِ الغَيْبِيَّةِ مِنْ أَخْبَارِ الأَنْبِيَاءِ

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا
فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو
الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ
فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ
يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ
مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ
مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ
الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ
﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾
فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم
بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ
الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا
لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي

أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي
لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ
بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ
لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ
﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ
إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ
عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

• **تأنيس وتثبيت:**

ثم ردَّت الآياتُ اعتراضهم على اصطفاء النبي عليه الصلاة والسلام لمقام الرسالة دونهم بقوله تعالى:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾.

أي: ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يتصرفوا بها، وإنما مالكها العزيزُ الذي لا يُغْلَبُ، والوهَّاب كثيرُ المواهبِ، المصيبُ بها مواقعها.

وفي إضافة الربِّ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دلالةٌ على شرفه ورفعته.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾.

فكما أنَّهم لا يملكون شيئاً من خزائن رحمته تعالى، لا يملكون أيضاً شيئاً من مخلوقاته السماوية والأرضية، فإن ادَّعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا إلى السماوات، وليمنعوا الملائكة من النزول بالوحي على محمَّد عليه الصلاة والسلام.

ولا يخفى ما في الآيات من تهكُّم مُرٍّ بهم بسبب اعتراضهم على اصطفاء النبي ﷺ لمقام النبوة والرسالة.

ثم بعد هذا التهكم المر بيَّنت الآيات حكمه تعالى بهم:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

أي: هم جند ما مقموع ذليل من الكفار المتحزبين على الرسل، فلا تبالِ بتكذيبهم وشقاقهم.

ففي الآيةِ تأنيسٌ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، وتثبيتٌ له في مواجهتهم، وفيها أيضاً وعد من الله تعالى بأنه سينصره عليهم.

وجيء بـ (ما) للتقليل والتحقير، فهم قلة حقيرة عند الله تعالى كذبوا رسله، مع أنهم أمم كثيرة أجملت الآيات الإشارة إليهم بقوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: وفرعون ذو الجموع الكثيرة من الجنود الذين كانوا يثبِّتون ملكه.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ﴾ أي: وأصحاب الشجرة الكبيرة، وهم قوم شعيب، الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: أولئك الذين تحزَّبوا على الأنبياء، المكذبون المهزومون.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فوجب عقابهم بسبب تكذيب الرسل.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾.

أي: وما ينتظر قومُك الذين كذبوك إلا صيحة واحدة تهلكهم، ما لها من توقف مقدار فواق، وهو ما بين حلبتي الحالب، وتُقرأ بالفتح والضم.

والمعنى: أنَّ تلك الصيحة إذا جاءت لم تُرَدَّ ولم تُصْرَفْ، وهي ممتدة لا تقطيع فيها.

ومع هذا الوعيد الشديد قالوا استهزاءً واستبعاداً:

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾.

أي: عجِّل لنا قسطنا من العذاب الذي تتوعدنا به قبل يوم الحساب.

وأصل **القط**: القسط من الشيء، لأنه قطعة منه، وهذا يدل أنهم بلغوا الغاية القصوى في العناد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقد أظهرت الآية عنادهم من ثلاث نقاط:

أولها: أنكروا التوحيد بقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [صٓ: ٥].

ثانيها: حسدوا النبي ﷺ، وأنكروا رسالته بقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [صٓ: ٨].

والثالثة: أنكروا المعاد، وقالوا مستهزئين: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾.

وهذه النقاط الثلاث هي المحاور الأساس في دعوته عليه الصلاة والسلام، ولهذا التفتت الآياتُ تصبِّره وتثبِّته وتعده بالظفر والنصر، وتقصُّ عليه أخباراً غائبة لا يعلمُها إلا الله.

- **داوُد عليه السلام وتسبيح الجبال والطير:**

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾.

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ أي: ذا القوة في العبادة والعمل،

ومنه رجل أيد: أي قوي، فالأنبياء هم روّاد الأمم والشعوب، وقادتها إلى كلّ خير وبر.

وقد أثنى النبيُّ عليه الصلاة والسلام على داود بقوله: «**أحبُّ الصيامِ إلى اللهِ صيامُ داود، كان يصومُ يوماً ويفطِرُ يوماً، وأحبُّ الصلاةِ إلى اللهِ صلاةُ داودَ، كان ينامُ نصفَ الليلِ، ويقومُ ثلثَه، وينام سدسَه**» [رواه البخاري (٣٤٢٠)].

ومرَّ معنا أنه كان يأكل مِنْ عمل يده عند قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١].

وذكرنا ثمَّةَ قول النبي ﷺ: «**ما أكلَ أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أَنْ يأكلَ مِنْ عَمَلِ يدِهِ، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ مِنْ عملِ يدِهِ**» [رواه البخاري (٢٠٧٢)].

وقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ فيه إظهار لشرفه ﵇؛ فهذه الإضافة دلت على أنَّه حقَّق معنى العبودية لله تعالى.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: إنَّه رجَّاع إلى الحق وإلى مرضاة الله، وهذا تعليلٌ لقوَّته ﵇ في الدين، فكان رجَّاعاً إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر، فهو أهلٌ لأن يقتدَى به.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾.

أي: إنَّا سخرنا الجبال تسبِّحُ معه إذا سبَّح في طرفي النهار، كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

أي: وسخرنا الطير مجموعة إليه من كل جانب، وكل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيح داود يسبح. وقرئ: (**والطيرُ محشورةٌ**) بالابتداء والخبر.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قوَّينا ملكه بالعدل، فجعلناه أساسَ ملكه، والدليلُ على ذلك قوله تعالى بعده مباشرة:

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي: وأعطيناه الإصابة في القول والعمل، والفصل في القضاء بين المتخاصمين، أو البيان الفاصل بين الحق والباطل.

وعن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «هو البيِّنة على المدَّعي واليمين على من أنكر»[(١)].

وقولُ عليٍّ هو حديثٌ شريف، ولفظه في البخاري [٢٦٦٨]: عن ابن مُلَيْكة قال: كتب ابنُ عباس رضي الله عنهما إليَّ: **أنَّ النبيَّ ﷺ قضى باليمين على المدعى عليه.**

وقد أخرجه الطبرانيُّ: من رواية سفيان، عن نافع، عن **ابن عمر** بلفظ: «**البيِّنةُ على المدَّعي، واليمينُ على المدَّعى عليه**» وهذه الزيادة ليست في «**الصحيحين**» وإسنادها حسن[(٢)].

● **قصة ابتلاء داود** عليه السلام:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وهل أتاك خبرُ الخصم إذ صعدوا وعَلَوْا سور المحراب.

فهو من الأمور الغيبية الخاصَّة بِداود عليه السلام، لا علمَ لنبينا ﷺ بها، وأفادَ الاستفهامُ التشويقَ والتعجيبَ.

والخصمُ والخصماءُ: يقع على الواحد والجمع، لأنه مصدر. **والسور**: الحائِطُ المرتفع. **والمحراب**: مكان العبادة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ١٦٢.

(٢) فتح الباري: ٥/ ٢٨٣.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم دخلوا عليه في محرابه بغير إذنه.

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: نحن خصمان تعدَّى وظلمَ بعضُنا بعضاً جئناك لتقضي بيننا.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: ولا تَجُرْ في حكمك، من الشططِ: وهو مجاوزةُ الحد وتخطِّي الحقِّ.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: وأرشدنا إلى وسط طريق الحق، بزجر الباغي عن الجور، وإرشاده إلى منهج الحق.

﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: إن هذا أخي في النسب له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، وهي أنثى الضأنِ، وقد يكنَّى بها عن المرأة.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: اجعلني كافلها وملِّكنيها، وغلبني في مخاطبته إياي، فإنَّه كان أقدرَ على الاحتجاج مني.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أي: قال داود عليه السلام: لقد ظلمك بضمِّ نعجتك إلى نعاجه.

ويقال: إنَّ هذه كانت خطيئة داود عليه السلام، لأنَّه قال ذلك من غير تثبُّتٍ ببينةٍ،

ولا إقرارٍ مِنَ الخصم، ويقوّي هذا الرأيَ قوله تعالى بعد ذلك: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [صٓ: ٢٦].

وقد جاءت أخبارٌ وقصصٌ في أمر داود عليه السلام، **أكثرُها لا يصحُّ، ولا يتَّصل إسنادُه**، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها، وأصحُّ ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما زاد داود عليه السلام على أن قال: (**أكفلنيها**) أي: انزل لي عنها، والمعنى: أن داود سأل أوريا (زوج المرأة التي زعموا أن قلب داود مال إليها) أن يطلِّقَ امرأته، فنبهه الله عز وجل على ذلك وعاتبه، وأمَّا غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه[1].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: وإنَّ كثيراً من الشركاء الذين خلطوا أموالهم ليتعدى بعضهم على بعض.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: وهم قليل، و(ما) للإبهام والتعجيب من قلَّتهم، فهم الذين يتحامون عن البغي والعدوان.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: علم داود أنَّما ابتليناه بالحكومة هل يتنبَّه لها؟ وتنبَّه عليه السلام، وعلم أنَّ الله أراد أن يبيِّن له أنه لا يليقُ بمقام النبوة أن يصدر منه ما صدر مما سبق ذكره.

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي: سأل ربه المغفرةَ، وسقط على وجهه ساجداً لله تعالى، ورجع إليه تائباً، ودلَّ ذلك على شدة خشيته لله تعالى وتعظيمه له جل جلاله.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: فغفرنا له ما استغفر منه.

وحتى لا يسيء أحدٌ الظنَّ بنبيٍّ كريمٍ قال تعالى:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ١٧٧.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: إنَّ له عندنا مكانة عالية وحسن مرجع ومصير؛ وهو الجنة.

وليس في هذه الألفاظ: **(فاستغفر ربه، وأناب، فغفرنا له ذلك)** ما يدلُّ على صدور الذنب منه، وذلك لأنَّ مقامَ النبوة أشرفُ المقامات وأعلاها، فيطالَبُ الأنبياء بأكمل الأخلاق والأوصاف وأسناها، فإذا نزلوا من ذلك إلى طبع البشرية عاتبهم الله تعالى على ذلك وغفر لهم، كما قيل: **حسنات الأبرار سيئات المقربين**(١).

وأقصى ما في هذه القصة الإشعارُ بأنَّه عليه السلام ودَّ أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله، فنبَّهه الله بهذه القصة فاستغفرَ وأنابَ(٢).

ورأى بعضُهم أنها خصومةٌ حقيقيةٌ كما أشرتُ إلى ذلك سابقاً.

واختلف العلماءُ في سجدة صٓ هل هي من عزائم السجود؟ فمذهب الشافعي أنها ليست من عزائم سجود التلاوة؛ قال: لأنها توبةُ نبيٍّ، فلا توجبُ سجدةَ التلاوةِ. وقال أبو حنيفة: هي من عزائمِ سجود التلاوة. وعن أحمد روايتان، وقد ثبتَ أنَّ النبيَّ ﷺ سجدَ فيها(٣).

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنه قال: **ليس صٓ من عزائمِ السجودِ، ورأيتُ النبيَّ ﷺ يسجدُ فيها.** [رواه البخاري (٣٤٢٢)].

- **الخلافة والحكم بالحق:**

ثم أخبرت الآياتُ في تعقيبها الأول على قصة ابتلاء داود عليه السلام بالنداء الذي أوحاه الله إليه وخاطبه به:

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ٢٧٣.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥/ ٢٧٥.

(٣) تفسير الخازن: ٥/ ٢٧٤.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: آتيناك فيها الحكم بين أهلها كما في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] فجمع الله له النبوة والملك.

وحقيقة الخلافة عن الله سبحانه ممتنعةٌ، لأنَّها في حقِّ مَنْ يصحُّ عليه الغَيبة، والله منزَّهٌ عن ذلك جلَّ وعلا، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فالمراد منها بيان مكانة الإنسان وتشريفه وتكريمه.

ولا يقال: (**خليفة الله**) إلا لرسوله ﷺ، وأمَّا الخلفاءُ فكلٌّ واحدٍ منهم خليفةٌ للذي قبله، وما يجيء بالشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوُّز وغلو... ألا ترى أنَّ الصحابة ﵃ حرَّروا هذا المعنى، فقالوا لأبي بكر الصديق: خليفة رسول الله، فبهذا كان يُدْعَى مدته، فلمَّا ولي عمرُ بنُ الخطاب قالوا: يا خليفةَ خليفةِ رسول الله، فطال الأمر، ورأوا أنه في المستقبل سيطول أكثر، فدعوه: أمير المؤمنين، وقصر هذا الاسم على الخلفاء(١).

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الذي شرعه تعالى، وحكمه لا يكون إلا بالحق، وهو خلاف الباطل، قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

ودلَّت الآية على ضرورة إقامة حاكم للناس يحكم بينهم بالحق، كما دلَّت على أن سبب الظلم والجور اتِّباع الحكَّام لأهوائهم، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: ولا تتبع ما تهوى النفسُ في قضائك، أو لا تمل مع ما تشتهي إذا خالفَ أمرَ الله فيبعدك عن دينه وصراطه المستقيم.

---

(١) المحرر الوجيز: ١٢/ ٤٥١.

وأيَّد هذا النهي ما قيل: إنَّ ذنبه ﷺ المبادرة إلى تصديق المدَّعي وتظليم الآخر قبل مساءلته، لا الميل إلى امرأة أوريا، فكأنه قيل: ولا تتبعِ الهوى في الحكم كما اتبعته أولاً، وفيه أنَّ اتباع الهوى وحكمه بغير ما شرع الله تعالى له غيرُ مناسبٍ لمقامه، لا سيما وقد أخبر الله تعالى قبل الإخبار بمسألة المتحاكمين أنه آتاه الحُكمَ وفصلَ الخطاب، فليس هذا إلا إرشاداً لما يقتضيه منصبُ الخلافة، وتنبيهاً لمن هو دونه ﷺ[(١)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ وهذا الوعيد الشديد يدل على خطورة الضلال واتباع الهوى، وأنه يؤدي إلى الغفلة عن يوم الحساب والجزاء.

- **ضرورة الحساب والجزاء:**

فشعور الإنسان بمسؤوليته عن أعماله يوم القيامة يَحْمِلُه على الالتزام بالعدل، ويزجره عن الظلم، فهو إذن أمرٌ ضروري لتنظيم الحياة الاجتماعية بين الناس، وجعلها تقومُ على التعاون والعدل ممَّا يدل على حكمة الخالق سبحانه، فالله ما خلق الحياة الدنيا عبثاً وباطلاً، وهو ما أكدته الآيات بقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ أي: خلقاً باطلاً لا حكمة فيه.

أو: ما خلقناهما للباطل الذي هو اتباع الهوى والميل إلى اللعب والشهوات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الدخان].

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ أي: ذلك ظن الذين ينكرون يوم القيامة، فإنَّ إنكارهم إنكارٌ لحكمة الخالق جل وعلا.

أما المؤمنون المتفكرون في قدرة الله تعالى وباهر حكمته في خلقه فإنهم

(١) روح المعاني: ٢٣/ ١٨٧.

يؤمنون بها، قال تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: فهلاك لهم من النار بسبب إنكارهم يوم الحساب والجزاء.

و(**ويل**) كلمةٌ للتقبيح على المخاطب فعله، وأما ما ورد (**ويل**) وادٍ في جهنم، فلم يُرْوَ أنَّه معناه في اللغة، وإنَّما أرادَ مَنْ قال الله ذلك فيه فقد استحقَّ مقرّاً من النار[١].

وأكَّد الحديثُ الشريف أنَّها لتقبيح فعل المخاطب، فعن **أنس** رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ رأى رجلاً يسوقُ بَدنةً، فقال: «**اركبْها**» قال: إنَّها بَدنةٌ، قال: «**اركبْها**» قال: إنَّها بَدنةٌ، قال: «**اركبْها وَيْلَكَ**» [رواه البخاري (٦١٥٩)].

ثم بيَّنت الآيات أنَّ يوم الحساب ضروري أيضاً للتمييز بين المصلحين والمفسدين في المصير والجزاء:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إن عدم البعث للحساب والجزاء يقتضي التسويةَ بين الفريقين المتفاضلين، بين المؤمنين والكفرة المفسدين، وهو محال، والاستفهام للإنكار يقتضي نفيَ التسوية بين الفريقين لتقرير البعث والجزاء وتأكيده.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ وهو انتقالٌ وإضرابٌ إلى إثبات يوم البعث لإنكار محال آخر أظهر من الأول، وهو استحالة التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة، فلا يُعْقَلُ أبداً أن يكون مصيرهما واحداً، وهو الموت، لا بد إذن من بعث بعد الموت، وحساب وجزاء، يُثاب فيه المطيع، ويُعاقب الفاجر.

---

(١) فتح الباري: ١٠/ ٥٥٣.



وقد أكد ﷻ هذا المعنى في مواضع كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم].

ومنها أيضاً قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

- **التدبر في آيات القرآن الكريم:**

ولا شك أن إخبار الآيات بالخطاب الذي وجهه الحق إلى داود عليه السلام، وأمره فيه أمراً لازماً صريحاً بأن يحكم بين الناس بالحق، وحذَّره فيه من اتباع الهوى المؤدي إلى الجور والظلم، لا شك أنَّه موجه في الحقيقة إلى جميع القضاة والحكام، وما أخبر الله به إلا ليعتبرَ به أمثالُهم، فهم محتاجون إليه أكثر من نبي الله داود، الذي أكرمه الله بعصمة النبوة من الزلل والخطأ، ولا ضمانة للقضاة والحكَّام من الجور والظلم، إلا إذا التزموا بأحكام دين الله وشريعته المستمدة من الكتاب المنزَّل على خاتم أنبيائه ورسله، مع الشعور برقابة الله عليهم، ومسؤوليتهم عن أعمالهم يوم الحساب والجزاء، فهذا خيرُ ضمانةٍ لإقامة العدل، وعدم الجور والظلم، ولهذا قال تعالى في تعقيبه الثاني على قصة ابتلاء داود عليه السلام يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أي: هو كتابٌ أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن الكريم، الذي أقسم به تعالى في أول السورة: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ وهو كتاب مبارك كثير المنافع والفوائد في الدين والدنيا.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ليتفكر الناس في آياته، فيعرفوا ما يُدبر ويتبع ظاهرَها من حكم وأحكام وشرائع ومواعظ وعبر وأخبار ينتفع بها أصحاب الألباب، وهي العقول الزاكية الطيبة المريدة للحق، وما زيادة الظلم

والجور والإجرام في المجتمعات البشرية المعاصرة إلا نتيجة ابتعادها عن شريعة الله، وانسلاخها عن الشعور برقابته والمسؤولية أمامه يوم الحساب والجزاء.

فالتفكر في آيات التنزيل الحكيم أمرٌ مطلوب، أكده سبحانه في قوله في **سورة محمد**: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

وما أكده سبحانه وحَثَّ عليه إلا ليتبيَّن الناس صدقه، وأنه كلام الله يدل على صحة نبوة رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

فالتدبُّر في آيات الكتاب يدل على أنه كلام الله، وما فيه من أخبار عن مغيَّبات ما كان ﷺ يعلمها، دليل على أنه وحي من الله، ليس للنبي ﷺ فيه إلا التلقي والتبليغ، وأكد سبحانه أيضاً وحثَّ على تدبُّر آياته، والتفكير بها لمعرفة ما فيها من تكاليف وأحكام وشرائع وتطبيقها، قال الحسن البصري رحمه الله: واللهِ ما تَدَبُّرُهُ بحفظ حروفه، وإضاعةِ حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: قرأتُ القرآنَ كلَّه، ما يُرى له القرآن في خُلُقٍ ولا عمل[(١)].

- **خيل سليمان** عليه السلام:

ثم ذكرت الآيات بعد ما ذكرت من أخبار داود عليه السلام بعضَ أخبارِ ابنه سليمان عليه السلام، وهو أيضاً نبيٌّ كريم، جمع الله له النبوة والمُلك، وأثنى عليه بقوله:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: نعم العبد سليمان تحقق بوصف العبودية لله تعالى، فهو أوّابٌ رجّاع إلى الحق، وإلى مرضاة ربِّه.

ومرَّ معنا أنه تعالى أثنى على أبيه داود بمثل هذا الثناء، فسليمانُ سار على طريقة أبيه، وتمسَّكَ بطاعة الله تعالى، وأقام الحق والعدل بين الناس.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٠٢.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

أي: إذ عرض على سليمان بعد الظهر الخيل الصافنات الجياد.

والصافنات: القائمات على ثلاث قوائم، بينما تجعل الرابعة على طرف حافرها. **والجياد**: جمع جواد الذي يجودُ بالركض، وصفها سبحانه بوصفين محمودين في الخيل واقفة وجارية.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: إني ألزمت قلبي حُبَّ الخير عن أمر ربي، فكان يقول هذه الكلمات حتى غابتِ الخيلُ عنه، واحتجبت عن عينه، وأراد أن هذه المحبة الشديدة للخيل إنَّما حصلت عن ذكر الله وأمره، لا عن الشهوة والهوى، لأن الخيل عدة الجهاد في سبيل الله.

والخير في الأصل: المال الكثير، والمراد به الخيل هنا لتعلق الخير بها، وفي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**الخيلُ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامةِ**» [رواه البخاري (٢٨٤٩)].

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**البركةُ في نواصي الخيلِ**» [رواه البخاري (٢٨٥١)].

﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: قال سليمان: ردوا عليَّ الخيل، فجعل يمسحُ بيده أعناقها وسوقها تكريماً لها وتشريفاً، لأنها عدة الجهاد.

وهذا المعنى ذكره الإمام البخاري في «**صحيحه**» كتاب التفسير (٣٨) سورة صٓ، فقد قال عند ذكر الآية: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ يمسحُ أعرافَ الخيل

وعراقيبها، قال ابن حجر: هو قولُ ابن عباس، أخرجه ابنُ جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وزاد في آخره: حبّاً لها[(١)(٢)].

وإلى هذا المعنى ذهب الرازي في تفسير الآية، ورجَّحه على ما ذهب إليه جمهور المفسرين، أنه عليه السلام قطعَ سوقَها وأعناقَها بالسيف لما فاتته صلاة العصر بسبب انشغاله بها، وفسَّروا: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ بغياب الشمس.

ونقل القرطبيُّ في تفسيره عن الزهري وابن كيسان: كان يمسحُ سوقها وأعناقها، ويكشِفُ الغبارَ عنها حبّاً لها. وقاله الحسن وقتادة وابن عباس.

وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ رؤي وهو يمسحُ فرسَه بردائه، وقال: «**إني عوتبتُ الليلةَ في الخيلِ**» [أخرجه في «الموطأ» عن يحيى بن سعيد مرسلاً، وهو في غير «الموطأ» مسندٌ متصل عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس][(٣)].

وهذا المعنى أولى من المعنى الذي ذهب إليه جمهور المفسرين، فهو ينسجم مع سياق الآية التي أثنت على نبيِّ الله سليمان عليه السلام، وأما ابتلاؤه عليه السلام فقد أخبر الله عنه بعد ذلك في قوله الكريم:

● **قصة ابتلاء سليمان عليه السلام:**

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ولقد ابتلينا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً، ثم رجع سليمان إلى الله تعالى تائباً.

وسبب فتنته كما ذكر المحققون هو ما ورد في الحديث الصحيح: فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**قال سليمانُ بن داود: لأطوفنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأةً تحمِلُ كلُّ امرأةٍ فارساً يجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، فقال له صاحبه: إنْ**

---

(١) فتح الباري: ٦/٤٥٩.

(٢) تفسير القرطبي: ١٥/١٩٦.

(٣) المرجع السابق نفسه.

شاءَ اللهُ، فلم يقل، ولم تحملْ شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحدُ شقيه». فقال النبيُّ ﷺ: **«لو قالها لجاهدوا في سبيلِ اللهِ»** [رواه البخاري (٣٤٢٤)].

- **تنبيه وتحذير:**

وأما ما يُرْوَى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود.

وفسَّر رواةُ هذه الأباطيل قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ شيطاناً يقال له: آصف، قال له سليمان: كيف تفتنُ الناسَ؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فأعطاه، فنبذه في البحر، فذهبَ مُلك سليمانَ، وقعد آصفُ على كرسيه، ومنعه الله نساءَ سليمان، فلم يقربهنَّ، فأنكرته أم سليمان، وكان سليمانُ يستطعِمُ، ويعرِّفهم بنفسِه فيكذِّبونه، حتى أعطته امرأةٌ حوتاً فطيَّبَ بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فردَّ الله إليه ملكه، وفرَّ آصف فدخل البحر، وذكرت روايات أخرى متعددة اسم هذا الشيطان!.

قال القاضي عياض وغيره من المحققين: **لا يصحُّ ما نقله الإخباريون من تشبُّه الشيطان به، وتسليطه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه، وإنَّ الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الله الأنبياء من مثل هذا**(١).

وقال أبو حيان وغيره: **إنَّ هذه المقالة من وضع اليهود والزنادقة، ولا ينبغي لعاقل أن يعتقدَ صحة ما فيها، وكيف يجوز تمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره بين الناس؟!**(٢).

- **ملك سليمان** عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: هَبْ لي ملكاً لا يكون لأحدٍ من بعدي مثله، إنَّكَ أنتَ المعطي ما تشاء لمن تشاء.

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ٢٨٣.

(٢) روح المعاني: ٢٣/ ١٩٩.

وجاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ عفريتاً من الجنِّ تفلَّتَ البارحةَ ليقطعَ عليَّ صلاتي، فأمكنني اللهُ مِنْهُ، فأخذتُهُ، فأردتُ أن أربطَهُ على ساريةٍ مِنْ سواري المسجدِ، حتَّى تنظروا إليه كلكم، فذكرتُ دعوةَ أخي سليمانَ: ربِّ هَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ مِنْ بعدي، فرددتُه خاسئاً**» [رواه البخاري (٣٤٢٣)].

والجدير بالذكر أنَّ سليمان عليه السلام ما سأل هذا المُلكَ للتفاخر به في الدنيا، وإنَّما سأله ليكونَ معجزةً له في نبوته ورسالته، ويسخِّره في الدعوة إلى الله تعالى، وقد مرَّ معنا أنه فعلَ ذلك في دعوةِ بلقيس ملكة سبأ وقومها للإسلام لله رب العالمين.

واستجابَ الله دعوته، وأخبرتنا الآياتُ أنه تعالى سخَّر له طاقات كبيرة هائلة، وسلَّطه على مخلوقات خفية غائبة عنا، لم يسلَّط عليها أحدٌ غيره:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ذللنا له الريحَ تجري بأمره لينةً طيبةً حيث أراد.

ويبدو من خلال الآيات الكريمة التي أخبرت عن هذا أنَّ تسخيرَ الريح لسليمان بتحويلها من ريح عاصفة مدمرة إلى ريح طيبة لينة، فقد قال تعالى في **سورة الأنبياء**: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وسخَّرنا له الشياطينَ أيضاً، يبنون له ما يشاء، ويستخرجون له اللآلئ من أعماق البحار، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨﴾.

أي: وسخَّرنا له آخرينَ من الجنِّ، وهم مردة الشياطين، مشدودين في القيود، ويبدو أنَّه عليه السلام سُلِّط عليهم، حتى كان يقرن المتمردين منهم بعضهم مع بعض بالسلاسل والقيود تأديباً لهم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

وقوله أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩﴾.

أي: قلنا له: هذا عطاؤنا، فأعطِ من شئتَ، وامنعْ مَنْ شئتَ، فلا حرجَ عليك ولا حسابَ فيما أعطيتَ أو منعتَ.

وحقق سليمانُ عليه السلام عبوديته لله في كل ما أنعم عليه وأعطاه، فكان شاكراً له عز وجل، وسخَّر نعمه عليه في طاعته وعبادته، وقد ذكر سبحانه وتعالى في **سورة النمل** أنه عليه السلام كان يقول: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾.

ولهذا عقَّبتِ الآياتُ بالإخبار بأنه تعالى أثنى عليه كما أثنى على والده داود فقال:

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠﴾.

أي: وإنَّ له عندنا مكانة رفيعة، وحسن مصير ومرجع يوم القيامة، فسليمان عليه السلام نبي كريم، ما سأل الله هذا المُلك حرصاً على الدنيا، وافتخاراً بها، بل كان ذلك بإذنٍ له من الله، وكان أيضاً معجزةً له، خصَّه الله بها للدلالة على صدق نبوته، كما خَصَّ غيره من الأنبياء بالمعجزات الحسية التي أجراها على

أيديهم، ولا شكَّ أنَّ هذا الثناءَ فيه شهادة من الله تعالى، بأنَّ سليمان عليه السلام تحقَّقَ بصفة العبودية لله تعالى في حال الرخاء والسراء.

• **قصة ابتلاء أيوب** عليه السلام:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾.

أي: واذكر يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيَّ الله أيوب عليه السلام الذي حقَّق عبوديته لنا في الضراء، فنادى ربه متضرعاً داعياً: أني مسني الشيطان بضر في جسدي وألم في نفسي.

وقد ابتلي عليه السلام بمرضٍ في جسده، كما ابتلي بفقد ماله وأولاده.

وينبغي التنبيهُ هنا إلى أنَّ المرض الذي ابتلي به لم يكن منفِّراً ومستقذَراً، بحيث يجعلُ الناسَ ينفرون عنه، كما ذُكر في بعض كتب التفسير. قال أهل التحقيق: إنَّه لا يجوزُ أن يكونَ بصفة يستقذره الناسُ عليها، لأنَّ في ذلك تنفيراً، فأما الفقر والمرض وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله بذلك، فيجوز على الأنبياء كلُّ عَرَضٍ بشري ليس محرَّماً ولا مكروهاً ولا مباحاً مزرياً ولا مزمناً ولا مما تعافه الأنفس ولا مما يؤدي إلى النفرة والاستقذار(١).

وفي قراءة: (**بنَصْب**) بفتح النون، وبفتحتين: (**بنَصَب**) وبضمتين: (**بنُصُب**) وكلُّها بمعنى المشقة، وهو الضر الذي ذكره سبحانه في قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ يدل على أدبه مع الله تعالى، فلم ينسب إلى الله تعالى ما أصابه من ضر، مع أنه يعلم أنَّ الأفعال كلها خيرها وشرها خالقها هو الله، لا شريك له في خلقه، فهو سبحانه خالق كل شيء، كما ذكر في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

لكنَّ الشرَّ لا ينسب إليه سبحانه ذكراً، وإن كان موجوداً منه خلقاً، أدباً

(١) روح المعاني: ٢٣/٢٠٨.

أدَّبنا به، وتحميداً علَّمناه، وكان مِن ذِكر محمد ﷺ لربه قوله: «**والخيرُ كلُّه في يديكَ، والشرُّ ليس إليك**» [رواه مسلم (٧٧١)].

ومنه قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وقال الفتى لموسى الكليم: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣](١).

وفي كتب التفسير رواياتٌ متعددة لسبب ابتلاء أيوب عليه السلام، منها أنَّه أُعْجِبَ بكثرة ماله، أو استغاثَهُ مظلومٌ فلم يغثه، أو كانت مواشيه في ناحية مَلِكٍ كافر، فداهنه من أجلها، أو ذبحَ شاةً وأكلها وجارُه جائعٌ، أو رأى منكراً فسكتَ عنه.

ولا شك أن تعدُّدَ مثل هذه الروايات واختلافها يدلُّ على **عدم صحتها**، كما أنها لا تليقُ بما عُرِفَ من أخلاق الأنبياء، فهم معصومون بعصمة النبوة، ولا سلطان للشيطان عليهم، وقد سبق تقرير هذا في قصة ابتلاء سليمان عليه السلام.

وقول أيوب: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ يدل على أدبه مع الله، وهو سبحانه خالق كل شيء، والشر لا يدخل في شيء من صفاته تعالى، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، وكل أفعاله سبحانه خيرٌ ومحض العدل والحكمة، وإنما يكون شرّاً بالنسبة للمخلوقين، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه.

وإنَّ ابتلاء الله تعالى لنبيه أيوب خيرٌ محضٌ، ليظهِرَ سبحانه صبره، ويرفع درجاته، وقد ابتلى الله سبحانه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في قصة الذبح والفداء، فأظهر فضلهما واستسلامهما له جل جلاله، ومرَّ معنا قوله تعالى في التعقيب على قصة الذبح والفداء: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦].

- **الفرج من الله تعالى بعد الشدة والبلاء:**

وأخبرتنا الآيات أن الله استجاب دعاء أيوب عليه السلام وأوحى إليه يرشده ويدله على سبيل الشفاء:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢١٠.

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: اضرب برجلك الأرض، فضربها، فنبعت عين ماء، فأمره سبحانه أن يغتسل به ويشرب منه، فبرأ بإذنه تعالى.

وأخبرنا سبحانه أنه أيضاً رد له أهله وبارك له فيهم:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

فجمعهم عليه بعد تفرقهم، أو أحياهم بعد موتهم، وبارك له فيهم، حتى صاروا ضِعْفَ ما كانوا قبل الابتلاء.

وكل ذلك فعله سبحانه على سبيل التفضُّل والرحمة، لا على سبيل اللزوم والوجوب، وفعله أيضاً تذكيراً لأولي الألباب، لينتظروا الفرجَ من الله تعالى، بالصبر والرضا وباللجوء إليه وحده فيما ينزل بهم.

ففي قصة أيوب عليه السلام موعظةٌ كبيرةٌ لذوي العقول والبصائر.

وردَّ سبحانه وتعالى على أيوب ماله وزاده من فضله، ففي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**بينما أيوبُ يغتسلُ عُرياناً خرَّ عليه رِجْل جراد** (أي: جماعة جراد) **مِنْ ذهبٍ، فجعلَ يحتثي في ثوبه، فنادَى ربُّهُ: يا أيوبُ ألَمْ أكنْ أغنيتُكَ عمَّا ترى؟ قال: بلى يا ربِّ، ولكن لا غنى لي عن بركتِكَ**» [رواه البخاري (٣٣٩١)].

قال ابن حجر رحمه الله: وأصحُّ ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير [٢٣/١٦٧] وصححه ابن حبان [٢٨٩٨] والحاكم [٢/٥٨١]: من طريق نافع بن زيد، عن عقيل، عن الزهري، عن **أنس** رضي الله عنه: «أنَّ أيوب عليه السلام ابتُلِيَ، فلبثَ في البلاء ثلاثَ عشرةَ سنةً، فرفضه القريبُ والبعيدُ إلا رجلينِ مِنْ إخوانِهِ، فكانا يغدوانِ إليهِ ويروحانِ، فقال أحدُهما للآخر: لقد أذنبَ أيوبُ ذنباً عظيماً، وإلا لكُشِفَ عنه هذا البلاءُ، فذكره الآخرُ لأيوبَ، فحزنَ، ودعا الله حينئذٍ، فخرجَ لحاجته، وأمسكتِ امرأتُه بيدِه، فلمَّا فرغَ أبطأَتْ عليه، فأوحى الله إليه أنِ

اركضْ برجلِكَ، فضربَ برجلِهِ الأرضَ، فنبعتْ عينٌ، فاغتسلَ منها، فرجعَ صحيحاً، فجاءتِ امرأته فلم تعرفْه، فسألته عن أيوبَ، فقال: إنِّي أنا هو، وكان له أندران: أحدُهما للقمحِ، والآخرُ للشعيرِ، فبعثَ الله سحابةً فأفرغت في أندرِ القمحِ الذهبَ حتى فاضَ، وفي أندرِ الشعيرِ الفضةَ حتى فاض»[1]. قوله: «**الأندر**» هو مكان جمع القمح والشعير.

ويبدو أنَّ أيوبَ عليه السلام أقسمَ في أثناء ابتلائه أن يضربَ امرأته مئةَ ضربةٍ لأمر ما بدرَ منها، ما كان عليه السلام راضياً عنه، فيسَّر الله عليه سبيل البِرِّ بيمينه، رحمةً بزوجته التي صبرت معه:

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ أي: خذ بيدك حزمةً من الحشيش، فاضرب به، ولا تحنث في يمينك، فإنَّ البر يتحقق به. يقال: حنث في اليمين يحنَثُ؛ إذا لم يبرَّ بها.

﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ أي: فيما أصابه من بلاء، وطلب الشفاء من الله تعالى، وتمنِّي العافية لا يخلُّ بالصبر، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ نعم العبدُ أيوب تحقق بصفة العبودية، وهو رجَّاعٌ إلى الحق توَّاب.

وسئل سفيان عن عبدين ابتلي أحدُهما فصبر، وأُنْعِمَ على الآخر فشكر، فقال: كلاهما سواء، لأنَّ الله تعالى أثنى على عبدين أحدُهما صابر، والآخر شاكر، ثناءً واحداً فقال في وصف أيوب: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [صٓ: ٤٤] وقال في وصف سليمان: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ: ٣٠][2].

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٢١.

(٢) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢١٥.

واختلف العلماءُ في هذا الحكم هل هو خاصٌّ بأيوب أو هو عام؟ ذهب الشافعيُّ وأبو حنيفة وزُفر إلى أنَّ مَنْ فعل ذلك فقد برَّ في يمينه، وخالفَ مالكٌ ورآه خاصّاً بأيوب(١).

- **المصطفون الأخيار:**

ثم أجملت الآياتُ خبرَ جماعتين من الأنبياء ﷺ، قالت في الأولى منهما:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: أولي القوة في طاعة الله وعبادته، وأولي البصيرة في الدين أو المعرفة بالله تعالى.

ومرَّ معنا أنَّه كلَّما ازدادَ العبدُ معرفةً بربه ازدادَ خشية له، وتحققاً بطاعته وعبادته، ولهذا قال بعضهم: للإنسان قوتان: علمية وعملية، وأشرفُ ما يصدرُ عن القوة العلمية معرفةُ الله تعالى، وأشرفُ ما يصدر عن القوة العملية طاعته وعبادته، فعبَّر سبحانه عن هاتين القوتين بالأيدي والأبصار(٢). أكرمهم الله بالعمل الصالح والعلم النافع.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: إنا جعلناهم لنا خالصين بخصلة خالصة هي ذكرى الدار الآخرة، فليس لهم ذكرى غيرها، أو نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكراها، وأخلصناهم بحب الآخرة وذكراها؛ فهمُّهم ذكرى الدار الآخرة وحدها، وقيل: ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا، فلا يُذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يُذكرون به، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

---

(١) روح المعاني: ٢٣/٢٠٩.

(٢) تفسير الخازن: ٥/٢٨٧.

وفي قراءة: **(بخالصةِ ذكرى الدار)** على الإضافة، من إضافة الشيء إلى ما يبيِّنه.

ففي الآية تعليلٌ لما وصفوا به من شرف العبودية، وعلو الرتبة في العلم والعمل، فمطمحُ أنظارهم، ومحطُّ أفكارهم في كل ما يأتون ويذرون حب الله ﷻ، والفوز بلقائه في الدار الآخرة، فقد نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها، ليس لهم همٌّ غيرها.

وأشعرَ إطلاقُ الدار في الآية بأنَّ الدارَ الآخرةَ هي الدار الحقيقية، وإنما الدنيا معبر وممر.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: إنَّهم من الذين اصطفيناهم، وصفَّيناهم من الأدناس والأقذار، واخترناهم لمقام النبوة والرسالة.

ثم أثنتِ الآياتُ على المجموعة الثانية من الأنبياء بمثل ما أثنت على الأولى:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وكل واحدٍ من هؤلاء أيضاً من الذين اختارهم الله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء].

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث

مِنْ أَخْبَارِ غَيْبِ المَاضِي والمُسْتَقْبَلِ

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٩) جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ (٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا
بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ
(٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ (٥٤) هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ
(٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا
مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ (٥٩) قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا۟
رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ (٦١) وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ
(٦٢) أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠
مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (٦٦) قُلْ
هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (٧٥) قَالَ
أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ
ٱلْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ
أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ (٨٨)﴾.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾

أي: هذا ذكر جميل في الدنيا، وإنَّ للمتقين لحسنَ مرجعٍ ومنقلبٍ في الآخرة، فهم يذكرون في الدنيا بالجميل، ويرجعون في الآخرةِ إلى فضل رب جليل، وهو:

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: جناتُ الإقامة الدائمة، وأبوابُها فُتحت تكريماً لهم. وقرئتا مرفوعتين على الابتداء والخبر.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾.

أي: وشراب كثير، فحذف اكتفاءً بالأول.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾

أي: وعندهم نساءٌ قاصرات الطرفِ على أزواجهنَّ، مستويات الأسنان والشباب، وسمِّينَ: أتراب، لأن التراب مسَّهن في وقت واحد.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾

أي: لأجل يوم الحساب. وفي قراءة: **(يوعدون)**.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: ما له انقطاع، بل هو دائم كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وتأكيداً لما سبق تقريره في الحديث عن التفرقة بين الصالحين والفجار الذي سبق في قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [صٓ: ٢٨] أضافت الآيات الإخبار عن مصير الكفار الفجار.

• **الإخبار عن تخاصم أهل النار:**

﴿هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: هذا الذي سبق ذكره للمؤمنين الصالحين، وإنَّ للطاغينَ الذين طغوا على الله، وكذبوا رسله لشر مرجعٍ يرجعون إليه:

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: جهنم يدخلونها ويقاسون حَرَّها فبئسَ الفراش، شبَّه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: هذا حميمٌ وغساق فليذوقوه.

والحميم: الماء الحار. **والغساق**: الصديد الذي يسيل من جلود المعذَّبين في النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم].

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: ولهم أصناف أخرى من العذاب مثل ما ذُكر في الشدة والفظاعة.

ويُسَاقُ المعذَّبون إلى جهنم أفواجاً وزمراً ـ كما مرَّ معنا ـ ويُلْقَى فيها أولاً رؤساءُ الضلال والكفر، ثم يلحق بهم أتباعهم، ويقولُ خزنة النار لرؤساء الضلال والكفر عندما يُلقى فيها الأتباع:

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: داخل معكم.

والاقتحام: الدخول في الشيء بشدة، إذ تضيق عليهم زيادة في عذابهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

فيقول رؤساء الكفر والضلال:

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: لا رحبتْ بهم الدار، بل ضاقت، لأنهم معذَّبون معنا فيها. فيردُّ عليهم الأتباع:

﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾

أي: أنتم قدَّمتم العذابَ لنا، وأوقعتمونا فيه، عندما دعوتمونا إلى الضلال وزينتموه في أعيننا، فبئس المقر جهنم الذي أوصلتمونا إليه.

ثم أضافوا قائلين والحسرة تحرق قلوبهم:

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

أي: زدهم عذاب مضاعفاً في النار، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: وقال الطاغون: ما لنا لا نرى رجالاً كنَّا في الدنيا نعدُّهم من الأراذل؟! يعنون بذلك فقراء المؤمنين، الذي كانوا يسخرون منهم.

﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

قالوا ذلك حيث لم يروهم معهم إنكاراً على أنفسهم، وتأنيباً لها، لأنهم سخروا منهم، وحقَّروهم، حتى زاغت عنهم أبصارهم تحقيراً لهم.

والهمزةُ للاستفهام، سقطت لأجلها همزةُ الوصل، وفي قراءة: (**اتخذناهم**) بغير همزة، و(أم) للإضراب، كأنهم أضربوا عن إنكار الاستسخار إلى ما هو أشد منه وهو الاحتقار، وميل الأنظار عنهم، وقرأ بعضهم: (**سُخريّاً**) بضم السين، ومعناه من السخرة والاستخدام.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: إنَّ الذي حُكَي عنهم لحقٌّ لا بدَّ من تحقق وقوعه في المستقبل.

(**تخاصم أهل النار**) بدل من (**حق**)، أو خبر لمبتدأ محذوف، وقُرِئَ بالنصب على البدل من (**ذلك**)، وسُمِّي التقاول بين أهل النار تخاصماً لاشتماله على ذلك.

- **القرآن والنبأ العظيم:**

هذه الأخبار المغيَّبة تدلُّ على صدق النبيِّ ﷺ، وصحة دعوته، ولهذا أمره الله تعالى أن يردَّ على المشركين الذين قالوا عنه ساحرٌ كذَّاب، وتعجَّبوا من دعوة التوحيد التي يدعو إليها، كما سبق في صدر السورة:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: إنَّما أنا رسولٌ منذرٌ، لا ساحر كذاب، وما من إلٰه يستحق العبادة إلا الله الذي لا يقبل الشركةَ والكثرةَ في ذلك، والقهَّار لكلِّ شيء سواه.

وفي هذا الجواب من الحُسْنِ ما فيه، فإنَّ كلَّ واحد من وصفي الرسالة والإنذار ينافي كل واحد من وصفي السحر والكذب.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾.

أي: هو خالق ومالك ومربي جميع المكونات السماوية والأرضية، العزيز الذي لا يُغْلَبُ، والغفَّار الذي يغفر ما يشاء لمن يشاء.

ولا يخفى ما في هذه النعوت من تقرير لدعوة التوحيد مع الوعيد للمشركين ووعد بالمغفرة للموحدين.

﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨﴾.

أي: قل: القرآن ذو الذكر الذي أقسم الله به في صدر السورة هو نبأ عظيم، لأنه منزَّلٌ من الواحد القهار، العزيز الغفار، أنتم عنه معرضون مع عظمته الموجبة لحسن تلقيه وقبوله، فهو توبيخٌ على سوء صنيعهم وجهلهم بجلالة القرآن الكريم وعظمته.

لقد جاء هذا النبأُ العظيمُ ليتجاوز قريشاً في مكة، والعربَ في الجزيرة، والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض، ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان، ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها[(١)].

وما فيه من أخبار مغيَّبة عنَّا تدل على أنه منزل من الله ﷻ، ولهذا أضافت الآيات ذكر أخبار بعض ما حدث في الملأ الأعلى:

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٦٩﴾.

أي: ما كان لي فيما سبق علم في حال الملأ الأعلى وقت اختصامهم.

والمراد بالملأ الأعلى الملائكة، وما جرى بينهم عندما خلق الله آدم، ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام ما علم ذلك إلا بالوحي، فهو نذير مبين:

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٣٠٢٦.

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: ما يوحى إليَّ من أخبار الغيب إلا لأني نذير مبين، فإنَّ كونه عليه الصلاة والسلام نذيراً مبيناً من دواعي الوحي إليه.

● **من أخبار الملأ الأعلى:**

وكما أخبره تعالى عمَّا يحدث من تخاصم بين أهل النار يوم القيامة، أوحى إليه أيضاً ما كان من تقاول وتحاور بين الملائكة عند خلق آدم عليه السلام.

ولهذا شرعت الآيات تفصِّل ذلك تأكيداً لصحة نبوَّته عليه الصلاة والسلام، وأنَّ القرآن الكريم وحيٌ أنزله سبحانه عليه:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾.

والمراد به آدم عليه السلام، وسُمِّي بشراً، لأنه جسم كثيف مخلوق من طين يُباشر ويُلاقى، أو لأنَّه بادي البشرة، ظاهرُ الجلد، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

فالترابُ إذا بُلَّ بالماء يصيرُ طيناً، فإذا أنتنَ يصيرُ حمأً مسنوناً، فإذا يبسَ يصيرُ صَلْصالاً كالفخَّار، ومرَّ معنا أنَّ علمَ التحليل الكيميائي أثبتَ أن بُنيةَ الإنسانِ المادية مكونةٌ من عناصر التراب.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: فإذا أتممتُ خلقته، وأحييته بنفخ الروح فيه، فقعوا له ساجدين تحية وتكريماً.

فقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ إضافةُ خلقٍ إلى خالق، فالروحُ خلقٌ من خلقه سبحانه،

أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، كقوله: (**بيتُ الله**) و(**ناقة الله**)، فهو ـ كما مرّ معنا ـ خالقُ كلِّ شيءٍ، وربُّ كل شيء.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: سجدوا كلهم معاً بحيث لم يتأخر أحد منهم عن أحد.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

أي: أبى إبليس أن يسجد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ أي: لما خلقته بنفسي بلا واسطة أب وأم.

وهو سؤالُ توبيخٍ وإنكارٍ، وترتيبُ الإنكارِ على خلق الله تعالى آدم بيديه أفادَ تأكيدَ الإنكار وتشديدَ التوبيخ، كأنه قال: ما منعك أن تكرِّمَ بالسجودِ مَنْ هو أهلٌ للتكريم، لكونه المخلوقَ الذي خلقته بيدي.

وفي حديث محاجة آدم وموسى ﵉ ما يدل على أنَّ المخلوقيةَ بها وصفُ تعظيمٍ؛ حيث قال موسى: «**أنتَ آدمُ الذي خلقكَ اللهُ تعالى بيده**» [رواه مسلم (٢٦٥٢)].

وكذلك في حديث الشفاعة: أنَّ أهلَ الموقفِ يأتونَ آدمَ ويقولون: «**أنتَ آدمُ أبو الناسِ خلقَكَ اللهُ تعالى بيدِهِ**» [رواه البخاري (٦٥٦٥)].

وفي هذه الآيةِ إثباتُ اليدين لله سبحانه على الوجه اللائق بجلاله وكماله، قال ابن بطَّال: وهما صفتانِ من صفات ذاته، وليستا بجارحتين، خلافاً للمشبهة من المثبتة، وللجهمية من المعطلة[1].

---

(١) فتح الباري: ١٣/ ٣٩٣.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي: أستكبرتَ عن السجود من غير استحقاق؟ أم كنت مستحقّاً للعلو؟ وقد يكون المعنى: أحدثَ لك الاستكبارُ؟ أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين؟ ولا شك أنه تعالى يعلم حقيقةَ إبليس، وسؤاله له سؤال توبيخ وتقريع.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾.

وقول إبليس هذا يدل على أنَّه رأى لنفسِه فضلاً على آدم بأصله، مع أنَّ الفضلَ لا يكونُ بالأصل، وإنَّما بطاعته تعالى، وامتثال أمره، فاستحقَّ بسبب تكبُّره طرده ولعنته:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: فاخرج من الجنَّةِ، أو من زمرة الملائكة، فإنك مرجومٌ مطرودٌ من كل خير وكرامة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

فلعنةُ الله تلازِمُه إلى يوم الحساب والجزاء، والمراد دوامُها من غير انقطاع، فجعل يوم الدين غاية لها، لأنه أبعدُ غاية يضربها الناس في كلامهم.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: أمهلني إلى يوم يبعثون من القبور، وهو يوم القيامة.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾.

وهو وقتُ النفخةِ الأولى، التي يُصْعَقُ فيها مَنْ في السموات والأرض.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أقسم بعزَّة الله تعالى أنه سيضلُّهم أجمعين إلا الذين يتحققون بحقيقة العبودية لله، ويخلصون قلوبهم له ﷻ، وهذا يدل على شدَّة ثقة الشيطان بنفسه، وقوة مكره.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: أنا الحقُّ، ولا أقول إلا الحق: لأملأنَّ جهنم من التابعين للشيطان، والمتبوعين أجمعين.

وفي قراءة: **(قال فالحقَّ)** بنصبه على الإغراء، أي: فاتبعوا الحق.

- **الله أعلم:**

وبهذا أثبتتِ الآياتُ صدقَ النبيِّ ﷺ، وأنَّ القرآنَ الكريمَ كلامُ اللهِ المنزلُ على رسوله عليه الصلاة والسلام، فأخباره كلُّها حق وصدق، لأنها تنزيل عالم الغيب والشهادة، ولهذا توجَّهت آياتُ السورة في ختامها تخاطِبُ النبيَّ ﷺ أن يبيِّن لهم براءة دعوته من أي مطلب مادي ودنيوي أيضاً، كما بيَّنت الآياتُ صدقه في تلقي الوحي وتبليغه، فكل ذلك من أدلة صدقه وصحة رسالته:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: وما أنا من المتصنِّعين، فما عرفتموني قط متصنِّعاً ولا مدَّعياً ما ليس عندي حتى أنتحلَ النبوةَ وأتقوَّلَ القرآنَ.

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: يا أيها الناسُ مَنْ علم شيئاً فليقل به، ومَنْ لم يعلمْ فليقل: الله أعلم، فإنَّ مِنَ العلم أن يقولَ لما لا يعلمُ: اللهُ أعلم، قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. [رواه البخاري (٤٨٠٩)].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧)﴾.

أي: ما القرآن إلا ذكرٌ للعالمين، فالضمير: (هو) عائد على القرآن الكريم، الذي صرَّحت به السورة في أول آياتها: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ (١)﴾ فالذكر الذي فيه ذكر للعالمين، فرسالة القرآن الكريم عامة شاملة للعالمين.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾

أي: ولتعلمُنَّ الآثارَ الطيبة والأحداث الخطيرة المترتبة على هذا النبأ العظيم بعد حين، وعندئذٍ تظهر لكم حقيقة صدقه.

فهو كقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧] أي: لكلِّ خبر في القرآن الكريم حقيقةٌ يؤول إليها، ومنتهًى ينتهي إليه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وسوف تعلمون صحةَ هذا الخبر وتحققه.

وكقوله أيضاً: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولم يمرَّ وقتٌ طويل على نزول هذه الآية الكريمة حتى شهدت البشريةُ أعظمَ وأعمقَ تحولٍ في تاريخها الفكري والسياسي والتشريعي، ولا يزال العلمُ يكتشفُ كلَّ يومٍ كثيراً من الحقائق العلمية، التي ورد الخبر فيها في بعض آيات الذكر الحكيم إشارةً أو تصريحاً، فيزيدنا تصديقاً بصدق رسول الله ﷺ؛ وعلماً بأن القرآن الكريم كلام الله، الذي يعلم السر وأخفى.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: ولقد أنشأ مِنَ القيم والتصورات، وأرسى من القواعد والنُّظُم في هذه الأرض كلها، وفي أجيال البشرية جميعها، ما لم يكن العرب يتصوَّرونه، ولو في الخيال، وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أنَّ هذا النبأ إنما جاء ليغيِّرَ وجه الأرض، ويوجِّه سير التاريخ، ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة، ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها.

أسأله تعالى أن ينور قلوبنا بأنوار الذكر الحكيم.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الزُّمَر

الـهُدَى وَالضَّلالُ فِي سُورَةِ الـزُّمَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

ومَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد: فقد دارت آياتُ سورة الزُّمَر **فلك الهدى والضلال،** فأظهرت في صدرها أنَّ الإخلاصَ في العبادةِ والطاعةِ يؤدي إلى الثبات على طريق الهدى، وأمَّا الجحودُ والتكذيبُ فيؤديان إلى الخذلان والضلال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وبعد أن عرَّفتِ الآياتُ بعض دلائل الهدى وبراهينه في الآفاق والأنفس، **بيَّنتْ كمالَ غنى الله تعالى، وقرَّرت مسؤولية كل إنسان عن عمله،** ثم حثت بأسلوبٍ غيرِ مباشر على الاستكثار من العبادات ونوافل الطاعات لما لها من تأثير في الثبات على طريق الهداية: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ. . .﴾ [الزمر: ٩].

ثم **أمرت بالتقوى،** لما لها من تأثير أيضاً في الثبات على طريق الهداية،

ونوَّهت **بمكانة النبي ﷺ، وإخلاصه في طاعة ربه، واستسلامه لأمره**، لكي يكونَ الأسوة الطيبة للمؤمنين، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ثم توعدت المعرضين عن أسباب الهداية، أصحاب القلوب القاسية، الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله وآياته.

ووجهت المؤمنين إلى **الثقة بالله ونصره وتأييده**، وبينت أنَّ شأن الهدى والضلال منوطٌ بمشيئته ﷻ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧].

ومع ذلك فإنَّ للناس كسباً واختياراً في الهدى والضلال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [الزمر: ٤١].

وتأكيداً لهذا المعنى دعتهم الآيات إلى **التوبة والإنابة** مهما أسرفوا في الفجور والمعاصي: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

وخُتمت السورة **ببيان مصير زمر الضالين وزمر المهتدين**، أسأله سبحانه أن يثبتنا على طريق الهداية.





تفسير سورة الزُّمَر

الهُدَى والضَّلالُ في سُورَةِ الزُّمَر

الإخلاص في العبادة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾

بدأ الله تعالى سورةَ الزُّمرِ بالتنويه بشأن القرآن الكريم، وأنَّه الكتابُ المنزَّل على النبيِّ الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم فقال:

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾.

أي: هذا الكتاب تنزيلٌ من الله لا من غيره، العزيز في سلطانه، الحكيم في تدبيره، فما أنزله إلا بمحض مشيئته، ومقتضى حكمته ﷻ.

وفي قوله: **(تنزيل)** إشارة إلى كيفية نزوله، فقد نزل منجَّماً على رسول الله ﷺ، وما نزل دفعة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وفي وَصْفِ الكتاب بِأنَّه تنزيلُ العزيزِ الحكيمِ تعظيمٌ لشأنه، وأنه واجبُ الاتباعِ، لأنه من الله العزيز الحكيم، والنبي عليه الصلاة والسلام أول المكلفين

باتباعه والتزام أحكامه، ولهذا توجّهت الآيات تخاطبه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ملتبساً بالحق، أو لإثبات الحق كما في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

فكل ما فيه حق وصدق ثابت بالبرهان العقلي والدليل الحسي، موجب للعمل به. فأول ما يترتب على تنزيله أن تعمل به:

﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: فاعبد الله عبادة خالصة له حسبما أنزل إليك فيه، فأنت أول المكلفين باتباع هذا الكتاب، وتطبيق أحكامه، وهذا يدل على أنَّ النبيَّ ﷺ ما كان له اختيار وكسب في نزول الوحي عليه، فهو ليس إلا متلقياً لما أنزل عليه ومكلَّفاً بما فيه.

ثم قررت الآيات ما سبق وأكدته بقوله تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ أي: الله وحده الذي يجب اختصاصه بالدِّين الخالص، والعبادة والطاعة يجب أن تكون لله وحده، لأنه المتفرِّد بصفات الألوهية، واستحقاق العبادة، فلا يقبل منها إلا ما كان خالصاً له وحدَه، كما سيأتي في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

وقوله أيضاً: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤].

وكل عبادة لا تكون لله تعالى وحدَه مردودةٌ على أصحابها غيرُ مقبولة، ولو قصدوا التقرُّب بها إليه تعالى.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي: والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى وعبدوا غيره قائلين: ما نعبدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله تقريباً، فإن عبادتهم مردودة عليهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: إنَّ الله يفصل بينهم يوم القيامة، فيقبل عبادة المخلصين الموحِّدين، ويردُّ عبادة الآخرين ويعاقبهم عليها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يوفق المصرِّين على الكذب والكفر، بل يخذلهم، ويذرهم منتكسين في حمأة الضلالة، محتجبين عن أنوار الهداية، فالإخلاصُ في العبادة مِنْ أعظمِ أسباب الثبات على الحق والهداية.

* * *

كروية الأرض

﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ اللَّهُ الْوَٰحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾

ثم نزَّهت الآيات الله تعالى عن الشريك والولد:

﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ اللَّهُ الْوَٰحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: لو أراد الله أن يتخذَ ولداً كما زعم المشركون لاختار ممَّا يخلق ما يشاء، فإنَّ اتخاذ الولد ممتنعٌ في حقه سبحانه ومستحيل، لأن كل ما سواه مخلوق، والممكن هو الاصطفاءُ.

وقد اصطفى سبحانه من مخلوقاته كالملائكة والأنبياء، وأمَّا اتخاذ الولدِ فمستحيلٌ في حقه تعالى، ولهذا نزَّه سبحانه نفسه عن ذلك بقوله:

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: يتنزَّه عن اتخاذ الولد، فهو أعظم وأجل من ذلك، ولا يليقُ اتخاذ الولد بجلاله وكماله ووحدانيته، فهو الله الواحد في ملكه وسلطانه، الغالب على خلقه، وجميعهم في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته جَلَّ جَلَالُهُ، كما سيأتي معنا في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

والدليل على أنه واحد قهار مبثوث في مكوناته ومخلوقاته:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝٥﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: خلقهما وما فيهما من المكوَّنات ملتبسة بالحق والصواب، مشتملة على الحِكَم والمصالح، فما خلقهما عبثاً ولا باطلاً، وكما خلقهما سبحانه فهو يدبر أمرهما.

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يغشي كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفُّه عليه لفَّ اللباس على اللابس، كما في قوله سبحانه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ الآية [الأعراف: ٥٤].

وأشار سبحانه هنا إلى حقيقةٍ علميةٍ دقيقةٍ وهي كروية الأرض، إذ هي محلُّ التكوير، فهو تعبيرٌ عجيبٌ ـ كما قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ يقسر الناظر قسراً على الالتفاتِ إلى ما كُشِفَ حديثاً عن كروية الأرض.

ودلَّت صيغة المضارع (**يكور**) على التجدد والاستمرار، فاستمرار هذا النظام الكوني الدقيق منوط بمشيئته تعالى وقدرته.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة عندما تتغيَّر بتقديره تعالى النُّظم الكونية الدنيوية، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ﴾ أي: تنبَّهوا، فإن خالق السموات والأرض ومدبِّر

ما فيهما من ظواهر كونية، هو العزيز الغالب على كل شيء، والغفار الساتر لذنوب عباده برحمته، فكما أنه تعالى واحد قهار؛ فهو عزيز غفار.

* * *

الأزواج الثمانية والظلمات الثلاث

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾.

وتابعت الآياتُ تبيِّنُ جانباً آخر من الأدلة الدالة على أنَّ الله واحد قهار وعزيز غفار:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فخلْقُكم من نفس واحدة آية، وجعل زوجها منها آية أخرى.

وعطف الثانية على الأولى بـ (ثم) دلَّ على مباينتها لها، وتراخيها عنها، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

فالمرأة تلتقي مع الرجل في عموم الخصائص البشرية، مما يدل على وحدة خالق هذا الكائن البشري، وهذه الظاهرة موجودةٌ أيضاً في الأنعام، وهذا يدل أيضاً على وحدانية خالقها، فخالق الإنسانِ والأنعامِ خالقٌ واحد، وهو خالق جميع الأحياء.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكراً وأنثى، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز، المصرَّح بها في قوله تعالى في **سورة الأنعام**: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

والمرادُ من الإنزال الإحداثُ والإنشاءُ، فإنَّها من أقضيته سبحانه وأقداره التي كتبها في اللوح المحفوظ، أو أحدثها لكم بأسباب نازلة من السماء كالأمطار وأشعة الشمس.

ثم لفتت الآيةُ أنظارهم إلى كيفية خلقِهم في بطون أمهاتهم، ليستيقنوا بوحدانية الخالق وكمال قدرته، وأنهم في جميع أحوالهم وتقلباتهم في قبضة قدرته سبحانه:

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ أي: يخلقكم الله في بطون أمهاتكم خلقاً متدرِّجاً في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة.

ولا بدَّ أنَّ خلقهم في هذه الظلمات فيه حكمة تدل على رحمته تعالى ولطفه، ولعلَّ منها حمايةُ هذا المخلوق الضعيف من مؤثرات خارجية مضرة ومشوهة، فالأشعة السينية مثلاً مضرة ومشوهة، ولا يستبعد وجود أنواع أخرى من الأشعة حولنا تضرُّ الجنين وتؤذيه، وهو في مراحل الخلق الأولى(١).

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: ذلكم الإله العظيم الذي هذه أفعاله، له الملك المطلق في الدنيا والآخرة، فلا معبود بحق إلا هو، فكيف تُصرفون عن عبادته وشكره، وتضلون عن توحيده، مع توفر موجبات الهداية، وانتفاء ما يصرفكم عنها؟!.

* * *

(١) القرار المكين، ص٢٧٣.

الإرادة والرضا

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

ثم بيَّنت الآيات كمال غنى الله تعالى، وأنَّه ما كلَّفهم بعبادته ليجرَّ إلى نفسه نفعاً، أو يدفع ضرّاً:

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ على الإطلاق.

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لاستضرارهم بالكفر، رحمة بهم، فالكفر سبب شقائهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنه سببُ فلاحكم وفوزكم.

وقُرئ بإشباع ضمَّة الهاء (يرضهُ)، فكفر الكافرِ غيرُ مرضي لله تعالى، وإن كان بإرادته، فالإرادةُ غيرُ الرضا، قال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله: فالإرادةُ غيرُ العلمِ، وغيرُ الرضا، قال في «الجوهرة»:

وقـــدرةٌ إرادةٌ وغـــايـــرتْ أمراً وعِلْماً والرِّضا كَمَا ثَبَتْ[1]

ونحن مكلَّفون بأن تكون أعمالُنا وأقوالُنا موافقةً لأمره سبحانه وشرعه، لا لإرادته، فهي غيبٌ عنا، لا نعلمها حتى يقع مراده سبحانه، أما أمره فقد

---

(١) ردود على أباطيل: ١/ ٣٨٥.

أعلمنا به بواسطة أنبيائه وكتبه، ولهذا قال سبحانه في معرض الردِّ على المحتجّين بالقدر: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام].

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وتأكيداً لهذا المعنى قرَّر تعالى مسؤوليةَ الإنسان الشخصية عن أعماله فقال:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: فلا يسري كفرُ الكافر إلى غيره، وما فعله الآباء لا يتحمَّله الأبناء، كما سبق في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: إن مرجعكم إلى الله يوم الحساب فينبئُ كلَّ واحد منكم بما عمل في الدنيا لكي يجازيه عليها، إنه عليم بمضمَرات القلوب بَلْه الأعمال الظاهرة.

وقدَّر تعالى أن يمرَّ الإنسانُ في أثناء حياته بأحوال مختلفة من الرخاء والشدة والعسر واليسر، لعله يهتدي ويعتبر، وينتبه من غفلته، ومع ذلك يبقى أكثرُ الناسِ مصرِّين على كفرهم وضلالهم، معرضين عن طاعة ربهم:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: دعا ربَّه راجعاً إليه، مستشعراً ضعفه وافتقاره إليه، وهو يسأله كشف ما نزل به من ضر.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: ثم إذا أعطاه وملَّكه

نعمةً من فضله ورحمته نسيَ ربه الذي كان يدعوه من قبلُ ليكشفَ عنه الضرَّ، وانشغلَ بالنعمة عن شكر المنعم.

فهو في حال الشدة يلجأُ إلى الله تعالى، ويستغيثُ به وحده، وفي حال الرخاء ينسى ربه، ويغفل عن عبادته وطاعته، وهذا حال أكثر الناس، وقد قرره تعالى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

ومنها أيضاً: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ أي: وجعل لله شركاء في العبادة ليزدادَ ضلالاً، ويثبت عليه، فالضلالُ مقارِنٌ للجعل المذكور، واللام لام العاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ [القصص: ٨].

وفي قراءة: (**يَضل**) بفتح الياء.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: قل تهديداً لذلك المصرِّ على الضلال: تمتَّع بكفرك تمتعاً قليلاً، إنَّ مصيرك إلى النار.

❊ ❊ ❊

الخوف والرجاء

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

وتؤثر العبادات ونوافل الطاعات بتثبيت صاحبها على طريق الهداية، ولهذا قال تعالى يبيِّن فضل الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى في الأسحار:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ فالمطيع لا يكون كالعاصي، وحال المؤمن ليس كحال الكافر الذي سبق ذكره.

وقرئ (أَمَن) بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على (من)، وبالتشديد على إدخال (أم) على (من). وهي مبتدأ خبره محذوف، وتقديره: أمَّن هو قانت كغيره، أي: أمَّن هو مطيع كمن هو عاص.

وآناء الليل: ساعاته وأوقاته. ودلت الآية على ترجيح قيام الليل على النهار، فالنوافل في الليل أفضل من نوافل النهار، لأن الليل أستر، فيكون أبعد عن الرياء، والقيام فيه أشق على النفس.

﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ أي: يقومُ إلى الصلاةِ وهو يحذر الآخرةَ، ويرجو رحمة ربه.

فالواجبُ أن يكونَ المؤمنُ بين الخوف والرجاء، يرجو رحمة ربه لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله، وينبغي ألا يجاوز أحدهما حده، فالرجاء إذا جاوز حده يصير أمناً، وقد حذر الله تعالى منه بقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والخوف إذا جاوز أيضاً حدَّه يصيرُ يأساً، وهو مذمومٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ويلاحظ أنه قال في مقام الخوف: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فلم يضف الحذر إليه تعالى، وقال في مقام الرجاء: ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأولى أن ينسب إلى الله تعالى[1].

وورد مثل هذا في الحديث الشريف: فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ٣٠٣.

ﷺ دخلَ على شابٍّ وهو في الموتِ، فقال: «**كيفَ تجدُكَ؟**» قال: واللهِ يا رسولَ اللهِ إنِّي أرجو اللهَ، وإنِّي أخافُ ذنوبي، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ولا يجتمعانِ في قلبِ عبدٍ في مِثْلِ هذا الموطنِ إلا أعطاهُ اللهُ ما يرجو، وآمنَهُ ممَّا يخافُ**» [أخرجه ابن ماجه (٤٢٦١) والترمذي (٩٨٣) وقال: حديث حسن غريب].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا كلُّه متفقٌ على استحبابه في حالة الصحة، وقيل: الأولى أن يكون الخوفُ في الصحَّةِ أكثر، وفي المرض عكسه، وأما عند الإشرافِ على الموت فاستحبَّ قومٌ الاقتصار على الرجاء، لما يتضمَّنُ من الافتقارِ إلى الله تعالى، ولأنَّ المحذورَ من ترك الخوف قد تعذَّر، فيتعيَّن حسنُ الظن بالله برجاء عفوه ومغفرته»(١).

وفي الحديث القدسي: «**يقول الله تعالى: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا مَعَهُ إذا ذكرني**» [رواه البخاري (٧٤٠٥)].

ويؤيده ما رواه مسلم [٢٨٧٧]: من حديث **جابر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحْسِنُ الظنَّ باللهِ**».

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فكما لا يستوي العالمون والجاهلون لا يستوي القانتون ولا العاصون، فالتسويةُ بين المتفاضلين تصادِمُ الحقَّ والعدلَ كما سبق عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر].

فالذين يعلمون الحق، ويعملون به، ويقومون بالليل قانتين لله ركَّعاً وسجداً، لا يستوون مع الذين لا يعلمون، ويعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنَّما يتَّعظ ويهتدي بهذه البياناتِ الواضحات أصحاب العقول الصافية. وفي قراءة: (**يذَّكر**) بالإدغام.

وهو كلام مستقل غير داخل في الكلام المخاطب به النبي ﷺ، فيه إشارة

(١) فتح الباري: ١١/ ٣٠١.

إلى أن التفاوت العظيم بين العالم والجاهل لا يعرفه إلا أصحاب العقول المستنيرة، كما قيل: إنَّما يعرفُ ذا الفضل من الناس ذووه.

* * *

التقوى والإحسان

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

ومن أسباب الهداية والثبات على الحق تقوى الله تعالى، باتباعِ أوامره، واجتنابِ نواهيه، وهو ما تضمَّنه النداءُ الأول في السورة للمؤمنين:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: قل لهم قولي هذا بعينه.

فإنَّ تبليغَ عينِ أمرِ الله تعالى أدعى إلى الامتثال له، كما أنه يدل على أهمية المأمور به وخطورته، وهو خطابٌ فيه تلطُّفٌ وتحبُّبٌ للمؤمنين، وإن كانت الإضافة في قوله: **(يا عبادي)** للتشريف، فقوله: **(الذين آمنوا)** صفة توضيح[1]، وإن كانت للتخصيص فهي صفة مميزة، وسيأتي ما يرجح التخصيص.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: للذين أحسنوا طاعة الله في الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة، وقيل: حسنة في الدنيا وهي الصحة والعافية.

ولا يتحقق الإحسان إلا بالإخلاص الذي أَمرت به الآياتُ في صدر

---

(١) تفسير النيسابوري: ٢٣/ ١٠.

السورة، وهو الذي وصفه الرسول ﷺ حين سُئِلَ عن الإحسان بقوله: «**الإحسانُ أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فإنَّه يراكَ**» [رواه مسلم (٨)].

ودلَّت الآية على التلازم بين الإحسان والتقوى، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ فلا عذر للمفرِّطين في الإحسان والتقوى، فمن تعسَّر عليه في وطنه فليهاجِرْ إلى غيره، فإنَّ أرضَ الله واسعة، كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وقد سبق تفصيل موضوع الهجرة وحكمها في **سورة النساء** عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: إنَّما يوفَّى الصابرون الذين صبروا على الهجرة ومفارقة الأوطان أجرهم بغير حساب عليه.

أو: بغير حد وعدٍّ، بل يُغرف لهم غرفاً، ويصب عليهم صبّاً.

* * *

أول المسلمين

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾.

إن تحقيق العبودية لله تعالى وحده روحُ الرسالات الإلٰهية وزبدتُها، كُلِّف بها المرسلون أولاً ليكونوا الأسوةَ الصالحةَ، والقدوةَ الحسنةَ، لمن أرسلوا إليهم، ولهذا أمر الرسول ﷺ أن يعلنَ ذلك وهو يدعو الناس إلى عبادته تعالى وحده:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

أي: مخلصاً له الدين عن كل ما ينافيه من شرك ورياء.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: وأمرتُ بذلك لأجل أن أكون سابقَ المسلمين وقدوتَهم في الدنيا والآخرة.

فكما أُمر عليه الصلاة والسلام بالإخلاصِ في العبادة، أُمِرَ أيضاً أن يكون له السبق والتقدم فيها.

فعلى الداعيةِ إلى الله أن يوافقَ فعلُه قولَه، وأن يدعو نفسَه أولاً إلى ما يدعو إليه غيره، حتى يكون قدوتهم قولاً وفعلاً، وعليه أن يعلنَ ذلك بقصد حثِّهم وتشجيعهم على الاقتداء به.

وأُمر عليه الصلاة والسلام أيضاً أن يعلنَ خوفه من الله تعالى إن عصاه، تأكيداً لعبوديته لله جَلَّاَلهُ:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

وهو يوم القيامة، وُصف بالعظمة لعظم ما فيه من حساب وجزاء.

وهو أسلوبٌ رفيع في الوعظ والزجر عن مقارفة المعاصي، والابتعاد عن طرق الضلال، فالنبيُّ عليه الصلاة والسلام على جلالة قدره ورفعة منصبه، على هذه الدرجة العالية من خشية الله ومحاسبته لنفسه، فكيف ينبغي أن يكون حالنا نحن مع الله تعالى؟!.

ومرة ثانية أُمِرَ رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعلنَ إخلاص عبوديته لله وتحققه بها عملاً واستسلاماً وانقياداً على أبلغ وجه وأكمله، ففي المرة الأولى أخبر ﷺ بأنَّه مأمور بذلك، وفي هذه المرة أمر بالإخبار بمبادرته إلى تنفيذ الأمر وتحقيقه:

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾.

فلا أعبدُ سواه، وهذا مقامي الذي شرَّفني الله به. أما أنتم:

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ فإنَّكم تحرمون أنفسَكم من شرف عبادته وطاعته. وواضح أنَّه أمرُ توبيخٍ ووعيدٍ، بيَّن لهم بعد ذلك ما يترتّب عليه من حرمان وخسران:

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: إنَّ الكاملين في الخسران الذين خسروا أنفسهم بعبادة غيره تعالى، وخسروا أيضاً أهليهم يوم القيامة بإبعادهم عنهم وحرمانهم منهم، فالإنسان يستشعر ذاته، ويدرك هويته وحقيقته عندما يوجِّه نفسه إلى عبادة ربه ومالك أمره، بينما يستشعر الحيرة والقلق والضياع والضلال عندما يوجه نفسه إلى عبادة غيره جل وعلا.

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ فلا خسران أعظم من خسارة النفس والأهل معاً.

* * *

موعظة وبشارة

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

ولهم مع الخسران أيضاً العذاب الأليم في أطباق النيران:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي: النارُ محيطةٌ بهم من فوقهم ومن تحتهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: ذلك العذاب الفظيع هو الذي يخوِّفُ الله عباده به قائلاً لهم: يا عبادِ فاتقوني، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي.

وهي موعظةٌ بليغةٌ من الله تعالى تنطوي على غاية اللطف والرحمة، فمن اتعظوا بهذه الموعظة؛ وأقبلوا عليه مخلصين في عبادته وطاعته؛ معرضين عما سواه؛ لهم بشارة من الله عظيمة:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت، ورجعوا إلى الله فعبدوه وحده، لهم البشرى في الدنيا والآخرة. أما في **الدنيا**: فالثناءُ عليهم بصالح أعمالهم، وعند نزول الموت، وعند الوضع في القبر. وأما في **الآخرة**: فعند الخروج من القبر، وعند الوقوف للحساب، وعند جواز الصراط، وعند دخول الجنة، وفي الجنة، ففي كل موقف من هذه المواقف تحصُلُ لهم البشارةُ بنوعٍ من الخير والراحة والروح والريحان(١).

ولا شك أن مِن هذه البشارة ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

والمراد من اجتناب الطاغوت اجتناب عبادته، فهو بدل اشتمال منه.

---

(١) تفسير الخازن: ٥/٣٠٦.

والطاغوتُ: المبالِغُ بالطغيان، حتى بلغَ أقصى غاية فيه، وهو الداعي إلى عبادة غير الله تعالى كالشيطان ورؤوس الضلال.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي: احمل البشرى إلى عبادي، الذين يميِّزون بين الهدى والضلال، وبين الحق والباطل، فيتَّبعون الهدى، ويعرِضون عن الضلال، ويتمسَّكون بالحق، ويرفضون الباطل.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: أولئك الذين هداهم الله لدينه، ووفَّقهم للتمسك بشريعته، فهم المنتفعون بعقولهم على أحسنِ الوجوه وأكملِها.

وفيه دلالةٌ على أنَّ الهدايةَ تحصُلُ بتوفيق الله تعالى، واستعدادِ النفس وقبولها لها.

وهدايةُ التوفيقِ منوطةٌ بالله تعالى وحدَه، لا يملِكُها أحدٌ سواه، ومهما اجتهدَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام في هدايتهم وإنقاذهم من النار، فلا يهدي إلا مَنْ تعلَّقت مشيئته تعالى بهدايته:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

فلستَ تملِكُ أمرَ الناس، ولا تقدِرُ على إنقاذِ مَنِ استحقَّ العذابَ في النار.

وهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يبذلُ جهداً كبيراً في دعوتهم، ويحرص حرصاً شديداً على هدايتهم وإنقاذهم من النار.

ثم ذكرت الآياتُ في مقابل ما لأهل العذاب من ظُلل من النار بعض ما أعد الله لأهل الجنة من النعيم، بأسلوب الاستدراك:

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لهم منازل رفيعة، وفوقها منازل أرفع منها تجري الأنهار من تحتها، وعداً لا يخلفه الله تعالى.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ أهلَ الجنَّةِ يتراءَونَ أهلَ الغُرَفِ مِنْ فوقهم كما تتراءَوْنَ الكوكبَ الدريَّ الغابرَ مِنَ الأُفق مِنَ المشرقِ أو المغربِ، لتفاضُلِ ما بينهم**» قالوا: يا رسول الله، تلك منازلُ الأنبياءِ لا يبلغُها غيرُهم؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيدِه رجالٌ آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلينَ**» [رواه مسلم (٢٨٣١)].

* * *

التحذير من الاغترار بالدنيا

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

ولما كان الاغترارُ بالدنيا من أقوى أسباب الضلال، مع أنها قصيرة حقيرة سريعة الزوال، مثَّل لها سبحانه بالمثل الآتي تحذيراً من الاغترار بها:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنزل من جهة السماء ماء هو ماءُ المطر، فجعل منه الينابيع في الأرض.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ من خضرة وحمرة وصفرة، أو مختلفاً أصنافه من بُرٍّ وشعير وعدس وغير ذلك.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: ييبس فتراه بعد خضرته ونضرته مصفرّاً يابساً، ثم يجعله فتاتاً متكسِّراً.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إن في ذلك المثل الذي ضربه الله تعالى للحياة الدنيا، لموعظةً بليغةً يهتدي بها أصحاب العقول المستنيرة.

والجدير بالذكر أنَّ ضرب هذا المثل قد ذكر في مواضع متعددة من التنزيل الحكيم، منها: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

فالدنيا هكذا لا تدوم نضارتها، ولا يدوم حسنها، والعاقِلُ الذي لا يغتر بها، ولا يضل بسببها.

* * *

التحذير من قسوة القلب

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ أي: أفمن وسَّعَ الله صدره، وجعله مستعدّاً لقبول الحق، فهو على بصيرةٍ وهدايةٍ من ربه، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والجواب محذوف دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: مِنْ تَرْكِ ذكر الله والإعراضِ عنه، أو من أجل ذكره، فإنَّ في الناس من يقسو قلبه عند ذكره سبحانه، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقد قصّ الله علينا في **سورة البقرة** كيف قست قلوبُ بني إسرائيل، ولم يتأثروا بالمعجزات الكبيرة التي أجراها سبحانه أمامهم على يد موسى عليه السلام فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

فقسوةُ القلبِ تحجبه عن أنوار الهداية، كما في الحديث الشريف: عن **حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**تُعْرَضُ الفتنُ على القلوبِ كالحصيرِ عوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نكتَ فيه نكتةً سوداءَ، وأي قلبٍ أنكرَها نكتَ فيه نكتة بَيْضاء، حتى تصيرَ على قلبينِ، على أبيضَ مثل الصفا، فلا تضرُّهُ فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ، والآخرُ أسودَ مرباداً كالكوزِ مُجَخِّياً، لا يعرِفُ معروفاً، ولا ينكِرُ منكراً، إلا ما أُشْرِبَ من هواه**» [رواه مسلم (١٤٤)].

هكذا حال أصحاب القلوب القاسية المظلمة، يعرضون عن الهدى وينفرون من ذكر الله، ولهذا وصفهم الله بقوله:

﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

* * *

قشعريرة وطمأنينة

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

أما الذين شرح الله صدورهم للإسلام واستنارت بأنوار هدايته، فحالُهم مع آياتِ التنزيلِ الحكيم يختلِفُ عن حالِ أولئك، ولهذا قال تعالى فيهم:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: نزَّل اللهُ القرآن الكريم يشبِه بعضُه بعضاً في الحُسْنِ، ويصدِّق بعضُه بعضاً، يكرر فيه الوعد والوعيد، والحكم والأحكام، والأوامر والنواهي.

أو: يُثنَّى في التلاوة فلا يُملُّ، تأخذُ الذين يخشونَ ربهم قشعريرةٌ عند سماعه، بسبب ما يعتريهم من الوَجَلِ والخَوْفِ، وما يصيبُ قلوبَهم من أسباب الهداية واليقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم لذكر الله، فإذا ذكرت آياتُ الوعيدِ والعذابِ اقشعرَّت جلودُ الخائفين من الله، وإذا ذكرتْ آياتُ الوعد والرحمة لانت جلودُهم، وسكنت قلوبُهم، فهم بينَ الخوفِ والرجاءِ، كما مرَّ معنا عند قوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: ذلك القرآنُ الذي هو أحسنُ الحديث هدى الله، يهدي به اللهُ مَنْ يشاءُ هدايته، فيشرح صدره لقبول الهداية، ولا شك أنَّه سبحانه أعلمُ أينَ يجعل هدايته، وهو القائل: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

ومرَّ معنا في أول السورة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: ومن يجعل قلبه قاسياً معرضاً عن الحق فما له مِنْ هادٍ يهديه، فشأنُ الهدايةِ منوطٌ بمشيئته تعالى وحدَه وسابق علمه ورحمته.

* * *

اتقاء العذاب بالوجوه

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وكما أنَّ أحوالَ المهتدين تختلِفُ عن أحوال الضالين في الحال، كذلك أحوالهم تختلف في المصير والمآل:

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: أفمن يقي نفسَه بوجهه الذي هو أشرفُ أعضائه من العذاب السيئ الشديد، كمَنْ هو آمنٌ لا يصيبه مكروهٌ. وحُذِفَ الجواب لدلالةِ ما بعده عليه، كما سبق معنا مثله.

﴿وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: ويقال يوم القيامة لِلظالمين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا من كفرٍ وفجورٍ.

فلقد أصرَّ القومُ على كفرهم وفجورهم، ولم يعتبروا بما أصاب الأمم الهالكة قبلهم:

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: أتاهم العذابُ مِنْ حيثُ لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أن الشرَّ يأتيهم منه، أو أتاهم العذاب وهم غافلون آمنون.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: أذاقهم الله الذل والهوان والقتل والسبي في الحياة الدنيا، وعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون لآمنوا واتعظوا به.

* * *

أمثال القرآن

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وكما أعرضوا عن الاتعاظ بالأمم السالفة قبلهم، أعرضوا أيضاً عن الانتفاع بأمثال القرآن ومواعظه وحِكَمِه وأحكامه.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: ضربنا لهم في القرآن من كلِّ مثل يحتاجُ إليه الناظِرُ في أمور دينه لكي يتعظوا به ويهتدوا، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: أنزله تعالى قرآناً عربيّاً مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف، لعلَّهم يتقون الكفرَ والتكذيبَ، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومن أمثلة القرآن الكريم المحكمة قوله تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشرك والموحِّد.

﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: ضرب الله مثلاً للمشرك والموحِّد، رجلاً فيه شركاء متنازعون مختلفون، يدَّعي كلُّ واحدٍ من معبوديه عبوديته، ورجلاً خالصاً لواحدٍ ليس لغيره عليه سبيل. وقرئ: **(سالماً)**.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستويان صفةً وحالاً، والمراد: هل تستوي صفتاهما وحالاهما، واقتصر في التمييز على الواحد لبيانِ الجنس، والمعنى: لا يستويان في الحال والصفة.

ومثَّلَ الكافرَ ومعبوديه بعبدٍ اشترك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف، وكلُّ واحدٍ منهم يدَّعي أنه عبده، فهم يتجاذبونه، ويتعاورونه في مهن شتى، وهو متحير، لا يدري أيهم يُرضي بخدمته! وعلى أيهم يعتمد في حاجاته! وممن يطلب رزقه! فَهَمُّهُ شعاعٌ، وقلبُه أوزاعٌ. والمؤمنُ عبدٌ لسيِّدٍ واحد، فَهَمُّهُ واحدٌ، وقلبُه مجتمع(١).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الحمد لله على كماله وجلاله ووحدانيته. أو: الحمد لله على ظهور الدلائل والبينات الدالة على وحدانيته، بل أكثرهم لا يعلمون أنه وحدَه المستحقُّ للعبادة، فهم مِنْ فرطِ جهلهم يشركون به غيره.

وفيه تنبيه للموحدين على نعمة التوحيدِ، عليهم أن يحمدوا الله عليها.

ولما ظلَّ المشركون مصرِّين على ضلالهم، ولم ينتفعوا بضرب الأمثال، وإقامة الحجج والبراهين، سلكت الآياتُ أسلوباً جديداً تتوعَّدهم فيه بالموت،

(١) تفسير النسفي: ٥/ ٣١٢.

وما سيلقون بعده من حساب وجزاء:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: إنكم جميعاً بصدد الموت وفي عداد الموتى.

وكان المشركون من قريش ينتظرون موت رسول الله ﷺ، ظانِّين أنَّ دعوته إلى التوحيد تنتهي بموته، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

ولهذا توجهتِ الآياتُ تخاطِبُ النبيَّ ﷺ، وتخبِرُهُ بأنَّه سيموتُ، وأنَّ معارضي دعوته سيموتون أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

فتُقيم حينئذٍ الحجة عليهم بأنك بلَّغتهم رسالة التوحيد، وتلوتَ عليهم آياتِ التنزيلِ الحكيم العربي المبين، بكل ما فيه من حكمٍ وأمثالٍ وحُججٍ وبراهينَ، والقوم قد لجوا في الضلال والعناد بسبب قسوة قلوبهم.

* * *

الحُكْمُ والكِفاية

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ويصدر عليهم أحكم الحاكمين حكمه العادل، ويمهِّدُ له ببيان ما يستوجبه:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: لا أظلم من هؤلاء الذين كذبوا على الله، فنسبوا إليه الشريك والولد، وكذبوا بدعوة التوحيد التي هي عينُ الحقِّ، ونفسُ الصدقِ، عندما جاءتهم من غير تدبُّرٍ ولا تأمُّلٍ، فجمعوا بين طرفي الضلال: كذبوا على الله، وكذَّبوا رسول الله ﷺ.

ثم بيَّن سبحانه حكمَه فيهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري المنفي مبالغة في الإثبات فقال:

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ أي: أليستْ جهنَّمُ كافيةً للكافرين مأوى؟ ففيها عقوبة كافية لكفرهم وتكذيبهم، فالكفاية مفهومةٌ من السياق لقوله تعالى بعدها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

ويحكم الله بالمقابل على أهل الهدى والصدق بفضله ورحمته:

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وهو رسول الله ﷺ ومن تبعه من المؤمنين.

فالصدق هو دعوة التوحيد ودين الإسلام، والمتصفون بالصدق والتصديق هم المتقون الواصلون إلى مرتبة التقوى، وهي من أعظم المراتب وأرفع الرغائب، ولا شكَّ أنَّ مراتب التقوى متفاوتة، ورسول الله ﷺ في أعلاها، وقد ذكرنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] قول رسول الله ﷺ: «**إنَّ أتقاكم وأعلمَكُم باللهِ أنا**».

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: لهم كل ما يشاؤون عند ربهم في الجنة، ومهما طلبوا وجدوا، تفضَّلَ

الله عليهم به بسبب إحسانهم في عبادته وطاعته، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن].

ولما اشتهر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمبادرة إلى تصديق النبيِّ ﷺ، ذهب بعضُ المفسرين إلى أنه هو الذي صدَّق به، ونقل عن بعضهم أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والأَوْلى حملُ الآيةِ على العموم، فهي تنسحب على جميع المؤمنين الذين يقولون الحق ويعملون به.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ أي: ليغفره ويستره عليهم، وخصَّ الأسوأ للمبالغة، فإنه إذا كُفِّر كان غيره أولى بذلك.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ويعطيهم ثواب أعمالهم بما يعادل أحسنها، فضلاً منه تعالى بزيادة أجورهم، كما في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

* * *

أمان وضمان

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

ومن صور إصرارهم على الضلال أنهم كانوا يخوِّفون رسول الله ﷺ بقوَّتهم وآلهتهم، عندما كان يسفه أحلامهم، ويعيب آلهتهم، فأنزل الله تثبيتاً للنبي ﷺ ورداً عليهم:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ أي: الله كافٍ عبدَه ـ وهو النبي ﷺ ـ وعيدَ المشركينَ وكيدَهم.

وفي قراءة: (**عباده**) ويكون المعنى: إنَّ الله يكفي المؤمنين شرَّ أعدائهم، وبالأولى أن يكفي نبيه وخيرته من خلقه ﷺ شرَّ أعدائه ومكرهم، وقد أكَّد سبحانه هذا المعنى في عدد من الآيات، منها: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وتخويفهم النبيَّ ﷺ بالأوثانِ التي لا تضرُّ ولا تنفع، يدل على شدة ضلالهم وجهلهم، وأنه تعالى لا يهديهم إلى أي خير ورشاد.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وقد سبق معنا مثل هذا التعقيب في سياق ما أنزل الله في القرآن الكريم وإعراض المشركين عنه عند قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وهو أيضاً تأكيد لما ذُكر في صدر السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وهذا يُظهر لنا الاتفاق والاتساق بين آيات السورة التي تدور في فلك الهدى والضلال.

وفي المقابل:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ﴾ أي: من يوفقه الله للهداية فلا يصرفه عنها أحد، فلا غالب له جل وعلا، ولا رادَّ لإرادته ولا معقب لحكمه.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: الله عزيزٌ غالبٌ ينتقِمُ من أعدائه لأنبيائه وأوليائه.

ويلاحظ إظهار الاسم الجليل (الله) في موضع الإضمار لتأكيد مضمون الكلام، وزيادة الشعور بالمهابة، كما يلاحظ دخول همزة الاستفهام على كلمة النفي (ليس) وهو الاستفهام الإنكاري المنفي الذي يفيد التأكيد، والذي سبق ذكره أيضاً في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

فالذين هداهم الله لا مضل لهم، وكيف يَضلُّون بعد أن شرح صدورهم للإسلام، ونوَّر قلوبهم بأنوار تنزيله، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وهم الذين يخشون ربهم، فتقشعر جلودهم من خشيته، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، وما دام حالهم مع التنزيل الحكيم هكذا، فهم في أمانٍ من الضلال، لأنهم متمسكون بهدى الله الذي يهدي به من يشاء.

* * *

حسبي الله

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

والعجيب أن المشركين ضلُّوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فهي الفطرة التي فطرهم سبحانه عليها.

وأُمر ﷺ أن يقابل إقرارهم هذا بتوبيخهم على عبادة غير الخالق:

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ فهي آلهة ضعيفة عاجزة لا تكشف ضرّاً ولا تمنع خيراً، فالضر والنفع منوط بمشيئة الخالق سبحانه وقدرته، فهو المستحق وحده للعبادة.

وتتضمن الآية ردّاً على تخويف المشركين للنبي عليه الصلاة والسلام من آلهتهم:

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: قل: كافيني الله كل أموري من جلب خير أو دفع شر، عليه وحده يتوكل المتوكلون.

ومن آثار توكله عليه الصلاة والسلام على الله، ثباته على طريق الدعوة، واستمراره في مواجهة المشركين وتحديهم وتهديدهم:

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة والمكر، أو على طريقتكم، أو على حسب تمكنكم واستطاعتكم فإني لا أبالي، إني عامل فيما أمرت به، ولن أتوقف وأتردد.

وقرئ: **(على مكاناتكم)**.

ولا يخفى ما في كلامه عليه الصلاة والسلام من ثقة ورباطة جأش وشجاعة، أكَّد ذلك قوله:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: فسوف تعلمون وبال ذلك، وهو عذاب يذله في الدنيا، وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع في نار جهنم.

* * *

النوم والموت

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٤١ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٤٤﴾.

فطريق الحق واضح مؤيد بالأدلة والبراهين، ولا عذر لأحد في الإعراض عنه، وكلٌّ مسؤول عن كسبه واختياره:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٤١﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إنا أنزلنا عليك الكتاب لخير الناس، وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فمن اختار الهدى فإنَّما ينفعُ نفسَه، ومن اختار الضلال فإن وبال ضلاله يعود على نفسه.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما وكلت عليهم فتجبرهم على الهدى، كما قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية].

وهذا يدل على أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يحرص حرصاً شديداً على هدايتهم.

والوكيل الحقيقي عليهم هو الله وحده، الذي يملك شؤونهم كلها في الحياة والموت، وفي اليقظة والنوم:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ أي: الله يقبض الأنفسَ عند انقضاء أجلها، وهو موتُ الأجساد، ويقبضُ الأنفسَ التي لم تمت حينَ النوم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: ويمنعُ التي قضى عليها الموتَ أن تعود إلى جسدها، ويرسل الأخرى النائمة إلى حين انتهاء حياتها في أجلها المعلوم المقدَّر لموتها، فذكر الوفاتين: الصغرى في النوم، والكبرى عند الموت.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في ذلك لدلائل وبراهين تدل على أن شؤون مخلوقاته كلها في قبضة قدرته تعالى ومشيئته.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إذا أوى أحدُكم إلى فراشِهِ فليأخذْ داخلةَ إزارِهِ، فلينفضْ بها فراشَهُ، وليسمِّ اللهَ، فإنَّه لا يعلَمُ ما خلفَه بعدَه على فراشِهِ، فإذا أرادَ أن يَضْطجِعَ فليضطجعْ على شِقِّهِ الأيمنِ، وليقل: سبحانَكَ ربِّي، بكَ وضعتُ جنبي، وبكَ أرفعُه، إنْ أمسكتَ نفسِي فاغفرْ لها، وإنْ أرسلتَها فاحفظْها بما تحفظُ به عبادَكَ الصالحينَ**» [رواه مسلم (٢٧١٤)].

وكما كان المشركون يخوِّفون الرسول عليه الصلاة والسلام بآلهتهم، كانوا يعتقدون أيضاً أنها تشفع لهم عند الله:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: بل اتخذوا من دون الله شفعاء، قل: كيف يشفعون وهم على هذه الصفة، لا يقدرون على شيء ولا يعقلون؟!.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: الله هو مالك الشفاعة، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يشفعَ إلا بإذنه، لأن له ملك السماوات والأرض، وإليه المرجع والمصير.

* * *

يا فاطر السماوات والأرض

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ومن صور ضلالهم أيضاً شدة افتتانهم بالأصنام وسوء أدبهم مع الله تعالى:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: إذا ذكر الله وحده انقبضت ونفرت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة،

وإذا ذُكرتْ آلهتُهم وأوثانهم ظهر في وجوههم البِشر والسرور، فهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

مما يدل على شدة ضلالهم وقسوة قلوبهم، كما سبق عند قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وما على الإنسان المؤمن وهو يواجِهُ هذه المواقف القبيحة الصعبة إلا أن يتوجه إلى الله تعالى بضراعة وخشوع:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: أنت وحدك القادِرُ على الحكم بيني وبينهم، فإني تحيَّرتُ في أمرهم وعنادِهم وقسوةِ قلوبهم.

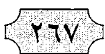
وفي الحديث الشريف: عن **أبي سلمة بن عبد الرحمن** قال: سألتُ عائشةَ أم المؤمنين: بأيِّ شيءٍ كان النبيُّ ﷺ يفتتحُ صلاته إذا قام من الليلِ؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «**اللهمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السمواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، أنتَ تحكمُ بَيْنَ عبادِكَ فيما كانوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهدني لِمَا اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنِكَ، إنَّكَ تَهْدِي مَنْ تشاءُ إلى صراطٍ مُستقيم**» [رواه مسلم (٧٧٠)].

ولعلَّ هذا سرُّ قراءة النبي عليه الصلاة والسلام هذه السورة عندما كان يأوي إلى مضجعه.

وجاء الجوابُ على هذا الدعاء الضارع الخاشع، يبين ما أعد الله لهم من العذاب الشديد يوم القيامة:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ



﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: لو أنَّ لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والكنوز ومعه مثله، لجعلوه فدية لهم من عذاب يوم القيامة.

وهو وعيدٌ شديدٌ وإقناط لهم من النجاة من العذاب، فقد علَّقه على شيء مستحيل الوقوع، ولو حدث هذا المستحيل ما تقبَّله سبحانه منهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من أنواع العذاب ما لم يكن في حسابهم، وكل ذلك نتيجة كسبهم وضلالهم:

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وظهر لهم سيئات كسبهم عندما تُعرض صحائف أعمالهم عليهم.

أو: بدا لهم عاقبة ما كسبوا، وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون.

* * *

الفتنة بالمال

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ومن صور ضلالهم العجيبة أنَّ هؤلاء الذين يشمئزون عند ذكره تعالى، يلجؤون إليه عندما تحيط بهم الأخطار، ولا يذكرون أصنامهم وآلهتهم التي يستبشرون بذكرها:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: لجأ إلينا لنكشف عنه الضر، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] وقد ذكره سبحانه ثمةَ ليبيِّنَ حال الإنسانِ، وكيف تتغيَّر أحوالُه ومواقفه، وذكره هنا في معرض الردِّ على نفورهم واشمئزازهم عند ذكره سبحانه.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: إذا أعطيناه نعمة منا تفضلاً وإحساناً قال: إنما أوتيته على علم مني بوجوه كسبه، ونسي فضله تعالى عليه.

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بل هو اختبار وامتحان له، أيشكر أم يكفر؟ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ذلك.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: قد قال مثل هذه الكلمة من قبلهم، مثل: قارون؛ فقد حكى الله عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

فما نفعهم ما كانوا يكسبون عندما أنزل الله بهم العذاب:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾.

أي: فأصابهم جزاء ما كسبوا، والذين ظلموا من المشركين المعارضين لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام سيصيبهم أيضاً جزاء ما كسبوا، وما هم بناجين.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: أَوَلم يعلموا أن الرزق بيد الله تعالى يبسطه لمن يشاء ويضيِّقه على من يشاء؟!.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدِّقون بأن الحوادث كلها من الله، وأنه لا قابض ولا باسط إلا هو جل وعلا.

* * *

التوبة والمغفرة

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

وقبل أن تُختم السورة أُمرَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام أن يبلِّغهم نداء ربهم الثاني، وقد مرَّ معنا أنَّ النداء الأول وُجِّهَ للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ﴾ [الزمر: ١٠]، أما النداء الثاني هذا فقد وجِّه للمسرفين:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ أي قل: يا عبادي الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالإسراف في المعاصي، والإصرار على الكفر، لا تيئسوا من رحمة الله، إنَّ الله يغفِرُ جميعَ ذنوب المؤمنين التائبين.

ولا يخفى ما في النداء من تلطف بالمخاطَبين، وترغيب لهم بالاستجابة،

ففيه دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ـ كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وإخبار بأنَّ الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها، ورجع عنها، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصحُّ حمل هذه المغفرة على غير توبة، لأنَّ الشرك لا يُغْفَرُ لمن لم يتب منه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ورأى بعضهم أنَّ الآيةَ تنادي المؤمنين على وجه الخصوص، لأنَّ إضافة العباد مخصصة بالمؤمنين على ما هو عُرْف القرآن الكريم، والمراد الإسراف بالمعاصي. لكنَّ سياق الآيات كما سيأتي يدل على العموم، ويؤكده ما روي عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في سبب نزول الآية: أنَّ ناساً من أهل الشرك كانوا قد قَتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تخبرنا أنَّ لِمَا عمِلنا كفارة، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾. [رواه البخاري (٤٨١٠)].

ولم يشترط بعضُهم لمغفرة الذنوب التوبةَ، أخذاً بإطلاق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ والتقييدُ بالتوبةِ خلافُ الظاهر، لكنَّ هذا الإطلاق مقيد بعدد من الآيات؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقوله أيضاً: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

والأَوْلى أنَّ مَنْ تابَ وصحَّت توبته غُفرت ذنوبه. ومَنْ ماتَ قبل أن يتوبَ فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه، ثم يُدخله الجنة بفضله ورحمته، فالتوبةُ واجبةٌ على كل أحد، وخوف العقاب مطلوب، فلعلَّ الله يغفرُ مطلقاً، ولعلَّه يعذب ثم يغفر بعد ذلك[١].

وقال ابنُ حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «واستُدِلَّ بعموم هذه الآية على غفران جميع الذنوب

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ٣٢٥.

كبيرها وصغيرها، سواءٌ تعلَّقت بحق الآدميين أم لا، والمشهور عند أهل السُّنَّة أنَّ الذنوب كلَّها تُغْفَرُ بالتوبة، وأنها تغفر لمن شاء الله، ولو مات على غير توبة، لكنَّ حقوق الآدميين إذا تاب صاحبُها من العود إلى شيء من ذلك، تنفعه التوبة من العود، وأما خصوص ما وقع منه فلا بدَّ من رده لصاحبه، أو محاللته منه، نعم في سعة فضل الله ما يمكن أن يعوِّض صاحبَ الحق عن حقِّه، ولا يعذِّبَ العاصي بذلك»(١).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يغفر ذنوب عباده ويرحمهم.

فلا يقنطنَّ عبدٌ من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإنَّ باب الرحمة والتوبة واسع، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة جدّاً.

وفي الحديث: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسِي بيدِهِ لو لم تذنِبُوا لذهبَ اللهُ بكم، ولجاءَ بقومٍ يذنبونَ فيستغفرونَ اللهَ فيُغْفَرُ لهم**» [رواه مسلم (٢٧٤٩)].

ويؤيده أيضاً حديث **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلَكُم رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفساً، فسألَ عَنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على راهبٍ، فأتاه، فقال: إنَّه قتلَ تسعةً وتسعينَ نفساً، فهل له مِنْ توبةٍ؟ فقال: لا. فقتله، فكمَّلَ بهِ مئةً. ثم سأل عَنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ، فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ، فقال: إنَّه قتلَ مئةَ نفسٍ، فهل له مِنْ توبةٍ؟ فقال: نعم، ومَنْ يحولُ بينه وبينَ التوبةِ؟ انطلقْ إلى أرضِ كذا وكذا، فإنَّ فيها أُناساً يعبدونَ اللهَ، فاعبدِ اللهَ معهم، ولا ترجِعْ إلى أرضِكَ، فإنَّها أرضُ سوءٍ. فانطلقَ حتَّى إذا نصَّفَ الطريقَ أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ، فقالت ملائكةُ الرحمةِ: جاءَ تائباً مقبِلاً بقلبه إلى اللهِ، وقالت ملائكةُ العذابِ: إنَّه لَمْ يعملْ خيراً قط. فأتاهم مَلَكٌ في صورةِ آدميٍّ فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بينَ**

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٥٠.

الأَرْضَيْن، فإلى أيتهما كانَ أدنى فهو له. فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرضِ التي أرادَ، فَقبضتْه ملائكةُ الرحمةِ» [رواه مسلم (٢٧٦٦)].

* * *

تذكير وتحذير

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: ارجعوا إلى ربكم بالإعراض عن الكفر والمعاصي والندم عليها.

فالإنابةُ: الرجوعُ إلى الله بالإخلاص، أو الانقطاع إليه وحده بالعبادة، وهو ما خُوْطبَ به النبيُّ ﷺ في أول السورة ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

وما وصف به المؤمنون في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

قال القشيري رحمه الله: «**الإنابة**: الرجوع بالكلِّية، والفرق بين الإنابة والتوبة: أن التائب يرجع من خوف العقوبة، والمنيب يرجع استحياء لكرمه تعالى»(١).

﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: وأطيعوه،

---

(١) روح المعاني: ٢٤/١٦.

واستسلموا لأحكامه الشرعية والقدرية، من قبل أن يأتيكم العذاب، ثم لا تمنعون منه إن لم ترجعوا إلى ربكم.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥﴾.

أي: اتبعوا أحسنَ ما أُنزلَ إليكم من ربكم، وهو القرآن ـ وكله حَسَنٌ ـ بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي، من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم غافلون عنه، وهو أشدُّ أنواع العذاب، لأنَّه يأتي فجأةً من غير توقع ولا انتظار.

ومن دعاء رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ زوالِ نعمتِكَ، وتحوُّلِ عافيتِكَ، وفُجَاءَةِ نقمتِكَ، وجميعِ سَخَطِكَ**» [رواه مسلم (٢٧٣٩)].

وقد يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ هو نفس ما خوطب به موسى ﷺ عندما أنزلت عليه التوراة، بقوله: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أي: بعزائمها وواجباتها، ولا يتتبعوا رخَصها، فيعملوا بها فقط، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكونَ في شرائعه المنزلة رخصٌ لبعض الحالات الضرورية، فلا ينبغي العمل بالرخَص فقط وترك الواجبات والعزائم.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾.

أي: حتى لا تندموا وتقولَ كلُّ نفس منكم: يا حسرتي احضري، فهذا أوانك على تفريطي وتقصيري في جانب الله وحقِّه وطاعته، أو قربه وذكره، وإن كنت لمن المستهزئين بدينه وأهله.

ونكرت (**نفس**) للتكثير، وأصل (**يا حسرتى**) يا حسرتا، فأبدل من الياء ألف الندبة، ومحل (**وإن كنت**) النصب على الحال، أي: فرَّطت وأنا ساخر، قال قتادة: لم يكفه أن ضيعَ طاعةَ الله حتى سخر من أهلها.

وقال إبراهيم التيمي: مِنَ الحسراتِ يوم القيامة أن يرى الرجلُ ماله الذي آتاه الله في الدنيا، يوم القيامة في ميزان غيره، قد ورثه، وعمل فيه بالحق، وكان له أجره، وعلى الآخر وزره، ومن الحسرات أن يرى الرجلُ عبدَه الذي خوَّله الله إياه في الدنيا أقربَ منزلةً من الله ﷻ، أو يرى رجلاً يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمي هو[1].

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: أو تقول لو أنَّ الله وفقني إلى الهدايةِ لكنتُ من المتقين، مع أنَّ أسباب الهداية كانت ميسرة له.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: لو أنَّ لي رجوعاً إلى الحياة الدنيا فأكونَ من المحسنين في عبادة الله وطاعته.

هكذا أخبر العليم الخبير ما العبادُ قائلون يومَ القيامة قبل أن يقولوه.

* * *

طريق الفوز والفلاح

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ولما أنهى سبحانه حكاية أقوالهم ذكر جواب ما يقتضي الجواب منها، وهو قولهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] فقال:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢٧١.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: بلى قد بيَّن لك طريقَ الهدى، وكنتَ بحيث لو أردتَ أن تؤمنَ أمكنك أن تؤمنَ، عندما جاءتك آياتي، فكذَّبت بها، وتكبَّرت عن الإيمان، وكنت من الكافرين، فأنتَ الجاني على نفسِكَ لإعراضك عن طريقِ الهدى واختيارِكَ طرقَ الضلال.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ لما ينالهم من شدة، وما يغشاها من ظلمة، كما قال سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: مأوى للمتكبرين عن الإيمان، وهو إشارة إلى قوله السابق: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ [الزمر: ٥٩].

وينجي الله الذين اختاروا طريق الهداية بفضله:

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: وينجيهم الله بسبب سلوكهم طريق الفوز والفلاح، يقال: فاز بكذا إذ أفلح به، وظفر بمراده.

أو: وينجِّيهم متلبسين بفوزهم ومطلوبهم. وقرئ: (**بمفازاتهم**).

وإذا قيل: وما مفازتهم؟ فيقال هي:

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يصيبهم مكروه يسوءُهم، ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، سالمون من كل سوء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا

ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء].

وقال أيضاً: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر].

* * *

الخسران المبين

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ثم بيَّن تعالى أنه هو الخالقُ المالكُ لكل شيء، ومدبِّر كل شيء من خير أو شر، وهدى أو ضلال، لكن لا بالجبر والإكراه، بل بالكسب والاختيار ومباشرة الأسباب، فقال:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: الله خالق الأشياء كلها، وهو ربها المتصرف فيها وحافظها.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له مفاتيح السموات والأرض، أو: له خزائن السماوات والأرض، والمعنى المراد على كلا القولين: أنَّ أزمَّةَ الأمورِ بيده تعالى وحده، فهو خالق الأسباب والمسببات، والسنن الإلٰهية مظهرٌ من مظاهر جودِهِ الإلٰهي وفضلِه الصمداني، جعلها بمثابة مفاتيح خزائن كرمه في يد

المحتاجين إليها، فما استفتحوا فُتح لهم، ومن لم يفعل فلا يلومنَّ إلا نفسَه، وفي هذا تمييز للعامل عن الخامل، وللمُجدِّ العالم عن الكسول الجاهل.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: والذين كفروا بآيات الله التكوينية المنصوبة في الآفاق والأنفس، وبآياته المنزَّلة في القرآن، هم الخاسرون خسراناً لا تلافي له، كما سبق معنا في قوله سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ثم أمر النبي عليه الصلاة والسلام بعد هذا البيان الملزم القاطع في حججه أن يقول لهم موبخاً ومنكراً:

﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: أغير الله تأمرونني أن أعبد أيها الحمقى السفهاء الطائشون، أو أيها الأغبياء. وفي قراءة: **(تأمرونني)**، **(أعبدَ)**.

ويبدو أنَّ المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ليعبدوا معه إلٰهه، فنزلت هذه الآية، ونزل إقناطاً للمشركين، وإظهاراً لذُلِّ العبودية أمام عزِّ الربوبية:

﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

وهو كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وتثبيتهم في مواجهة المشركين، وبيان قبح الشرك، وكونه ينهى عنه الرسل المعصومون عنه، فكيف بمن عداهم؟![(١)].

ولا يخفى ما في الآية من تكريم للنبيِّ عليه الصلاة والسلام بإفراده بالخطاب، وتقديمه بالذكر على جميع المرسلين، مع أنه عليه الصلاة والسلام خاتمهم.

والإحباطُ: الإبطالُ والإفسادُ، فمن ارتدَّ لم تنفعه طاعته السابقة.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ٢٦٢.

ودلَّت الآيةُ على أنَّ الردة تحبِطُ العملَ السابق عليها مطلقاً، وعلى المرتد بعد الرجوع إلى الإسلام قضاءُ العبادات التي يدرِكُ أسبابها كالحجِّ والصلاة التي ارتد في وقتها، وعليه أيضاً تجديدُ عقد نكاحه إذ تَبِيْنُ منه زوجتُه، وينفسخ عقدُ نكاحه بالردة، وهو مذهب الحنفية، وشرط بعضهم لبطلان العمل بالردة، الوفاةَ على الكفر، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] حملاً للمطلق على المقيد، وهو مذهب الشافعي.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: كن من الشاكرين لله تعالى على ما تفضَّل به عليك.

ولا شك أنَّ فضله تعالى عظيمٌ على النبي ﷺ كما في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقوم من الليل حتى ترم قدماه ـ كما مرَّ معنا ـ.

ودلت الآية على أنَّ عبادة الله تعالى وحده بإخلاص؛ مِنْ شُكره تعالى، وهو ما سبق تقريره في أول السورة بقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] فتأمل الانسجامَ والاحتباكَ بين آيات السورة.

* * *

وما قدروا الله حق قدره

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ولو أنَّ هؤلاء الضالِّين المشركين عرفوا عظمة الله حقَّ المعرفة، ما جعلوا له شريكاً، وما وصفوه بصفات لا تليق بجلاله وكماله:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: وما عظَّموا الله حقَّ عظمته عندما دعوك إلى عبادة غيره، وهو العظيم القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء، وكل المكونات في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته ﷻ.

قال ابن كثير رحمه الله: فمَنْ آمنَ أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير فقد قدر الله حقَّ قدره ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حقَّ قدره.

وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ متعلقةٌ بهذه الآية الكريمة، والطريقُ فيها وفي أمثالها مذهب السلف، **وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.**

منها: ما رواه **أبو هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يقبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامةِ، ويطوي السماءَ بيمينِهِ، ثم يقولُ: أنا المَلِكُ، أينَ مُلوكُ الأَرْضِ؟**» [رواه البخاري (٧٣٨٢)].

ومنها: أن يهوديّاً جاء إلى النبيِّ ﷺ قال: يا محمَّد، إنَّ الله يمسِكُ السماواتِ على إصبعٍ، والأرضينَ على إصبعٍ، والجبال على إصبعٍ، والشجرَ

على إصبعٍ، والخلائقَ على إصبعٍ، ثم يقول: أنا المَلِكُ، فضحك رسولُ اللهِ ﷺ ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾. [رواه البخاري (٧٤١٤)].

قال ابن بطَّال: وحاصلُ الخبرِ أنَّه ذكر المخلوقات، وأخبر عن قدرة الله على جميعها، فَضحك النبي ﷺ تصديقاً له، وتعجباً من كونه يستعظِمُ ذلك في قدرة الله تعالى، وأنَّ ذلك ليس في جنب ما يقدر عليه بعظيم، ولذلك قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، ولا يحمل ذكر الأصابع على الجارحة، بل يحمل على أنه صفة من صفات الذات لا تكيَّف ولا تحدد[1].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: ما أعظمَ وما أجلَّ مَنْ هذه قدرتُه عما يشركون! يتنزَّه ويتقدَّس عن كل مظاهر الشرك، فكل ما يشركونه معه ﷻ أرضيّاً كان أم سماويّاً مقهورٌ تحت سلطان قدرته ومشيئته ﷻ.

* * *

في عرصات القيامة

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ثم وصفت الآياتُ يوم القيامة، وبيَّنت ما يحدث فيه، تمهيداً للحديث عن مصير كلٍّ من الضالِّين والمهتدين:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ونفخ

---

(١) فتح الباري: ١٣/ ٣٩٢.

في الصور **نفخةُ الصعق**، وهي النفخةُ الأولى، فمات مَنْ في السمواتِ ومن في الأرض من الأحياء إلا من شاء الله.

والصورُ في الأصل: هو الآلةُ المعروفةُ على هيئة القرن، ونحن نؤمنُ بحقيقته المذكورة في الآيات، ونفوِّض كيفيته إلى علام الغيوب جل شأنه، والمشهور أن النافخ فيه ملكٌ واحدٌ، وأنه إسرافيل عليه السلام، بل حكى القرطبي الإجماعَ عليه(١).

قال ابن حجر رحمه الله: والصورُ إنّما هو قرنٌ كما جاء في الأحاديث المرفوعة، وقد وقع في قصَّة بَدءِ الأذان بلفظ البوق والقرن في الآلةِ التي يستعملها اليهودُ للأذان...

وأخرج أبو داود [٤٧٤٢]، والترمذي [٢٤٣٠] وحسنه، والنسائي في الكبرى [١١٤٥٦]، وصححه ابن حبان [٧٢٦٨]، والحاكم [٢/ ٥٠٥]: من حديث **عبد الله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنهما قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: ما الصُّورُ؟ قال: «**قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه**».

وأخرج الترمذي [٢٤٣١] أيضاً وحسنه: من حديث **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه مرفوعاً: «**كيفَ أنعمُ وصاحبُ الصُّوْرِ قد التقمَ القرنَ، واستمعَ الإذنَ متى يُؤْمَرُ بالنَّفْخِ؟!**»(٢).

واختلف في المستثنى: من هم؟ قيل: هم الشهداء، وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملَك الموت، وقيل: رضوان خازن الجنان والحور، ومالك خازن النار والزبانية، وقيل: يموتُ مَنْ في السماوات والأرض إلا من سبق موتُه، لأنَّهم قد ماتوا، وهذا نظيرُ قوله سبحانه: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦].

والأَوْلى تفويضُ علم ذلك إلى الله تعالى، إذ لم يرد في التعيينِ خبرٌ صحيحٌ،

(١) روح المعاني: ٢٤/ ٢٧.
(٢) فتح الباري: ١١/ ٣٦٨.

وما ورد في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استبَّ رجلٌ من المسلمينَ ورجلٌ مِنَ اليهودِ، فقال المُسْلِمُ: والذي اصطفى محمَّداً ﷺ على العالمينَ، فقال اليهوديُّ: والذي اصطفى موسى على العالمينَ، فرفعَ المسلمُ عندَ ذاك يده فلطمَ اليهوديَّ، فذهبَ اليهوديُّ إلى النبيِّ ﷺ فأخبرَه، فقال: «**لا تخيِّروني على مُوْسَى، فإنَّ الناسَ يُصْعَقُوْنَ، فأكونُ أوَّلَ من يفِيْقُ، فإذا موسى باطشٌ بجانبِ العَرْشِ، فلا أدري أكانَ فِيْمَنْ صُعِقَ فأفاقَ قبلي، أو كانَ ممَّنِ استثنى اللهُ؟**» [رواه البخاري (٣٤٠٨)]؛ فحملها بعضُ العلماء على أنها صعقةُ فزعٍ بعدَ البعثِ حين تنشقُّ السماءُ والأرض، فهي غشية تحصل للناس في الموقف[١].

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أي: ثم نفخ فيه نفخة أخرى، فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون حولهم، وهذا يدلُّ على أنهم بُعِثوا من قبورِهم أحياءً حياةً كاملةً كما كانوا في الدنيا.

ودلَّت كلمةُ (**ثم**) على التراخي الزمني بين النفختين، وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**ما بَيْنَ النفختين أربعونَ**» قالوا: يا أبا هريرة أربعونَ يوماً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعونَ سنَةً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعونَ شهراً؟ قال: أبيتُ، «**ويبلى كُلُّ شيءٍ من الإنسانِ إلَّا عُجْبُ ذَنَبِهِ، فيه يركَّبُ الخَلْقُ**» [رواه البخاري (٤٨١٤)].

وقوله: (**أبيتُ**) أي: امتنعتُ عن القول بتعيين ذلك، لأنه ليس عندي في ذلك توقيفٌ.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت الأرضُ يوم القيامة عندما يتجلَّى الحقُّ لفصل القضاء.

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٤٥.

أو: أضاءتْ بعدلِ الله وقضائه بالحق بين عباده، فالظلم ظلماتٌ، والعدلُ نورٌ.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ضلَّ قوم هاهنا، فتوهَّموا أنَّ الله ﷻ من جنس النور ـ الضياء المحسوس ـ وهو متعالٍ عن مشابهة المحسوسات، بل هو منوِّرُ السمواتِ والأرض، فمنه كلُّ نور خلقاً وإنشاء»[1].

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: وضع كتابُ الأعمالِ بيد صاحبه، إما بيمينه، أو شماله، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وقال أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: وجيء بالنبيين ليُسْألوا عن التبليغ، والشهداء من الكرام الكاتبين ليشهدوا، وكذلك أمة محمد عليه الصلاة والسلام، والجوارح التي يُنطقها الله، والأرض التي تحدِّث أخبارها.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: وقضي بين العباد بالعدل، وهم لا يظلمون، فالحاكم هو الله المنزَّه عن الظلم، ولا يُتصور في حقه جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: أعطيت كل نفسٍ جزاءَ عملها كاملاً بحسب علمه سبحانه، الذي وسع كل شيء.

* * *

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢٨.

زمر الضالين وزمر المهتدين

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾

ثم بينت الآيات توفية الجزاء بقوله تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ أي: سيقوا إلى جهنم أفواجاً أفواجاً، بعضها إثر بعض، على حسب دركاتهم في جهنم، وشدة ضلالهم وإضلالهم، فرؤساءُ الضلال يساقون إلى جهنم قبلَ أتباعهم، قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

ويساقون إليها بشدة وعنف كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي: يدفعون إليها دفعاً شديداً على وجوههم.

كما قال سبحانه: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي: فتحت أبوابها السبعةُ بمجرَّدِ وصولهم إليها تعجيلاً لعذابهم، قال سبحانه: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ أي: قال لهم خزنة جهنم الغِلاظُ الشداد تقريعاً وتوبيخاً، وقد وصفهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَـٰذَاۚ﴾ أي: ألم يأتكم رسل من جنسكم يبلِّغونكم رسالة الله تعالى، ويحذِّرونكم من المسؤولية والجزاء في يومكم هذا، والمعنى: أنَّ أسبابَ الهدايةِ قُدِّمت لكم، وحجته تعالى البالغةُ قامتْ عليكم، فلا عذر لكم.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَـٰفِرِينَ﴾ أي: قالوا: قد أتانا الرسلُ، وأقاموا علينا الحججَ والبراهينَ، ولكن وجبت علينا كلمةُ الله بسوءِ أعمالنا واختيارنا، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

وكلمة العذاب هي كلمته سبحانه بتعذيبهم بعدله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: بئس مثوى المتكبرين جهنم. وأبهم القائل لتهويل ما يقال لهم.

ثم بيَّنَ تعالى حال السعداء المهتدين، وما يتفضَّل عليهم من نعيم وتكريم:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ﴾ وهم الذين لبَّوا نداء ربهم الذي سبق في السورة: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ﴾ [الزمر: ١٠]، سيقوا إلى الجنة جماعات وأفواجاً: المقرَّبون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع مَنْ يناسبهم، الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والعلماء مع أقرانهم، والشهداء مع بعضهم.

والجدير بالذكر أنَّ نبينا عليه الصلاة والسلام أولُ من يدخل الجنة:

ففي الحديث: عن **أنس بن مالك** ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**آتي بابَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ فأستفتحُ، فيقولُ الخازِنُ: مَنْ أنتَ؟ فأقولُ: محمَّدٌ، فيقولُ: بكَ أمرتُ لا أفتح لأحدٍ قبلَكَ**» [رواه مسلم (١٩٧)].

وأول الناس دخولاً الجنَّةَ من أمته عليه الصلاة والسلام مَنْ لا حسابَ عليهم، الذين وصفهم النبيُّ ﷺ بقوله: «**هم الذين لا يَسْتَرْقُوْنَ، ولا يَتَطَيَّرُوْنَ، ولا يَكْتَوُوْنَ، وعلى ربِّهم يتوكَّلُوْنَ**» [رواه البخاري (٥٧٠٥)].

وقد وصفهم رسولُ اللهِ ﷺ في حديث آخر فقال: «**أولُ زمرةٍ تلجُ الجنَّةَ صُوَرُهُم على صُوْرَةِ القَمَرِ ليلةَ البَدْرِ، لا يَبْصُقُوْنَ فيها، ولا يمتخطُوْنَ، ولا يتغوَّطونَ فيها، آنيتُهم وأمشاطُهم مِنَ الذهبِ والفضةِ، ومجامِرُهم من الأُلْوَةِ، ورَشْحُهُم المِسْكُ، ولكلِّ واحدٍ منهم زوجتانِ، يُرَى مُخُّ ساقِهِما مِنْ وراءِ اللحمِ من الحُسْنِ، لا اختلافَ بينهم ولا تباغُضَ، قلوبُهم قلبٌ واحدٍ، يسبحون الله بكرةً وعشيّاً**» [رواه مسلم (٢٨٣٤)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي: وفتحت أبوابها الثمانية.

ففي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**ما مِنْ مُسْلِمٍ يتوضَّأُ فَيُحْسِنُ وضوءَه، ثم يقومُ فيصلِّي ركعتينِ، مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه إلاَّ وجبتْ له الجَنَّةُ**» فقلت ـ القائل عُقبةُ بنُ عامر ـ: ما أجودَ هذه! فقال عمر ﷺ: التي

قبلها أجودُ، قال: «**ما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ يتوضَّأُ فيبلِغُ ـ أو فيُسْبغُ ـ الوضوءَ، ثم يقولُ: أشهدُ أن لا إلٰه إلا الله، وأنَّ محمَّداً عبدُ اللهِ ورسولُه إلا فُتِحَتْ له أبوابُ الجنَّةِ الثمانيةُ يدخُلُ مِنْ أيها شاءَ**» [رواه مسلم (٢٣٤)].

ودلَّ حرف الواو في قوله: (**وفُتِحت**) على أنَّ الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى، والتقديرُ: حتى إذا جاؤوها وأبوابُها مفتحةٌ، بدليل قوله سبحانه: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [صٓ: ٥٠]. وحذفت الواو في قصة أهل النار، لأنهم وقفوا على النار، وفُتحت بعد وقوفهم إذلالاً لهم وترويعاً، وقيل: دلَّتِ الواو على حذف جواب (**إذا**) ليذهبَ الخيالُ كل مذهبٍ في تقديره، فإذا جاؤوها سعدوا وطابوا وفرحوا.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي: طاب لكم المقامُ، وطاب سعيكم وجزاؤكم، أو طهرتم من دنس المعاصي.

وقد جاء في الأدلة القطعية أنَّ الله تعالى يطهِّرُ نفوسَ أهل الجنة من أسباب النقص والحَسَدِ، فلا يتحاسدون في الجنة، مع ما بين منازلهم ودرجاتهم من تفاضل كبير، قال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**يخلُصُ المؤمنونَ مِنَ النارِ، فيُحْبَسُونَ على قنطرةٍ بينَ الجنَّةِ والنار، فيُقَصُّ لبعضِهم مِنْ بعضٍ مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أُذِنَ لهم في دخولِ الجنَّةِ، فوالذي نفسُ محمّدٍ بيده لأحدُهم أهدى بمنزله في الجنَّةِ منه بمنزلِهِ كانَ في الدنيا**» [رواه البخاري (١٩٤)].

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي: الحمد لله الذي أنجز لنا

ما وعدنا في الدنيا على ألسنة رسله الكرام، كما علَّمهم أن يدعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: وأورثنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرُّف الوارث، وننزل فيها حيث نشاء، فيكونُ لكلِّ واحد جنةٌ لا توصف سعةً وزيادةً على الحاجة، فيتخذ مقرّاً من جنته حيث يشاء.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ أي: نعم ثواب العاملينَ في الدنيا الجنة يوم القيامة.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

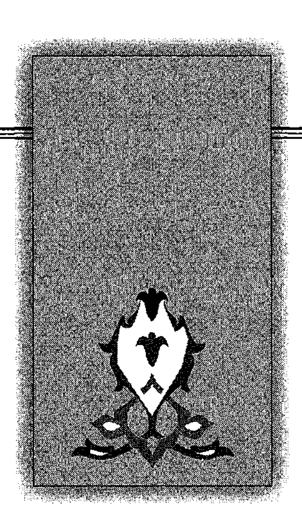
﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: وترى الملائكة مُحْدِقين بالعرش، محيطين بجوانبه، قائلين: سبحان الله والحمد لله، أو قائلين: سبحان الله وبحمده، أي: يسبِّحون الله متلبسين بحمده من أجل كماله وتوفيقه وإنعامه، والمعنى: ذاكرينَ له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذاً بذكره، وفيه إشعارٌ بأنَّ منتهى درجاتِ العليين، وأعلى لذائذهم هو الاستغراقُ في ذكر الله ﷻ(١).

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: قُضِيَ بين المهتدين والضالِّين بالحق.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ والقائلون هم أهل الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يونس].

أسأله جل وعلا أن يجعلنا منهم، وأن يثبتنا على طريق الهدى.

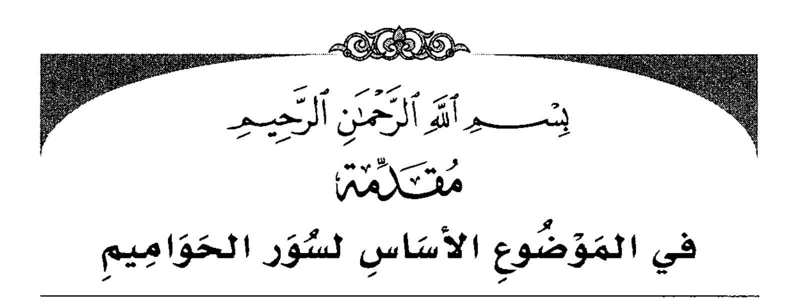
❁ ❁ ❁



التَّزْكِيَةُ والتَّرْبِيَةُ فِي الحَوَامِيمِ

- الدعاء والتفويض في سورة غافر.
- القرآن والتزكية في سورة فصلت.
- الوحي والشريعة في سورة الشورى.
- القدوة والمثل في سورة الزخرف.
- إنذار وانتقام في سورة الدخان.
- استسلام وإذعان في سورة الجاثية.
- الدعوة والاستجابة في سورة الأحقاف.





في المَوْضُوعِ الأَسَاسِ لسُوَر الحَوَامِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين:

وبعد: **فإنَّ من مقاصد القرآن الكريم الكبرى تزكيةُ النفوس، وتنقيتُها من رجْسِ الكفر والفجور، وتربيتُها وتنميةُ نوازعِ الخيرِ والصلاحِ فيها، حتى تَستقيمَ على طاعة الله تعالى عقيدة وسلوكاً.**

هذا هو الموضوع الأساس الذي دارت في فلكه آياتُ سُوَر الحواميم، إلا أنَّ كلَّ سورةٍ سلكت مسلكاً معيناً لتحقيق هذا المطلب الرفيع:

- فـ (**سورة غافر**) بينت أهميةَ الدعاء والتفويض.
- و(**سورة فصلت**) بيَّنت دورَ القرآن الكريم وأثره في تهذيب النفوس وتربيتها.
- و(**سورة الشورى**) أبرزت دورَ الشريعةِ والوحي في هذا المجال.
- بينما ركزت آيات (**سورة الزخرف**) على دور القدوةِ والمثلِ، وبينت ما لهما من أثرٍ كبيرٍ في تهذيب النفوس، وصقلِ القلوبِ، وتقويم السلوك.
- وأما (**سورة الدخان**) فاتجهت إلى بيانِ دورِ الإنذارِ والتهديد بالانتقام في تحقيق هذا المطلب.
- وأبرزت (**سورة الجاثية**) أهميةَ الاستسلام والإذعان، والرضا بأحكام التنزيل الحكيم في إصلاح النفوس وتربيتها.
- وأخيراً أبرزت (**سورة الأحقاف**) دور دعوة الحق والاستجابة لها في هذا السبيل.

أسأله تعالى أن يهذِّب نفوسنا، وينقِّي قلوبنا، ويرزقنا الاستقامةَ والثباتَ على دينه وأحكام شريعته.



٤٠

تفسير سورة غافر

الدُّعَاءُ والتَّفْوِيضُ فِي سُورَةِ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تعظيم وإجلال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة غافر بقوله:

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾.

حرفان من الحروف النورانية المقطعة، تقدَّم الكلام فيها في فواتح عدد من السور: **كالبقرة وآل عمران**.

وتُقرأ بتفخيم الألف وتسكين الميم، وقُرِئت أيضاً بإمالة الألف.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾.

أي: هذا الكتابُ تنزيلٌ من الله لا من غيره، العزيز الغالب في سلطانه، فلا

يمتنع عليه مقدور، العليم بأحوال مخلوقاته، فما أنزله إلا بمحض مشيئته ورحمته، وعلمه بحاجة المكلفين من مخلوقاته إلى أحكامه وشريعته.

فهذا الكتابُ واجبُ الاتباعِ، لأنه تنزيل العزيز العليم، ولأنه أيضاً تنزيل:

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ أي: يغفر ما سلف من ذنوب المذنبين، ويقبل توبة التائبين، شديد عقابه للجانين المعاندين، ذي الفضل والنعم أو ذي الغنى والسعة.

ويجوز أن يكون ﴿ٱلتَّوۡبِ﴾ مصدر تاب يتوب توباً، ويحتمل أن يكون جمع توبة.

و﴿ٱلطَّوۡلِۖ﴾ الإنعام والفضل، يقال: اللهمَّ طل علينا، أي: أنعم وتفضَّل، أو الغنى والسعة كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾ [النساء: ٢٥]، أو المنّ، يقال: طال عليه وتطوّل إذا امتنَّ عليه[(١)].

وأفاد توسيطُ الواو بين الأوليين الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة، فالمذنبُ التائبُ بين رحمتين، بينَ أن يقبل الله توبتَه، فيكتبها له طاعةً من الطاعات، وبين أن يجعلها محّاءةً للذنوب، كأن لم يذنب.

ودلت الآيةُ على رجحان صفاتِ الرحمة على صفة العذاب، جاء رجلٌ إلى **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه فقال: يا أميرَ المؤمنينِ إنِّي قتلتُ فهل لي من توبةٍ؟ فقرأ عمرُ رضي الله عنه هذه الآية وقال: اعملْ ولا تيئسْ.

وعن **يزيد بن الأصم** قال: كان رجلٌ من أهل الشام ذو بأسٍ، وكان يفِدُ إلى عمرَ رضي الله عنه، ففقده عمرُ فقال: ما فعلَ فلانُ ابنُ فلانٍ؟ فقالوا: يا أميرَ المؤمنين تتابعَ في هذا الشرابِ. فدعا عمرُ كاتبَه فقال: اكتب: مِنْ عمرَ بنِ

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢٩٢.

الخطابِ إلى فلانِ ابنِ فلان سلامٌ عليك، فإنِّي أحمدُ إليكَ اللهَ الذي لا إلـٰهَ إلا هو غافرُ الذنبِ، وقابلُ التوبِ، شديدُ العقابِ ذي الطَّولِ، لا إلـٰه إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكُم أَنْ يُقْبِلَ بقلبه، ويتوبَ اللهُ عليه. فلمَّا بلغَ الرجلُ كتابَ عمرَ، جعل يقرؤه ويردِّدُه ويقول: غافرُ الذنبِ، وقابلُ التوبِ، شديدُ العقابِ، قد حذَّرني عقوبتَه، ووعدني أن يغفرَ لي.. فلم يزل يرددها على نفسِه، ثم بكى، ثم نزعَ فأحسنَ النزعَ، ولمَّا بلغ عمرُ خبرَه قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتُم أخاً لكم زلَّ زلةً فسدِّدوه، ووثِّقوه، وادعوا الله له أن يتوبَ عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه(١).

وهذا يدل على أنَّ الآية تحثُّ على الاتعاظ والتوبة.

والموصوفُ بهذه الصفات العالية والكمالات الرفيعة هو الإلـٰه المعبود حقّاً:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فلا معبودَ بحقٍّ سواه، وإلى حكمه وأمره المرجعُ والمصير يوم القيامة، فهو غافرُ الذنب فضلاً، قابلُ التوبِ وعداً، شديدُ العقابِ عدلاً، لا إلـٰه إلا هو إليه المصيرُ فرداً.

فالآية تقوِّي في النفس شعورَ المهابةِ والإجلالِ والتعظيم لله ﷻ، وتذكِّرنا ببعض صفاته تعالى المهذِّبة للنفوس والمصفِّية للقلوب، إنها تبيِّن لنا من خلالها صلتنا بالله تعالى، فنعرفُ كيف نعامِلُه بمراقبةٍ وخشوعٍ وأملٍ ورجاءٍ ونحن نرجو رحمته، ونخشى عذابه، إنَّه أسلوبٌ رفيع في تربية النفوس وتهذيبها.

* * *

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٣٥.

المجادلون بالباطل

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.

ثم بينت الآيات حكمه تعالى في المجادلين بآيات الكتاب الذي نزَّله العزيز العليم:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ما يخاصم ويحاجج في دفع آيات الله وتكذيبها وإنكارها إلا الذين كفروا، فهم وحدهم المجادلون بالباطل في آيات الله، بينما يسلِّم بها كل من في الوجود، قال تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ [الكهف: ٥٦].

فالوجودُ كله مقتنعٌ بآيات الله الشاهدة بوحدانيته وكماله، وما يشذُّ عن كل ما في الوجود إلا الذين كفروا.

فالجدال المذموم هو الجدال بالباطل، وأما الجدالُ فيها لإيضاح ملتبسها، وحل مشكلها، واستنباط معانيها؛ فجدالٌ محمود مطلوب(١).

ثم توجهت الآيةُ إلى النبيِّ ﷺ تخاطبه وتواسيه عن جدالهم بالباطل وعنادهم:

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: فلا يغررك إمهالهم وتصرفهم في البلاد مع كفرهم، فإنَّ عاقبتهم إلى الهلاك، فهو كقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران].

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢٩٢.

فمهما تصرَّفوا وتقلَّبوا واستمتعوا، فمآلهم إلى الهلاك والخسران، وحالهم كحال الأمم الهالكة قبلهم:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: كذبت قبلهم قوم نوح والأمم الذين تحزَّبوا على الرسل وعادوهم بعد قوم نوح، كعاد وثمود، الذين قال الله فيهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ [ص].

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: وأرادت كل أمة من هذه الأمم المكذبة أن يتمكنوا من رسولهم فيعذبوه ويهلكوه.

والأخذ: الأسر، والعرب تسمي الأسير الأخيذ، لأنه مأسور للقتل.

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي: جادلوا بالباطل ليزيلوا به الحقَّ الثابت، ومنه مكان دَحْضٌ: أي مزلقة، لا تستقر عليه الأقدام.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فأخذتهم بالعذاب، وأنزلت بهم العقاب، فكيف كان عقابي؟! ألم يكن مهلِكاً مستأصِلاً؟!.

وهو سؤال تقرير فيه معنى التعجيب والتهويل، والجزاء من جنس العمل، فالقوم أرادوا أخذ الرسل فأخذتُهم بالعقابِ، وأنزلتُ بهم أشدَّ العذاب.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝٦﴾

أي: وكما وجب إهلاكُهم في الدنيا بالعذاب، وجبَ أيضاً عذابهم في الآخرة بالنار.

وقد يكون المرادُ تهديدَ مشركي قريش، ويكون المعنى: وكما وجب إهلاك

الأمم السابقة المكذبة لرسلها، وكذلك وجب إهلاك هؤلاء لعلة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار.

* * *

ثناء ودعاء

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

ثم أبرزت الآيات فضل المؤمنين التائبين، ومكانتهم عند الملائكة المقربين، وأنهم ليسوا وحدَهم في الساحة، فالملائكةُ المقرَّبون تؤدبهم وتدعو لهم، ولا شكَّ أنَّ لدعاءِ الملائكة تأثيراً روحيّاً في تهذيب نفوس المؤمنين وصقل قلوبهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يقرنون بين تسبيح الله الدال على تنزيهه عن الاتصاف بصفات النقص، والتحميد الدال على إثبات صفات الكمال والإحسان له ﷻ.

ولا شكَّ أنَّ تخصيص حملة العرش ومَنْ حولَه بالذكر يدل على فضلهم، ومكانتهم في الملأ الأعلى، فهم يداومون على التسبيح والحمد كما مرَّ معنا عند قولـه تعالى في آخر سورة الزمر: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ العرش جسمٌ خلقه الله، وأمر ملائكته بحمله، وتعبَّدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلقَ في الأرض بيتاً، وأمر بني آدم بالطواف به، واستقباله في الصلاة[(١)].

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: ويؤمنون بالله الإيمان اللائق بجلاله وكماله ووحدانيته.

ويدل التسبيح بحمده على الإيمان به، وصرحت الآية به إظهاراً لفضله، وترغيباً فيه، وإشعاراً بعلَّة دعائهم للمؤمنين، فإن المشاركة في الإيمان تستدعي النصح والشفقة، ومن سجايا الملائكة: أنَّ المؤمنَ إذا دعا لأخيه أمَّنوا على دعائه، ففي **«صحيح مسلم»** [٤/ ٢٠٩٤]: عن **أبي الدرداء** رضي الله عنه قال: سمعتُ الرسولَ ﷺ يقولُ: «**مَنْ دعا لأخيه بظهرِ الغيبِ قال المَلَكُ الموكلُ به: آمين، ولكَ بمثلٍ**».

ولعلَّه سبحانه محتجِبٌ عن الملائكة بحجب جلاله وكماله فوصفهم بالإيمان به[(٢)].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ويسألونه تعالى المغفرة للمؤمنين يقولون:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعتْ رحمتُك وعلمُك كل شيء، ونصب: **(رحمةً وعلماً)** على التمييز، وحول عن الفاعل للمبالغة في وصفه تعالى بالرحمة والعلم، حتى جُعِلَتْ ذاته سبحانه كأنها عين الرحمة والعلم، وأشارت الآية إلى أدبٍ من آدابِ الدعاءِ، وهو تقديمُ الثناء على الدعاء.

﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: فاغفر للذين علِمتَ توبتهم، واتبعوا صراطك، واحفظهم من عذاب الجحيم.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ أي: أدخلهم جنات الإقامةِ الدائمةِ

(١) فتح الباري: ١٣/ ٤٠٥.

(٢) تفسير الخازن: ٥/ ٣٤٠.

التي وعدتهم إياها. وقرئ: (جنة عدن).

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآبِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ أي: وأدخل معهم الصالحين من آبائهم وأزواجهم وأولادهم ليتمَّ سرورهم، ويزيدَ حبورهم، فالله سبحانه بفضله يُلحِقُ المقصِّرين من المؤمنين بالسابقين تكرمةً لهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: إنك أنتَ الغالبُ على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾.

أي: وجنِّبهم المعاصي في الدنيا بحفظهم عن ارتكابها، ومن تجنَّبه السيئات في الدنيا فقد رحمته في الآخرة، وذلك هو الفوز العظيم، الذي لا مطمع وراءه لطامع.

فللدعاء تأثيرٌ كبيرٌ في تربية النفوس وتصفيتها وتهذيبها، فما أكرم المؤمنين على الله! ينامون على فرشهم والملائكة المقربون تستغفر لهم.

* * *

مقت ويأس

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾.

وفي مقابل هذه المكانة العالية للمؤمنين عقَّبت الآيات ببيان المكانة القبيحة للكافرين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: يقال للكافرين: لمقتُ اللهِ إياكم في الدنيا عندما دُعيتم إلى الإيمانِ فأعرضتم وكفرتم أكبرُ مِنْ مقتِ بعضكم بعضاً يوم القيامة.

والمقت: أشد الغضب، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩].

ومن المعلوم أنَّ الكفار يوم القيامة يمقُتُ بعضُهم بعضاً، ويلعنُ بعضهم بعضاً كما مرَّ معنا في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ويمكن أن يكون المعنى أيضاً: لمقتُ الله لكم في الدنيا أشدُّ من مقتكم أنفسكم الأمَّارة بالسوء والكفر، فالكفار يمقتون أنفسهم، ولا يرتاحون إلى العقائد الباطلة المخالفة لما تقتضيه العقول السليمة.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

أي: إن قدرتك يا ربنا عظيمة، فإنَّك قد أحييتنا بعدما كنا أمواتاً في بدء خلقنا، ثم أمتَّنا عند انتهاء آجالنا، ثم أحييتنا يوم القيامة، فاعترفنا بذنوبنا، فهل إلى خروجٍ من النارِ من سبيلٍ كيف ما كان.

ولا يخفى ما في كلامهم من استبعاد خروجهم، واستشعارهم اليأس منه، وما قالوه إلا تحيُّراً أو تعللاً، وكان عليهم أن يتذكَّروا هذا في الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ولهذا أجيب بتذكيرهم بسبب ما أوصلهم إلى العذاب وأنه كان باختيارهم وكسبهم:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي: ذلكم العذاب بسبب أنه إذا عُبِد الله وحده في الدنيا كفرتم بتوحيده وعبادته، وإن يشرك به تُصدِّقوا ذلك الشرك.

﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أي: فالحكم لله وحده المستحق للعبادة، الذي لا أعلى منه ولا أكبر منه جَلَّ جَلَالُهُ، وقد حكم أنْ لا مغفرة للمشرك ولا خروج له من النار، فلا معقب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه سبحانه.

* * *

الإخلاص في العبادة والدعاء

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وتابعتِ الآياتُ تربِّي في النفس شعورَ الإجلال والتعظيم لله رب العالمين، وتدعو إلى الإخلاص في عبادته ودعائه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: هو الذي يظهِرُ لكم آياته الدالة على أنَّ الحكمَ له وحده، وأنَّه هو المستحقُّ وحدَه للعبادة والطاعة.

أو: هو الذي يريكم آياته وعجائب مصنوعاته الدالة على كمال قدرته، وأنَّه سبحانه العلي الكبير لتعملوا بموجبها، فتوحدوه وتعبدوه.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي: ينزِّل لكم من جهةِ السماء مطراً هو سبب الرزق، ودلَّت صيغةُ المضارع في الفعلين على تجدد الإراءة واستمرار التنزيل.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي: وما ينتفع بتلك الآيات الباهرة ويتَّعظ بها إلا مَنْ يرجع إلى طاعته تعالى وعبادته، فعليكم أن تذعنوا لأمره، وتنقادوا لحكمه، وتقبلوا على طاعته:

﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فأخلصوا في عبادة الله وطاعته ودعائه، وخالفوا المشركين، ولو كرهوا ذلك وغاظهم إخلاصكم، دعوهم يموتوا بغيظهم وحسرتهم.

* * *

يوم التلاقي والآزفة

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ
﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ
تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ
إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ
وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن
قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن
وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

فهو سبحانه المستحق لأن تتوجهوا إليه بالدعاء والعبادة بخشوع وخضوع لأنه:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: رفيع الصفات، فلا أرفعَ قدراً منه، خالقُ العرش ومالكُه، وهو أعظمُ المكوَّناتِ والمخلوقات، فمالِكُ العرشِ مالكٌ لجميع المخلوقات، وسلطانُه ثابتٌ على جميع المكونات، فكلُّهم في قبضةِ قدرته جَلَّ جَلَالُهُ وتحت قهر مشيئته.

فقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خبران يدلان على علو صمديته من حيث المعقول والمحسوس الدال على تفرُّده في الألوهية، فإنَّ مَنِ ارتفعت درجاتُ كماله بحيثُ لا يظهرُ دونها كمال، وكان العرش الذي هو أصل العالم الجسماني في قبضة قدرته لا يصح أن يشرك به(١).

فهو المرتفِعُ بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته، المستغني عن كل ما سواه، وكلُّ الخلق فقراءُ إليه، ويمكن أن يكون في قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ إشارة إلى أنَّه لا يفوزُ برضوانه إلا من علا في معارج العبادات ومدارج الكمالات. وتخصيص العرش بالذكر لأنه كما قلنا أعظم المكونات، ففيه تنبيه على كمال قدرة خالقه.

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يلقي الوحي الذي تحيا به القلوب بأمره ومشيئته على مَنْ يختارُ من عباده، كما في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

فالروحُ هو **الوحي**، وسمَّاه روحاً لأنَّ به حياة القلوب من موت الكفر والجهل، وهو في الأصل **إعلامٌ خفي سريع يقع بين جانبين: الأول علوي**

(١) تفسير البيضاوي: ٥/ ٣٤٤.

ملقي، والثاني جانِبٌ ضعيفٌ متلقي، يحدث بمشيئته تعالى وحدَه من غير اكتسابٍ ولا اجتلابٍ.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: لينذر النبيُّ الموحى إليه يوم التلاق، وقرئ: (لتنذر)، وهو يوم القيامة حيث تتلاقى فيه الأرواح والأجساد، وأهل السماء والأرض، والمرء وعمله، والظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول... إلخ.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: يوم هم خارجون من قبورهم، لا يخفى على الله شيءٌ من أحوالهم وأعمالهم، وحينئذٍ ينادي المنادي:

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟.. فيجيبه أهل المحشر:

﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ ولا شكَّ أنَّ حقيقةَ الحالِ ناطقةٌ بذلك أبداً، وإعلانه يومَ القيامةِ لزوال الأسباب فيه، وتوقف الوسائط، واختصاص جميع الأفعال بقدرته تعالى مباشرة. ومن نتائج هذا الإعلان والتقرير:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: تُجزى كل نفس في هذا اليوم خيراً إن كسبت خيراً، وشرّاً إن كسبت شرّاً، فلا يقعُ ظلم في هذا اليوم في وجهٍ من الوجوه، لأنَّ الحكمَ والمُلْكَ فيه للواحد القهار، فلا تترك نفس واحدة من دون جزاء، فعلمه سبحانه وَسِعَهم وقدرتُه أحاطت بهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله حسابُ أحدٍ عن أحدٍ، ولا شأنٌ عن شأنٍ، يحاسِبُ الخلقَ كلَّهم في وقتٍ واحدٍ وهو أسرع الحاسبين.

فالتذكيرُ بيوم القيامة من أنجحِ وسائلِ التربية والتهذيب، ولهذا تابعت الآيات الحديث عنها:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة، وسُمِّيت بذلك لأنها قريبة، فكل ما هو آتٍ قريبٌ، يقال: أزفَ الترحُّل، أي: قَرُبَ، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] أي: قربت الساعة.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ أي: عندما تزول القلوب عن أماكنها من شدة الخوف حتى تصل إلى الحناجر كاظمينَ عليها، أي: ممسكين عليها، حتَّى لا تخرجَ مع أنفاسهم.

ففيه مبالغةٌ عظيمةٌ، وكناية عن شدة الخوف، وفرط الألم، فقد انسدت عليهم مجاري أنفاسهم، وأخذ الألم بجميع إحساسهم.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ما للظالمين من قريبٍ مشفق ينفع، ولا شفيع يشفع.

والشعورُ بكمال علمه تعالى ومراقبته الدائمة يربِّي أيضاً النفوس، ويهذبها ويبعدها عن المعاصي والآثام:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾.

أي: يعلم سبحانه خيانة الأعين ومسارقتها النظر المحرَّم، كالنظرة الثانية إلى ما لا يحل، كأنْ ينظر الرجلُ إلى المرأةِ، فإذا رآه أصحابه غضَّ بصره، فإذا غفل عنه أصحابه عاد إلى مسارقة النظر، ويعلمُ أيضاً ما تُخفي الصدور ومضمرات النفوس وهواجسها وخواطرها، ولهذا فقضاؤه سبحانه حق وعدل:

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: والله يقضي بالحق، والآلهة المزعومة التي يعبدونها من دونه لا تقضي بشيء، لأنها عاجزةٌ لا تعلمُ شيئاً، ولا تقدِرُ على شيء، إن الله هو الذي يسمع أقوالهم ويبصر أحوالهم.

ونظرُ الاعتبار في تاريخ الأمم الماضية يساعِدُ أيضاً في تربية النفوس، وتصفية القلوب:

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كانت هذه الأمم الهالكة أشدَّ من المشركين المعرضين عن دعوة الرسول ﷺ. وفي قراءة: **(أشد منكم)**.

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: أهلكهم الله بسبب ذنوبهم، وما كان لهم واقٍ من الله تعالى يحميهم، ويمنع عنهم عذابه أبداً، وأفادت **(كان)** الاستمرار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أهلكهم الله، لأن رسُلهم لما جاءتهم بالمعجزاتِ الدالَّة على صدقهم كفروا بها، فأهلكهم الله إنَّه قوي لا يغلبه شيء، شديدُ العقابِ، فكلُّ عقابٍ دونَ عقابه سبحانه.

* * *

مؤمن آل فرعون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا
سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ
مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ
مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ
مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن
رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا
مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾.

وبمناسبة دعوة الآيات إلى الاعتبار بأحداث الأمم الهالكة، أوردت حلقةً جديدةً من قصة موسى مع فرعون وقومه لم تُذكر إلا في هذه السورة، وهي قصة مؤمن آل فرعون الذي صدَّق برسالة موسى عليه السلام، ودافع عنه، ودعا قومه إلى الاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم، ومهدت الآيات لهذه القصة بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣)﴾.

أي: أرسلنا موسى مؤيداً بالمعجزات والحجج الواضحة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾.

أي: إلى رؤساء الكفر والضلال: فرعون ووزيره هامان، وإلى قارون، فكذَّبوا موسى، وقالوا: ساحر كذَّاب.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ أي: فلمَّا جاءهم موسى بالحق الثابت من عندنا كفروا به، وقالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه، واتركوا نساءهم للخدمة، أو ليصدُّوهم عن دعوة موسى، وكان فرعون قد أمسك عن قتل من آمن بدعوة موسى من بني إسرائيل، فأعاده كما كان.

﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي: وما مكر فرعون ومن معه إلا في ضياع، فما دفع عنهم قضاء الله وعذابه.

وبعد تردد قرر فرعون قتل موسى:

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ ويبدو أنه كان خائفاً من أن يدعو موسى عليه.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ وهذا شأن الطغاة في كل زمان ومكان، يتهمون معارضيهم بإفساد الدين والدنيا، فهي كلمة كل طاغية مفسد في حق كل داعية مصلح. وقرئ: (**وأن يَظهر في الأرض الفسادُ**) بالواو وبفتح الياء ورفع (**الفساد**).

ولجأ موسى إلى الله مستعيذاً به من مكر فرعون وشره لَمَّا علِم بقراره:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

أعلن عليه السلام ذلك حثّاً لقومه على الاقتداء به في اللجوء إلى الله، والتوكل

عليه، ولم يسمِّ فرعون، بل وصفه بوصف يعمُّه وأمثاله من الطغاة المتكبرين، تحقيراً له، واستهانةً بأمره، ومن اجتمع فيه التكبر عن الحق والتكذيب بيوم الحساب، فقد استكمل أقبحَ الصفات، فلا يتورَّع عن أي جريمة مهما عظمت، ولا تنجع فيه أيُّ وسيلةٍ من وسائل التربية والتهذيب.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ أي: يُخفي إيمانه، ويبدو أنه كان من حاشية فرعون المقرَّبين، له وجاهة وحظوة وسطوة، ففرعون لا يعلن مثل هذا القرار الخطير إلا بين الصفوة المختارة من رجال حكمه وأعوانه، آمن الرجلُ بموسى، وأخفى إيمانه، فلم يظهره حتى رأى فرعون عازماً على قتل موسى:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ أي: أتقصدون قتلَ رجلٍ لأنه يقول: ربي الله، مع أنَّه جاءكم بالبينات من ربكم.

وهو سؤال إنكار أنكر فيه عزمهم على قتل موسى عليه السلام، ونصَّب نفسه مدافعاً عنه، وهو يعلمُ ما يترتَّبُ على ذلك من خطر كبير عليه.

وتابع الرجل دفاعه عن موسى مؤيداً كلامه بالحجج العقلية المنطقية:

﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ﴾ أي: فهو يتحمَّل وبال كذبه إن كان كاذباً، وإن كان صادقاً يصبكم بعضُ ما يعدِكم به إن لم يصبكم كله إن تعرضتم له بسوء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فلو كان مسرفاً كذَّاباً خذله الله، وما هداه، وما أيده بتلك المعجزات، أو أهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله.

والجديرُ بالذكر هنا أنَّ أبا بكر رضي الله عنه قال مثل ذلك دفاعاً عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ففي الحديث: عن عروة بن الزبير قال: سألتُ **عبد الله بن عمرو بن**

العاص: أخبرني بأشدِّ شيءٍ صنعه المشركون بالنبيِّ ﷺ، قال: بينا النبيُّ ﷺ يصلِّي في حِجْرِ الكعبةِ إذ أقبلَ عُقبةُ بنُ أبي مُعَيْطٍ، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبلَ أبو بكرٍ حتَّى أخذَ بِمِنْكَبِه، ودفعه عن النبيِّ ﷺ فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾. [رواه البخاري (٣٨٥٦)].

قال ابن حجر ﷺ: «ولقصَّةِ أبي بكر هذه شاهدٌ من قصة علي، أخرجه البزَّار: من رواية محمد بن علي، عن أبيه: أنَّه خطبَ فقال: مَنْ أشجعُ الناسِ؟ فقالوا: أنتَ. قال: أما إنِّي ما بارزني أحدٌ إلا أنصفتُ منه، ولكنَّه أبو بكر، لقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ أخذتْهُ قريشٌ، فهذا يَجَؤُه، وهذا يتلقَّاه، ويقولون له: أنتَ تجعلُ الآلهةَ إلٰهاً واحداً؟! فواللهِ ما دنا منا أحدٌ إلا أبو بكر يضربُ هذا، ويدفع هذا، ويقول: ويلَكُم أتقتلونَ رجلاً أن يقولَ: ربِّيَ الله؟! ثم بكى علي؛ ثم قال: أُنشِدُكم اللهَ أمؤمنُ آلِ فرعونَ أفضلُ أم أبو بكر؟ فسكت القومُ، فقال عليٌّ: واللهِ لساعةٌ من أبي بكرٍ خيرٌ منه، ذاك رجل يكتمُ إيمانه، وهذا يعلِنُ بإيمانه»[(١)].

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ أي: لكم اليوم المُلك عالين غالبين في أرضِ مصرَ، فلا أحدَ يمنعنا من عذاب الله إن جاءنا.

أدرجَ الرجلُ نفسه معهم، لأنَّه كان منهم؛ تطييباً لقلوبهم، وإظهاراً لإخلاصه في نُصحهم، لكي يتأثروا به. ولكنَّ فرعونَ أصرَّ على طغيانه وعناده، وقابل نُصْحَ الرجل المؤمن بمزيد من العناد والاستكبار:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وبلغ بهذا القول الغاية في الاستبداد والعناد، فالرأيُ ما يراه هو، لا ما يراه غيره، وما يُبيِّن لهم برأيه إلا سبيل الصواب والرشاد، هكذا بلغ به العنادُ والاستبدادُ إلى أن يدَّعي

---

(١) فتح الباري: ٧/ ١٦٩.

لنفسه العصمةَ من الخطأ والزلل، وأنه لا يرى إلا الخيرَ والصوابَ، وهو حالُ الطغاةِ المستبدِّين في كل زمان ومكان.

* * *

عاقبة التكذيب والعناد

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾.

ولم يبالِ الرجل المؤمن بطغيان فرعون وغروره، بل ردَّ عليه بأسلوب غير مباشر، وهو يعظ قومه، ويبيِّن لهم عاقبة التكذيب والعناد:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾.

أي: إني أخاف أن ينزل بكم مثل ما نزل بالأمم المكذبة قبلكم:

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾.

أي: مثل جزاء ما كان عليه قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، والله

ما عاقبهم إلا بذنوبهم، وإعراضهم عن عبادته وطاعته، فهي دعوة لقومه لكي يعتبروا بأحوال المكذبين قبلهم، وتخويف لهم من عذاب الدنيا.

ثم أضاف تخويفهم من عذاب الآخرة:

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾

أي: يوم الاستغاثة والصياح؛ حيث ينادي المعذَّبون على أنفسهم بالويل والثبور، أو: ينادي بعضهم بعضاً فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وقال قبل ذلك أيضاً: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وقرئ بتشديد الدال؛ أي: يوم ينِدُّ بعضهم عن بعض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس].

أو: يوم التنافر، من ندَّ البعير إذا هرب ونفر، وذلك إذا سمعوا نفير النار ندُّوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً عليه، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

ويقوِّي هذا المعنى قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ﴾ أي: يوم تولُّون عن موقف الحساب فارِّين، ما لكم من عذاب الله مانع ودافع.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وهو ردٌّ على ما ادعاه فرعون عندما قال: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فمن أضله الله فلا يستطيع أحد أن يهديه.

ثم بيَّن لهم أن سبب ضلالهم نابعٌ من داخل أنفسهم، من كسبهم واختيارهم، بتذكيرهم بمواقف آبائهم من دعوة نبي الله يوسف عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي: ولقد جاءكم يوسف بالحجج الواضحة الدالة على صدقه، ومع ذلك أعرضتم عنه، وكنتم في شك مما جاءكم به، حتى إذا مات كذَّبتم رسالةَ مَنْ بعدَه كما كذبتم رسالته، ولهذا أضلَّكم الله.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: هكذا يضل الله مَنْ هو مسرِفٌ في عصيانه، شاكٌّ في دعوة المرسلين المؤيدة بالحجج والبراهين.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أي: وهؤلاء المسرفون المرتابون يجادلون لردِّ آيات الله بغير حجة ولا برهان، كما سبق معنا في أول السورة: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: كبر جدالهم مقتاً عند الله وعند المؤمنين.

والمقت ـ كما مرَّ معنا ـ: أشد الغضب، ومقت الله تعالى لهم: طبعه على قلوبهم، وإضلالهم وإنزال العذاب بهم.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي: كذلك يختمُ الله على قلبِ كلِّ متكبرٍ جبارٍ، فلا يَعْقِلُ رشاداً، ولا يَقْبَلُ هدًى.

فضلالُهم نابعٌ من قلوبهم، بسبب إسرافهم وتكبرهم، ويبدو أنَّ هذا التقرير تعقيبٌ من الله تعالى على ما حكاه سبحانه من كلام الرجل المؤمن، ولهذا ذكرت الآيات بعده مثالاً من تكبُّر فرعون وتجبُّره وضلاله وإسرافه:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: لعلِّي أصلُ بواسطته إلى الطرق المؤدية إلى السماوات، وهذا يدلُّ على جهله بالله سبحانه، وشدة غروره وضلاله.

أو: لعلَّه كما رأى سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أرادَ أن يموِّه ويحاوِرَ ويداوِرَ كي لا يواجِهَ الحقَّ جهرةً، ولا يعترِفَ بدعوةِ الوحدانيةِ التي تهزُّ عرشه، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾ وبلغ ـ لعنه الله ـ بذلك غاية الجهل والضلال، ولعله أراد ببناء هذا الصرح العالي أن يموِّه على الناس، ويشغلهم عن دعوة موسى، ويوهمهم أنه يعمل شيئاً يتوصَّل به إلى تكذيب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو حالُ الطغاةِ المستبدين، يأمرون بإقامة المنشآت المادية الكبيرة لينشغلَ الناسُ بها عن ظلمهم واستبدادهم، قال تعالى في **سورة القصص**: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى عاقبة ضلاله واستكباره فقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾

أي: إلا في خسارٍ وهلاكٍ بسبب سوء عمله وابتعاده عن سبيل الحق والهدى.

* * *

ثبات وتفويض

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

وعادت الآيات إلى الرجل المؤمن تحكي لنا كلماتِه الأخيرةَ التي نصح بها قومه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: اتبعونِ أهدكم إلى طريق الحق والرشاد. وفي كلماته تعريضٌ بفرعون وطريقه، فاتباعهم لفرعونَ لا يوصلهم إلا إلى الفساد والضلال.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: إنَّ هذه الحياة الدنيا ـ التي من أجلها تتبعون فرعون ـ حقيرةٌ قليلةٌ سريعةُ الزوالِ، وأمَّا الآخرةُ فهي دارُ الاستقرارِ والخلودِ إمَّا في النعيم أو في الجحيم.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: من عمل في الدنيا سيئة فلا يُجزى في الآخرة إلا بمثلها بعدله سبحانه.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير حدٍّ وعدٍّ بفضله سبحانه.

ويبدو أنَّ بعضَ حاشية فرعون استنكرَ موقف الرجل وإيمانه، ومعارضته لفرعون، فطلبوا منه العودةَ إلى طاعة فرعون، والاعتذار منه، فردَّ عليهم الرجل المؤمن مستنكراً موقفهم متأبياً ثابتاً على دعوة الحق:

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾.

أي: أخبروني كيف أدعوكم إلى الخيرِ والسلامةِ وتدعونني في المقابل إلى الهلاك والعذاب؟!.

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: أنتم تدعونني لأكفر بالله، وأجعلَ له شريكاً على جهلٍ بلا دليل، فالعقيدةُ لا بدَّ لها من دليلٍ يوجِبُ العلمَ بها، وأنا أدعوكم إلى الإيمان بالله الغالب على كل شيء، والغفار لجميع الذنوب.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: حقّاً أن ما تدعونني إليه لا يجيبُ داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنَّه مخلوقٌ

ضعيف، وهو تعريضٌ بفرعون، وما كان يدَّعيه من صفات الألوهية عندما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: وأن مرجعَنا جميعاً إلى المعبودِ الحقيقي وهو الله، فيجازي كلًّا بعمله، وأن المسرفين المتجاوزين حدودَ عبوديتهم لله، كفرعون وأتباعه، هم أصحاب النار.

ولا بدَّ أن فرعون قد غضب من كلام الرجل المؤمن، وضاق به ذرعاً، فأصدر أوامره لجنوده لإسكاته، والتخلص منه، وقد أحسَّ الرجل بذلك، ورأى أنَّ ثمةَ تدبيراتٍ ومكايدَ تدبَّر له، فألقى كلمته الأخيرة؛ فوَّض بها أمره إلى الله، واستعاذ بها من مكرهم وكيدهم:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: فستعلمون صدقِ دعوتي، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، وأتوكل على الله مستعيناً به، وملتجئاً إليه، إنه تعالى بصير بأحوال عباده، يعلم من يستحق النُّصْرةَ فينصره ويؤيده، ويعلمُ من يستحقُّ الخُذلان فيخذله ويضله.

* * *

من عذاب القبر إلى عذاب النار

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

وصدق الرجلُ المؤمنُ في استعاذته بالله تعالى، وتفويض أمره إليه، فصدّقه

تعالى ونصره، ونجّاه من مكرهم وكيدهم كما نجّى موسى عليه السلام:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥﴾.

أي: وقاه الله ما أرادوا به من الشر، ونزل بفرعون وآله وجنوده أسوأ العذاب:

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾.

أي: يُعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً، في أول النهار وآخره ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعةُ قيل لخزنة جهنم: أدخلوا آلَ فرعون أشدَّ العذاب.

وفي قراءة: **(أُدخلُوا آل فرعون)** أي: يقال لهم: ادخلوا يا آل فرعون أشدَّ العذاب.

وهذه الآية دليل على عذاب القبر كما قال العلماء، فقد بوّب الإمام البخاري في «**صحيحه**» فقال: [٨٦] بابُ ما جاء في عذاب القبر، وذكر هذه الآية، وأوردَ عدداً من الأحاديث؛ منها:

[١٣٧٢] عن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ يهوديةً دخلتْ عليها، فذكرتْ عذابَ القبرِ، فقالتْ لها: أعاذكِ اللهُ مِنْ عذابِ القبرِ، فسألتْ عائشةُ رسولَ اللهِ ﷺ عن عذابِ القبرِ، فقال: «**نعم عذابُ القبرِ**» قالت عائشةُ رضي الله عنها: **فما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ صلَّى صلاةً إلا تعوَّذَ من عذابِ القبرِ.**

زادَ في رواية: «**عذابُ القبرِ حقٌّ**».

وذكر البخاري في [٨٠] كتاب الدعوات أيضاً: [٣٧] باب التعوذ من عذاب القبر، ثم أخرج بسنده:

[٦٣٦٤] عن **موسى بن عقبة** قال: سمعتُ أمَّ خالد بنت خالد قالت: **سمعتُ النبيَّ ﷺ يتعوَّذُ من عذابِ القبرِ.**

[٦٣٦٥] وعن **مصعب بن سعد** قال: كان سعدٌ يأمرُ بخمسٍ ويذكرهنَّ عن

النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ يأمرُ بهنَّ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ البُخْلِ، وأعوذُ بِكَ من الجُبْنِ، وأعوذُ بِكَ أن أردَّ إلى أرذلِ العُمُرِ، وأعوذُ بكَ من فتنةِ الدُّنيا، وأعوذُ بك من عذاب القبر**».

ثم وصفتِ الآياتُ في تعقيبها الأول على قصة مؤمن آل فرعون أحوالَهم وهم يقاسون أشد العذاب في النار:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: وإذ يتخاصمون في النار، فيقول الضعفاء كالجنود والخدم لرؤسائهم كفرعونَ وهامانَ: إنا كنا أتباعاً لكم في الدنيا، فهل أنتم دافعون عنا شيئاً عن عذاب النار؟.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: قالوا: نحن وأنتم في النار؛ فكيف ندفع عنكم شيئاً من عذابها؟! لو قدرنا لدفعناه عن أنفسنا، إن الله قد حكم حكماً لا يتغيَّر ولا يتبدل، فأدخلَ أهلَ الجنةِ الجنةَ وأهلَ النارِ النارَ.

ولما ضاقت بهم الحيل توجهوا جميعاً لخزنة جهنم:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

أي: يخفف عنا مقدار يوم من العذاب. فيجيبهم خزنة جهنم موبِّخين:

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: أوما قامت عليكم الحجج

في الدنيا على ألسنة الرسل، فضيَّعتم أوقات الدعاء، وأعرضتم عن فرص الإجابة؟!.

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: أتونا بها فكذبناهم. فردَّ عليهم خزنة النار:

﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إذا كان الأمرُ كذلك فادعوا أنتم، وما دعاء الكافرين إلا في ضياع وبطلان.

وواضحٌ أنَّ خزنة النار ما أرادوا إطماعهم في الدعاء، بل أرادوا إقناطهم منه، فبينوا لهم أن دعاءهم غير مستجاب.

* * *

تأييد وتثبيت

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ
الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي
آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ثم بيَّن تعالى في تعقيبه الثاني على قصَّة مؤمن آل فرعون أنَّ تأييدَه لرسله والمؤمنين سنةٌ من سننه الكونية القَدَرية الثابتة، فقد حمى موسى عليه السلام وأيَّده، ونجَّى مؤمن آل فرعون من مكرهم وكيدهم.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾

ينصرهم سبحانه في الحياة الدنيا بالحجة والبرهان، وينتقم من أعدائهم بإهلاكهم، وينصرهم يوم القيامة بفوزهم بالرضوان والجنان، وتعذيب أعدائهم بالنيران، ولا يخلُّ بهذا الوعد الكريم ما يكون أحياناً لأعدائهم من تسلُّط عليهم امتحاناً لهم، إذ العبرة بالعواقب، وقد يكون السببُ ابتعاد المسلمين عن أحكام دينهم، وانتشار المعاصي بينهم.

والأشهادُ: جمع شاهدٍ، كصاحب وأصحاب، والمراد بهم من يقوم يوم القيامة بالشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

أي: لا يقبل من الظالمين عُذر يوم القيامة، ولهم الإبعاد والحرمان من الرحمة، ولهم سوء الدار الآخرة؛ وهو عذاب جهنم.

ومن تأييده تعالى لرسوله موسى عليه السلام والمؤمنين معه ما أعطاه من المعجزات وما أنزل عليه من الشرائع والآيات:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: ولقد آتينا موسى أسباب الهداية بما أجرى سبحانه على يديه من معجزات، وأنزل عليه التوراة، وتركها بعده لبني إسرائيل:

﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: لأجل الإرشاد وتذكرة ذوي العقول المستنيرة المبصرة.

ولا شك أنَّ ما آتى الله نبينا محمداً خاتمَ أنبيائه ورسله ﷺ أعظمُ مما آتى موسى عليه السلام وقومه، وما قصَّ اللهُ قصة مؤمن آل فرعون إلا تثبيتاً للنبي ﷺ،

ومواساةً له عما يلقى من أذى المشركين من قومه، ولهذا توجَّهت الآياتُ تخاطِبُه عليه الصلاة والسلام، وتأمره بالصبر مع الإكثار من الاستغفار والتسبيح:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: إن وعد الله حق ثابت لا يتخلف بنصر رسله والمؤمنين.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أي: لذنبك الذي تراه ذنباً.

وكان عليه الصلاة والسلام يرى نفسَه مقصِّراً في حق شكرِ ما أنعمَ الله عليه، وهو تهييجٌ للأمة أيضاً على التوبة والاستغفار.

فقد أخرج **النسائي** في الكبرى [١٠٢٠٧]: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ الرسول ﷺ جمعَ الناسَ فقال: «**يا أيها الناسُ، توبوا إلى اللهِ، فإنِّي أتوبُ إليهِ في اليومِ مئةَ مرّةٍ**».

وأخرجه **البخاري** [٦٣٠٧] بلفظ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**واللهِ إنِّي لأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ في اليومِ أكثرَ مِنْ سبعينَ مرَّةً**».

ومن حديث **الأغر المزني** عند مسلم [٢٧٠٢] بلفظ: «**إنَّه ليغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفرُ اللهَ كلَّ يومٍ مئةَ مرَّةٍ**».

قال عياض: المراد بالغَيْنِ فتراتٌ عن الذكرِ، الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمرٍ ما عَدَّ ذلك ذنباً، فاستغفر منه. وقيل: هو شيء يعتري القلبَ مما يقع من حديث النفس، وقيل: هو السكينةُ التي تغشى قلبه، والاستغفار لإظهارِ العبوديةِ للهِ، والشكرِ لما أولاه، وقيل: هي حالةُ خشيةٍ وإعظامٍ، والاستغفارُ شكرها، ومن ثَمَّ قال المحاسبي: خوفُ المقربين خوفُ إجلالٍ وإعظامٍ[١].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي: وداوم على التسبيح متلبِّساً بحمده

---

(١) فتح الباري: ١١/١٠١.

تعالى، وقيل: صلِّ للهِ تعالى في آخرِ النهار وأوله، وهي الصلاةُ التي كانت في أوَّلِ الأمرِ قبلَ أن تفرضَ الصلواتُ الخمسُ.

ثم كشفت الآيات للنبي عليه الصلاة والسلام سبب ضلال المشركين وعنادهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي: إن الذين يجادلون في آيات الله بغير دليل وبرهان، ما في قلوبهم إلا تكبُّر عن الحق، مع ظهوره، أو إلا إرادة الرئاسة والتقدُّم، أو إلا إرادة أن تكونَ لهم النبوةُ دونك حسداً وبغياً، ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكِبْر، وهو ما أرادوه من الرئاسة أو النبوة، أو ما أرادوا من إبطال الحق وإطفاء نوره.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: فالتجئ إلى الله من كيد الحُسَّاد، وبغي البغاة، إنه يسمعُ أقوالكم، ويبصر أفعالكم، فالآية تحثُّ على الاستعاذة بالله، واللجوء إليه بالدعاء والعبادة وكثرة الاستغفار والتسبيح والتحميد.

ثم بيَّن سبحانه صورة من صور تعنُّت المشركين وجدالهم في قضية من أعظم قضايا الإيمان؛ وهي إنكارهم للبعث من القبور يوم القيامة:

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾.

أي: لا يعلمون هذه الحقيقة لقصورهم في النظر والتفكير، وشدة غفلتهم، واتباعهم لشهواتهم، فهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وقوله أيضاً: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فيومُ الحساب والجزاءِ أمرٌ ضروري لا بدَّ منه للتميز بين المتفاضلين:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ أي: ما يستوي عند الله تعالى الغافلُ عن آياته الجاحد لها، والبصيرُ المستدل بها على وحدانيته وصدق رسوله ﷺ، ولا يستوي أيضاً المُحْسِن بالإيمانَ والعملِ الصالحِ والمسيءُ، فلا بدَّ إذن من يوم يميِّز فيه الحق تعالى بين الفريقين.

وزيادة (لا) في (**المسيء**) لإبراز المقصود، وهو نفي مساواته للمحسن، فهو كقوله تعالى في **سورة فاطر**: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكراً قليلاً تتذكرون، وفي قراءة: (**يتذكرون**).

فمن يتذكر ويهتدي قليل بالنسبة للكافرين، وهو ما أكدته الآية التالية:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: لا يصدِّقون بها لعدم تذكرهم واتعاظهم.

* * *

الدعاء والعبادة

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

إن للدعاء والعبادة دوراً كبيراً في تربية النفوس وتهذيبها وتثبيتها على الحق، وهو ما قررته الآيات في تعقيبها الثالث على قصة مؤمن آل فرعون:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: اعبدوني وحدي أُجِبْكُم وأغفرْ لكم، أو: سلوني أُعْطِكم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين ذليلين.

ودلت الآية على أن الدعاء عبادة لله تعالى، وجاء في الحديث الشريف: عن **النعمان بن البشير** رضي الله عنهما، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**الدُّعاءُ هو العبادةُ**» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾. [رواه أبو داود (١٤٧٩) والنسائي (١١٤٠٠) والترمذي (٣٣٧٢) وصححه وابن ماجه (٣٨٢٨)].

ويؤيده ما أخرجه الترمذي [٣٣٧١]: من حديث أنس رفعَه: «**الدعاءُ مُخُّ العبادةِ**».

وقد تواردت الآثارُ عن النبيِّ ﷺ في الترغيب في الدعاء والحث عليه، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ رفعَه ـ: «**ليسَ شيءٌ أكرمَ على اللهِ من الدعاءِ**» [أخرجه الترمذي (٣٣٧٠) وابن ماجه (٣٨٢٩) وصححه ابن حبان (٨٦٧) والحاكم (١/ ٤٩٠)].

قال الشيخ تقي الدين السبكي: «الأولى حملُ الدعاءِ في الآيةِ على ظاهره، وأما قوله بعد ذلك: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ فوجه الربط أنَّ الدعاء أخصُّ من العبادةِ، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء، وعلى هذا فالوعيدُ إنَّما هو في حق من ترك الدعاء استكباراً، ومن فعل ذلك كفر... فالدعاءُ هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له، وما شُرِعَتِ العبادةُ إلا للخضوع للباري، وإظهار الافتقار إليه، ولذلك عبر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار، ووضع (**عبادتي**) موضع: **دعائي**، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصَّغار والهوان»[١].

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٩٥.

والآية ظاهرةٌ في ترجيح الدعاءِ على التفويض كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: ٤٤].

ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام كثيرَ الدعاءِ والالتجاءِ إلى الله تعالى في وقتِ الشدائد، روى البخاري [٣٩٥٣]: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ يوم بدر: «**اللهمَّ إنِّي أنشِدُكَ عهدَكَ ووعدَكَ، اللهمَّ إنْ شئتَ لم تُعْبَدْ**»، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ، فخرج ﷺ وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وزاد مسلم في روايته [١٧٦٣]: فأتاه أبو بكر فأخذ رداءَهُ، وألقاهُ على منكبه، ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبيَّ اللهِ كفاكَ مناشدتك ربَّكَ، فإنَّه سينجِزُ ما وعدَكَ[1].

وقوله: (**أستجب**) جزم في جواب الأمر، أي: إن تدعوني أستجب لكم، والاستجابة منوطة بمشيئته تعالى القائل: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وهي تتنوع أيضاً، فتارة تقع بعين ما دعا به، وتارة بعوضه، وقد ورد في ذلك حديث صحيح أخرجه الترمذي [٣٥٧٣] والحاكم [١/٤٩٣]: من حديث **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه ـ رفعه ـ: «**ما على الأرضِ مسلمٌ يدعو بدعوةٍ إلا آتاهُ الله إيَّاها، أو صَرَفَ عنه من السوءِ مثلَها**».

ولأحمد [٢/٤٤٨]: من حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه: «**إمَّا أن يعجلَها له، وإمَّا أن يدَّخِرَها له**».

وله [٣/١٨]: في حديث **أبي سعيد** رضي الله عنه ـ رفعه ـ: «**ما مِنْ مسلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إِثْمٌ ولا قطيعةُ رحمٍ إلا أعطاه اللهُ بها إِحْدَى ثلاثٍ: إمَّا أن يُعَجِّلَ له دعوتَه، وإمَّا أن يدَّخِرَها له في الآخرةِ، وإمَّا أن يصرِفَ عنه من السوءِ مِثْلَهَا**» قالوا: إذاً نكثر. قال: «**الله أكثر**»[2].

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٢٧٩.

(٢) المرجع السابق: ١١/ ٩٦.

فالله تعالى أكرم الأكرمين لا يرد السائلين خائبين، فما أوقفهم على باب فضله وكرمه وألهمهم الدعاء إلا ليعطيهم ويتفضل عليهم، ورحم الله القائل:

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ ما أرجو وأطلُبُهُ مِنْ جُوْدِ كَفِّكَ ما عَلَّمْتَنِي الطَّلَبا

* * *

فضل وإحسان

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

ثم ذكَّرت الآياتُ المستكبرينَ عن عبادته تعالى ودعائه؛ ببعض نعمه الكثيرة التي تفضَّل بها عليهم، وهذا يدل على شدة فقرهم وحاجتهم إليه جل وعلا، فبيَّن أولاً فضله عليهم بتنظيم الزمان:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ أي: الله جعل لكم

الليل مظلماً هادئاً، تضعف فيه الحركات، وتهدأ الحواس، لتستريح فيه، وجعل النهار مضيئاً، معيناً على الانتشار والحركة، معيناً على الاكتساب وقضاء الحوائج، فالإنسانُ يحتاجُ إلى ظلمة الليل وسكونه، كما يحتاج إلى ضوء النهار وحركته، فهما مِنْ نعم الله الكبرى عليه، ذكرهما سبحانه في عدد من الآيات:

منها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

ومنها أيضاً: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: إن الله لذو فضل عظيم على الناس لا يدانيه فضل، ونكَّره لتفخيمه وتعظيمه، ومع ذلك فإنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكرون الله على فضله، ويُعرضون عن عبادته وشكره.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أي: ذلك الله المربِّي لكم والمحسن إليكم لا ربّ لكم سواه، خالق كل شيء، لا معبود بحق إلا هو، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟! فهو سبحانه الجامع لهذه الأوصاف كلها التي جاءت مترادفة تقرر الصفةُ السابقة منها اللاحقة.

ثم بينت الآياتُ أنَّ سبب إفكهم هو إعراضُهم عن التأمل والتفكير في آياته تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: فكل من جحد بآيات الله وأعرض عنها أَفِكَ كما أفكوا، فعُوْقِبَ بمسخ القلب وسوء الفهم.

ثم بينتِ الآياتُ فضله تعالى على الناس في المكان المناسب لمعيشتهم، وبتحسين صورهم وهيئاتهم، وبالرزق الطيب المناسب لهم:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ أي: الله الذي جعل لكم الأرض مستقرّاً لكم، وجعل السماء سقفاً مرفوعاً، وصوَّركم بصور حسنة، منتصبي القامة، متناسبي الأعضاء، مستعدِّين لمزاولة الصنائع واكتساب المهارات، ورزقكم من الطعام النافع المستلذ.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ذلكم الله المربِّي لكم، فكل ما سواه مربوبٌ له سبحانه، فتزايد خيره وعطاؤه على العالمين، فهو مربِّي العالمين بخيره وفضله وإحسانه ﷻ، والكل مفتقِرٌ إليه في وجوده وحياته وسائرِ أحواله، فلو قطعَ فيضَه عنهم لانعدموا بالكلية، وأما الحيُّ بذاته المستغني عن غيره فهو الله تعالى:

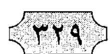
﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: هو المتفرِّد بالحياة الذاتية الحقيقية، فلا يوصف بالحياة الكاملة إلا هو، فلا معبود بحق إلا هو سبحانه، فادعوه، وأقبلوا على عبادته بإخلاص، واحمدوه على كماله وجلاله وإحسانه قائلين: الحمد لله ربِّ العالمين.

وتوقفتِ الآياتُ عن بيان بعض نعمه الجليلة لتخاطب النبي ﷺ آمرة له أن يعلن كمال عبوديته لله واستسلامه لأمره الشرعي والقدري لكي يقتدي الناس به، فللقدوة الحسنة تأثيرها الكبير في التربية والتهذيب.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: قل لهم: إني نُهِيْتُ أن أعبد الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لمَّا



أنزل الله عليَّ الآيات، فإنها مؤيدةٌ للأدلة العقلية، ومنبهة عليها، وأُمرتُ بالاستسلام الكامل لله رب العالمين، الذي خلقكم ورباكم في جميع أطوار حياتكم.

ثم عادت الآياتُ بعد هذا الإعلان تبيِّنُ كمال قدرة الله في خلق الإنسان خلقاً متدرجاً:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ﴾ أي: هو الذي بدأ خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم يخرجكم أطفالاً ضِعافاً لا تملكون شيئاً ولا تعلمون شيئاً، واقتصر على الواحد (**طفلاً**) لإرادة الجنس، أو كل واحد منكم طفلاً، ثم يبقيكم، ويدرجكم في مدارج التربية، لتبلغوا سنَّ القوة والشباب، ثم يهبطكم، ويضعفكم، لتكونوا في سن الضعف والشيخوخة، وهذا التدرُّجُ سنةٌ من سننه القدرية، لا تستطيعون تغييرها، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: ومنكم من يميتُه الله مِنْ قبلِ بلوغِ الأَشُدِّ أو الشيخوخة، ومنكم من يبقيه في الحياة إلى أجل مسمى، وكل ذلك بتقديره تعالى، لعلكم تعقلون ما في ذلك من حجج وعِبَر تدلُّكم على كمال قدرته وفضله، وأنكم دائماً في قبضة قدرته تعالى وتحت قهر مشيئته في جميع أحوالكم وأطواركم.

ومن صفات فعله سبحانه الدالة على كمال قدرته أنه وحده الذي يحيي ويميت دون أسباب ووسائل وآلات:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾.

أي: هو الذي يحيي الأمواتَ، ويميتُ الأحياءَ، أو هو الذي يفعل الإحياءَ والإماتةَ، وإذا أراد أمراً من الأمور كالإحياء والإماتة فإنما يقول له: كن، فيحدثُ، ويوجَدُ من غير امتناع أو توقف، فهو سبحانه يأمر أمراً واحداً لا يحتاجُ إلى وسائل ووسائط، بينما أفعال الخلق لا تخلو من الغرض والعَرَض، والمباشرة والمعالجة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢].

وتعقُّلُ هذه الحقيقة وفهمُها يهذِّبُ النفسَ، ويصقُلُ القلبَ، فينشرح عند سماع آيات الله، وينتفع بالدلائل الكثيرة المبثوثة في المكونات، وعدم تعقلها وفهمها يؤدِّي إلى الغرور والاستكبار: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

* * *

مصير المعرضين عن عبادة الله

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ۝٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِىٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ۝٧٢ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـًٔاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٤ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ۝٧٥ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾.

فمثل هؤلاء لا ينفع معهم إلا أسلوب التهديد والوعيد، وهو ما اتجهت

الآيات إليه بعد أن مهَّدت له بقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: كيف يُصْرَفون عنها؟ مع أنها واضحة ظاهرة، لا غموض فيها ولا خفاء.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: الذين كذَّبوا بالقرآن الواضح إعجازُه وبيانُه، وكذَّبوا أيضاً بكل الرسالات الإلٰهية، فسوف يعلمون وبال تكذيبهم وعاقبته، فتكذيبهم بالقرآن الكريم تكذيبٌ بكلِّ الرسالات الإلٰهية.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: إذ قيودُ الحديد والسلاسل في أعناقهم يُجَرون بعنف على وجوههم في الحميم المتناهي في حرارته، ثم في النار يُطرحون، فيكونون وقوداً لها، يقال: **سَجَّرْتُ التنورَ**: أوقدتُهُ، **وسجَّرتُه**: ملأته، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

والمراد أنهم يعذَّبون بأنواع العذاب، وينقلون من نوع إلى نوع آخر، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات].

وقوله أيضاً: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

ومع هذا العذاب أيضاً يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً:

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: غابوا عنا، أو ضاعوا عنا، ونحن في أمسِّ الحاجة إليهم. ثم يستدركون قائلين:

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: بل تبين لنا اليومَ أننا لم نكن نعبد شيئاً يُعتد به، كما يقال: حسبته شيئاً فلم يكن.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: كذلك يبعد الله الكافرين عن الحق، والصواب بسبب سوء اختيارهم وكسبهم وتكبرهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: ذلكم بما كنتم تبطرون وتتكبرون في الأرض ظالمين باغين، وبما كنتم تختالون وتفرحون.

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: فبئس مأوى المتكبرين عن الإيمان بالله وعبادته.

* * *

الثبات على طريق الدعوة والتبليغ

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

وعادت الآيات مرة ثانية في السورة تأمر النبيَّ ﷺ بالصبر، وتثبته في وجه عنادهم وإعراضهم، وتأمره أن يستمرَّ في تبليغهم وإقامة الحجة عليهم:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: إن وعد الله بإهلاكهم حق لا بد منه، فإما نرينك بعضه في الدنيا، أو

نتوفينك قبل أن يحل بهم، فإلينا يُرجعون يوم القيامة، فنجازيهم أشدَّ الجزاء، فما عليك إلا أن تسيرَ في طريق الدعوة والتبليغ دونَ نظرٍ للنتائج.

إنَّه أدبٌ كريمٌ ـ كما قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يأخذُ اللهُ به أصحابَ هذه الدعوة في شخص رسوله الكريم ﷺ، إنه يعلِّمهم كيف يكون الإخلاصُ المبرَّأُ عن أي شائبة، ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغي أن تتوجَّه قلوبُ الدعاة إلى الله في كلِّ حين، فهذا هو حزام النجاة في خِضَمِّ الرغائب التي تبدو بريئةً في أول الأمر، ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم.

وله عليه الصلاة والسلام في هذا أسوة في جميع المرسلين قبله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٧٨﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ فلا يعلم عددهم إلا الله تعالى، والذين لم يخبر عنهم القرآن أكثر من الذين أخبر عنهم، قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: وما صحَّ وما استقام لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بمشيئة الله تعالى، فالأمورُ منوطةٌ بمشيئته سبحانه وحده.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: فإذا جاء أمر الله بعذاب المكذبين، حكم بالحق بنجاة المؤمنين، وإهلاك المصرِّين على الباطل.

* * *

إيمان اليأس

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ
وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾
فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ثم وصفت الآياتُ في آخر السورة أحوال المعرضين عن طاعة الله وعبادته عند نزول العذاب بهم، وبيَّنت أنَّ إيمانَهم في ذلك الوقت جاء متأخراً فلا يقبله الله، ومهدت لذلك بتذكيرهم بمجموعة أخرى من نعم الله عليهم، وكأنها تقول لهم: كان عليكم أن تؤمنوا بالله وتعبدوه عندما كنتم تتمتعون بهذه النعم:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: الله هو الذي خلق الأنعام لأجلكم ولمصلحتكم لتركبوا بعضها، وتأكلوا بعضها، كما مرَّ معنا في مواضع كثيرة؛ منها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

أي: ولكم فيها منافع أُخرُ غير الركوب والأكل، ولتبلغوا عليها حاجة

تستثقلونها، وهي حمل أثقالكم من بلد إلى بلد، وعليها وعلى السفنِ تُحْمَلون، وقد مرَّ معنا أنه تعالى قد فصَّل منافع الأنعام في **سورة النحل** في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

وعقَّب سبحانه على تذكيرهم بهذه النعم بأسلوب التعجيب من إعراضهم عن عبادته وشكره:

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: وهكذا يبيِّن لكم سبحانه الأدلة الدالة على كمال قدرته وفضله ورحمته، فأي آية من تلك الآيات تنكرون؟! إنها في غاية الظهور والوضوح بحيث لا يقدم على إنكارها إنسان عاقل.

ثم ذكَّرتهم الآيات أيضاً بإعراضهم عن النظر والاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ أي: فينظروا نظر مستبصر معتبر.

﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: كانوا أكثر عدداً وعدة وآثاراً في الأرض، فآثارهم لا تزال باقية بعدهم، فأي شيء نفعهم ما كانوا عليه من قوة وتمكين؟!.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: أُعجبوا بما

عندهم من العلم، واستحقروا علم الرسل واستهزؤوا به.

والمراد بالعلم عقائدهم الباطلة، أو علمهم بأحوال الدنيا، وسمَّاه علماً تهكُّماً بهم، فهو في الحقيقة جهل، فالقوم أُعجبوا بما عندهم، والعُجْب من أعظم معوِّقات التربية والهداية، والعلمُ بغير إيمان فتنة، يُعمي ويُطغي، كما هو حال كثير من الناس في وقتنا الحاضر.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: ونزل بهم جزاء جهلهم واستهزائهم، ويزول عنهم عجبهم وغرورهم عند نزول العذاب:

﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾

أي: وتبرأنا مما كنا عليه من الشرك والكفر، وجاء إيمانُهم متأخراً عن وقته، فهو إيمانُ اليأسِ والبأسِ الذي لا يقبله الله ولا ينفعهم به:

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ﴾ أي: وعدم انتفاعهم بإيمان البأس سنةٌ من سننه تعالى في الأمم السابقة، كما مرَّ معنا في شأن إيمان فرعون عندما أدركه الغرق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: وظهر في ذلك الوقت خسران الكافرين، فهم خاسرون في كل وقت، ولكن خسارتهم تتبين عند معاينتهم العذاب.

أسأله تعالى الثبات على الإيمان، وأن يعيننا على طاعته وعبادته.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة فصلت

القُرْآنُ والتَّزْكِيَةُ فِي سُوْرَةِ فُصِّلَتْ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

التنزيل العربي المفصَّل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ
ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾.

هكذا بدأ الله ثانيةَ الحواميمِ كما بدأ الأُولى، ثم أورد سبحانه في صدر السورةِ بعضَ الصفات العالية الكريمة للقرآن الكريم:

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾.

أي: القرآن تنزيلٌ من الرحمن الرحيم، وتنزيله من أعظم النعم التي تفضَّلَ بها سبحانه على خلقه، ولهذا أضيف التنزيلُ إلى الاسمين الكريمين: **الرحمن الرحيم**.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: هو كتاب بُيِّنَتْ ومُيِّزَتْ آياته، وجُعلت معاني مختلفة، فيها كل ما يحتاجُ إليه الناس في دينهم، وتربية نفوسهم وتهذيبها، من أحكام وحِكَم، وأمثالٍ ومواعظَ، وترغيب وترهيب، وقصص، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: أعني أو أمدحُ قرآناً عربيّاً لقوم يعلمون ما فيه من دلائل الإعجاز الدالة على أنه تنزيل من الرحمن الرحيم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه لأنه نزل بلغتهم.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين به، ونذيراً للمعرضين عنه، ومع ذلك:

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أعرض أكثرُهم عن تدبُّره وقبوله والإيمان به، فهم لا يسمعونه سماعَ تفكيرٍ وانقيادٍ وإذعانٍ وتصديق.

فهم من أهل الجهل لا مِنْ أهل العلم؛ ولهذا حكى ﷻ بعضَ أقوالهم للنبيِّ عليه الصلاة والسلام عندما يبلِّغهم آياته:

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

أي: قال المعرضون عن القرآن للنبيِّ عليه الصلاة والسلام بوقاحةٍ وعنادٍ: قلوبنا في أغطية كثيفة محجوبة عما تدعوننا إليه، وفي آذاننا صممٌ؛ فهي لا تسمعُ دعوتك، وبيننا وبينك حجابٌ يمنعنا عن اتباعك، فاعمل على دينك وفي إبطال أمرنا، إننا عاملون على ديننا وفي إبطال أمرك.

وأمر عليه الصلاة والسلام أن يردَّ على هؤلاء المعاندين بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: قل: إنما أنا بشر مثلكم، لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بيني وبينكم حجابٌ، يُلقى إليَّ بواسطة الوحي أن معبودكم الذي يستحق العبادة واحد.

﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: فسيروا على صراطه المستقيم، ملتزمين بطاعته، ومداومين على تربية نفوسكم وتقويمها، وإصلاح سلوكها، واسألوه المغفرةَ عمَّا كنتم عليه من الشرك والفجور.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وويل للمصرِّين على الشرك، وهي كلمةٌ للتقبيحِ على المخاطب فعله، وأما ما ورد: وادٍ في جهنم، فلم يرد أنه معناه في اللغة، وإنما أراد مَنْ قال الله ذلك فيه فقد استحق مقرّاً من النار.

ومما يدل على أنها لتقبيح فعل المخاطب ما ورد في الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رجلاً يسوقُ بَدَنَةً فقال: «**اركبْها**» قال: إنها بدنة، قال: «**اركبْها**» قال: إنها بدنة، قال: «**اركبْها وَيْلَكَ**» [رواه البخاري (٦١٥٩)].

* * *

أهم وسائل التزكية

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾.

أي: الذين لا يزكُّون أنفسهم، ولا يربونها بتطهيرها من العقائد الباطلة

والعادات السيئة، وهم أيضاً ينكرون الحساب والجزاء يوم القيامة.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «والمرادُ من الزكاةِ هنا طهارةُ النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك: طهارةُ النفس من الشرك، وزكاةُ المال إنَّما سمِّيت زكاةً لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه واستعماله في الطاعات».

وسمِّيت أيضاً زكاةُ المال بهذا الاسم، لأنها تطهِّر النفس من الشح والبخل والأنانية وحب الذات، فللزكاةِ صلةٌ وثيقةٌ بتزكية النفس وتهذيبها، وأشارت الآيةُ إلى أنَّ التوحيدَ والتصديقَ بيوم القيامة هي أهمُّ وسائل تزكية النفس وتهذيبها، وتقويم اعوجاجها، وإصلاح سلوكها، كما قال الله تعالى لموسى عليه السلام عندما أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات].

وفي الحديث الصحيح: عن **سفيان بن عبد الله الثقفي** رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلام قَوْلاً لا أسألُ عنه أحداً غيرَك. قال: «**قُلْ: آمنتُ باللهِ، ثم استقِمْ**» [رواه مسلم (٣٨)].

وتأكيداً لكون القرآن الكريم بشيراً ونذيراً، جاء بعد إنذار المشركين تبشير المؤمنين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: غيرُ مقطوع ولا منقوص ولا محسوب.

وقيل: نزلت هذه الآية في المرضَى والزمنَى والهرمَى إذا عجزوا عن العمل والطاعة، يكتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه.

ويؤيد هذا المعنى الحديث الشريف: فعن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا مَرِضَ العبدُ أو سافرَ كُتِبَ له مثلُ ما كان يَعْمَلُ مقيماً صحيحاً**» [رواه البخاري (٢٩٩٦)].

* * *

الخلق المتدرج

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

ثم بينت الآيات بأسلوب الإنكار والتعجيب قبحَ جريمة الكافرين بآيات القرآن الكريم وشناعةَ إعراضهم عن التصديق به، مع ظهور الأدلة المعجزةِ القاطعةِ على ذلك، فتحدَّثت عن خلقه تعالى للمكونات خلقاً متدرِّجاً، وإحداثه سبحانه الأرض والسماوات، وأبرزت أهميةَ هذا الحديث بتلقينه النبي عليه الصلاة والسلام، وتكليفه أن يخبرَهم به، وأكدت بهذا أن القرآن الكريم تنزيلُ الرحمن الرحيم على النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، ليس له فيه إلا التلقي والتبليغ:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾.

أي: كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين أو في نوبتين، وتجعلون له أمثالاً ونظراء وأكْفاء، ذلك الذي خلق الأرض في يومين هو ربُّ العالمين أزلاً وأبداً، له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالقية ولا مخلوق، لأنه على كلِّ شيء قدير.

وأُريدَ باليوم هنا الوقت مطلقاً، لأن اليوم المتعارف لا يتصور وجوده قبل خلق الشمس، ثم إنّ ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف، ويحتمل أن يكون أقل من ذلك أو أكثر، فالظاهر أن اليومين ظرفان لخلق

الأرض، وقد سبق بيان هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ. . .﴾ الآية [هود: ٧].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

أي: جعل فيها جبالاً ثابتة مرتفعة عليها، وأكثر خيرها، وقدَّر فيها أرزاقَ أهلها، فعيَّن لكلِّ نوعٍ ما يصلِحُه، ويعيشُ فيه، وبيَّن كميتها وأقدارها لمن سيعيش عليها من أهلها في تتمة أربعة أيام، لأجل السائلين المحتاجين لهذه الأقوات والأرزاق.

فالمراد السؤال بلسان الحال والافتقار كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ودلَّت كلمةُ (قدَّر) على أنَّ كل شيء موزونٌ بميزان الحكمة والعلم، وما من شيء في الكون إلا واللهُ قادرٌ على جعله أضعافاً مضاعفة، إلا أن العناية الربانية اقتضت ألا تبرز من خزائن الجود الرباني إلا ما تحدُّه الحكمة، ويقتضيه العلم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقوله: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ ولم يقل في يومين؛ للإشعار باتصالهما باليومين الأولين.

وفي الآيةِ ردٌّ عمّا يُشاع في العصر الحاضر عن عجز الموارد الأرضية عن سد حاجات الأعداد المتزايدة من البشر، ويتغافلون عن الموارد الكبيرة التي استهلكوها في صنع وسائل التدمير، وهاهم اليوم ينفقون على تدميرها نفقات باهظة، وقد سبق أن تعرضنا لهذا الموضوع عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: ثم عمد وقصد إلى خلق السماء وهي في حالتها الغازية، أو ما يسمونه في العصر الحاضر: السديمية.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: قال للسماء والأرض: انقادا واخضعا لأمري ومشيئتي شئتما ذلك أو أبيتما، قالتا: أتينا منقادين لأمرك ومشيئتك.

وقد يكونُ المرادُ التمثيلَ لكمال مشيئته تعالى، ونفاذها في ذرات الموجودات كلها منذ بدء خلقها.

وفي الآية ردٌّ على ما قاله بعضُ فلاسفة الإغريق القدماء أمينوس وأفلاطون ومن أتى بعدَهما أنَّ المكونات وُجِدَتْ بواسطة الفيض الإلٰهي دون إرادة، إذ فاض عن الإلٰهِ العقلُ، ثم فاضَ عنه الروحُ، أو ما يسمونه بالهيولى، وهي عقيدةُ التثليث التي دخلتْ بعدَ ذلك إلى النصرانية، وحرَّفتها عن التوحيدِ الذي كانت عليه، بقرار مجامعها المسكونية، وأولها وأخطرها مجمع نيقية الذي انعقد في (٣٢٥م).

فالإخبارُ في الآية عن الخلق المتدرج دليلٌ على طلاقة إرادته تعالى وكمالها، فهو سبحانه قادر على خلق المكونات كلها دفعة واحدة كما مرَّ معنا عند قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أي: فخلقهن في يومين، فتم خلقُ الجميع في ستة أيام، كما أخبر في عدد من الآيات؛ منها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . .﴾ الآية [الأعراف: ٥٤].

ومنها أيضاً: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: أوحى إلى سكان كل سماء ما أمرهم به، وكلفهم ما يليق بهم من التكاليف.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي: زينا السماء

الدنيا بالكواكب، وحفظناها بها من استماع الشياطين كما سبق معنا عند قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات].

ذلك الخلقُ والتنظيمُ تقديرُ الغالبِ في ملكه، العليم بأحوال خلقه، فلا يقدر عليه إلا الله الغالب على كل شيء، والعليم بكل شيء.

ودلّتِ الآياتُ على أنَّ خلق الأرض قبل خلق السماوات كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

ثم دحاها بعد ذلك كما في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات] فالدَّحْوُ غيرُ الخلقِ، وهو مدها وبسطها أو إخراج مائها ومرعاها.

* * *

صاعقة عاد وثمود

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

ومن أساليب القرآن في التربية والتهذيب: التعقيب على تقرير الحقائق العلمية بإثارة وجدانية تحذِّر من عواقب الإعراض عن هذه الحقائق، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾

أي: فإن أعرضَ المشركون بعد هذا البيان عن الإيمان، فقل: أنذرتكم هلاكاً مثل هلاك عادٍ وثمودَ، يأتيكم قويّاً شديداً كالصاعقة في قوَّتها وشدتها.

والجدير بالذكر أنه جاء في بعض الأخبار: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآيات على عتبة بن ربيعة من كبار مشركي قريش، فلما بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك عتبةُ على فيه عليه الصلاة والسلام فناشدَه الرحمَ أن يكفَّ.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: إذ جاءتهم الرسل من جميع جوانبهم، واجتهدوا في دعوتهم لعبادة الله وحده.

﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: قالوا للرسل: لو شاء ربُّنا لأنزلَ ملائكةً، فإنا بما أُرسلتم به كافرون لأنكم بشر مثلنا.

ثم فصَّلت الآيات جناية كل أمة وعذابها الذي أهلكت به:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: استعلوا في الأرض بغير استحقاق، فتكبروا، وطغوا، وقالوا اغتراراً بشوكتهم: من أشد منا قوة؟! أي: لا أحد أقوى منا.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أولم يعلموا أنَّ الله الذي خلقهم هو أقوى منهم، فهو القادر على كل شيء، جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: كانوا ينكرون الآيات التي أيد الله بها رسولهم مع علمهم أنها حق.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي: فأرسلنا عليهم ريحاً شديدةً باردةً في أيام نكدات مشؤومات ذات نحس، لنذيقهم عذابَ الذل والهوان في مقابل طغيانهم واستكبارهم؛ قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: ولعذاب الآخرة أشد إهانة وإذلالاً، وهم لا يُمنعون منه ولا يُدفع عنهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: وأما ثمود فبيَّنا لهم سبيل الهدى، فآثروا الكفر والضلالة على الهدى والرشاد.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي: فنزلت بهم وأهلكتهم صاعقةُ العذابِ ذي الهوانِ والإذلالِ بسبب سوء كسبهم واختيارهم.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ونجينا المؤمنين الطائعين مع نبيهم صالح من هذه الصاعقة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

* * *

الجوارح الناطقة

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم عرضت الآياتُ صورةً عجيبةً مرعبة من صور عذابهم يوم القيامة، تترك في نفس المتدبر لها آثاراً قوية مربِّية ومزكِّية:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: ويوم القيامةِ يساقُ أعداءُ الله إلى النار، فهم يُدفعون بقوة وشدة.

أو: يحبس أولهم حتى يلحقَ بهم آخرُهم كالقطيع الكبير، وهذا يدلُّ على كثرتهم.

وفي قراءة: **(نحشرُ أعداءَ الله)** ووصفهم بأنهم أعداء الله ذمّاً لهم يبين سبب عذابهم وهوانهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: بما كانوا يعملون في الدنيا من فنون الكفر والمعاصي.

وتخصيص السمع والأبصار بالشهادةِ، لأنَّها وسائلُ الإدراك الأساسية، وينضمُّ إليها الأيدي والأرجل، أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ويتكلمون مع أجزائهم وأبعاضهم مستنكرين شهادتها عليهم:

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ويبدو أن تخصيص الجلود بالكلام لكونها موضعَ الإحساس والألم، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: ما نطقنا باختيارنا، بل أنطقنا الله الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ، فلا يمتنع شيءٌ على قدرته ونفاذ مشيئته.

ولا حاجةَ إلى تقييد الإطلاق بكل شيء حي، كما فعله بعض المفسِّرين كالبيضاوي والنسفي، فكلُّ المخلوقاتِ تنطِقُ بتسبيح الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومر معنا أن الجبال والطير كانت تسبِّح مع داود عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: ومن قَدِر على خلقكم أول مرة، وأعادكم إلى حسابه وجزائه في هذا اليوم، لا يعجز عن إنطاق جوارحكم لتشهد عليكم.

وفي الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: كنا عند رسولِ اللهِ ﷺ فضحكَ فقال: «**هل تدرونَ ممَّ أضحكُ؟**» قلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلم، قال: «**مِنْ مخاطبةِ العبدِ ربَّه، يقول: يا ربِّ أَلَمْ تُجِرْني مِنَ الظُّلْمِ؟ يقول: بلى، فيقولُ: فإنِّي لا أجيزُ على نفسِي إلا شاهداً منِّي، فيقولُ: كفى بنفسِكَ اليومَ عليكَ شهيداً، وبالكرامِ الكاتبينَ شهوداً، فيختم على فيه، فيقالُ لأركانِهِ: انطقي، فتنطِقُ بأعمالِهِ، ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحْقاً فعنكنَّ كنتُ أناضِلُ**» [رواه مسلم (٢٩٦٩)].

ثم يقال لهم بعد شهادة جوارحهم عليهم تبكيتاً وتقريعاً:

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: ما ظننتم أنَّ أعضاءكم تشهدُ عليكم، فما استترتم عنها بسبب غفلتكم وجهلكم وجحودكم ليوم الحساب والجزاء.

وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: اجتمعَ عندَ البيتِ قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرةٌ شحمُ بطونهم، قليلةٌ فقه قلوبهم، فقال أحدُهم: أترونَ أنَّ الله يسمعُ ما نقولُ؟ قال الآخر: يسمعُ إنْ جهرنا، ولا يسمعُ إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمعُ إذا جهرنا؛ فإنّه يسمعُ إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآيـــة. [رواه البخاري (٤٨١٧)].

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم الخفية، ولهذا اجترأتم على الكفر والفجور، فالشعورُ بمراقبة الله تعالى يربِّي الإنسان، ويزكي قلبه، ويهذِّب نفسه، ويحجزه عن المعاصي والآثام، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومرَّ معنا في الحديث الصحيح: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...**» إلى أن قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقالَ: إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ**».

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: وظنكم أن الله لا يعلمُ كثيراً مما تعملون أهلككم، فقد جرَّأكم على الكفر والمعاصي فأصبحتم بسببه من الخاسرين.

ولا شكَّ أن ظنهم هذا يكفي وحده لكفرهم وخسرانهم، وتنسحب الآية على أصحاب المعاصي من المؤمنين، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يُدمنون المعاصي، ولا يتوبون منها، ويتكلّمون على المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس(١).

وأما الحديث الشريف في «**صحيح مسلم**» [٢٨٧٧]: عن **جابر** رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبل وفاته بثلاث قال: «**لا يموتنَّ أحدُكُم إلا وهو يُحْسِنُ باللهِ الظنَّ**» فمحمولٌ على التحذير من القنوط، وعلى الرجاء عند الخاتمة.

﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فإن يصبروا فالنارُ مسكن دائم لهم، وإن يسترضوا ويسألوا أن يُرضوا ربهم، ويبدوا أعذاراً فما هم فاعلون.

والمعتب: المقبول عتابه. **والمستعتب**: الجزع الخائف.

* * *

قُرَناء السوء

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم بينت الآيات تأثير قرناء السوء وخطرهم على تربية النفس وتزكيتها وحجبها عن أسباب الهداية:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٣٥٣.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: هيَّأنا لهم وأتحنا لهم أخداناً وأصحاباً فحسَّنوا لهم أعمالهم القبيحة الماضية والحاضرة، فأصروا عليها كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

وكما يكون القرناءُ من الإنس يكونون من الجن أيضاً، دل على ذلك الحديث الشريف: فعن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْكُمْ من أحدٍ إلا وُكِّلَ به قرينُه من الجِنِّ**» قالوا: وإيَّاكَ يا رسولَ اللهِ ﷺ؟ قال: «**وإيَّايَ إلا أنَّ الله أعانني عليه فأسلمُ، فلا يأمرني إلا بخير**» [رواه مسلم (٢١٦٧)].

وفي رواية ثانية: «**وقرينه من الملائكة**» [رواه مسلم (٢١٦٨)].

وجاء أيضاً في الحديث الشريف: عن **ابن مسعود** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ للشيطانِ لمَّةً بابن آدمَ، وللمَلَكِ لمةً، فأما لمَّةُ الشيطانِ فإيعادٌ بالشرِّ، وتكذيبٌ بالحقِّ، وأمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فإيعادٌ بالخيرِ، وتصديقٌ بالحقِّ، فمَنْ وجدَ ذلكَ فليعلمْ أنَّه مِنَ اللهِ تعالى فَلْيَحْمَدِ اللهَ، ومَنْ وجدَ الأُخرى فليتعوَّذْ باللهِ من الشيطانِ**» [رواه الترمذي (٢٩٨٨) والنسائي في الكبرى (١٠٩٨٥) وابن حبان (٩٩٣)].

واللمّةُ: من الإلمامِ، وهو القربُ، والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: حق عليهم القولُ بدخولِ النارِ بسبب إصرارهم على الكفر، وسوء اختيارهم، مع أمم كثيرة قبلهم من الجن والإنس، صاروا مثلهم في الخسران.

ثم بيَّنتِ الآياتُ كيف كانوا يتواصَون بالإعراض عن أسباب الهداية، ولا شك أنَّ هذا من لَمَّة قرناء السوء:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وقال الذين كفروا: لا تسمعوا للقرآنِ وعارضوه برفع الأصوات والتصفيق والصفير، حتَّى تغلبوا على قراءته.

وهذا يدل على أنهم يستشعرون في قرارة أنفسهم بأنَّ للقرآنِ سلطاناً وتأثيراً قوياً على قلوبهم، ولهذا كانوا يتواصَوْنَ بالإعراض عنه، والتشويش على قارئه، ويوصون أيضاً القادمين إلى مكة بذلك، قال ابن إسحاق في «السيرة»(١):

وجعلت قريشٌ يحذِّرون الناسَ ومَنْ قَدِمَ عليهم من العرب، وكان الطفيل بن عمرو الدَّوْسي يحدِّثُ أنه قدم مكة، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له: لا تكلِّمَنَّ محمداً، ولا تسمعَنَّ منه شيئاً، قال: فواللهِ ما زالوا بي حتى أجمعتُ ألا أسمعَ منه شيئاً ولا أكلِّمَه، حتى حشوتُ في أذني الكُرسف (القطن). ولكنَّ الله تبارك وتعالى قدَّر له أن يسمعَ النبيَّ ﷺ؛ وكان ذلك سبب إسلامه رضي الله عنه.

* * *

تهديد أعداء الله بعذاب النار

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم توعَّدت الآيات المعرضين عن القرآن بأشد أنواع العذاب:

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٢.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: ولنعاقبنهم أعظمَ عقوبةٍ على أسوأ أعمالهم، وهو الإعراض عن دعوة القرآن الكريم، وصدِّ الناس عنها.

ويدل هذا الوعيد الشديدُ المُرْعِبُ المؤكَّدُ على أنَّ الإعراض عن دعوة القرآن جريمةٌ كبيرةٌ من أعظم الجرائم، فهو تنزيل الرحمن الرحيم، وهؤلاء المجرمون يَسْعَوْنَ في إطفاء نوره وحرمان الناس من أعظم آثار رحمته تعالى على عباده، ولهذا وصفتهم الآيات مرة ثانية بأنهم أعداء الله، وبينت جزاءهم ومكانه ووقته:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

فالجزاء النار، والمكان جهنم، والوقت الخلود فيها أبداً، فهي بعينها دارُ إقامتهم، يُجْزَوْنَ فيها جزاءً مناسباً لجريمتهم الكبرى، وهو جحودُ آيات القرآن الكريم والصد عنها.

ويتذكَّرون وهم يتقلبون في عذاب النار قرناءهم وأصحابهم من الجن والإنس، الذين زينوا لهم الضلال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

أي: أرنا فريقي رؤوس الضلال من الجن والإنس، اللذينِ زيَّنوا لنا الضلال حتى نشتفيَ منهم، فنجعلَهم تحت أقدامنا، وندوسَهم بها انتقاماً. وهذا يدل على شدة حسرتهم وحقدهم.

* * *

تبشير أولياء الله بالجنة

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وحملت الآيات في مقابل الوعيد الشديد لأعداء الله البشائرَ لأحبابه وأوليائه، وأظهرت في ثنايا هذه البشائر الأساس الأول في تزكية النفس وتربيتها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: إن الذين قالوا: خالقُنا ومربِّينا الله، قالوا ذلك اعترافاً بربوبيته سبحانه، وإقراراً بوحدانيته، ثم ثبتوا عليه متمسِّكين به حتَّى الموت، فعملوا على مقتضى إقرارهم، والتزموا بأحكام دينه وشريعته.

فمن اعترفَ أنَّه ﷻ مالكه، ومدبِّر أمره ومربيه، وأنَّه عبدٌ مربوب بين يدي مولاه، فالثباتُ على مقتضاه أن لا تزلَّ قدمُه عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا يتخطاه[١].

و(ثم) هنا للتراخي الرتبي، فإنَّ الاستقامة على دين الله تعالى أصعبُ من الإقرار؛ لأنها تستدعي مجاهدة دائمة للنفس، ومراقبة مستمرة لها، وهذا هو الجهاد الأكبر. وقد تكونُ للتراخي الزمني أيضاً لبيان الاستمرار على مقتضاها في جميع الأوقات.

ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ أساس تزكية النفس وتربيتها، يبدأ بإذعانها وإقرارها

(١) روح المعاني: ٢٤/ ١٢٠.

بعبوديتها لله ﷻ، وعليها أن تستمرَّ على هذه الحقيقة، وتتمسك بها في جميع أحوالها وتقلُّباتها، في عُسرها ويُسرها، ومكرهها ومنشطها، قال أهل التحقيق: كمالُ الإنسان أن يعرفَ الحق لذاته لأجل العمل به، ورأس المعرفة اليقينية معرفة الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط، غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط[1].

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: تدنو منهم الملائكةُ، وتبثُّ في نفوسهم ما يشرح صدورهم ويثبتهم، ويدفع عنهم الخوفَ والحزنَ.

فكما قيض الله قرناء السوء من شياطين الإنس والجن للكفار والفجَّار، يزينون لهم أعمالهم القبيحة، جعلَ الملائكةَ تدنو من أوليائه، تثبتهم في الأوقات الحرجة، إنها مساعَدَةٌ إلٰهية خاصة بالصالحين، تثبِّتُ أقدامهم على الحق، وتقوي تمسُّكهم به، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وهذه المعونة لا تؤثر على اختيارهم الحر ولكنها تسنده وتقوِّيه.

وتتنزل عليهم الملائكةُ قائلين: لا تخافوا ممَّا تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم في الدنيا، وأبشروا بالجنَّةِ التي وعدتم بها. فيبشرونهم بذهاب الشرِّ، وحصول الخير.

واختلفَ المفسِّرون في وقت هذا التنزُّل على أقوال: عند الموت، أو في القبر، أو عند البعث، وقد يتكرر التنزل في جميع هذه المواطن، وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وقد استحسنه ابن كثير في تفسيره للآية.

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ٣٨٣.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: نحن أنصاركم وأحباؤكم، نلهمكم الحقَّ، ونحملكم على الخير في الدنيا، كما مرَّ معنا، ولا نفارقكم في الآخرة أيضاً حتى تصلوا إلى الجنة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: ولكم في الجنة كلُّ ما تشتهي أنفسكم من النعيم، ولكم فيها أيضاً كل ما تتمنونه وتسألونه، وهو أعم من الأول.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: ثبت لكم ذلك وتقرَّرَ تكريماً من رب غفور رحيم، أدخلكم دارَ كرامته ورحمته. **والنُّزُلُ**: الضيافةُ التي تقدم للضيف حين نزوله.

* * *

الدعوة والداعي

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

والاستقامة عين الكرامة، فهي أفضلُ كرامةٍ يُكْرِمُ بها الله تعالى أولياءه.

وظهرت استقامتهم في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم من خلال الآيات الآتية:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: لا أحد أحسن ممن دعا إلى دين الله وطاعته قولاً وعملاً.

﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، والراضين بقضائه وقدره.

قال ذلك تحدُّثاً بنعمة الله عليه، وإعلاناً لاستسلامه لله وحده، فنفعُه لنفسِه ولغيره، وكلمةُ الدعوةِ إذا اقترنتْ بالعملِ الصالحِ والاستسلامِ الكاملِ للهِ هي أصدقُ كلمةٍ وأفضلُها.

ولا شكَّ أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام هو أولُ وأفضلُ من اتصف بهذه الصفات، ولهذا قال كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية كابن سيرين والسُّدِّي والحسن: هو رسول الله ﷺ. وكان الحسنُ إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسولُ اللهِ، هذا حبيبُ الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوةُ اللهِ، هذا خيرةُ اللهِ، هذا واللهِ أحبُّ أهلِ الأرضِ إلى الله، أجابَ الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه(١).

ويؤيده قول **السيدة عائشة** رضي الله عنها عندما سُئلتْ عن خُلُقِ رسول الله ﷺ: **إنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كانَ القرآنَ.** [رواه مسلم (٧٤٦)].

ففي الآية بهذا المعنى تعريضٌ وتوبيخٌ للذين كانوا يتواصَون بالإعراض عن استماع القرآن الكريم، والتشويش على النبي عليه الصلاة والسلام، عندما كان يدعوهم إلى الله، ويتلو عليهم آياته، كما سبق عند قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وبهذا يظهر الانسجام والاحتباك بين آيات السورة، ولا مانع أن نقول: إنَّها تنسَحِبُ أيضاً على كلِّ مؤمنٍ متصف بهذه الصفات.

* * *

ادفع بالتي هي أحسن

﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم رغَّبت الآياتُ الرسولَ الكريمَ عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذى المشركين ولغوهم عند تلاوة القرآن الكريم، وبمقابلة إساءتهم بالإحسان:

﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: إنَّ الحسنةَ والسيئةَ متفاضلتان في نفسيهما، ومع ذلك قابِلِ السيئةَ بالحسنةِ، وأَحْسِنْ إلى مَنْ أساءَ إليك، وادفعْ بحلمِكَ جهلَ مَنْ يجهلُ عليكَ.

وهو خُلق رفيع أدَّب الله به النبي ﷺ في عدد من الآيات، منها قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وهكذا كانت أخلاقُه ﷺ في القرآنِ، وهي أخلاقُه التي نُعِتَ بها في التوراة، ففي الحديث الشريف: عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ **عبد الله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنهما قلتُ: أخبرني عن صفةِ رسولِ اللهِ ﷺ في التوراةِ، قال: أجلْ واللهِ، إنَّه لموصوفٌ في التوراةِ ببعضِ صفتِهِ بالقرآنِ: **يا أيها النبيُّ إنَّا أرسلناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونذيراً، وحِرْزاً للأُمِّيين، أنتَ عبدي ورسولي، سميتُكَ المتوكلَ، ليسَ بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفعُ بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويغفرُ، ولن يقبضَه اللهُ حتى يقيمَ به الملَّةَ العوجاءَ بأن**

يقولوا: لا إلٰه إلا الله، وَيفتحَ به أَعْيُناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غلفاً. [رواه البخاري (٤٨٣٨)].

وروى ابن إسحاق بإسنادٍ حسن: عن **صفية بنت شيبة**: أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة قال لجموع المشركين من قريش عند الكعبة: «**يا معشرَ قريشٍ ما ترونَ أنِّي فاعِلٌ فيكم؟**» قالوا: خيراً، أَخٌ كريمٌ، وابنُ أَخٍ كريمٍ، قال: «**اذهبوا فأنتمُ الطلقَاءُ**»[1].

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسولِ اللهِ ﷺ وعليه رداءٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشيةِ، فأدركه أعرابيٌّ، فجبذَه بردائه جبذةً شديدةً، نظرتُ إلى صفحةِ عُنُقِ رسولِ اللهِ ﷺ وقد أَثَّرت بها حاشيةُ الرداءِ من شدَّة جبذته، ثم قال: يا محمَّدُ مُرْ لي مِنْ مالِ اللهِ الذي عِنْدَكَ، فالتفتَ إليه رسولُ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثم أمرَ له بعطاءٍ. [رواه مسلم (١٠٥٧)].

وجاءه زيدُ بنُ سعنة قبلَ إسلامه يتقاضاه ديناً عليه، فجبذَ ثوبَه عن منكبه، وأخذَ بمجامِعِ ثيابِه، وأغلظَ له، ثم قال: إنَّكُم يا بني عبد المطلب مُطْلٌ، فانتهره عُمَرُ، وشدَّدَ له في القولِ، والنبيُّ ﷺ يتبسمُ، فقال رسول الله ﷺ: «**أنا وهو كُنَّا إلى غيرِ هذا مِنْكَ أحوجَ يا عمر، تأمرُني بِحُسْنِ القضاءِ، وتأمُرُهُ بِحُسْنِ التقاضي**» ثم قال: «**لقد بقيَ من أجَلِهِ ثلاثٌ**» وأمرَ عمرَ أن يقضيه مالَهُ، ويزيدَه عشرينَ صاعاً لما روَّعه، فكان سببَ إسلامِهِ. [أخرجه ابن حبان (٢١٠٥) والطبراني].

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: إذا فعلت ذلك صار عدوك صديقاً قريباً، وقد صار الطلقاء من أهل مكة أصحاباً للنبي عليه الصلاة والسلام بعد أن كانوا أعداء.

ويقتضي هذا الخلقُ معاناةً شديدةً من صاحبه، فعليه أن يجاهِدَ نفسه، ويقمعَ شهوة الانتقام المركوزة فيها، كما جاء في الحديث الصحيح: «**ليسَ**

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٤١٢.

الشديدُ بالصُّرعَةِ، إنَّما الشديدُ مَنْ يملِكُ نفسَهُ عندَ الغَضَبِ» [رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩)] ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ فكظموا غيظهم، واحتملوا الأذى، وانتصروا على أنفسهم.

والذين ارتفعوا إلى هذا المقام العالي قليل، أشار إليهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من الخير.

وقال بعضهم: **الحظ العظيم**: الجنة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران].

وقال النبي ﷺ: **«مَنْ كظمَ غَيْظاً وهو قادِرٌ على أَنْ ينفذَهُ؛ دعاه اللهُ سبحانَهُ على رؤوسِ الخلائقِ حتّى يخيِّرَهُ مِنَ الحورِ العينِ ما شاءَ»** [رواه أبو داود (٤٧٧٧) والترمذي (٢٠٢١) وحسنه].

ومن المعلوم أنَّ الشيطانَ يستغلُّ حالَ الغضبِ ليزيِّنَ لصاحبه ارتكابَ أعمالٍ يندمُ عليها بعدَ ذلك، ولهذا بيَّنتِ الآياتُ أفضلَ وسيلةٍ نقاوِمُ فيها نزغات الشيطان ووساوسه:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: وإنْ حاول الشيطان أن يصرِفكَ عن الدفعِ بالتي هي أحسن فاستعذْ باللهِ من شرِّه، إنَّ الله هو السميعُ لدعائِكَ، العليمُ بأحوالك.

والنزغُ: شِبْهُ النخسِ، شُبِّه به، لأن الشيطان بوسوسته كأنه ينخسه، ويدفعه إلى ما لا ينبغي عمله.

* * *

سجود وتسبيح

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟
لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا
عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا
شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ
ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن
قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم بينتِ الآياتُ للدعاة أفضلَ أسلوبٍ في عرض قضايا الإيمان ودعوة الناس إليها، وأول هذه القضايا وأهمُّها توحيدُ اللهِ تعالى وعبادته وطاعته:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: ومن علاماته الواضحة القاطعة الدالة على كمال قدرته، وأنه سبحانه وحده المستحق للعبادة والطاعة: الليل والنهار، والشمس والقمر، فإنَّ لهذه المخلوقات نظاماً دقيقاً بديعاً مُحكماً يدل على أنها مخلوقة مسخرة لأمر خالقها ومشيئته، فهو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإنَّ السجودَ أقصى مراتب الخضوع، فلا بدَّ من تخصيصه لمن يستحقه، وهو الخالق جل وعلا الغني عن سجودهم وخضوعهم.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾

فإن امتنعوا عن السجود له والخضوع لأمره، فليعلموا أنَّ عنده مخلوقاتٍ أعظمَ منهم منقادةً لأمره، ينزِّهونه ويقدسونه دائماً لا يملون، ولا يتوقفون عن طاعته وعبادته.

وهذه الآيةُ آيةُ سجدةٍ بلا خلافٍ، واختلفوا في موضع السجود منها، فقال مالك: موضعه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأنه متصل بالأمر، وكان علي وابن مسعود وغيرهما يسجدون عنده.

وقال ابن وهب والشافعي: موضعه ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال، وبه قال أبو حنيفة، وكان ابن عباس يسجد عنده[1].

وتأتي بعد قضية التوحيد وعبادته سبحانه وطاعته قضية الإيمان بيوم الحساب والجزاء والبعث من القبور، وأقرب مثال واقعي يدل عليه:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: يابسةً هامدةً لا حياةَ فيها.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: تحرَّكت بالنباتِ، ونمت وسرت الحياة فيها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إنَّ الذي أحيا الأرض اليابسة قادرٌ على إحياء الموتى، وبعثهم منها، فهو قادر على فعل ما يريد، ومحيط بكل الكائنات، لا يعزب عن علمه شيء منها.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٣٦٤.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ﴾ أي: إنَّ الذين يميلون عن الصراط المستقيم الذي بيَّناه في آياتنا بالإعراض عنها، والتشويش على قارئها، لا يخفون علينا، فسنجازيهم على ذلك.

والإلحادُ: الميل والعدول، ومنه اللحدُ في القبر، ويقال: ألحدَ في دين الله، أي: حادَ عنه وعدل.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ وهو سؤال تقرير يبين الاختلاف بين مصير المؤمنين ومصير الملحدين، فالملحدون في الآيات يُلْقَون في النار، والمؤمنون بها آمنون يوم القيامة، وبناءً على ذلك:

﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهو أمر تهديد ووعيد يردُّ قولهم الذي حكاه عنهم في أول السورة: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

فالإعراض عن القرآن الكريم والإلحاد فيه أمر قبيح في غاية القبح والشناعة يستوجب أشد أنواع الوعيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ﴾ أي: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم قبل أن يتأملوا فيه، ويتدبَّروا آياته، بل بادروا إلى تكذيبه دون تأمل وتفكير.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: وإنَّ القرآن لا نظيرَ له، ولا تتأتى معارضته، ولا يتطرق إليه الباطل من أي جهة من الجهات أو بوجه من الوجوه، لأنه تنزيلٌ من حكيمٍ في أقواله وأفعاله، محمودٍ في تشريعه وتنزيله.

وكان رسول الله ﷺ يتألَّمُ من إعراضهم عن القرآن الكريم، ولهذا التفتت الآيات إليه تواسيه وتثبته:

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ أي: ما يقال لك إلا مثل ما قد قيل للرسل من قبلك، إذ كذَّبتهم أقوامُهم مثل ما كذَّبك قومك، فلا تبتئس بما تلقى منهم، وامضِ في دعوتهم.

إنه وحي واحد، ورسالة واحدة، وعقيدة واحدة، وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية، وتكذيب واحد، واعتراضات واحدة، فأيُّ شعورٍ بالأنس والقوة والصبر والتصميم توحيه هذه الحقيقةُ لأصحاب الدعوة السالكين في طريقها(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لذو مغفرة للتائبين وذو عقاب أليم للمصرِّين المعاندين.

* * *

الهدى والشفاء في القرآن

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

ومن رحمته تعالى بهم أنه جعل القرآنَ عربيّاً معجزاً حتى لا يعترضوا عليه، ومع ذلك أعرضوا عنه وألحدوا في آياته:

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/٢٧.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أي: ولو أنزلناه بلغة العجم لقالوا معترضين: لولا بُيِّنَتْ آياته، أكلام أعجمي ومرسل إليه عربي؟! وهو استفهام إنكار.

والأعجم: الذي لا يفصِحُ؛ من العرب كان أو من العجم. **والعجمي**: غير العربي، فصيحاً كان أو غير فصيح. وقرئ بهمزةٍ واحدةٍ ممدودة للاستفهام (**ءاعجمي**) وبهمزتين للإنكار (**أأعجمي**).

وسبق معنا في صدر السورة أن آيات القرآن الكريم مفصلة تفصيلاً شافياً وافياً بلسان عربي مبين، فالإعجازُ فيه ظاهر ثابت، وعجزهم عن معارضته دليل واضح على أنه من عند الله العزيز الحكيم، ولهذا أُمر عليه الصلاة والسلام أن يردَّ على تكذيبهم وإعراضهم:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي: القرآن للمؤمنين هدًى إلى الحق، يرشدهم إليه، ويدلُّهم عليه، وهو أيضاً شفاء لما في الصدور من الشك والشبهات، فهو يدفعُ عن القلوب كلَّ شك وشبهة، كما أن الله تعالى جعل فيه شفاءً من الأوجاع والأسقام المعنوية والحسية، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فحال القرآن مع المؤمنين هدى شفاء. وأما مع المكذبين الملحدين:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: في آذانهم صمم، فلا يسمعونه سماعَ إجابة وهداية، ويتواصَوْن في التشويش على قارئه، ولا يهتدون بهديه، ولا يرون بصائره، وجيء بـ (**على**) للدلالة على استيلاء العمى عليهم.

﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو تمثيلٌ لعدم فهمهم وانتفاعهم بآياته بمن يُنادى من مكان بعيد، فهو يسمعُ الصوتَ، ولا يفهم المراد منه، وهو سبب إعراضهم كما ذكر سبحانه في أول السورة: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾.

* * *

المسؤولية والجزاء

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى على وجه التسلية لرسول الله ﷺ أنَّ الاختلافَ في شأن الكتب الإلٰهية، وإعراضِ المعاندينَ عنها أمرٌ قديمٌ عند جميع الأمم، فقد اختلفَ بنو إسرائيل في الكتاب الذي أنزل على موسى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولولا كلمةٌ سبقت من ربِّكَ بتأخيرِ عذاب المكذبين، لأهلكهم كما فعل بالأمم السابقة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وإنَّهم يستحقُّون ذلك، لأنهم في شك من القرآن موجب للريبة، مع كثرة الدلائل القاطعة على صدقه.

فإعراضهم عن القرآن الكريم عرَّضهم للعذاب والهلاك، فهم الظالمون أنفسهم، والله سبحانه منزَّه عن الظلم:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: من عمل صالحاً فنفعُه لنفسِه لا لغيره.

﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ومن أساءَ فضررُه على نفسه لا على غيره.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا يعذِّبُ غيرَ المسيء، وهو أيضاً حكيمٌ مالك، يتصرَّفُ في ملكه كما يريدُ، فالظلمُ لا يصدرُ عنه ﷻ، ولا يليقُ بكماله، فهو غنيٌّ عن طاعة عباده، من أطاعه أثابه بفضله، ومن عصاه عاقبه بعدله، وكلُّ شيءٍ يردُّ إلى علمه، ويجري بمشيئته وقدرته:

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: علم وقتها فلا يعلمه إلا هو سبحانه.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: وكما يُردُّ إليه علم الساعة يُردُّ إليه علم الثمار والنتاج.

وأكمامها: أوعيتها، جمع كِمٍّ بالكسر، وهو وعاء الثمرة.

فلا يحدث شيء إلا مقرون بعلمه سبحانه، واقع حسب مشيئته وإرادته.

والساعةُ غيبٌ في ضمير المستقبل المجهول، والثمراتُ في أكمامِهَا سِرٌّ غير منظور، والحمل في الأرحام غيبٌ أيضاً مستور، وكلها في علم الله، وفي قبضة قدرته ومشيئته، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

ويُقرُّ المعاندون المعرضون بهذه الحقيقة يوم القيامة عندما يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: قالوا: أسمعناك وأعلمناك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكاً.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وغاب عنهم ما كانوا يعبدون في الدنيا من الآلهة المزعومة، وأيقنوا وعلموا أنه لا مهرب لهم من المسؤولية والجزاء.

* * *

معالم من الشخصية البشرية

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

ثم غاصت الآياتُ في أعماق النفس البشرية تبيِّنُ بعضَ خصائصها وصفاتها، وتبرز الصفات المؤثرة في مواقفها وسلوكها، وتظهر من خلال هذه الصفات بعض معالم الشخصية البشرية ومواطن الضعف فيها، وحاجتها الشديدة إلى التزكية والتربية، فلا يستقيمُ سلوكُ النفس البشرية من دون تزكية وتربية وإرشاد، فهي بحاجةٍ إلى مرشد يرشدها، ومؤدب يؤدبها، ومربٍّ يأخذ على يديها، وينمِّي فيها نوازع الخير، ويبعدها عن مزالق الشر.

وهذه هي المهمة الأساسية للمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فهم المرشدون المربون الذين لا تستغني البشريةُ عن إرشادهم وتهذيبهم وتأديبهم، ومن دونهم تضيع وتضل وتنزلق في مهاوي الشقاء والضياع:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾

أي: لا يملُّ الإنسانُ من طلب المال والصحة ورغد العيش، وإن أصابه العسر والضيق أو الشدة والبلاء، فهو يؤوسٌ قنوطٌ من فضل الله تعالى ورحمته.

فاليؤوسُ: اليائس الذي انقطع رجاؤه من الخير، وهي من صفات القلب.

والقنوط: الذي يظهر عليه أثر اليأس في جسده فيتضاءل وينكسر.

ثم وصفتِ الآياتُ كيفَ يصبِحُ هذا الإنسان عندما تتغير أحواله، ويأتيه اليسر بعد العسر:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أي: ولئن آتيناه خيراً وعافية من بعد ما أصابه من شدة وبلاء، قال: هذا لي، حصلتُ عليه بعلمي وعملي، فلا فضل لأحد علي.

مع أن في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إشارة إلى أن ما آتاه الله من خير هو نعمة تفضل الله بها عليه، دون أن تكون له سابقة استحقاق لهذا الخير، وليس له أيضاً أي تسبب في استجلابه، فهو محضُ فضلٍ تفضَّل به سبحانه عليه، ومع ذلك صدر عنه كل هذا الغرور والاستكبار، وأضاف إليه أيضاً إنكار يوم الحساب والجزاء:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: وعلى تقديرِ قيامها إنَّ لي عندَه للحالة الحسنى من الكرامة.

والتأكيدُ بالقسم هنا ليسَ لقيام الساعة، بل لكونه يرى أنه مجزيٌّ بالحسنى فيها إن قامت، فكما هو مستحق لنعم الدنيا مستحق كذلك لنعم الآخرة.

وردَّ تعالى على مثل هذا المغرور المختال، بأنه سَيبيِّن له حقيقة عمله الذي يجعله مستحقّاً للإهانة لا للكرامة وللعذاب الشديد يوم القيامة، فقال:

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: من عذاب شديد وهو عذاب جهنم.

هكذا حال الإنسان إذا كان بمعزل عن إرشاد المرشدين وتزكية المرسلين، استكبار وطغيان في حال الرخاء والنعمة:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: أعرض عن طاعة المنعم وشكره، وتعظَّم في نفسه، وتكبَّر وترفَّع عن الانقياد للحق، فطغى على عباد الله تعالى، وتجبَّر وظلم.

وأما حاله في العسر والبلاء فيأسٌ وعجز وهلع:

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: وإذا مسّه الشرُّ يكثِرُ الشكوى، ويظهِرُ البلوى، ويبالِغُ في المسكنةِ والمسألةِ، فهو حريص على الجمع، شديد الجزع عند الفقد.

* * *

شقاء المعرضين عن القرآن

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٤﴾.

وعادت الآياتُ في آخر السورة إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام، تأمره أن يسألَ المعرضين عن القرآن سؤالَ تقرير وإلزام، يبين لهم من خلال هذا السؤال شدة حاجتهم إلى القرآن، وضخامة جنايتهم على أنفسهم بإعراضهم عنه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: لا أضلَّ ولا أشقى منكم بسبب كفركم برسالة القرآن.

وقريباً سترون آثاره في الآفاق وفي أنفسكم حتى يظهر لكم أنه الحق:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: سيريهم الله تعالى آياته.

والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتأكيد ثبوت الإراءة.

والآياتُ: هي العلاماتُ والدلائلُ التي تدل على أنَّ القرآن هو الحق، أنزله الحقُّ بالحقِّ، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

قد سبق ذكر مثل هذه الآية أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

كما سبقت الإشارة إليها بقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [صٓ: ٨٨].

والمرادُ من **الآفاق**: أقطار السماء والأرض وما فيها من شمس وقمر وكواكب وجبال ورياح، كالذي سبق ذكره في الآيات:

ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾ [فصلت: ٣٧].

ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ﴾ [فصلت: ٣٩].

والمراد من قوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما فيها من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

فعجائب صنعته وبدائع حكمته لا حدود لها، وكلما تفكَّر بها الإنسان ازداد

معرفة بالله وتعظيماً له، كما سبق عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

إنه وعد الله لعباده أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء، وعدهم أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّنَ لهم أنه الحق؛ هذا الدين، وهذا الكتاب، وهذا المنهج، ومن أصدق من الله حديثاً؟! ولقد صَدَقَهم اللهُ وعدَه، فكشف لهم عن آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وما يزال يكشفُ لهم في كلِّ يومٍ عن جديد، وما يزال الإنسان في الطريق، ووعد الله ما يزال قائماً.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: حتى يتبيَّنَ لهم أنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ منزل القرآن هو الحق من كل وجه، ذاتاً وصفةً، وقولاً وفعلاً، فهو الأول والآخِرُ، والظاهر والباطن، كان ولا شيءَ معه، وهو سبحانه الآن على ما عليه كان.

وإذا تبيَّنَ لهم حقيقته عزَّ شأنه من كل وجه، يلزمُ ثبوتُ القرآن وحقيقته، وكونه تنزيل الرحمن الرحيم على رسوله النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: أولم يكفهم أنَّ ربك على كل شيء شهيد.

وفي قوله تعالى: ﴿بِرَبِّكَ﴾ مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، إشعار بأنه هو والمؤمنون هم الذين يكفيهم شهود الله على كل شيء دليلاً.

وأما الكافرون فهم في مرية من لقاء ربهم، فلهذا لا يكفيهم أنه تعالى على كل شيء شهيد:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك عظيم من لقاء ربهم يوم القيامة.

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ فمن أحاطَ بكلِّ شيء علماً وقدرة، لم يتخلف شيء عن شهوده، فهو على كل شيء شهيد.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الشورى

الوَحْيُ والشَّرِيعَةُ في سُورَةِ الشُّورَى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حقيقة الوحي ومصدره

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ٤﴾.

بُدئت سورة الشورى ثالثة الحواميم بقوله تعالى:

﴿حمٓ ١﴾.

وهما حرفان من الحروف النورانية المقطعة. وخُصَّت هذه السورةُ بزيادةٍ في هذه الحروف:

﴿عٓسٓقٓ ٢﴾.

وتدل زيادةُ المبنى على زيادة في المعنى، والله سبحانه أعلم بالمعنى المراد منها، ويلاحَظُ أنّ هذه الحروف الخمسة رُسِمَتْ منفصلة بآيتين، ولم ترسم

متصلةً كسورة مريم التي ابتدئت بخمسة حروف أيضاً: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾، ولعلَّ السبب أن تكون فاتحةُ السورةِ مثلَ غيرها من الحواميم.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾.

أي: الله العزيز الحكيم يوحي إليك كما أوحى إلى الذين من قبلك، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣].

فمصدر الوحي واحد، والموحي هو الله ﷻ.

والأصلُ في معنى **الوحي**: الإعلامُ الخفيُّ السريع، وهو يتم بين طرفين:

أولُهما: الطرفُ العلوي الموحي أو الملقي.

وثانيهما: الطرف الموحَى إليه أو المتلقي، وهذا الطرف لا يملِكُ إلا التلقي.

فالوحي لا يتم ولا يقع إلا بمحض فضله تعالى ومشيئته، فهو العزيزُ في ملكه وسلطانه، الحكيمُ في أمره وقضائه، ولا يكونُ الوحيُ بالاكتسابِ والاستجلابِ من طرفِ المتلقي، فالنبوةُ لا تُكتسَبُ ولا تُستجلَبُ، قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ [مريم: ٦٤].

وقال صاحب «جَوْهَرِة التوحيد» الشيخ إبراهيم اللقاني:

ولم تكنْ نبوةٌ مُكْتَسَبَه ولو رَقَى في الخَيْرِ أعلى عَقَبَه

وفي قراءة: **(يُوحَى)** على البناء للمفعول على أن **(كذلك)** مبتدأ، **(يوحى)** خبره، و(الله) فاعل لجواب تقديره: من يوحي؟ ويكون الغرض من الإخبار إثبات اتصافه تعالى بأنه من شأنه الوحي، لا إثبات أنه موحٍ، فالإيحاء مسلَّم معلوم(١).

ثم أكَّد سبحانه كمال ملكه وعظمة سلطانه بقوله:

(١) روح المعاني: ٢٥/ ١١.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾.

أي: له وحده كل ما في السماوات والأرض خَلْقاً ومِلكاً وتدبيراً، وهو العلي العظيم في عزِّه وجلاله، فهو أعلى من كل شيء وأعظم من كل شيء.

* * *

تسبيح واستغفار

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾.

ومن عظمته جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ﴾ أي: تكادُ السماوات يتشققن من عظمةِ الله تعالى من جهتهنّ الفوقانية، لأنَّ أعظمَ الآياتِ والمخلوقاتِ كالعرش والكرسي والملائكة من تلك الجهة، فهي أدلُّ على العظمةِ، ولذا كانت قِبْلَةَ الدعاء، ويتفطرن من تحتهنَّ بالطريق الأولى.

وقيل: يتفطرن من دعاءِ الشريك والولد، قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي: والملائكة ينزِّهونه تعالى عما لا يليقُ به، متلبسين بحمده، ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يقبل استغفارهم، ويزيدهم من فضله ورحمته.

* * *

الوحي والقرآن

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾

ثم وجَّهت الآيات الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام تواسيه عما يلقى من عناد المشركين وإعراضهم، وفي الوقت نفسه تتوعد المعرضين المعاندين:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾.

أي: والذين جعلوا لله شركاء وأنداداً فأعرضوا عن دعوتك، الله رقيب على أحوالهم وأعمالهم، فيجازيهم عليها، وما أنتَ بموكَّل بهم، ولا كفيل تؤخذ بهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك قرآناً عربيّاً واضحاً جليّاً، لتنذر أهل مكة ومن حولها من سائر أقطار الأرض كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

والمراد **بأم القرى**: مكة المكرمة، سُميت بذلك لما روي أنه دُحيت الدنيا من تحتها، **والأم** تقال لكل ما كان أصلاً لشيء(١).

ويؤيد ذلك ما مرَّ معنا في **سورة الأنعام** عند تفسير الآية السالفة الذكر بأن مكة المكرمة هي سُرَّةُ الأرض ومركزها، وقد ثبت علميّاً أنها واقعة في وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: وتنذر يوم القيامة الذي تُجْمَعُ فيه الخلائق، وهذا الجمع كائنٌ لا شك فيه، وبعد الجمع يتفرقون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

* * *

الله هو الولي

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى كمال قدرته وطلاقة مشيئته فقال:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: ولو شاء الله لجعل الناس أمةً واحدةً مهتدين أو ضالِّين، ولكنْ يُدْخِل تعالى في رحمته مَنْ يشاء أن يدخله فيها، ويدخِلُ مَنْ يشاءُ أن يدخله في عذابه.

فالله بمشيئته وحكمته بنى أمرَ المكلفين على ما يختارون، فيدخل المؤمنين في

(١) روح المعاني: ٢٥/ ١٣.

رحمته، ويذر المصرِّين على الظلم والشرك في ضلالهم وكفرهم، ويكونُ مصيرهم يومَ القيامةِ إلى السعير، من غير ولي يلي أمرهم، ولا نصير يخلِّصهم من العذاب.

ثم أكدت الآيات انتفاء وجود ولي أو نصير للظالمين يوم القيامة:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ أي: دع الاهتمام بشأنهم، واقطع الطمع في إيمانهم، أليسوا الذين اتخذوا من دون الله أولياء؟! وهو سبحانه الولي بحق، لا ولي بحق سواه.

فـ (أَمْ) للإضراب بمعنى (بل) أفادت الانتقالَ من بيانِ ما قبلها إلى بيانِ ما بعدَها، وأنكرت موالاةَ غيرِ اللهِ، ونفته بأبلغ الوجوه.

ثم ختم الله الآية ببيان الدليل على أنه الحقيق بالولاية فقال:

﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمن كان بهذه الصفة فهو الحقيق أن يُتخذ وليّاً، ومن لم يتصف بهذه الصفة فلا يكون وليّاً.

وتستوجب ولاية الله تعالى الانقياد والإذعان لأمره وحكمه:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: وما اختلفتم في شيء من الخصومات فتحاكموا فيها إلى شريعة الله، ولا تؤثروا على تحكيم شريعته غيرها، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: ذلكم الحاكم العظيم الشأن هو مالكي ومتولي أمري، عليه توكلتُ في كل أموري لا على غيره، إليه أرجعُ في كلِّ ما يعرِضُ لي من معضلات الأمور لا إلى غيره.

* * *

تنزيه وإثبات

﴿فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ أي: وهذا الحاكِمُ العظيم هو خالق السماوات والأرض على غير مثال سبق.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ﴾ أي: جعل سبحانه للناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم فيه التوالد والتكاثر.

يذرؤكم: يكثركم، من الذَّرْءِ: وهو البثُّ والتكثير، فكل المخلوقات تتكاثر وتتوالد بواسطة التزاوج بينها.

أما الله سبحانه فهو الواحِدُ الأحدُ الذي لم يلد ولم يولد، ولهذا نفى ﷻ مشابهة شيء من المخلوقات له فقال:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ فلا يماثله شيءٌ في كل وجه، ويدخل في ذلك نفي أن يكون مثله سبحانه شيء يزاوجه ﷻ.

والمراد من (مثله) ذاته تعالى، وقد ذكر ابن قتيبة: أنَّ العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول: «مثلك لا يبخل»، وهي تريد أنت لا تبخل، على سبيل الكناية.

وقيل: إن مثلاً بمعنى الصفة، والمعنى: ليس كصفته تعالى صفة، تنبيهاً أنه تعالى وإن وُصف بكثير مما يوصف به البشر، فليست تلك الصفات له ﷻ حسب ما يستعمل في البشر.

والمثل أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ـ كما قال الراغب الأصفهاني ـ وذلك أنَّ **النِدَّ** يقال لما يشارِكُ في الجوهر فقط، **والشِّبْهُ** لما يشارِكُ في الكيفيةِ فقط، **والمساوي** لما يشارِكُ في الكمية فقط، **والشكل** لما يشارك في القدر والمساحة فقط، **والمثل** عام في جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله تعالى نفي الشبه من كل وجه خصَّه سبحانه بالذكر(١).

فليس له سبحانه مماثل في ذاته وصفاته، فلا يسد مسد ذاته تعالى ذات، ولا مسد صفاته تعالى صفة، كما أنّ أفعاله سبحانه لا يقدر غيره عليها، فهو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لكل ما يُسمع ويُبصر، وكأنه سبحانه ذكرهما لئلا يتوهَّم أنَّه تعالى لا صفةَ له، كما لا مثل له، فله الصفاتُ اللائقة بجلاله وكماله ﷻ، **فأول الآيةِ تنزيهٌ، وآخرها إثباتٌ، والتوحيدُ إثباتُ ذاتٍ غيرِ مشبهة للذوات، ولا معطلة من الصفات، ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، إلا من جهة موافقة اللفظ**، وجلَّت الذاتُ القديمةُ أن يكونَ لها صفة حديثة، كما استحال أن يكونَ للذات المحدَثةِ صفةٌ قديمة. وهذا كله مذهبُ أهل الحقِّ والسُّنَّة والجماعةِ ﵃(٢).

ثم بينت الآياتُ أنه تعالى واحدٌ في أفعاله لا يقدر عليها غيره بقوله سبحانه:

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

أي: له سبحانه خزائن السماوات والأرض، أو له مفاتيح السماوات والأرض، والذي يملك المفاتيحَ يملِكُ الخزائن، يوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيِّقه على من يشاء، حسب ما سبق به علمه الذي وسع كل شيء.

* * *

---

(١) روح المعاني: ٢٥/١٨.

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/٩.



الحاكمية والتشريع لله وحده

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

ثم بينت الآيات نتيجة ما سبق تقريره، أنَّ الحاكمية والتشريع لله تعالى وحده، فلا يجوزُ الخروجُ عليها ومخالفتها:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ والخطاب في الآية للأمة المسلمة، ومعناه: شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً، ومَنْ بعدَه من أصحاب الشرائع، وأولي العزم من الرسل.

وإقامةُ الدين الذي شرعه الله هو توحيدُه وطاعتُه والإيمانُ بكتبه ورسله وبيوم الحساب والجزاء، فاجعلوه قائماً دائماً مستمرّاً من غير خلافٍ فيه.

والمراد بإيحائه إليه عليه الصلاة والسلام، ما ذكر في صدر **سورة الشورى**: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية، لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولِمَا في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة، والالتفات إلى نون العظمة في (أوحينا) لإظهار كمال الاعتناء بما أوحي إلى النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك إشعار بأن شريعته ﷺ هي الشريعةُ المعتنى بها غايةَ الاعتناءِ،

وذلك هو السر في تقديم الذي أوحي إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعده، مع تقدُّمهم عليه زماناً، وتقديم توصية نوح لبيان كون المشروع لهم ديناً قديماً.

ومعنى (شَرَعَ): نهج وأوضح وبيَّن المسالك، وشرع لهم يشرع شرعاً، أي سنَّه[(١)].

وما أراد تفاصيل الشرائع، فإنها مختلفة متفاوتة لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ إنما أراد أصول الشرائع التي يجمعها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: عظم على المشركين وشقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من توحيد الله وعبادته والتزام شريعته، فلا تبالِ بعنادهم وإعراضهم.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: الله سبحانه يصطفي مَنْ يشاءُ فيوفقه، ويرشد من يُقبل عليه، ويتمسَّك بشريعته، وهذا يدلُّ على أنَّ بعض المعرضين عن رسالته ﷺ سيستجيبُ للدعوة، ويصبحُ من المصدِّقين بالرسالة.

* * *

الدعوة إلى الحق والاستقامة عليها

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه سبب إعراضهم عن دعوته عليه الصلاة والسلام،

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ١٠.

واستعظامهم لها، فقال:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: إنَّما كان اختلافهم بعد بلوغ الحقِّ إليهم، وقيام الحجَّةِ عليهم، وما حَمَلهم عليه إلا البغي والحسد.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: ولولا أنه تعالى قدَّر تأخيرَ العذاب عنهم إلى يوم القيامةِ لأهلك الله المبطلين الذين افترقوا لعظم ما اقترفوا، فبعثته ﷺ بعثةُ رحمةٍ كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ أي: وإن أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، لفي شك أيضاً من دعوته، مدخل في الريبة والقلق.

فمخالفة الحق ومعاندته لم تصدر عن المشركين من أهل مكة فقط، إنما صدرت أيضاً عن أهل الكتاب.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ أي: فلأجل ذلك التفرق والإعراض عن الحق فادعُ إلى الائتلاف والاجتماع على دعوة الحق، واثبت عليها كما أمرك الله، فإنَّ الثباتَ عليها أفضل وسيلة لتزكية النفوس وتهذيبها وجمعها على الحق، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة، ولا تنظر إليها، فإنها سبب الفرقة والاختلاف.

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ البشريةَ قد آلت إلى فوضى واضطراب، وأنها

أصبحت بحاجة إلى قيادة راشدة، وقد انتُدِبَ النبيُّ ﷺ لهذه القيادة، وأنيطت به وبأمته من بعده هذه المهمة.

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ﴾ أي: وقل لهؤلاء المخالفين: آمنتُ بكلِّ كتابٍ أنزله الله، وأُمرتُ بتبليغكم شريعة الله وأحكامه لإقامة العدل بينكم، فلا يكون العدلُ إلا في ظل شريعة الله.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ﴾ أي: الله ربنا وربكم، وكل واحد منا مسؤول أمامه عن عمله، وبهذا يظهر الحق، ولا يبقى للجحود والإعراضِ مجالٌ سوى المكابرة والعناد.

﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: الله يجمع بيننا يوم القيامة، وإليه المعاد لفصل القضاء.

ومع وضوح الحقِّ المؤيَّد بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ظل المعاندون يصدُّون المؤمنين عنه، ولهذا قال تعالى يتوعدهم:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

أي: والذين يجادلون المؤمنين المستجيبين لدعوة الرسول ﷺ ليصدوهم عن طريق الهدى؛ حجتهم زائلة باطلة عند الله تعالى، وعليهم غضب من الله، ولهم عذاب شديد يوم القيامة.

* * *

الشريعة الإلـهية والعدل

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه فضله على الناس، بما أنزل عليهم بواسطة الوحي من الكتب والشرائع لإقامة العدل بينهم:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ أي: الله الذي أنزل الكتب متلبِّسة بالصدق والحق، مشتملة على الدلائل والبراهين، وأنزل الشريعة التي توزن بها الحقوق، وتقيم العدل بين الناس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

فلا يتحقق العدل إلا في ظل الشريعة الإلـهية، ولا يقع الجَوْر والظلم إلا عند الانحراف عنها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن].

وتقرير يوم القيامة وشعور الإنسان بمسؤوليته عن التزام شريعة الله، يحمله على التزام هذه الشريعة والرضا بأحكامها، ولهذا أخبرت الآيات بتحقق ووقوع الساعة فقالت:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: وما يدريك أيها الإنسان لعلَّ وقتَ الساعةِ والجزاءِ قريبٌ.

فاتبعِ الكتاب، واعملْ بالشريعةِ الإلـهية قبل أن يفاجئك يومُ الحسابِ والجزاءِ، التي توزن فيه أعمالك، وتوفَّى جزاءك كما في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ

ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال: (قريب) ولم يقل: قريبة، لأن تأنيثها غير حقيقي كما في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ودلت الآية على أنّ الشعور بالمسؤولية والجزاء، يهذِّب النفوس ويجعلها تذعن للحق، وتتمسك بالعدل، كما ينأى بها عن الجور والطغيان، ولهذا يكذب بها الطغاة الظالمون:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يستعجلون وقوعها استهزاء، ظنّاً منهم أنها غير واقعة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ وأما المؤمنون فإنهم خائفون منها، ويعلمون أنها آتية لا شك فيها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ألا إن الذين يشكُّون في يوم القيامة ويخاصمون فيه لفي ضلال بعيد عن الحق.

* * *

الله لطيف بعباده

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢١ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ۝٢٢﴾.

إن تقرير الساعة وما فيها من مسؤولية وجزاء، مظهر من مظاهر لطفه سبحانه بعباده، ففيها خيرٌ كثير للعباد، كما أنها تدل على رحمته تعالى وحكمته:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝١٩﴾.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: لطيف بهم في تكليفهم وتقرير مسؤوليتهم ومحاسبتهم، فهو سبحانه بارٌّ بهم، ورفيق بهم، يقبل منهم القليل، ويعطيهم الجزيل، ويربِّيهم بصنوف من البر لا تبلغها الأفهام، ومن تربيتهم تقرير مسؤوليتهم يوم الحساب والجزاء.

ولطيف بهم أيضاً في إيصال المنافع وصرف البلاء، ومن لطفه سبحانه بهم أنه يمدهم بأسباب العيش والبقاء:

﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي: يرزق من يشاء كما يشاء، فيخص كلَّ واحد من عباده بنوع من البر حسب ما تقتضيه حكمته، ويحرِمُ من يشاء.

وفي تفضيل قوم على قوم بالرزق حكم كثيرة، بيَّنها تعالى في قوله: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: وهو القادر على كل ما يشاء، المنيع الغالب الذي لا يُغلب.

ولله سبحانه ألطافٌ خاصة بأهل طاعته، يوفقهم ويسدِّدهم ويبارك لهم:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ أي: من كان يريد ثواب الآخرة نزِدْ له في ثوابه أضعافاً كثيرة، ونيسِّرْ له سُبُلَ الخيرات والطاعات، فالدنيا مزرعة الآخرة.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي: ومن كان يريد الدنيا ومتاعها نؤته ما قدِّر له منها، وقُسِمَ له فيها، لا كل ما يريده، وليس له في الآخرة نصيب، لأنه لم يعمل لها؛ قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء].

ولا يكون عمل الآخرة إلا في تطبيق شريعة الله، ولهذا توعَّدت الآياتُ الذين لا يطبقونها، ولا يلتزمون بها، بل يحتكمون إلى الشرائع الوضعية التي وضعها شياطين الجن والإنس:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وفي الكلام إضمار تقديره: أيقبلونَ ما شرعَ الله من الدين؟ أم لهم شركاء شرعوا لهم شرائع تخالِفُ دينَ الله وشريعته؟ فتشريعُ أحكامٍ تخالف شرع الله وتفضيلها عليه شرك وكفر، لأنَّ الحاكمية وحقّ التشريع لله وحده، الذي له الخلق والأمر، كما مرَّ معنا في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

ولهذا وصفتِ الآيةُ المستحدثين للشرائع الوضعية بالشركاء، وجعلت طاعتهم فيما شرعوا واستحدثوا مظهراً من مظاهر الشرك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولولا أنه تعالى قدَّر أن يكون الفصل بين الناس يوم القيامة، لعجَّلَ عقوبتهم في الدنيا، ولقد أعدَّ لهم يوم القيامة عذاباً أليماً، فمخالفة شرع الله شرك وظلم:

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: وتراهم يوم القيامة خائفين وجلين من شركهم وظلمهم، ووباله واقع بهم، أشفقوا أم لم يشفقوا.

وأما المؤمنون العاملون بأحكام دينه وشريعته:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يتنعَّمون في رياض الجنات، لهم ما يشاؤون عند ربهم من أنواع الكرامة والنعيم، إنه الفضل الكبير الذي يتفضل الله به عليهم يوم القيامة، وهي بشارة تحملها الآيات إليهم تثبيتاً لهم على دين الله وشريعته.

* * *

مودة آل البيت

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهي بشارة من الله حملها

النبيُّ الكريم ﷺ، وبلَّغها مبرأةً عن أي حظ دنيوي ونفع مادي له ولأهل بيته عليه الصلاة والسلام، أمر عليه الصلاة والسلام أن يعلنها كما أعلنها سائرُ الأنبياء والمرسلين قبله، كما سبق معنا في قوله تعالى على لسان جميع المرسلين: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾ أي: لا أسألكم على هذا البلاغ مالاً، وإنَّما أطلب أن تذروني أبلِّغُ رسالة ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

أو: لا أسألكم عليه أجراً قط، ولكنْ أسألكُم أن تودُّوني بسبب قرابتي فيكم، ويؤيده: أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس: **عجلت، إنَّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ بطنٌ من قريشٍ إلا كان له فيهم قرابةٌ، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.** [رواه البخاري (٤٨١٨)].

قال ابن حجر رحمه الله: «والمعنى: إلا أن تودوني لقرابتي فتحفظوني، والخطابُ لقريش خاصةً، **والقربى**: قرابة العصوبة والرحم، فكأنه قال: احفظوني للقرابةِ إن لم تتبعوني للنبوة. فسعيد بنُ جبيرٍ ومَنْ وافقه كعلي بن الحسين والسُّدِّي وعمرو بن شُعيبٍ ـ فيما أخرجه الطبري عنهم ـ حملوا الآيةَ على أمر المخاطبين بأن يوادُّوا أقاربَ النبيِّ ﷺ، وابن عباس حملها على أن يوادوا النبيَّ ﷺ من أجل القرابة التي بينه وبينهم»[(١)].

والحق تفسيرُ هذه الآية بما فسَّرها به حَبْرُ الأمةِ وترجمانُ القرآن عبدُ الله بنُ عباسٍ رضي الله عنهما كما رواه عنه البخاري [٤٨١٨].

ولا ننكر الوصيةَ بأهل البيت، والأمرَ بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذريةٍ طاهرةٍ من أشرف بيت وُجِدَ على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً[(٢)].

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٦٤.

(٢) تفسير ابن كثير للآية.

وقال الحسن وقتادة: والمعنى إلا أن يتوددوا إلى الله ﷻ ويتقربوا إليه بطاعته، فالقربى بمعنى القربة كزلفى والزلفة، قال القرطبي رحمه الله بعد حكاية هذا القول: وقول الحسن حسنٌ، ويدل على صحته الحديثُ المسند عن رسول الله ﷺ، عن ابن عباسٍ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **لا أسألُكُم على ما أنبِئُكم بهِ من البيناتِ والهدى أجراً، إلا أن توادُّوا الله ﷻ، وتتقربوا إليه بطاعته، وكذا قالت الأنبياء صلوات الله عليهم قبله: (إن أجري إلا على الله)**[1].

وبعد أن برَّأت الآياتُ النبيَّ ﷺ وقرابته عن أي حظ من حظوظ الدنيا، حثت المؤمنين بأسلوب غير مباشر على الاستكثار من الطاعات والحسنات بقوله تعالى:

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ﴾ أي: ومن يكتسب حسنةً نضاعفها له، وأصلُ القَرْفِ الكسبُ. يقال: فلانٌ يقرِفُ لعياله، أي: يكسب[2].

ولا شك أنَّ منها مودةُ آل بيته رضي الله عنهم، حتى جعل بعض المفسرين الآية في محبة آل البيت، قال البيضاوي رحمه الله: ومن يكتسب طاعةً؛ سيَّما حبَّ آل الرسول ﷺ[3].

وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودته لهم، فقد صحَّ عنه أنه كان يقول: والذي نفسِي بيدِهِ لقرابةُ رسولِ اللهِ ﷺ أحبُّ إليَّ أَنْ أصلَ من قرابتي.

ونقل النسفي عن السدي: أنَّها المودةُ في آلِ الرسولِ ﷺ، نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، والظاهِرُ العمومُ في أيِّ حسنةٍ كانت، إلا أنها تتناول المودة تناولاً أوليّاً بذكرها عقب ذكر المودة في القربى[4].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفور للذنوب شكور للحسنات.

ودلَّت الآية على أنَّ المؤمنين مكلَّفون بمودة آل البيت، فقد أخرج مسلم

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) تفسير البيضاوي: ٥/ ٤٠٨.

(٤) تفسير النسفي: ٥/ ٤٠٨.

[٢٤٠٨]: عن زيد بن أرقم ﵁: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**أذكِّركم اللهَ تعالى في أهلِ بيتي**».

وأخرج **الترمذي** [٣٧٩٠] وحسَّنه، **والطبراني والحاكم** [٣/ ١٥٠]: عن ابن **عباس** ﵄ قال: قال عليه الصلاة والسلام: «**أحبوا اللهَ تعالى لما يغذُوكُم من نِعَمِهِ، وأحبُّوني لحُبِّ اللهِ تعالى، وأحبُّوا أهلَ بيتي لحُبِّي**».. والأخبار في هذا كثيرة لا تحصى(١).

وكما برَّأت الآيات دعوته عليه الصلاة والسلام عن أي حظ من حظوظ الدنيا، برَّأت شخصه الكريم أن يكون له أدنى تكلُّف في اكتساب الوحي واجتلابه، كما مرَّ معنا قريباً عند الحديث عن ظاهرة الوحي، وسيأتي معنا في آخر السورة أنه عليه الصلاة والسلام ما كان قبل البعثة ينتظرُ الوحيَ عليه، قررت الآيات هذه الحقيقة في معرض الرد على مزاعم المشركين الباطلة وأكاذيبهم:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ أي: بل أيقولون: افترى محمد على الله كذباً بدعوى النبوة أو القرآن؟! **والهمزةُ** للإنكار التوبيخي، و(**بل**) للإضراب من غير إبطال المعنى، والمراد منه: كيف ينسبون مثل هذا إلى النبيِّ ﷺ؟! ولو أنه فعله لمنعه الله من ذلك قطعاً، فلو كان افتراءً عليه، لشاء عدم صدوره عنك، فيختم على قلبك، فلا يخطر ببالك معنى من معانيه، ولا تنطق بحرف من حروفه، فمن شأنه تعالى أنه يمحو الباطلَ، ويثبت الحقَّ، فلو كان افتراءً كما زعموا لمحقه الله ودفعه، ولمَّا لم يفعل ذلك، بل أبقاه متتابعاً عليك، تبين أنه من عنده تعالى.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: إنه سبحانه عليم بما في صدرك وصدورهم،

---

(١) روح المعاني: ٢٥/ ٣٢.

فيُجري الأمر على حسب ذلك، فيمحو باطلهم، ويؤيد نبيه، ويظهر دينه، ويُعلي كلمته.

* * *

حاجة العباد إلى الرزق والشريعة الإلـٰهية

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ثم بينت الآياتُ أنّ من لطفه تعالى بعباده المؤمنين أنه يقبل توبتهم، فهي تحثُّهم على تصفية قلوبهم، وتزكية نفوسهم، بالاستكثار من الطاعات، وهجر السيئات، والثباتِ على التمسك بأحكام شريعته:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

فتوبوا إلى الله، وأعرضوا عن السيئات، واعلموا أنه تعالى يعلم ما تفعلون.

والتوبةُ: الرجوعُ عن المعاصي بالندم عليها، والعزم على إلا يعود إليها أبداً، ففي الآيةِ دعوةٌ للمؤمنين لتمحيص التوبة، وجعلها خالصة لله تعالى، لأنه تعالى عليم بذات الصدور.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ﴾ أي: ويستجيب سبحانه

للتائبين المخلصين، ويزيدهم على ما سألوا من فضله الواسع، فحذفت اللام كما في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] أي: كالوا لهم.

قال تعالى يبين فضله على التائبين المخلصين في التوبة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقد يكون المعنى الإخبار عن استجابة المؤمنين لدعوة ربهم، وثباتهم على دينه وأحكام شريعته، وتكونُ الجملةُ معطوفةً على مجموع قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ أي: فالمؤمنون يستجيبون، والكافرون يُعرضون، ولهم في مقابل ذلك عذاب شديد.

ثم بينتِ الآياتُ حكمتَه تعالى ورحمتَه في توزيع الأرزاق بين عباده، كدليل على شدَّةِ حاجتهم إلى دينه وأحكام شريعته، كحاجتهم وافتقارهم إلى رزقه وفضله:

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾.

أي: ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض وتكبروا وأفسدوا، وعلا بعضهم على بعض، ولهذا قدَّر سبحانه أن ينزِّلَ الرزقَ عليهم بقدر معين حسب ما تعلَّقت به مشيئتُه، إنَّه خبيرٌ بأحوالهم، بصيرٌ بشؤونهم، فعليهم أن يلتزموا بأحكام دينه وشريعته، فلا غنى لهم عنها، ولا تستقيمُ حياتُهم من دونها.

ويؤكد هذا المعنى أنه تعالى ينزل عليهم الرزق حين تشتد حاجتهم إليه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾.

أي: وينشرُ سبحانه بركاتِ الغيثِ ومنافعَه في السهول والجبال والوديان، فهو الذي يتولى عباده بالإحسان، ويستحقُّ الحمدَ على ذلك لا غيره، فلا غنى لعباده عن إحسانه، كما أنهم لا غنى لهم عن طاعته والتزام شريعته.

وها هي دلائلُ جوده ووجوده سبحانه مبثوثة في كل زمان، تذكِّرهم بافتقارهم إليه وحاجتهم إلى عبادته وشريعته:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته وعظيم إحسانه خَلْقُ السماوات والأرض، وما نشر فيهما من دابة، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات المتفرقين في أقطار السماوات والأرض، ومع هذا كله فإنه تعالى قادر على جمعهم عندما تتعلق به مشيئته.

* * *

الذنوب والمصائب

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وعادت الآيات تذكرهم بضرورة التوبة، وتحثهم عليها، وتبين لهم ما يترتب عليها من خير كبير، فذنوبهم هي سبب مصائبهم:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: فما سُلط على العبد مَنْ يؤذيه إلا بسبب ذنبٍ يعلمه أو لا يعلمه، فليس للعبد إذا أصيبَ بمصيبة ـ كما لو بغى عليه أحدٌ، أو أصيبَ بنفسه وماله ـ

شيءٌ أنفعَ له من التوبة والإنابة والاشتغال بتنقية نفسه من آثار المعاصي، وعفوُه سبحانه عما بقي أكثر وأعظم.

ومرَّ معنا أن الله تبارك وتعالى قال لأصحاب النبي ﷺ بعد مصابهم في غزوة أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وعفوه تعالى منوط بمشيئته، غير متوقف على التوبة:

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾.

فأنتم دائماً في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، وما لكم من دونه ولي يتولاكم، ولا ناصر ينصركم، فلا قدرةَ لكم أن تعجزوه سبحانه في بر أو بحر.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾.

أي: ومن علاماته الدالة على كمال قدرته السفنُ الجاريةُ في البحر، كأنها من ضخامتها أعلام، وهي الجبال.

ومع ذلك فإنَّ هذه السفن لا تمنعكم من نفاذِ مشيئته تعالى، فهو سبحانه قادر على تعطيلها أو إغراقها:

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣﴾.

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾ أي: إن يشأ يجعل الريحَ التي تسيِّرها ساكنةً، فتبقى هذه السفنُ ثوابتَ على ظهر البحر غير جارياتٍ.

فالريحُ من الطاقاتِ المسخرةِ لكم، لا تنتفعون بها إلا بأمره سبحانه ومشيئته، ويقاسُ عليها كل القوى والطاقات التي سخرها الله تعالى للناس، فانتفاعهم بها منوط بمشيئته وقدرته.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في ذلك لبراهينَ ودلائلُ لكل مؤمن متفكر في آلاء الله، يشكره في الرخاء، ويصبر في الضراء.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

أو يرسلها ريحاً عاصفة تغرق هذه السفن بذنوب أصحابها، ويعفو عن كثير من ذنوبهم، فلا يجازيهم عليها. وهذا تأكيد لما سبق تقريره من كمال قدرته تعالى وطلاقة مشيئته وعظيم إحسانه.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ولكي يعلم الذين يجادلون في آيات الله أنه لا مهرب لهم ولا فرار من أقداره تعالى.

وقرئ بالجزم عطفاً على (يعفُ) فيكون المعنى: أو يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير آخرين.

ثم زهَّدتهم الآياتُ بما في الدنيا من متاع زائل، حتى لا ينشغلوا بها عن العمل للآخرة:

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

فالمؤمن والكافر يستويان في متاع الدنيا، فإذا صارا إلى الله تعالى كان ما عنده من الثواب خيراً وأبقى للمؤمن المتوكل عليه.

ولمَّا ضمنت **(ما)** الأولى معنى الشرط؛ جاءت **الفاء** في جوابها بخلاف الثانية.

* * *

الأسس الشرعية للمجتمع الإسلامي

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

مهَّد الله تعالى في الآية السابقة لبيان أهم القواعد الشرعية التي يجب أن تقومَ عليها البنية الأساس للمجتمع الإسلامي، فاستبعد فيها قيام الحياة الاجتماعية الإسلامية على أساس المقياس المادي، ثم بيَّن تعالى أهمَّ القواعد الشرعية التي يجب أن تحكمَ علاقات الأفراد في ظل المجتمع الإسلامي، وجاء بيان هذه القواعد في معرض مدح مجتمع الصحابة الأُول الذين التزموا بها:

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: والذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والزنى، ويكظِمونَ الغيظَ إذا غضبوا، ويحلمون، فسجيتهم تقتضي الاستقامة على أمر الله، والصفح والعفو عن الناس.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: استجابوا لدعوة ربهم، واتبعوا رسوله ﷺ، ورفعوا منارَ الصلاة، التي هي عمادُ الدين.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: وشأنهم قائمٌ على الشورى في ما يتشاور فيه، فلا يستبدُّون بالرأي، فالشورى أُلفةٌ للجماعة، ومنارٌ للعقول، وسببٌ للصواب، كما

مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: وينفقون جزءاً من أموالهم في وجوه الخير ومساعدة المحتاجين.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: ينتقمون ممن بغى عليهم ضمن الحدود المشروعة، فلا يعتدون، ففيهم قوة الانتصار ممن ظَلَمهم واعتدى عليهم، وليسوا بالعاجزين ولا الأذلين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم.

وهم مع هذا إذا قدروا عَفَوا، فالعفو عند القدرة درجة عالية في الإحسان:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فالأولى سيئةٌ حقيقيةٌ، والثانية ليست سيئة، والمقابلة للازدواج فقط.

أو: لأنها تسوءُ مَنْ تنزِلُ به، وفيه إشارة إلى أن الانتصار والانتقام محمودٌ بشرط رعاية المماثلة.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فمن عفا عمن ظلمه، وأصلح بالعفو ما بينه وبين ظالمه، فثوابه على الله، إنه تعالى لا يحب البادئين بالظلم، والمجاوزين حَدَّ العدل بالانتصار، إنها عِدَةٌ مبهمة تدل على عظم الثواب الموعود به.

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ومن أخذ حقَّه بعدما ظُلم لا مؤاخذة عليهم ولا معاتبة.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: إنما المؤاخذةُ والمسؤولية على الذين يبتدئون بالظلمِ، ويتكبَّرون في الأرض، أولئك لهم عذابٌ أليمٌ على ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: ولمن صبر على الظلم والأذى وغفر ولم ينتصر مع قدرته عليه، إنَّ ذلك الصبر من الأمور المشروعة المندوبة، فالعفو مندوبٌ إليه.

ثم قد ينعكِسُ الأمرُ في بعض الأحوال، فيصبحُ تركُ العفو مندوباً إليه، وذلك إذا احتيج إلى كَفِّ زيادة البغي وقطع مادة الأذى(١).

* * *

العذاب المقيم

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾.

ومن أساليب القرآن الكريم في تهذيب النفوس وتربيتها، أن يعقِّبَ على

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٤٤.

آيات الأحكام بذكر شيءٍ من التهديد أو الترغيب، ليحمل النفوس على التمسُّك بها وتطبيقها:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ أي: ما له من ناصر يتولاه، ويبين له مثل هذه الأحكام، ويوفقه للعمل بها، من بعد إعراض الله تعالى عنه وخذلانه.

﴿وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: وعندما يرى الظالمون العذابَ يقولون: هل نردُّ إلى الدنيا حتى نؤمنَ ونعملَ بهذه القواعد والأحكام؟ ولا شك أن سؤالهم هذا يدل على شدة حسرتهم وندمهم.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ﴾ أي: وتراهم يعرضون على النار متذلِّلين، يسارقون النظرَ إليها من شدة الخوف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ أي: ويقول المؤمنون حين يرونهم على تلك الحال: إنَّ المتصفين بحقيقةِ الخسرانِ هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: في عذاب دائم لا ينقطع، فلا رجوع لهم إلى الدنيا أبداً.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: وما كان لهم من أولياء يرفعون عنهم عذاب الله حسب ما كانوا يرجون.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى النجاة، فقد سُدَّت عليهم كل طرق النجاة، وهو تأكيد لما سبق في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشورى: ٤٤].

وبهذه الإثارة الوجدانية العنيفة هيأت الآيات القلوب والنفوس لتستجيب لدعوة الحق وتذعن لها:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: استجيبوا لربكم قبل أن يأتيَ يوم لا يرده الله بعد أن تعلَّقت به مشيئته.

أو: من قبل أن يأتي مِنَ الله يومٌ لا يمكن ردُّه، ما لكم في هذا اليوم مفرٌّ تلتجئون إليه، ولا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه، لأنَّه مدوَّن في صحائف أعمالكم، وتشهد عليه جوارحكم.

ومع هذه الإثارة الوجدانية القوية والدعوة الحارة الملحَّة، أعرض بعضهم عن الاستجابة لها، فوجهت الآيات الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام تواسيه عن إعراضهم:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ أي: فإن أعرضوا عن الإجابة فما أرسلناك عليهم رقيباً، ما عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد فعلت.

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: ومن شأن الإنسان أنا إذا أنعمنا عليه فرحَ بالنعمةِ فرحَ البَطِرِ، فتكبَّرَ وتجبَّرَ وأعرضَ عن شكر المنعم، وإن أصابته سيئةٌ بسبب ما قدَّمت يداه، فإنَّه كثيرُ الجحودِ، يجحدُ ما تقدم من النعم، ولا يذكر إلا الحال الراهنة

التي هو فيها، فيذكر البليةَ ويستعظِمُها، ولا ينظرُ في سببها، مع أنها بسببِ ما قدَّمت يداه من المعاصي والآثام كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].

وهذا شأنُ غيرِ المؤمنين، أمَّا أمرُ المؤمن فيختلِف، قال رسول الله ﷺ: «**عجباً لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرَهُ كلَّه له خيرٌ، وليسَ ذلكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إن أصابته سراءُ شكرَ، فكانَ خيراً له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبرَ، فكان خيراً له**» [رواه مسلم (٢٩٩٩)].

وتأمل دقة أسلوب القرآن الكريم في إضافة النعمة إلى الله تعالى، وفي إضافة الشرِّ والسوء إلى سببه ومن قام به، فالله سبحانه يتنزَّه عن الشر، ويستحيلُ صدور الشرِّ من الغني الحكيم الحميد، مع أنه جل وعلا خالقُ كلِّ شيء، فالشرُّ خيرٌ وحكمةٌ من جهة تعلُّق فعل الرب به وتكوينه، وشرٌّ من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه.

وتأكيداً لهذه الحقيقة قررت الآياتُ طلاقة مشيئته تعالى وكمال سلطانه في مخلوقاته:

﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩﴾.

﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: لله ملك السماوات والأرض خلقاً وتدبيراً، يتصرَّفُ فيهما كما يشاء دون أن يعترض عليه أحد في خلقه وتدبيره. ومن تدبيره سبحانه:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي: يهب لمن يشاء من عباده ما يشاءُ من الأولادِ، فيخصُّ بعضَهم بالإناث وبعضهم بالذكور.

﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٥٠﴾.

أو يجمعُ لبعضهم الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيماً فلا يولد له، إنه

* * *

أقسام الوحي

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

وفي ختام السورة بينت الآياتُ أقسام الوحي، وألقت الضوءَ على هذه الظاهرة التي سبق ذكرُها في أول السورة:

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [٣].

وفي قوله أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [٧].

وفي قوله أيضاً: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [١٣].

فحصرته في ثلاثة أقسام:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

١ - ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: ما صحَّ لأحد من البشر أن يكلِّمه الله إلا وحياً، فيلقي في قلبه ما يريد إعلامه به.

قال ابن كثير: هذه مقاماتُ الوحي بالنسبة إلى جناب الرب جل وعلا، فتارةً يقذِفُ في روع النبيِّ ﷺ وحياً لا يتمارى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء في «صحيح

ابن حبان» [٣٢٢٨]: عن رسول الله ﷺ: **«إِنَّ رُوْحَ القُدُسِ نَفَثَ في رَوْعِي أنَّ نَفْساً لن تموتَ حتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَها وَأَجَلَها، فاتَّقوا اللهَ، وأجمِلُوا في الطَّلَبِ»**.

٢ ـ ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ أو يسمعه كلامه القديم من غير رؤية، كما كلَّم موسى عليه السلام، ولما سأل الرؤيةَ مع التكليم مُنِعَ منها، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ الآية [الأعراف: ١٤٣].

وما ورد في الحديث الصحيح: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال **لجابر بن عبد الله** رضي الله عنهما: **«ما كلَّمَ اللهُ أحداً إلا مِنْ وراءِ حِجَابٍ، وإنَّه كَلَّمَ أباكَ كِفاحاً»** [رواه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠)] فهذا في عالم البرزخِ، فقد قُتِلَ والد جابر يومَ أحد، والآية في دار الدنيا.

٣ ـ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أو يرسل ملكاً فيوحي ذلك الملك إلى المرسل إليه من البشر بأمره تعالى ما يشاء أن يوحيه، وهذا الملك هو جبريل عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: إنه تعالى أعلى من كل شيء، حكيم في أمره وقضائه.

ثم تحدثت الآيات عن نزول الوحي على النبي ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي: وبمثل هذا الوحي البديع أوحينا إليك روحاً من أمرنا، وهو القرآنُ الكريمُ.

وسمَّاه **(روحاً)** لأن فيه حياةٌ من موتِ الجهلِ والكفرِ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فالقرآنُ حياة القلوب وربيعها، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهلَ القرآنِ ماذا

زرعَ القرآنُ في قلوبكم؟ فإنَّ القرآنَ ربيعُ القلوبِ، كما أنَّ الغيثَ ربيعُ الأرضِ[(١)].

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي: ما كنتَ يا محمد تعلم قبل نزول الوحي عليك معالمَ الإيمانِ وشرائعَه التي لا تُعرف إلا بالوحي.

فما علمَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام أنَّه نبيٌّ مرسَلٌ إلا بالوحي، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

ولم يكن ﷺ متعبداً بشريعة أحد من الأنبياء قبله، بل شريعته مستقلةٌ بنفسِها، مفتتحة من عند الله، وكان عليه الصلاة والسلام يؤمن باللهِ ﷻ، فلم يسجدْ لصنم أبداً.

﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ أي: ولكن جعلنا القرآنَ نوراً نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا، كما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: وإنك لتدعو إلى صراط مستقيم، وهو دين الإسلام وشريعة القرآن، فهدايته عليه الصلاة والسلام هداية بيان ودعوة.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: وإنك لتدعو إلى صراطِ اللهِ الذي له ملك السموات والأرض خلقاً وتدبيراً.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي: إلى حكمه تعالى وأمره ترجعُ أمورُ مخلوقاته، فالتزموا بدينه، وتمسكوا بشريعته، فإنَّ مصيركم إليه جل وعلا.

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٥٥.



٤٣

تفسير سورة الزخرف

القُدْوَةُ وَالمَثَلُ في سُورَةِ الزُّخْرُفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تعظيم القرآن الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿حمٓ ١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ
ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا
مُّسْرِفِينَ ٥﴾

بدأ سبحانه سورة الزخرفِ رابعةَ الحواميمِ كما بدأ أخواتها ومثيلاتها بقوله:

﴿حمٓ ١﴾.

وقد سبق الكلام عليها في فواتح السور السابقة.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ٢﴾.

وهو قسَم بالقرآن الكريم المكتوب في اللوح المحفوظ ـ كما سيأتي ـ الذي أبان الصراط المستقيم، وبيَّنَ كل ما تحتاج إليه الأمة من الأحكام والشرائع.

﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾.

أي: إنا صيرناه قرآناً عربيّاً لكي تفهموا معانيه، وتنتفعوا بما فيه.

ويلاحظ التناسب بين القسم والمقسم عليه، وهو من الأيمانِ الحسنةِ البديعةِ، فلا شيءَ أعلى منه فيقسم به، ولا أهمّ من وصفه فيقسم عليه.

والجعلُ بمعنى التصييرُ المعدَّى لمفعولين لا بمعنى الخلق المعدَّى لمفعول واحدٍ، إذ الكلامُ مسوق لإثبات كونه قرآناً عربيّاً مفصَّلاً وارداً على أساليبهم، لا يعسر عليهم فَهْم ما فيه، ودَرْك كونه معجزاً، كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿وَإِنَّهُ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

أي: وإنه في اللوح المحفوظ عندنا لرفيعُ الشأنِ، ذو حكمةٍ بالغةٍ.

أو: محكم ثابت لا يُنْسَخُ، أو حاكمٌ على غيره من الكتب، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة].

وقال أيضاً: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولهذا استنبطَ العلماءُ من هاتين الآيتين أنَّ المحدِثَ لا يمسُّ المصحفَ، لأن الملائكة يعظِّمون المصاحفَ المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى، فأهلُ الأرضِ بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجِّه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم والانقياد له بالقبول والتسليم.

وبعد أن بينت الآياتُ علوَّ شأن القرآن العظيم، وأنَّ الله أنزله لكي يؤمنوا به ويعملوا بموجبه، أنكرت أن يكون الأمر بخلافه:

---

(١) روح المعاني: ٢٥/ ٦٤.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾.

أي: أفننحّيه ونبعده عنكم لأنكم كنتم منهمكين في الإسراف، مصرِّين عليه؟!.

فالحكمة تقتضي إنزال القرآن عليهم، ومتابعةَ تذكيرهم به، ولو أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه، قال قتادة: واللهِ لو كانَ هذا القرآنُ رُفِعَ حين ردَّه أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكنَّ الله ﷻ عادَ بعائدته وكرمه ورحمته فكرره عليهم عشرين سنة[١].

وقولُ قتادةَ لطيفُ المعنى جدّاً ـ كما قال ابن كثير ـ فالله جل وعلا من لطفه ورحمته بخلقه لا يتركُ دعاءهم إلى الخير، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمرَ به ليهتديَ به من قدَّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

وفي قراءة: (إن كنتم) بالكسر على أن الجملة شرطية، وما قبلها دل على جواب الشرط، والمعنى: لا نفعل ذلك.

* * *

المسرفون في الجهل والضلالة

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾

فإسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم:

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ٤٢٢.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾.

أي: أرسلنا كثيراً من الأنبياء في الأمم السابقة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾.

وهي حكاية حال ماضية مستمرة، فيها تسلية لرسول الله ﷺ من استهزاء قومه.

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

أي: فأهلكنا أشدَّ من قوم النبي ﷺ بطشاً، وسَلَف في القرآن في مواضع كثيرة ذكر قصصهم وحالهم التي من حقها أن تسيرَ مسيرَ المثل، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

ومن إفراطهم في الجهالة ومجاوزتهم الحد في الضلالة أنهم يعبدون غيره تعالى، مع إقرارهم واعترافهم بأنه الخالق:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾.

ولهذا ذكَّرتهم الآياتُ ببعض نعمه سبحانه عليهم، الدالة على كمالِ قدرته وعلمه، وأنَّه وحدَه المستحق للعبادة والطاعة:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾.

أي: الذي جعل لكم الأرض مكاناً ممهَّداً لحياتكم وعيشكم ـ وفي قراءة: **(مهاداً)** ـ وجعل لكم فيها طرقاً تسلكونها في أسفاركم، لكي تهتدوا إلى مقاصدكم، وتستدلوا أيضاً بمقدوراته على قدرته.

﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ⑪﴾.

﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ أي: والذي نزَّل من السماء ماءً بمقدار معين، حسبما تعلَّقت مشيئته، فأحيينا بذلك الماء بلدةً لا نباتَ فيها، وفي قراءة: (ميّتاً) بالتشديد.

وتنكيرُ (ميتاً) لأن البلدة في معنى البلد والمكان، والالتفاتُ في (أنشرنا) بنون العظمة لإظهار كمال القدرة في إحياء الأرض اليابسة.

﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: كذلك تبعثون من قبوركم أحياء كقوله في موضع آخر: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقوله أيضاً: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ⑫﴾.

﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: والذي خلق أصناف المخلوقات كلها، فمع كثرة أصناف المخلوقات، فإنَّ خالقَها واحدٌ، وكل ما سوى الله مخلوق، لأنه زوجٌ له مقابل، والفرد المنزَّه عن المقابل هو الله ﷻ كما مرَّ معنا عند قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: وجعل لكم ما تركبونه في البر والبحر، فغلَّب المُتعدِّي بنفسه على المُتعدِّي بغيره، يقال: ركبتُ الدابة، وركبتُ في السفينة، والمراد من الأنعام الإبل خاصة، فالبقر لا تُركَبُ، وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**بينما رجلٌ راكبٌ على بقرةٍ التفتتْ إليهِ فقالتْ: لمْ أُخْلَقْ لهذا، خُلِقْتُ للحراثةِ، قال: آمنتُ بهِ أنا وأبو بكر وعمر، وأخذَ الذئبُ شاةً فتبعَها الراعي، فقال له الذئبُ: مَنْ لها يومَ السَّبُعِ يومَ لا راعيَ لها غيري؟ قال: آمنتُ به أنا وأبو بكر وعمر**». قال أبو سلمة: وما هما يومئذٍ في القومِ. [رواه البخاري (٢٣٢٤)].

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لتستقروا على ظهوره، ثم تذكروا نعمة ربكم بقلوبكم معترفين بها، ثم تحمدوه عليها بألسنتكم.

﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: سبحان الذي ذَلَّلهُ وجعله منقاداً لنا، وما كنا له مطيقين، فالله سبحانه هو الذي سخَّره وضبطه لنا وليس لنا من القوة ما نسخره ونضبطه بها.

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وإنا إلى ربنا لراجعون.

فعلى الإنسانِ أن يتأمَّل الحالةَ التي هو فيها، ويعتبر بما فيها، فالسفر في الدنيا يذكِّره بالسفر إلى الآخرة.

وفي الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ الرسولَ ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ثم قال: «**سبحانَ الذي سخَّرَ لنا هذا وما كُنَّا له مقرنين، وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلبونَ، اللهمَّ إنَّا نسألُكَ في سفرِنا هذا البرَّ والتقوى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرْضَى، اللهمَّ هَوِّنْ علينا سفرَنا هذا، واطوِ عنَّا بُعْدَهُ، اللهمَّ أنتَ الصاحِبُ في السفرِ، والخليفةُ في الأَهْلِ، اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من وَعْثاءِ السَّفَرِ، وكآبةِ المَنْظَرِ، وسُوْءِ المُنْقَلَبِ في المالِ والأهلِ**» وإذا رجع قالهنَّ وزاد فيهنَّ: «**آيبونَ تائبونَ عابدونَ، لربِّنا حامدونَ**» [رواه مسلم (١٣٤٢)].

* * *

القسمة الباطلة

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم أظهرت الآيات تناقضَ أقوالهم؛ حيث اعترفوا أولاً أنَّ الله خالق السماوات والأرض، ثم نسبوا إليه الولد، ووصفوه سبحانه بصفات المخلوقين:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ فقالوا: الملائكةُ بناتُ الله، سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

ووصفت الآية الولد بالجزء، لأنه بضعة ممن وُلد منه أو ولد له، وهو مستحيلٌ على الله تعالى، الذي لا يوصف بالانقسامِ مطلقاً، إذ الانقسامُ والتركيبُ من صفات المخلوقات، والله يتنزَّه عن ذلك.

وقيل: الجزء اسم للنساء، يقال: أجزأتِ المرأةُ إذا ولدت أنثى، ووجَّه بعضهم ذلك بأنَّ حواء خلقت من جزء آدم عليه السلام[(١)]. وفي قراءة: (جُزُءاً) بضمتين.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنَّ الإنسان الذي يقول هذا القولَ ظاهِرُ الكفر، مبالِغٌ فيه، فهو يجحدُ نعمَ الله تعالى عليه، ويصف الله تعالى بصفات لا تليقُ بكماله وغناه.

---

(١) روح المعاني: ٢٥/٦٩.

ولهذا وجهت الآيات الخطاب إلى أصحاب هذا القول توبخهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري:

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: أتَّخذ ربكم لنفسه البنات وأخلصكم بالبنين؟! فكيف اختار لنفسه المنزلةَ الأدنى، ولكم الأعلى، فهي قسمةٌ باطلة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم].

فما أجهلهم! لم يقنعوا بأن جعلوا لله تعالى جزءاً حتى جعلوا هذا الجزء من أبغض الأشياء إليهم:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

أي: إذا بُشِّرَ أحدُهم بالجنس الذي جعله للرحمن شبهاً، فالولدُ لا بدَّ أن يشبه الوالد، صار وجهه أسودَ، واربدَّ غيظاً، وهو مملوء القلبِ من الكرب والكآبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

أو من يُرَبَّى ويشبُّ في الزينة، وهو في المجادلة والإدلاء بالحجة ضعيف؟ فلا يضاف إلى الله مَنْ هذا وصفه، ولعلَّ سبب ضعف المرأة في الجدال شدةُ حيائها.

وقرئ: (يَنْشَأُ) بفتح الياء وإسكان النون، أي: ينمو وينبت.

وفيه دلالة على إباحةِ الحليِّ للنساء، والإجماع منعقد عليه، والأخبار فيه لا تحصى(١).

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٧١.

والآيةُ ظاهرةٌ في أنَّ النشوء في الزينة والنعومة من المعايب والمذامِّ بالنسبة للرجال، لأنَّه مِنْ صفات ربَّاتِ الحِجال، فعلى الرجال أن يجتنبوا ذلك:

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**لعنَ رسولُ اللهِ ﷺ المتشبِّهين مِنَ الرجالِ بالنساءِ، والمتشبهاتِ من النساءِ بالرجالِ**» [رواه البخاري (٥٨٨٥)].

وتأكيداً للتناقض في أقوالهم الباطلة قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾؟! أي: أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إناثاً؟! فإن ذلك لا يُعلم إلا بالمشاهدة كما قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾؟! [الصافات: ١٥٠].

وفي قراءة: (**أَأُشْهِدوا**) بهمزة داخلة على الفعل الرباعي المبني للمفعول، وفي قراءة أيضاً: (**أَوُشْهِدوا**) بهمزة استفهام داخلة على همزة مضمومة مسهلة.

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي: ستسجَّلُ عليهم شهادتهم، ويُسألون عنها يوم القيامة. وفي قراءة: (**سنكتب شهادتهم**).

* * *

التقليد الأعمى والترف

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم أضافت الآيات حكاية قول آخر من أقوالهم المتناقضة الدالة على شدَّةِ جهلهم وضلالهم:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾ أي: لو شاء الله منا ترك عبادة الأصنام لمنَعَنا عن عبادتها، ولكن شاء مِنَّا عبادةَ الأصنام. فردَّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: إنْ هم إلا يكذبون، فقولهم هذا لا يدل عليه دليل، بل هو محض الكذب، ومشيئته تعالى غير رضاه، كما سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ الآية [الزمر: ٧].

فعبادة الأصنام كفرٌ، وهي باختيارهم وكسبهم، والله سبحانه لا يرضى بها، ولا أمرهم بها أيضاً، وهم مكلَّفون بأن تكون أعمالهم موافقةً لأمره وشرعه لا لإرادته، إذ إرادته غيبٌ عنهم، لا علم لهم بها، حتى يقع مراده سبحانه، ولهذا قال في الرد عليهم: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ فلا حجة لهم من جهة العقل ولا من جهة السماع والنقل أيضاً.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: هل آتيناهم كتاباً من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله فهم يأخذون بما فيه؟!.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

فالقوم لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية، بل اعترفوا أنهم يقلِّدون آباءهم، وأنهم مهتدون بتقليدهم.

والأمَّةُ: الطريقةُ التي تُؤَمُّ وتقصد، من الأَمِّ وهو القصد(١).

ثم كشفت الآيةُ للنبيِّ ﷺ على وجه التسلية والمواساة أنَّ تقليد الآباءِ داءٌ قديم منتشِرٌ على وجه الخصوص بين الأغنياء المترفين:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وتخصيص المترفين بالذكر يشعِرُ بأنَّ التنعُّم وحبَّ البطالة صرفهم عن النظر والتفكير إلى التقليد الأعمى، ودفعهم إلى المبادرة لإعلان كفرهم ومعارضتهم دعوة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: قال كل نذيرٍ لأمته: أتقتدون بآبائكم ولو جئتُكم بدين أهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟! وفي قراءة: **(قُل)** ويكون حكاية قول ماض أوحي إلى كل نذير.

---

(١) تفسير النسفي: ٥/ ٤٢٧.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: إنا ثابتون على دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهدى.

فالتقليد الأعمى أكبر العقبات والمعوقات القائمة في وجه كل دعوة إلى الإصلاح ومقاومة الفساد والظلم، والترف يقوِّي نزعة التقليد الأعمى.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

فلا تكترث بتكذيب قومك، فإنَّ الله سوف ينتقم منهم إن أصروا على كفرهم وتكذيبهم.

* * *

براءة إبراهيم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

واذكر يا محمد للمشركين من قومك قصة إبراهيم عليه السلام، وكيف تبرَّأ من ضلال أبيه وقومه، وخرج على عاداتهم البالية، ومعتقدات آبائهم الباطلة، وتمسَّك بالحق المؤيد بالدليل والبرهان، اذكره لهم لكي يقلدوه إن كانوا حقّاً يريدون تقليد آبائهم، فإنه أشرفهم وأشهرهم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: إنني بريء من عبادتكم، لكن الذي خلقني فإنه سوف يثبتني على الهداية.

فالاستثناء منقطع، وكأنه عليه السلام أراد أن يبين لهم بهذا الاستثناء أنه لا يستحق

العبادة إلا الخالق، وأن يشد أفكارهم إليه، كما مرَّ معنا من أقواله: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء].

أو: إنني بريء من معبوداتكم إلا الذي فطرني، والاستثناء على هذا المعنى متصل، ولعلَّ قومه كانوا يعبدون الله والأوثان، لكنَّ هذا المعنى فيه إيهام التسوية بين الله سبحانه وبين غيره جل وعلا.

أو: إنني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني، وتكون **(ما)** موصوفة.

و**(براء)** مصدر وصَف عليه السلام به نفسه مبالغة، ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث، فلا يُثنَّى ولا يُجمع ولا يُؤنث. وقرئ: **(بريء)** و**(بِراء)** مثل كريم وكرام.

والجديرُ بالذكر أنَّ براءة إبراهيم عليه السلام من أبيه وقومه ذكرها الله تعالى في مواضع عديدة، ليتأسَّى به المؤمنون، وتكون قدوة لهم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ومنها أيضاً: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ الآية [الممتحنة: ٤].

وأشار إليها سبحانه أيضاً في قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

ولم يكتفِ عليه السلام بإعلان براءته من قومه من أجل دعوة التوحيد، بل أوصى بها أولاده وذريته ليبقى فيهم مَنْ يوحِّدُ الله، ويدعو إلى عبادته وحده:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وجعل إبراهيم كلمة التوحيد ـ وهي: **لا إله إلا الله** ـ باقية في ذريته،

فبقي فيهم من يوحد الله ويدعو إلى عبادته وحده، لعل المشركين منهم يرجعون عن شركهم بدعاء الموحدين، فقد اهتم عليه السلام بغرسها في نفوس أبنائه، ووصَّاهم بها، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

فأكرمه الله تعالى بأن جعله إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقد انتهت هذه الكلمة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ببركة الدعوات الخاشعات التي رفعها إبراهيم وولدُه إسماعيل إلى الله تعالى وهما يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ورسول الله ﷺ أوسطُ قريشٍ نسباً، يمتدُّ نسبه إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ الله اصطفى كنانةَ مَنْ وَلَدِ إسماعيلَ، واصطفى قريشاً مِنْ كنانةَ، واصطفى مِنْ قريشٍ بني هاشم، واصطفاني مِنْ بني هاشم**» [رواه مسلم (٢٢٧٦)].

وأخرجه الترمذي في سننه [٣٦٠٥] بلفظ: «**إن الله اصطفى مِنْ وَلَدِ إبراهيمَ إسماعيلَ...**» وقال: هذا حديث صحيح.

قال القاضي عياض رحمه الله: «وأمَّا شرفُ نسبه؛ وكرم بلده ومنشئه؛ فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مشكل ولا خفي منه، فإنه نخبة بني هاشم وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قِبَلِ أبيه وأمه، ومن أهل مكة أكرمِ بلادِ اللهِ على اللهِ وعلى عبادِهِ»(١).

---

(١) الشفا: ١/١٢٦.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: بل متعتُ أهلَ مكة وهم من ذرية إبراهيم بالمد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة، وشُغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد، حتى جاءهم القرآنُ الكريم ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام يبيِّنُ لهم الأحكام، ويدعوهم إلى كلمة الحق والإيمان، ولكنَّهم أعرضوا وكذبوا.

* * *

إعراض واعتراض

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: ولمَّا جاءهم رسولُ اللهِ ﷺ بدعوة الحق، وصفوه بالسحر، وأعرضوا عن اتباعه، واعترضوا على إنزال الرسالة عليه:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

أي: لولا نُزِّلَ القرآن على رجل من أغنياء ووجهاء مكة أو الطائف.

وهذا يدل على أنهم لم يعرفوا للنبي ﷺ منزلته، وما رأوه أهلاً لحمل الرسالة، فالرسالةُ منصبٌ عظيمٌ، لا تليقُ إلا بعظيم. ولم يعلموا أنها رتبة عظيمة

روحانية تستدعي عظمَ النفسِ في التحلِّي بالفضائل والكمالات القدسية، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية(١).

وردَّ الله على اعتراضهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري بكل ما فيه من تجهيل وتعجيب فقال:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ﴾؟! أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله العزيز الحكيم، وهو أعلمُ حيث يجعل رسالته، فإنه ـ كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ لا ينزلها إلا على أزكى الخلقِ قلباً ونفساً، وأشرفِهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ أي: نحن أوقعنا التفاوت بين العباد في الرزق، فأفقرنا قوماً، وأغنينا قوماً، وهم عاجزون عن الاعتراض عليه، فكيف يعترضون على تخصيص بعضِ عبادنا بالنبوة والرسالة وشأنُها أعظمُ وأخطرُ من شؤون الدنيا؟!.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ﴾ أي: وخالفنا بينهم أيضاً في الملكات والمواهب والصفات، ليسخِّرَ بعضُهم بعضاً في الأعمال، ويحتاج بعضُهم إلى بعض، فيكون التعاون والتآلف.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ والنبوة وما تؤدي إليه خير مما يجمعون من حطام هذه الدنيا الفانية.

* * *

الزينة والمتاع

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

ثم بيَّن تعالى حقارة الدنيا التي عَدَّها الكافرون مقياس التفاضل:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: لولا أن يجتمع الناس على الكفر لأجل المال لجعلنا لبيوت الكافرين سُقُفاً من فضة، وسلالم من فضة أيضاً عليها يصعدون.

وفي قراءة: (سَقْفاً) بفتح السين وإسكان القاف على الواحد، ويرادُ به الجمعُ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ولجعلنا أيضاً أبواب بيوتهم والأسرَّة التي ينامون عليها من الفضة.

﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ولجعلنا لهم زينة من كل شيء يتزين فيه، ويتمتع فيه في الدنيا الزائلة الفانية، أو هو الذهب كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقُرِئَتْ (لما) بالتشديد والتخفيف، والمعنى: وكل ذلك هو متاع الحياة الدنيا.

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فلا يشاركهم فيها غيرهم.

فالدنيا هينةٌ على الله تعالى يعطيها من يحب ومن لا يحب، كما قال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وقال النبيُّ ﷺ: «**لو كانتِ الدنيا تَزِنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقى منها كافراً شَرْبَةَ ماءٍ**» [رواه ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: حديث حسن صحيح].

* * *

القدوة السيئة

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم كشفتِ الآياتُ سبب انصرافهم عن القدوة الحسنة إلى القدوة السيئة بقوله تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ومن يعرض عن ذكر الرحمن ويتعامَى عنه ويتغافل، وهو القرآن الكريم، نضمُّ إليه شيطاناً نسلِّطه عليه، يُغويه ويُضله، ولا يفارقه. وفي قراءة: (**يقيِّض**).

وفي الآية إشارة إلى أنَّ المداومة على قراءة القرآن الكريم وذكر الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى تبعِدُ الشيطانَ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: وإن الشياطين ليصدون الغافلين عن سبيل الهدى، وفي الوقت نفسه

يحسبون أنفسهم أنهم على الهدى، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وكما كان الشياطينُ مقارنين لهم في الدنيا، فهم يقرنون معهم في الآخرة:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: حتى إذا جاءنا يوم القيامة قال الكافر لقرينه: يا ليتَ بيني وبينك بُعدَ ما بين المشرق والمغرب، فبئس القرينُ أنتَ.

وفي قراءة: **(حتى إذا جاءانا)** على التثنية، والمراد: الكافر وقرينه.

وقوله: ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ تغليبٌ لاسم أحدهما على الآخر، كما يقال للشمس والقمر: القمران. ولأبي بكر وعمر: العمران. وللتمر والماء: الأسودان.

وهذا التمني لا ينفعه ويقال له:

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: لن ينفعكم هذا التمني إذ ثبتَ وصحَّ أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا بإعراضكم عن ذكر الرحمن، فأنتم مشتركون في العذاب، كما كنتم مشتركين في الكفر.

أو: لن ينفعكم اشتراككم في العذابِ، لأنَّ لكل واحد نصيبه الأوفر منه، ويقويه قراءة: **(أنكم)**.

لقد أدى بهم إعراضُهم عن ذكر الرحمن، واتباعُهم القدوة السيئة إلى الاستغراق في الكفر والإفراط في الضلال حتى قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام مسلياً ومواسياً:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾.

فلا قدرة لك على هدايتهم مهما بالغت في دعوتهم، لأنهم أعرضوا عن

سماع الحق ورؤية أدلته، فصاروا كالصم الذين لا يسمعون، والعمي الذين لا يبصرون، فلا خلل ولا نقص في الداعي، إنما الخلل والنقص في المعرضين عن الدعوة فلا بد من الانتقام منهم:

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: فإن قبضناك قبل أن ترى عذابهم فإنَّا منهم منتقمون لا محالة في الدنيا.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أو نُرينَّك العذابَ الذي وعدناهم، فإنهم في قبضة قدرتنا، وتحت قهر مشيئتنا، لا فرار لهم ولا نجاة.

ولقد أراه عليه الصلاة والسلام ذلك يومَ بدرٍ، وأقرَّ عينه وعيونَ المؤمنين بالانتقام من رؤوس الكفر والضلال.

* * *

الثبات على الصراط المستقيم

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يستمروا على طريق الدعوة، ويَثْبُتُوا عليه دون انتظارٍ للنتائج، المهم في الدعوة الاستمرارُ والثباتُ حتى تكون دعوتهم خالصة لله تعالى، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ إمام الدعاة:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: تمسَّك بالذي أوحي إليك في القرآن من الأحكام والشرائع، إنك على

دينٍ قويم، ومنهج مستقيم، لا يزيغُ عنه إلا ضالٌّ هالك.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: وإنه لشرف عظيم لك ولقومك وهم العرب الذين أُنزل القرآن بِلُغتهم.

أو: لشرف لك ولأمتك وهم المؤمنون، وسوف تُسألون يوم القيامة عن قيامكم بحقه، وتعظيمكم له، وعن شكركم هذه النعمة.

فالقرآن نزل بلغة العرب، فاحتاجَ أهلُ اللغات كلها إلى لغتهم حتى يقفوا على معانيه، فَشَرُفَ العربُ بذلك على سائر الناس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

أو إنه لتذكيرٌ لك ولقومك، ويبيِّن ما بكم حاجة إليه من الأحكام والشرائع، وسوف تُسألون عن العمل به، فهو شرفٌ لكلِّ مَنْ عمل به ـ كما قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ ـ سواءٌ كان من العرب أم من غيرهم.

وتابعتِ الآياتُ تؤكِّدُ صدقَ دعوته عليه الصلاة والسلام:

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

فجميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده، ونهوا عن عبادة غيره، فالمراد من السؤال التقرير للمشركين أنهم على الباطل، وأنه لم يأتِ رسولٌ بعبادة غير الله تعالى، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

* * *

السلف والمثل

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم
بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ
مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا
يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ
قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه أن فرعون وقومه كانوا سلفاً لمشركي قريش، فقد اعترضوا أيضاً على اصطفاء موسى عليه السلام لمقام النبوة والرسالة بسبب فقره وقلّة ما في يده من متاع الدنيا، كما اعترض مشركو مكة على اصطفاء الله تعالى للنبيِّ عليه الصلاة والسلام لمقام النبوة والرسالة:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

ولقد أرسلنا موسى عليه السلام مؤيداً بالمعجزات إلى فرعون ومن حوله من وجهاء قومه، فقال: إني رسول رب العالمين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: استهزؤوا منها أوّلَ ما رأوها، ولم يتأملوا فيها، وكذَّبوا موسى عليه السلام، وأعرضوا عن دعوته.

فتتابعت عليهم المعجزاتُ تصديقاً لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي بعضها شيءٌ من العذاب تحذيراً لهم:

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: وما نريهم من معجزةٍ إلا وهي مختصَّةٌ بنوع خاص من الإعجاز، يميِّزها عن غيرها، وأخذناهم بالعذابِ لعلّهم يرجعون عن عنادهم وكفرهم، كالسنين والطوفان والجراد وغيرها كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وكلَّما وقع بهم العذاب لجؤوا إلى موسى يسألونه أن يدعوَ ربه، ليكشفَ العذاب عنهم:

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: يا أيها الساحر ادع لنا ربك ليكشفَ عنا العذاب بما أخبرتنا عن عهده إليك أنَّا إن آمنا كشف عنا العذاب، إننا لمؤمنون.

ويبدو أنهم نادوه بهذا النداء تعظيماً وتوقيراً، فللسَّاحر عندهم مكانة رفيعة، وقد ذكر سبحانه في موضع آخر أنهم نادوه باسمه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وهذا يدل على أنهم نادوه باسمه، وقرنوا معه وصفه بصفة الساحر، فدعا موسى ربه، فكشف العذاب عنهم، مع علمه سبحانه أنهم لم يؤمنوا، كشفه عنهم إمهالاً لهم إلى الوقت الذي قدَّره بسابق علمه ومشيئته لإهلاكهم:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: ينقضون عهدهم، ويصرُّون على كفرهم.

ثم بينتِ الآياتُ سبب إصرارهم وعنادهم:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

فهو مغترٌّ بما عنده من متاع الدنيا وزخارفها، فتساءلَ مختالاً متكبراً: أليسَ لي ملكُ مصرَ وأنهارها المتفرعة عن النيل، تجري تحت قصوري، وتروي جِناني وبساتيني، أفلا تبصرون ذلك؟!.

فهذا في نظره يدل على أنه المستحق للطاعة والمتابعة دون نبي الله موسى، ولهذا أضاف قائلاً معرِّضاً بموسى عليه السلام:

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: بل أنا خير من هذا الذي هو ضعيف فقير، ولا يبين الكلام.

قال ذلك افتراء على موسى عليه السلام، وتنقيصاً له، إذ كان في لسانه خلل يسيرٌ في النطق أبرأه سبحانه منه كما سبق لنا عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ [طه].

فاستجاب الله له فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

فالفضْلُ في نظر فرعون منوطٌ بما في يد الإنسان من متاع الدنيا وزينتها وزخرفها، ولهذا أضاف قائلاً:

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: هلا ألقي عليه أساور من ذهب إن كان صادقاً، فالذهبُ في نظر فرعون هو سبب الرياسة والتقدم، كما هو في نظر مشركي مكة عندما اعترضوا على رسالة النبي ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: مقترنين بموسى محيطين به كما تحيط حاشية الملوك بهم تفخيماً لهم وتعظيماً.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: فحمل فرعون قومه على الخفة والعجلة والطيش بما عنده من زينة الدنيا وزخارفها، فسارعوا إلى تقليده وطاعته؛ إنهم كانوا خارجين عن طاعة الله، ولذلك أطاعوا ذلك الفاسق كما يقال في الأمثال السائدة: إنَّ الطيورَ على أشكالها تقع.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فلما اشتدَّ غضبنا عليهم بسبب إفراطهم في الكذب والفسوق انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين.

وروى **الإمام أحمد** [٤/١٤٥]: عن **عقبة بن عامر** رضي الله عنه: أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «**إذا رأيتَ الله تبارك وتعالى يُعطي العبدَ ما يشاءُ، وهو مقيمٌ على معاصيه، فإنَّما ذلك استدراجٌ منه له**» ثم تلا ﷺ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فهو كقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «وجدت النقمة مع الغفلةِ»(١).

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: جعلناهم قدوة للكفار الذين يأتون بعدهم في استحقاق العذاب، وعظة وعبرة للناس بعدهم.

ويجوز أن يُراد بالمثل القصة العجيبة التي تسير مسير الأمثال، ومعنى

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩٢.

كونهم مثلاً أن يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

* * *

الخصومة بالباطل

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وبمناسبة ذكر المثل أظهرتِ الآياتُ شدةَ عنادِ مشركي قريش وجدلهم الباطل في عيسى ابن مريم عليه السلام، فقد جعل الله تعالى خَلقه من أمِّهِ التي لم يمسسها بشر مثلاً على كمال قدرته تعالى، وأنَّ الأسبابَ ليست هي المؤثرة، إنَّما الخالقُ والمؤثر هو الله القادر على الخلق بسبب ومن غير سبب:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: يعرضون، وقالوا: ما يريدُ محمد إلا أن نتخذه إلٰهاً، كما اتخذتِ النصارى عيسى ابن مريم إلٰهاً، قاله قتادة، ونحوه عن مجاهد قال: إن قريشاً قالوا: إن محمَّداً يريد أن نعبده كما عبد قومُ عيسى عيسى، فأنزل الله هذه الآية.

وقد أخرج **أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس** رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ قال لقريش: «**يا معشر قريش إنَّه ليسَ أحدٌ يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللهِ فيه خيرٌ**» قالوا: ألستَ تزعمُ أنَّ عيسى كان نبيّاً وعبداً من عباد الله صالحاً، وقد عبدته النصارى، فإن كنتَ صادقاً فإنه كآلهتهم. فأنزل الله الآية. [رواه أحمد (١/ ٣١٧)].

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أي: آلهتنا خير أم عيسى؟.

وقال قتادة: ﴿أَمۡ هُوَۚ﴾ يعنون محمداً ﷺ، وفي قراءة ابن مسعود: **﴿آلهتنا خير أم هذا﴾** وهو يقوِّي قول قتادة، ويقويه أيضاً قوله تعالى بعد ذلك مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام:

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ أي: ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل، وهو شدة الخصومة بالباطل، والمجادل هو المخاصم، الذي لا يرغب في الحق، ولا يرضى به، ولهذا قال تعالى في وصفهم:

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: هم شديدو الخصومة بالباطل.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي أمامة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضلَّ قومٌ بعدَ هدًى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدلَ**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾. [رواه الترمذي (٣٢٥٣) وقال: حسن غريب].

* * *

عيسى عليه السلام والمثل

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦٤ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥﴾.

وبينت الآيات حقيقة عيسى عليه السلام بقوله تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة، وجعله مثلاً لبني إسرائيل يستدلون به على كمال قدرة الله تعالى.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ومن كمال قدرته تعالى أنه لو شاء لخلق منكم يا رجالُ ملائكةً يخلفونكم في الأرض، فحالُ عيسى عليه السلام ـ وإنْ كانت عجيبةً ـ فالله تعالى قادر على ما هو أعجبُ من ذلك.

وفي الآيةِ إبطالٌ أيضاً لقولهم عن الملائكة بأنَّهم بناتُ الله كما مرَّ معنا، فالملائكةُ ذواتٌ ممكَّنةٌ مخلوقة، خلقها سبحانه ابتداءً من دون توليد، وهو سبحانه قادر على أن يخلقهم بالتوالد كما خلق غيرهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

أي: وإنَّ عيسى عليه السلام بخَلْقه بغير أب دليل على قدرة الله على بعث الناس يوم القيامة، فلا تشكُّن بها، واتبعوني فيما أخبركم به وأدعوكم إليه، فهو الصراط المستقيم الذي لا يضلُّ سالكه، ولا يزيغُ عنه إلا هالك.

أو إنَّ عيسى ممَّا يُعلمُ به مجيء الساعة، لأنَّ نزوله من علاماتها الكبرى، فيعلم به دنوُّها، ويؤيده قراءة: **(وإنَّه لَعَلَمٌ للساعة)** والعلَمُ هو العلامة، كما تؤيده الأحاديث الصحيحة الكثيرة، حتى قال ابن كثير رحمه الله: وقد تواترتِ الأحاديثُ عن رسولِ اللهِ ﷺ: أنَّه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحَكَماً مقسطاً.

وقد بوَّب **الإمام البخاري** في «صحيحه» باباً خاصّاً في: [٦٠] كتاب أحاديث الأنبياء، فقال: [٤٩] باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، وأخرج فيه [٣٤٤٨]: من حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**والذي نفسي**

بيده، ليوشكنَّ أَنْ ينزِلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكَماً عَدْلاً، فيكسِرَ الصليبَ، ويقتلَ الخنزيرَ، ويضعَ الحربَ، ويضعَ الجزيةَ، ويفيضَ المالُ، حتَّى لا يقبله أحدٌ، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا مصيرٌ مِنْ أبي هريرة إلى أنَّ الضميرَ في قوله: **(ليؤمنن به)** وقوله: **(قبل موته)** يعود على عيسى، أي: إلا ليؤمن بعيسى قبل موت عيسى، وبهذا جزمَ ابنُ عباس في ما رواه ابن جرير عنه **بإسناد صحيح**.

وعن الحسن قال: قبل موت عيسى، واللهِ إنَّه الآنَ لحيٌّ، ولكنْ إذا نزل آمنوا به أجمعون، ونقله عن أكثر أهل العلم، ورجَّحه ابن جرير وغيره.

قال العلماء: الحكمةُ في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبيَّن الله تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم، أو نزوله لدنو أجله ليدفنَ في الأرض، إذ ليس لمخلوقٍ من التراب أن يموتَ في غيرِها، فيوافق خروج الدجال فيقتله(١).

وقد أيدت الأحاديثُ الصحيحةُ الكثيرةُ: أنَّ عيسى يقتلُ الدجَّال، منها: حديث **النوَّاس بن سمعان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذكرَ رسولُ اللهِ ﷺ الدجَّالَ ذاتَ غداةٍ فخفضَ فيه ورفعَ، حتى ظنناه في طائفةِ النخلِ، فلمَّا رُحنا إليه عرفَ ذلك فينا فقال: «**ما شأنُكُم؟**» قلنا: يا رسولَ اللهِ ذكرتَ الدجَّالَ غداةً، فخفضتَ فيه ورفعتَ، حتى ظننا أنه في طائفةِ النخلِ، فقال: «**غيرَ الدجالِ أخوفني عليكم، إنْ يخرجْ وأنا فيكُم فأنا حجيجُه دونكم، وإنْ يخرجْ ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفسِه، واللهُ خليفتي على كلِّ مسلمٍ، إنَّه شابٌّ قططٌ، عينُه طافئةٌ، كأنِّي أشبِّهه بعبد العُزَّى بن قَطَنٍ، فمَنْ أدركه منكم فليقرأ عليه فواتِحَ سورةِ الكهفِ... فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيحَ ابنَ مريمَ، فينزِلُ عند المنارةِ البيضاء شرقيَّ**

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٩٠.

دمشق، بين مهرودتينِ، واضعاً كفَّيه على أجنحةِ ملكَيْنِ، إذا طأطأ رأسه قطرَ، وإذا رفعه تحدَّرَ منه جمانٌ كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافرٍ يجدُ ريحَ نفسِهِ إلا ماتَ، ونفسُه ينتهي حيثُ ينتهي طرفُهُ، فيطلُبُه حتَّى يدرِكَه ببابِ لُدٍّ فيقتله. . .» [رواه مسلم (٢٩٣٧)].

وكما أمرتِ الآياتُ باتباعه عليه الصلاة والسلام حذَّرت بعد ذلك من اتباع الشيطان:

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: ولا يصدَّنكم الشيطان عن اتباعي، فإنَّه عدوٌّ لكم ظاهرُ العداوةِ، فلا تكونوا مثل بني إسرائيل في مخالفتهم لعيسى عليه السلام.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: ولمَّا جاء عيسى بالمعجزاتِ الدالَّة على صدقه قال لبني إسرائيل: قد جئتُكم بالشريعةِ المحكمةِ، ولأبيِّن لكم بعضَ الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة، فاتقوا الله بعبادته وحدَه، والتزام الشريعةِ التي كَلَّفكم بها، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه.

ثم أعلن عليه السلام أنه يدعو إلى دين التوحيد الذي هو الصراط المستقيم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: إنِّي مخلوق مربوب لله تعالى، كما أنكم مخلوقون مربوبون له سبحانه، فهو وحده المستحق للعبادة، وهذا هو الصراط المستقيم، الذي لا يضلُّ سالكه.

ومع وضوح دعوته عليه السلام، وكثرة المعجزات الدالة عليها؛ انقسموا إلى فرقٍ وأحزابٍ، ووقعَ الاختلافُ بينهم:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: اختلف الأحزاب من بين من بُعث عيسى إليهم، فويل للذين كفروا وأشركوا من عذاب يوم القيامة، فهو كما قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

* * *

رحم الإيمـان والتقوى

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وهذا اليوم آتٍ لا ريبَ فيه، وكلُّ آتٍ قريبٌ، فلماذا لا يبادر مشركو مكة إلى الإيمان؟!.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: ما ينتظرون إلا إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها.

ويومئذٍ تنقطع بينهم كلُّ العلاقاتِ المادية التي كانت في الدنيا، وتنقلِبُ إلى عداوةٍ وبغضاء وآلام وحسرات:

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: المتحابون في الأمور الدنيوية والمصالح المادية يعادي يوم القيامة بعضُهم بعضاً، ويلعنُ بعضُهم بعضاً، كما أخبرنا ربنا في آيات كثيرة؛ منها: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فالذين أحبوا فرعون وأطاعوه، واتبعوه لمناصبه وذهبه، يلعنونه ويعادونه يوم القيامة، وكذلك المشركون الذين تعلَّقت أبصارُهم بعظماء مكة والطائف، وأعرضوا من أجْلهم عن النبي ﷺ.

﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنَّهم أحبابٌ وأصحابٌ في الدنيا والآخرة، ولا تنقطع خلَّتهم وصداقتهم بالموت، فَرَحِمُ الإيمانِ والتقوى أقوى من الموت، يُكرمهم الله تعالى يوم الفزع الأكبر ويناديهم قائلاً:

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

ووصفه تعالى لهم بصفة الإيمان به والاستسلام لأحكام دينه وشريعته؛ جاء تعليلاً لهذه الكرامة العظيمة التي يتفضَّلُ بها عليهم. وفي قراءة: **(يا عبادي)**.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: ادخلوا الجنة أنتم وقرناؤكم من المؤمنين تُسَرُّون وتكرمون. أو أنتم وأزواجكم المسلمات. والمعنى الأول ينسجم مع قوله السابق: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: وأكواب من ذهب أيضاً، تارة يطاف عليهم بصحاف وأكواب من ذهب، وتارة من فضة، لقوله تعالى **في سورة الإنسان**: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

وكأنَّ ذكر صحاف الذهب هنا أمرٌ مقصود تعريضاً بالمترفين في الدنيا، الذين أعمى بريقُ ذهبها أبصارَهم عن رؤية دلائل الحق، فأعرضوا عن اتباعه، وباعوا دينهم بِعَرَضٍ قليل زائل، كما سبق معنا عند قول فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣]. فأين ذَهَبُ الدنيا وزخرفها من ذهب الجنة ونعيمها؟!.

ويؤيد ذلك أنَّ الإسلامَ حرَّم استعمالَ آنية الذهب والفضة، فإنَّ استعمالها من مظاهر الترف.

وفي الحديث الشريف: عن **حذيفة** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**لا تلبِسُوا الحريرَ، ولا الديباجَ، ولا تشربوا في آنيةِ الذهبِ والفضةِ، ولا تأكلوا في صِحَافِها، فإنَّها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة**» [رواه البخاري (٥٤٢٦)].

وعن **أم سلمة** زوج النبيِّ ﷺ قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ شَرِبَ في إناءٍ مِنْ ذهبٍ أو فِضَّةٍ فإنَّما يُجَرْجِرُ في بطنِهِ نارَ جَهَنَّمَ**» [رواه مسلم (٢٠٦٥)].

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي: وفي الجنة كل ما تشتهيه الأنفس، وتستلذُّه الأعين، فتُسَرُّ بمشاهدته.

وبعد هذا الخبر توجِّهُ الآياتُ الخطابَ إلى أهل الجنة تشريفاً وتكريماً بقوله تعالى:

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون أبداً.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وفي إشارته سبحانه إلى الجنة بـ (تلك) دلالة على أنها مطلوبة يسعى إليها طلَّابها، بينما أشار إلى جهنم بـ (هذه) تقريباً لها، وتخويفاً منها، وفي قراءة: (تشتهي الأنفس)، (ورثتموها).

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: تأكلون بعضها، فنعيمُ الجنة لا ينتهي، كما قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة].

* * *

نداء المجرمين في جهنم

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم
بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

فما قيمة متاع الدنيا الزائل بجانب نعيم الجنة الباقي الذي لا ينقص ولا يبيد؟! وما أعظمَ الفرقَ بين ذلك النعيم الخالد وبينَ متاع الدنيا الزائل الذي سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف]! بينما هي شر للمجرمين الغارقين بالإجرام والكفر:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: لا يخفَّفُ العذابُ عنهم، وهم فيه آيسون من الرحمة والنجاة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: فما عذَّبهم سبحانه هذا العذاب إلا بعدله، فهم الذين ظلموا أنفسهم باختيارهم وكسبهم، ويدفعهم يأسُهم من النجاةِ إلى سؤال الموت:

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: ونادوا مالكاً خازنَ جهنم: ليُمِتْنا ربُّكَ فيُرِحنا من العذاب. فيجيبهم بعد زمن طويل: إنَّكم مقيمون في العذاب، فلا خلاصَ لكم منه.

ثم ذكَّرهم موبخاً بأن سبب شقائهم هذا كان بكسبهم واختيارهم:

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: لقد بيَّنا لكم الحق، ووضحناه بالأدلة والبراهين، ولكنَّ أكثركم أعرض عنه، لأنكم تكرهون الحق ولا تُذعنون له. وبعضهم ما كان يكره الحق، ولكنه كفر تقليداً.

ويبدو كما مرَّ معنا أن أهل النار تتعدد نداءاتهم واستغاثاتهم فهم يستغيثون أولاً بخزنة النار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر].

فلما يئسوا منهم نادوا مالكاً، فلما يئسوا منه نادوا ربَّ العزة والجلال: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وبينتِ الآياتُ أنهم يستحقون هذا العذاب لكثرة جرائمهم، فهم لم يكتفوا بالإعراض عن رسالة النبيِّ ﷺ والاعتراض على اختياره لحمل الرسالة، بل أضافوا إلى ذلك أنَّهم مكروا به عليه الصلاة والسلام، وائتمروا فيما بينهم للتخلُّص منه، فأنزل الله تعالى يتوعدهم على ذلك بقوله:

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: أم أحكموا كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ، فإنا مبرمون كيدنا في إحباط مكرهم، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق].

وقوله أيضاً: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

والإبرام: الإحكام، **وأبرمت الشيء**: أحكمته.

وكان المشركون يتناجَوْنَ سرّاً في ناديهم، وهم يأتمرون برسول الله ﷺ، فأنزل الله يتوعدهم ويفضحهم:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

أي: أيحسبون أنا لا نسمعُ ما تكلَّموا به سرّاً، بلى نحن نسمع حديثهم، ورسلُنا من الملائكة أيضاً يسمعون ويكتبون.

* * *

توحيد وتنزيه

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

وعادت الآيات بعد هذا الوعيد والتهديد والإثارة العاطفية الوجدانية إلى الأسلوب العقلي المنطقي لتذكُّرَ المشركين بوحدانية الله تعالى، وتنزهه عن الاتصاف بالولادة والولد، وبهذا تردُّ على مزاعم المشركين الباطلة بأن الملائكة بناتُ الله، وتردُّ أيضاً على الذين وصفوا عيسى عليه السلام بأنه ابن الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: فأنا أول الخاضعين له، والمعظمين له.

فإن النبيَّ ﷺ هو أعلم بالله، وبما يصحُّ له، وما لا يصح، وأولى بتعظيم ما يجب تعظيمه، وهو كلام وارد على سبيل الفرض، المراد منه نفي الولد، ونقض كل شبهة يتعلَّق بها المخالف، كما قال سعيد بن جبير للحجاج حين قال له: واللهِ لأبدلنَّكَ بالدنيا ناراً تلظَّى، قال سعيد: لو عرفتُ أنَّ ذلك إليكَ ما عبدتُ إلٰهاً غيرَك[1].

(١) تفسير النسفي: ٥/ ٤٤٤.

فإنكار الولدِ وتنزيهه تعالى عنه ليس لعنادٍ ومراءٍ، بل لتقرير الحق: وهو أنَّ الله سبحانه منزَّه عن الولد:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

فرَبُّ هذه المكونات العظيمة يتنزه عن الولد، وعن كل صفة لا تليق بوحدانيته وجلاله وكماله، وما أقوال المشركين إلا أقوال باطلة، هي محض الجهل واتباع الهوى والتقليد الأعمى، فلا تبالِ بهم:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا بدنياهم بما فيها من زخرف ومتاع حتى يلاقوا يوم الحساب والجزاء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: والله هو المستحق أن يُعبدَ في السماء وفي الأرض، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله، العليم بما كان ويكون.

واتصافه سبحانه بكمال الحكمة والعلم دليل على استحقاقه العبادة وحده، فالآية تنفي الآلهةَ المزعومةَ السماويةَ والأرضية، وتؤكد على ألوهيته وحده جَلَّ جَلَالُهُ كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: تزايد خيره سبحانه وعطاؤه على كل شيء، فإحسانه لم يزل ولا يزال ثابتاً في ازدياد، فأينَ عطاءُ فرعون وأمثاله من عطاء الله تعالى مالك السماوات والأرض وما بينهما؟!.

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وعنده وحده علم الساعة، فلا يعلم وقتَها نبيٌّ مرسل، ولا ملك مقرَّب، فالجميع مربوبون لجلاله، منقادون لمشيئته، وإليه مرجعُهم يومَ الحساب والجزاء، وهذا يؤكد كمال علمه وحكمته سبحانه.

وقرئ: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ على الغيبة.

ثم أكدت الآيات كمال ملكه وسلطانه سبحانه في الدنيا والآخرة:

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: ولا يملك الذين يعبدون من دونه تعالى الشفاعة كما زعم المشركون أنهم شفعاؤهم عند الله.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إلا مَنْ شهدَ بالحق على بصيرة وعلم، فإنه يشفع بإذنه تعالى، فالاستثناء متصلٌ إنْ أريدَ بالموصولِ كل من عبد من دون الله لاندراج الملائكة والمسيح فيه، ومنفصلٌ إنْ خُصَّ بالأصنام.

وفي الآية إشارة إلى أنَّ الإيمان ينبغي أن يُبنى على شيء من النظر والتفكير لا على مجرد التقليد.

وكما أخبرت الآيات في صدر السورة عن إقرارهم بأن الله خالق السماوات والأرض، أخبرت في آخرها عن إقرارهم بأنه تعالى هو خالقهم أيضاً، فالخالق واحد وهو المستحق للعبادة:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بأنه وحده الخالق.

فبناء الإيمان على شيء من النظر والتفكير أمرٌ ميسور، تؤيده الفطرة، وتقويه الشواهد الكثيرة الآفاقية والنفسية.

* * *

صفح وسلام

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

فكفرهم في الحقيقة كفر عناد وجحود، وتقليد أعمى للعقائد الباطلة المتوارثة، حتى شكى النبيُّ ﷺ إلى ربه من ذلك:

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: وقال محمد: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

وقرئ: **(قيله)** بالجر، أي: وعنده علم الساعة وعلم قيله، وبالنصب عطفاً على محل الساعة، أي: ويعلم قيله، والقيل والقول والقال والمقال واحد، ويجوز أن يكون الجرُّ والنصبُ على إضمار حرف القسم وحذفه، وجواب القسم: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ والكلام خارج مخرج التحسر والتحزن والتشكي من عدم إيمانهم(١).

ولهذا جاءت الآيةُ الأخيرةُ في السورة تواسي النبيَّ عليه الصلاة والسلام وهي تخاطبه:

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: أعرضْ عنهم، ولا تبال بعنادهم وجحودهم، وقل قولاً فيه مسالمة لهم، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وعنادهم.

ففي الآية توجيه لطيفٌ للنبيِّ ﷺ لكي يحتمل أذاهم، ويصبر على إعراضهم، ولا يدعو عليهم، فهو ﷺ نبيُّ الرحمة، يربِّي النفوس ويهذبها بحلمه

(١) روح المعاني: ٢٥/١٠٨.

وأناته وصبره، وما ذكره بعض المفسرين من أنَّ المعنى المراد: أعرض عن دعواهم آيساً من إيمانهم[1]، لا أراه هو المعنى المراد، فهو يصادم مهمة النبي عليه الصلاة والسلام المكلف بها، وهي الدعوة إلى الله تعالى، والصبر على كل المعوقات التي تواجهه، كما أنه لا يتفق مع ما سبق ذكره في صدر السورة عند قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

وقد ذكرنا ثَمَّةَ أنَّ الحكمة تقتضي إنزال القرآن الكريم عليهم، ومتابعة تذكيرهم به، ولو أعرضوا عنه، ولم يلتفتوا إليه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ عن المشركين. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألّفهم، واصفحْ عنهم فعلاً وقولاً.

فهو أفضل الأساليب في الدعوة إلى الله تعالى، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ومرَّ معنا أنه عليه الصلاة والسلام بصبره ومصابرته وحلمه قد نجح نجاحاً باهراً بعد ذلك في تربية نفوس المشركين القاسية، وتهذيب طباعهم الخشنة، حتى أذعن أكثرهم إلى الإسلام، ودخلوا فيه طائعين مستسلمين.

فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يأخذوا من هذه الآيات ومن سنَّته عليه الصلاة والسلام العبرَ والعظاتِ في الدعوة إلى الله تعالى، عليهم ألا ييئسوا من هداية المدعوين، وأن يكرروا عرضها بأساليب متنوعة، فالقلوب بيده سبحانه، ولا يدري الداعيةُ متى يفتح الله تعالى برحمته هذه القلوب المغلقة بأنوار هدايته.

أسأله تعالى أن ينوِّر قلوبنا بأنوار الكتاب المبين، تنزيل الحكيم العليم.

* * *

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي للآية.



٤٤

تفسير سورة الدُّخان

إنْذارٌ وانْتِقَامٌ في سُورَةِ الدُّخَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الليلة المباركة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ
أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦
رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

بدأ سبحانه سورة الدخان خامسة الحواميم في القرآن الكريم بقوله:



﴿حمٓ ۝١﴾.

ثم أقسم بالقرآن الكريم فقال:

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾.

أي: والكتاب الذي بيَّنَ الله به كلَّ ما يحتاجُ إليه المكلَّفون من الحِكَمِ والأحكام والشرائع في أمر دينهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: إنا أنزلنا القرآن في ليلة مباركة؛ وهي ليلة القدر لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

وهي في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥].

ومن المعلوم: أنَّ القرآن الكريم نُزِّلَ على النبيِّ ﷺ مفرقاً، أكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

ومرَّ معنا في تفسير آيات الصوم في **سورة البقرة** [١٨٣ ـ ١٨٥]: أنَّ ابن عباس لما سئل عن ذلك قال: «إنَّه أُنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم أُنْزِلَ على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام». وهو رأي جمهور العلماء.

وذهب بعضهم إلى أنه ابتُدِئَ نزولُه في شهر رمضان، وهو رأي الشعبيِّ من علماء التابعين.

وأشار ابنُ حجر رحمه الله إلى التوفيق بين القولين بأنَّ نزولَه إلى السماء الدنيا، وابتداءَ نزوله على النبيِّ ﷺ كان في شهر رمضان، في تعليقه على قول ابن عباس رضي الله عنهما: «**كان رسولُ اللهِ ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضان حين يلقاه جبريلُ، وكان يلقاه في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ، فيدارسه القرآن، فَلرسولُ اللهِ ﷺ أجودُ بالخيرِ من الريح المرسلة**».

قال ابن حجر: وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان، لأنَّ نزوله إلى السماء الدنيا جملةً واحدةً كان في رمضان، كما ثبت من حديث ابن عباس، وكان جبريلُ يتعاهده في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين كما ثبت في

الصحيح [(٦٦) كتاب فضائل القرآن، (٧) باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ] عن فاطمة رضي الله عنها.

والمباركةُ: الكثيرةُ الخير، لنزول القرآن فيها، ونزول الملائكة، ومضاعفة ثواب العبادة، فهي خيرٌ من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

ثم بيَّن تعالى أنَّ من مقتضى إنزال القرآن الكريم حكمة الإنذار، وهو التحذير من العقاب:

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④﴾.

أي: في تلك الليلة المباركة يُكتَبُ ويفصَّلُ ويبيَّنُ كلُّ أمر محكم، لا يبدل ولا يغير، أو كل أمر ذي حكمة، وإن كون هذه الليلة مفرق الأمور ذات الحكمة يستدعي أن ينزل فيها القرآن الكريم الحكيم المحكم كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

قال ابن عباس: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكونُ في السَّنة من موت وحياة، ورزق ومطر، حتى الحج، يقال: يحج فلان، ويحج فلان. وقال في هذه الآية: إنك لترى الرجلَ يمشي في الأسواق، وقد وقع اسمه في الموتى.

ذكر ذلك القرطبي في «تفسيره» وقال بعده: «وهذه الإبانةُ لأحكامِ السَّنة إنما هي للملائكة الموكلين بأسباب الخلق»(١).

وإنزال القرآن الكريم من أعظم الأحداث التي مرَّت على البشرية، عظَّمه سبحانه وفخَّمه بقوله:

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ١٢٧.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي: أمراً أنزلناه على مقتضى علمنا وحكمتنا وتدبيرنا، وهو تفخيمٌ بعد تفخيم للقرآن الكريم.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: إنا كنا مرسلين محمداً ﷺ رحمة من ربك بخلقه، إنه هو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم، يعلم شدة حاجتهم إلى رسالة الإسلام، وإنزال القرآن، وبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝﴾.

أي: إن كنتم موقنين أنه مالك السماوات والأرض وما بينهما، ومدبِّر أمرهم، فعليكم أن تؤمنوا بالرسول ﷺ الذي أرسله إليكم.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾.

أي: لا معبودَ بحق إلا هو، بيده الحياة والموت، فهو ربكم ورب آبائكم الأولين شئتم أم أبيتم، وقرئ بالجر بدلاً من ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

فكما يربِّي سبحانه السماوات والأرض وما بينهما، ويدبر أمرهم، يربِّي النفوس المؤمنة، ويهذب القلوب المستنيرة، بهدي التنزيل الحكيم، فالقلوب تحيا بالاستجابة لهديه، والاستسلام لشرعه، وتموت بإعراضها عنه كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

* * *

دخان من السماء

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾.

ولهذا وصف سبحانه أصحاب القلوب الميتة القاسية المعرضة عن هدي التنزيل الحكيم فقال:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾.

أي: جاءهم الحق المؤيد بالأدلة والبراهين، وهم يشكُّون فيه لاعبين غافلين، لا يكلِّفون أنفسهم عناء النظر فيه، مع أنه أمر خطير وكبير، ولهذا توعَّدهم بقوله:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾.

أي: فانتظر لهم يوم تأتي السماء بجدب ومجاعة، حتى يروا ما بينهم وبين السماء كهيئة الدخان.

ومن المعلوم أنه في سنوات القحط والجفاف يكثر الغبار، ويتكدَّر الهواء، لقلة الأمطار المسكِّنة له، وموت النباتات الممسكة للتربة.

﴿يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

أي: يحيط بالناس اللاعبين الغافلين قائلاً لهم بلسان حاله: هذا عذاب أليم، فانتبهوا من غفلتكم، وتوقفوا عن لهوكم ولعبكم واستهزائكم، فإنَّ الأمرَ جِدٌّ خطير وكبير.

ويبدو أن القوم أحسوا بالخطر، فانتبهوا من غفلتهم، وقالوا:

﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: إنا مؤمنون إن كشفت العذاب عنا.

وفي الحديث الشريف: عن مسروق تلميذ **ابن مسعود** رضي الله عنه قال: بينما رجلٌ يحدِّث في كِندة فقال: يجيءُ دخانٌ يومَ القيامةِ فيأخذُ بأسماعِ المنافقينَ وأبصارِهم، ويأخذُ المؤمنَ كهيئةِ الزكام، ففزعنا، فأتيتُ ابنَ مسعودٍ، وكان متكئاً فغضبَ فجلسَ فقال: مَنْ عَلِمَ فليقل، ومَنْ لم يَعْلَمْ فليقل: اللهُ أعلمُ، إنَّ الله قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [صٓ: ٨٦]، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمَّا دعا قريشاً كذَّبوه، واستعصوا عليه، فقال: «**اللهمَّ أعني عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسفَ**» فأصابتهم سَنَةٌ حصَّت (أذهبتْ) كلَّ شيءٍ، حتى كانوا يأكلون الميتة، وكان يقومُ أحدُهم فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان من الجهدِ والجوع.

وفي رواية: حتى أكلوا الجلودَ والميتةَ، وجعل يخرجُ من الأرضِ كهيئة الدخانِ، فأتاه أبو سفيان فقال: أيْ محمد، إنَّ قومَك قد هلكوا، فادعُ الله أن يكشفَ عنهم. فدعا ثم قال: «**تعودوا بعد هذا**». ثم قرأ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان]. قال عبد الله: أفيكشَفُ عنهم العذابُ يومَ القيامةِ؟ [رواه البخاري (٤٨٢٤)].

وعن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: خمسٌ قد مضينَ: «اللزامُ، والرومُ، والبطشةُ، والقمرُ، والدخانُ» [رواه البخاري (٤٨٢٥)].

قال ابن حجر: «ولا تدافعَ بين الروايتين، لأنه يُحمل على أنه كان مبدؤه من الأرض، ومنتهاه ما بينَ السماءِ والأرض».

وقيل: هو دخان يجيءُ قَبْلَ قيام الساعة، ولم يأتِ بعدُ، ويؤيد هذا القول الحديث الشريف: عن **حذيفة بن أسيد الغفاري** قال: كان النبيُّ ﷺ في غرفةٍ، ونحنُ أسفل منه، فاطلعَ علينا، فقال: «**ما تذكرون؟**» قلنا: الساعة، قال: «**إنَّ**

الساعةَ لا تكونُ حتَّى تكونَ عشرُ آياتٍ: خَسْفٌ في المَشْرِقِ، وخَسْفٌ في المَغْرِبِ، وخَسْفٌ في جزيرةِ العربِ، والدخانُ، والدجَّالُ، ودابةُ الأرضِ، ويأجوجُ ومأجوجُ، وطلوعُ الشمسِ من مغربها، ونارٌ تخرجُ من قعرِ عدن ترحِّل الناسَ».

وفي رواية ثانية: «**العاشرة نزول عيسى ابن مريم**» [رواه مسلم (٢٩٠١)].

ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين الآثار.

* * *

البطشة الكبرى

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

وعَلِم سبحانه أنهم كاذبون في قولهم: ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢] كما سيأتي معنا، فردَّ عليهم قائلاً:

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

أي: كيف يتذكرون ويتعظون بما أصابهم والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكُّر والاتعاظ ما هو أعظم منه عندما جاءهم الرسول ﷺ بالآيات البينات فلم يتذكروا وأعرضوا عنه:

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾.

وأضافوا إلى عنادهم وإعراضهم افتراءهم على النبيِّ ﷺ وقولهم عنه: معلَّمٌ مجنون، أي: قالوا تارة: يعلِّمه بشر، وأخرى: مجنون، فلا يُتوقع من مثل هؤلاء المعاندين أن تلينَ قلوبُهم، وتتهذَّبَ نفوسهم، وما رفع الله العذاب عنهم إلا إكراماً للنبيِّ ﷺ نبيِّ الرحمة.

﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إنا نكشف العذاب عنكم زماناً طويلاً، وإنَّكم تعودون إثر كشفه إلى ما كنتم عليه من الكفر والطغيان.

وصيغة الفاعل في الفعلين دلَّا على تحققهما، وقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبي ﷺ، فعادوا إلى ما كانوا عليه من كفر وطُغيان.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: إنا ننتقم منهم يوم نبطش البطشة الكبرى.

والبطش: العنف والسطوة، والأخذ الشديد والبأس، والمراد من يوم البطشة: يوم غزوة بدر كما مرَّ معنا عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه عَبْدُ بن حُمَيد عن أبيِّ بن كعب، وهو قول مجاهد والحسن وأبي العالية وسعيد بن جُبير ومحمد بن سيرين وقتادة.

وقيل: هو يوم القيامة، فقد أخرج ابن جرير وعبد بن حُمَيد بسند صحيح: عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة(١).

* * *

إهلاك المجرمين

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ
﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم أخبرت الآيات أنَّ الانتقامَ من المجرمين المصرِّين على الكفر والطغيان سُنَّةٌ من سننه تعالى التي لا تتبدل، أجراها سبحانه على فرعون وقومه بسبب إعراضهم عن دعوة موسى وطغيانهم وظلمهم:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

أي: امتحنَّا قومَ فرعون قبل قوم النبي ﷺ، وجاءهم رسول كريم هو موسى عليه السلام.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: قال لهم: أرسلوا معي بني إسرائيل، وكفُّوا عن ظلمهم، إني لكم رسول من الله، أمين على الرسالة.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾.

أي: ولا تتكبروا على الله بالاستهانة برسوله، والإعراض عن رسالته، إني آتيكم بحجة واضحة تدل على صحة نبوَّتي وصدق رسالتي.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وإني اعتصمتُ واحتميتُ بربكم أن تقتلوني.

وفي قراءة: (عُتُّ) بالإدغام.

ومرَّ معنا أن فرعون عزم على قتل موسى، وأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ التجأ إلى الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر].

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وإن لم تؤمنوا برسالتي فاتركوني، ولا تتعرضوا لي بسوء.

ومع هذا التلطف في الدعوة أصرَّ فرعونُ وقومُه على إجرامهم وطغيانهم، فدعا عليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: عريقون بالإجرام والفساد.

وما دعا عَلَيْهِ السَّلَامُ عليهم إلا بعد أن يئس من إيمانهم وتهذيب نفوسهم، فقد أجرى الله على يديه عدداً من المعجزات الباهرة فلم ينتفعوا بها، وأعرضوا عنها، ولما حان الأجلُ المسمّى في علمه تعالى للانتقام منهم أوحى الله إليه:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: إن كان الأمر كما تقول فأسرِ ببني إسرائيل ليلاً، إنَّ فرعون وجنوده يتبعونكم إذا علموا بخروجكم. وفي قراءة: (فاسْر) بوصل الهمزة من سرى.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: اترك البحر مفتوحاً ساكناً على هيئته بعد أن تجاوزه مع بني إسرائيل، إنهم جند مغرقون.

ويبدو أنَّ موسى عليه السلام بعد أن تجاوزَ البحر بمن معه أراد أن يضرب البحر كما ضربه أولاً فينغلق كي لا يتبعه فرعون وجنوده، فأمره الله أن يتركه مفتوحاً ساكناً على هيئته، ليدخله فرعون وجنوده، فلما دخلوا فيه أطبقه سبحانه عليهم، فأهلكهم وأغرقهم، وبهذا تمت كلمته تعالى، وتحققت مشيئته بإهلاكهم من خلال الأسباب الظاهرة التي قدرها بسابق علمه ومشيئته.

* * *

بكاء السماء والأرض

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ثم أخبر تعالى عن حقارتهم وهوانهم وقلة شأنهم مع ما كانوا عليه من الغنى والنعيم:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ما أكثر الحدائق والعيون والمزارع والمنازل المزينة التي تركوها، وكانوا فيها متنعِّمين، يستمتعون بكل ما فيها. وقرئ: **(فكهين)**.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: كذلك كان أمرهم ومصيرهم، وأورثناها قوماً آخرين، وهم بنو إسرائيل، فقد مكَّنهم الله من التصرف فيها كما في قوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء].

لكنّهم لم يرجعوا إليها، بل توجَّهوا إلى الأرض المباركة في بلاد الشام، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا

فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: هلك فرعون وقومه وبادوا، فلم يبالِ بهلاكهم أحد من أهل السماء والأرض، وما كانوا ممهلين ومؤخرين إلى وقت آخر.

وفي الآية إشارة إلى أنَّ الأرض والسماء تتأثران بموت الصالحين الذين يعمرونهما بطاعة الله وعبادته، يؤيده قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة].

وفي الحديث: عن **أنس** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ مؤمنٍ إلا وله بابانِ: بابٌ يصعدُ منه عملُه، وبابٌ ينزِلُ منه رزقُه، فإذا ماتَ بكيا عليه، فذلك قوله تعالى:** ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾» [رواه الترمذي (٣٢٥٥)].

وفي تفسير ابن كثير للآية عن مجاهد: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، فقيل: أوَ تبكي؟ فقال: وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود، وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل.

ورحم الله سيد قطب عندما قال في تعقيبه على هذه الآية: ولو أحسَّ الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله، ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه، مقطوعين عنه، لا تربطهم به آصرة، وقد قطعوا آصرة الإيمان.

* * *

إسراف وطغيان

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾
وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ
ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن
رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

هكذا نجّا الله بني إسرائيل، وانتقم من فرعون وقومه بسبب إسرافهم وطغيانهم، وقال معقباً على ذلك:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾.

وهو ظلم فرعون واستعباده بني إسرائيل، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم.

﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: إنه كان متكبِّراً مبالغاً في الإسراف، جعلته الآية نفسَ العذاب لمبالغته فيه وشدة طغيانه.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: ولقد اخترنا بني إسرائيل على عالمي زمانهم، ونحن عالمون بحقيقتهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

وأعطيناهم من عظائم المعجزات الحسية التي لم نعطِ مثلها غيرهم ابتلاء واختباراً، لنظهر عملهم، ونبين للناس أمرهم.

مهَّد الله بهذا التعقيب للحديث عن كفار مكة وإعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ، وإنكارهم يوم الحساب والجزاء:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: إن كفار قريش ليقولون: ما النهاية إلا في الموتة الأولى، وما نحن بمبعوثين بعدها، فابعثوا آباءنا إن كنتم صادقين فيما تقولون من قيام الساعة.

وكلامُهم هذا موجَّهٌ إلى الرسول ﷺ والمؤمنين.

وردَّ تعالى عليهم مهدداً متوعداً، فمثل هؤلاء المعاندين لا تناسبهم إلا لغة الوعيد والتهديد:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: أكفار قريش أقوى أم قوم تُبَّع الذي ملكوا الممالك شرقاً وغرباً، والذين من قبلهم من الأمم القوية؟! أهلكناهم لأنهم كانوا مجرمين.

ويمكن أن يكون تُبَّع هو ذو القرنين الذي ذُكر في **سورة الكهف**، فهو رجل صالح مؤمن، ولهذا ذمَّ سبحانه قومه ولم يذمَّه.

أخرج الحاكم [٢/ ٤٥٠] وصححه: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: كان تُبَّعٌ رجلاً صالحاً، ألا ترى أن الله ذم قومه ولم يذمه.

كما أخرج أحمد [٥/ ٣٤٠] والطبراني [١١/ ٢٩٦] وابن أبي حاتم: عن **سهل بن سعد الساعدي** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبُّوا تُبَّعاً، فإنَّه كان قَدْ أَسْلَمَ**».

ثم نفت الآيات نفياً قاطعاً أن يكون سبحانه قد خلق الخلق عارياً عن الحكمة:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: عابثين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [صٓ: ٢٧].

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: ما خلقناهما إلا بسبب الحق وهو الإيمان والطاعة والعبادة، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون ذلك، فالمؤمنون الذين يَعْمُرُونَ الأرضَ بطاعة الله، هم الذين يعلمون حكمةَ خلقهم، ويقولون كما مرَّ معنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ففي يوم الحساب والجزاء يظهر تعالى حكمته في خلقه، ولهذا أكدته الآيات بقوله تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: إنَّ يومَ الفصل بين الحق والباطل موعدُهم أجمعين.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: يوم لا يدفع ولا ينفع صاحبٌ عن صاحبه شيئاً، ولا هم يُمنعون من العذاب.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: لا ينفع يومئذٍ إلا رحمة الله، المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

* * *

الزقوم والحميم

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم عرضت الآيات صُوَراً مرعبة من صور انتقامه تعالى من الطغاة المجرمين يوم القيامة:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: المبالغ في الإثم، المصرُّ عليه.

وذكر كثير من المفسرين أنه أبو جهل، ولا شك أنها تنسحب على أمثاله أيضاً.

﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: كالماء الحار عندما يشتد غليانه، أو كدردي الزيت الأسود، وهو عكره، سُمِّي مُهلاً، لأنه يُمهل في النار ويترك.

وفي قراءة: **(تغلي في البطون)** أي: شجرة الزقوم تغلي في البطون.

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: تغلي كما يغلي الحميم.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: أنَّ الرسولَ ﷺ قرأ هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ثم قال رسول الله ﷺ: «**لو أنَّ قطرةً من الزقُّومِ قطرتْ في دارِ الدنيا لأفسدتْ على أهلِ الدنيا معايشَهم، فكيفَ بِمَنْ تكونُ طعامَه**» [رواه الترمذي (٢٥٨٥) وقال: حسن صحيح].

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: ويقال لخزنة جهنم: جرُّوه واسحبوه بعنف إلى وسط الجحيم. وفي قراءة: (**فاعتُلُوه**) بالضم.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾.

والمصبوب هو الحميم لا عذابه، إلا أنه إذا صُبَّ عليه الحميم فقد صبَّ عليه عذابه، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج].

ويقال له استهزاء وتقريعاً وتهكُّماً على ما كان يزعمه:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: ذق لأنك كنت تزعم العزة والكرم عند قومك في الدنيا.

وهذا استهزاء به، وتقريع له، ومعناه: إنَّكَ أنت الذليل المُهان.

وفي قراءة الكسائي: (**أنك**) بالفتح.

﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: تشكُّون وتمارون فيه، كما قال تعالى: ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور].

* * *

أمن ونعيم

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾.

وعرضت الآيات في المقابل صوراً من صور إنعامه تعالى على عباده المتقين:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١)﴾.

أي: في مكان أمين يأمنون فيه من أي مكروه. وفي قراءة: **(مُقام)** بضم الميم.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢)﴾.

أي: يقيمون في جنات وعيون، لا تنقطع ولا تبيد، ولا يتركونها كما ترك فرعون وقومه جنَّاتهم وعيونهم.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣)﴾.

أي: متواجهين، لا يرى بعضهم ظهور بعض، فيزداد أنسُهم ببعضهم.

ومرَّ معنا أن **السندسَ**: ما رقَّ من الديباج، **والاستبرقَ**: ما غلظَ منه.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤)﴾.

أي: وكما أدخلناهم الجنة زوجناهم بحور عين.

والحور: جمع حوراء، وهي البيضاء الحسناء، التي يحار الطرْفُ في

حُسنها، أو لحور عينيها، وهو شدَّة البياض والسواد. **والعِينُ**: جمع عَيناء، وهي الواسعة العينين.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾.

أي: يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه وهم آمنون من كل سوء، فالأمن يظلِّلهم في كل شيء، في مطاعمهم ومشاربهم وملابسهم ومجالسهم، فلا خوف يعكِّر عليهم صفاءهم ويشغل بالهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ﴾ أي: لا يذوقون في الجنة الموتَ سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، فالاستثناءُ يؤكد النفي، فلا يذوقون فيها الموتَ أبداً، فهم آمنون منه.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عمر** رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا صارَ أهلُ الجنةِ إلى الجنةِ، وأهلُ النارِ إلى النارِ جيءَ بالموتِ حتى يُجعلَ بينَ الجنَّةِ والنارِ، ثم يُذبحَ، ثم ينادي منادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ لا موتَ، يا أهلَ النارِ لا موتَ، فيزدادُ أهلُ الجنةِ فرحاً إلى فرحِهم، ويزدادُ أهلُ النارِ حُزناً إلى حُزنهم**» [رواه البخاري (٦٥٤٨)].

وعن **أبي هريرة وأبي سعيد الخدري** رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ينادي منادٍ: إنَّ لَكُم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوْا أبداً**» [رواه مسلم (٢٨٣٧)].

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: ووقاهم سبحانه مع هذا النعيم عذاب الجحيم.

وهذا الأمنُ والنعيمُ والوقايةُ من عذاب الجحيم، كلُّه فضل من الله تعالى تفضَّل به عليهم من غير سابقة استحقاق:

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

لأنه وقاية من المكاره، وفوز بالمطلوب.

وقرئ: **(فضلٌ من ربك)** بالرفع، أي: ذلك فضل من ربك.

وفي ختام السورة ختمت الآيات بتذكير النبي ﷺ بدور القرآن الكريم وأهميته في تهذيب نفوسهم وتقويم اعوجاجهم:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: إنما يسرناه بلسانك ولغتك كي يفهموه، ويعملوا بموجبه.

فاستمسك به، ودُمْ على تذكيرهم بآياته، لعل قلوبهم تنتفع بهديه، وتستنيرُ بنوره، وإلا فانتظر ما يحل بهم:

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

إنهم منتظرون ما يحِلُّ بك.

ولا يخفى ما في الآية من تهديد ووعيد، بالانتقام منهم إنْ أصرُّوا على كفرهم وعنادهم.. وقد فعل سبحانه ذلك في يوم بدر، يوم البطشة الكبرى.

والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مدارج الكمال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

بدأ سبحانه سورة الجاثية سادسةَ الحواميم كما بدأ غيرها من الحواميم فقال:

﴿حمٓ ۝١﴾.

ثم نوّه تعالى بشأن القرآن الكريم:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

فهو الكتاب المنزل من الله العزيز الحكيم على النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ثم لفتت الآياتُ الأنظار إلى الدلائل والبراهين الدالة على كمال قدرته تعالى وباهر حكمته، والمبثوثة في جميع المكونات الآفاقية والنفسية، وكلها تدعو إلى الإذعان لحكمه والاستسلام لأمره:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

أي: وفي خلقكم في أطوار مختلفة، وفي ما ينشره ويفرِّقه من دابة، آياتٌ لقوم يوقنون بوجود الله ووحدانيته.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

فالمنصفون من الناس إذا نظروا في السماوات والأرض نظراً صحيحاً موضوعيّاً علموا أنها حادثةٌ مخلوقةٌ لا بدَّ لها من خالق، فآمنوا به، فإذا نظروا في خلق أنفسِهم، وتنقلها من حالٍ إلى حالٍ، وفي خلق ما ظهر على الأرض من أصناف الحيوان، ازدادوا إيماناً بوجود الخالق، وأيقنوا بكمال قدرته، وباهر حكمته، فإذا نظروا في سائر الحوادث المتجددة، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وتصريف الرياح شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، عقلوا هذه الحوادث، واستحكم علمهم بأنَّ مدبِّرها ومحدثها إلٰه واحد، وعُدُّوا بذلك من العقلاء أولي الألباب الذين أحسنوا الانتفاع بعقولهم.

هكذا يرتقي الإنسانُ في مدارج الكمال، وينتقلُ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، فالإنسان يشرف بمعرفة الله تعالى، ويكمل بالإيمان به ﷻ، وكلما ازداد الإنسانُ معرفةً بربه، ازدادَ خشيةً له وتعظيماً، فكأنَّ الآياتِ تبيِّنُ أفضلَ الطرق في تربية النفس وتهذيبها وتكميلها، ولهذا قال تعالى منوهاً بما فيها:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

أي: تلك آيات دلائله التي تدل عليه سبحانه، نتلوها عليك بالحق الثابت

المؤيد بالدليل والبرهان، فإذا أعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها، فلن يؤمنوا بغيرها، ففيها البراهين القاطعة والحجج الساطعة التي لا توجد في غيرها.

* * *

سبيل الهدى والفلاح

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى
عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

فمن لم ينتفع بها ولم يستجب إلى لغة المنطق والعقل؛ لا تناسبه إلا لغة الوعيد والتهديد:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

وويل: كلمة تهديد ووعيد، تقال لمن يريد الله تعذيبه، كما مرَّ معنا.

والأفاك: الكذاب المبالغ في الكذب.

والأثيم: مرتكب المعاصي والآثام الكثيرة.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: يسمع آيات القرآن الكريم تُقرأ عليه، ومع ذلك يتمادى في كفره، متعاظماً في نفسه، كأنه

ما سمعها، فسماع القرآن الكريم كافٍ شافٍ، يكفي مريد الحق ليعرفه، ويذعن له، فلا حجة للمعرض عنه.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره على الباطل، وإعراضه عن الحق.

ولا يخفى ما في الوعيد بلفظ البشارة من تهكُّم مرير بهذا الأفاك الأثيم.

إنَّ إعراضه عن الحق أدى به إلى انحطاطه، وتسفيهه إلى حدِّ الاستهزاء بآيات القرآن عندما يسمعها ويعلم أنها منها:

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾.

أي: أولئك المتصفون بهذه الصفة لهم عذاب يهينهم ويذلُّهم.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم ومآلهم إلى جهنم.

﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ولا يدفع عنهم شيئاً من عذاب جهنم ما كسبوا من الأموال والأولاد، ولا ما عبدوا من دون الله من آلهة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولا نجاةَ لهم من العذاب العظيم إلا إذا تمسكوا بهدي القرآن الكريم.

﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿هَٰذَا هُدًى﴾ فهو سبيل الهداية والفلاح لا فلاح بغيره، فكأنه عين الهدى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي: والذين أعرضوا عنه وكفروا بآياته لهم أشد العذاب.

ومن الآيات المؤدية إلى سبيل الهدى والفلاح الدالة على كمال فضل الله وإحسانه:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: لتجري السفنُ فيه بمشيئته وقدرته كما في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى].

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولعلكم تشكرونه سبحانه على هذه النعم فتتبعون سبيل الهدى والفلاح.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ فكل ما في السماوات والأرض مسخَّر لمنافعكم بمشيئته تعالى وقدرته، فهو وحده المحسن المتفضل الخالق المدبِّر، وكلُّ شيءٍ في هذا الوجود من الله وإليه، فهو مُنْشِئُه ومدبِّره، ولا يحدث شيء من دون محدث أحدثه وخالق خلقه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعرفون فضله تعالى عليهم والمكانة العالية الرفيعة التي رفعهم إليها.

وعليهم أن يقابلوا إحسانه وفضله سبحانه بالإحسان إلى عباده:

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي: يعفوا ويتجاوزوا عن الذين لا يرجون ثواب الله، أو لا يخافون بأس الله ونقمته، فهو توجيه كريم للمؤمنين، وتثبيت لهم في مواجهة أذى الكافرين وظلمهم وبغيهم، فإنَّ الله سبحانه سينتقمُ منهم، وعلى المؤمنين أن يكلوا أمرهم إليه.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فالله هو الذي يجزيهم بما كانوا يكسبون من خير أو شر، فلكل أجل عنده كتاب، والله لا يعجل لعجلة عباده، وكل إنسان مسؤول عن عمله:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

فلكل نفس ثوابُ عملها الصالح، وعليها عقابُ عملها السيئ، ثم إلى ربكم ترجعون، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

* * *

اعتبار واستبصار

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

وبنو إسرائيل أقربُ مثال واقعي من تاريخ الأمم يُذكر للاعتبار والاستبصار، فهم من الأمم التي تفضَّل الله عليهم بنعم كثيرة، وبوَّأهم بين الأمم والشعوب مكانة رفيعة، فقابلوا نِعَم الله عليهم بالجحود والكفران:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أنزل الله عليهم التوراة، ومكَّن لهم في الأرض، واختار منهم كثيراً من الأنبياء.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: وفضلناهم بما آتيناهم على عالمي زمانهم.

﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ﴾ أي: وأعطيناهم معجزات واضحات أجراها سبحانه على أيدي رسله تبيِّن لهم الحق وترشدهم إليه.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أي: فما وقع الخلاف بينهم إلا من بعد ما جاءهم ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم، وإنما اختلفوا لتحاسد بينهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: إن ربك يفصل بينهم يوم الحساب والجزاء فيما وقع بينهم من اختلاف.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ثم جعلناك يا محمد بعد اختلاف أهل الكتاب على شريعة عظيمة من أمر الدين، فتمسَّك بها، ولا تتبع أهواء الجهَّال النابعة من شهواتهم.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ﴾ إن اتبعتهم.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ﴾ فلا يواليهم، ولا يتبع أهواءهم إلا من كان مثلهم.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وأنت قدوتهم وإمامهم، فدُمْ على ولاية الله، وأعرض عمَّا سواه، وذلك باتباع القرآن الكريم، فهو سبيل الهدى والفلاح.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾.

أي: هذا القرآن يبصِّرُ الناسَ طريق الفلاح والنجاح، فإنَّ ما فيه من معالم الدين وأحكام الشريعة بمنزلةِ البصائر لقلوب الموقنين، يهديهم الله به من الضلالة ويرحمهم.

* * *

التمييز بين المتفاضلين

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢﴾.

فلا بدَّ أن يمتازوا عن غيرهم بسلوكهم وأعمالهم وأخلاقهم، وكما اختلفوا في الحال لا بد أن يختلفوا في المصير والمآل:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ﴾ أي: أيظن الذين اكتسبوا المعاصي والكفر أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات؟! لا، فالمؤمن مؤمن في الدنيا والآخرة، والكافر كافر في الدنيا والآخرة، وشتان ما بينهما في الحال والمآل، ولا يعقل أن يسوِّي الله بين المتفاضلين، وهو الحَكَم العدل جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم هذا، وهو الحُكم بالتساوي بين المؤمنين والكافرين.

وفي قراءة: (**سواءٌ محياهم ومماتهم**) برفع (**سواء**) على أنه خبر مقدم، وما بعده مبتدأ.

وكيف يسوي سبحانه بينهم، وقد خلق السماوات والأرض على أساس الحق والعدل؟! فالحق أصيل في بناء الكون، وما أنزل الله الميزان والشريعة وقرر الحساب والجزاء إلا لحماية هذا الحق:

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ والحق يستدعي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المسيء والمحسن.

وإذا لم يتحقق هذا في الحياة الدنيا لا بدَّ أن يتحقَّقَ في الآخرة، فتُجزى كل نفس بما كسبت:

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

* * *

التحذير من اتباع الهوى

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وعادت الآيات إلى التحذير من اتباع الهوى، وبيان ما يؤدي إليه من إعراض عن الحق وانهماك في الضلال:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؟! أي: أنظرت إلى من ترك متابعة الهدى إلى

مطاوعة الهوى، فهو يعبد هواه، فلا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشرب من هواه، فالسؤال فيه تعجيب من حاله.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: خذله الله، وهو عالم بضلاله وفساد جوهره.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا يقبل موعظة، ولا يعتقد حقّاً، ولا يبصر هدًى، فالشر في متابعة الهوى، والخير في مخالفته.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا يهديه أحد بعد أن أضله الله، أفلا تتذكرون هذه الحقيقة، وتتعظون بها، فالحوادِثُ كلُّها لا تحدث إلا بمشيئته تعالى وقدرته حتى الهدى والضلال، وقرئ بالتخفيف والتشديد (تذكرون، تتذكرون).

* * *

الرد على الدهرية

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

ومن صور ضلالهم واتِّباعهم لأهوائهم أنهم يضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان، وينكرون وجود الخالق المحيي والمميت:

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ أي: وقالوا: ما الحياة

إلا الحياة الدنيا التي نحن فيها، نموت ونحيا فيها، ولا حياة بعدها، وما يهلكنا إلا مرور الزمان.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: وما يقولون ذلك من علم، إن هم إلا يتوهمون ويتخيلون.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**قالَ اللهُ** عز وجل: **يؤذيني ابنُ آدمَ؛ يسبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بيدي الأمرُ، أقلِّبُ الليلَ والنهارَ**» كذا أخرجه **البخاري** في «صحيحه» [٤٨٢٦].

وأخرجه **الطبري** بهذا الإسناد عن النبيِّ ﷺ قال: «**كان أهلُ الجاهليةِ يقولون: إنَّما يهلِكُنا الليل والنهار، هو الذي يميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه:** ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا...﴾ الآية قال: **فيسبون الدهر**»(١).

وسبق معنا في **سورة البقرة** مناظرةُ إبراهيم عليه السلام لأمثال هؤلاء المغرورين المخدوعين في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

ويضيفون إلى كفرهم هذا جحود يوم القيامة محتجِّين بحجج باطلة واهية:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وإذا قرئت عليهم آيات القرآن الناطقة بالحق أعرضوا عنها محتجِّين بما لا يصلح أن يكون حجَّة، وهو قولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأننا نُبعث بعد الموت.

وقرئ برفع: **(حجتُهُم)** على أنها اسم كان، ويكون المعنى: ما كان حجتهم شيئاً من الأشياء، إلا هذا القولَ الباطلَ، أما القول الحق المؤيد بالدليل والبرهان فهو ما أُمِر النبي ﷺ أن يردَّ به عليهم:

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٧٤.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ أي: الله يحييكم ابتداءً، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، لا كما زعمتم أنكم تحيَون وتموتون بمجرد مرور الزمان والدهر، فالإحياءُ والإماتةُ حوادِثُ لا بدَّ لها من محدث مختار، قدَّرها بمشيئته وسابق علمه.

﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في جمعكم، فإنَّ مَنْ قدرَ على البَدْءِ قَدِرَ على الإعادة، والحكمة تقتضي الحساب والجزاء، والإتيان بآبائكم قبل هذا اليوم لا حكمة فيه، ولهذا قدَّر سبحانه امتناع وقوعه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لجهلهم وقصورهم في التفكير والنظر، فالنقص والخلل فيهم، بسبب انهماكهم في شهواتهم، وتغلُّب أهوائهم عليهم، فالحق واضح أبلج، مؤيد بالحجج الناطقة والبراهين الساطعة.

ثم قررت الآيات كمال سلطان الله تعالى في ملكه، وأنه وحده المتصرف والمؤثر فيه، فلا تأثير للزمان والدهر، والحوادث لا بد لها من مُحْدِث، والزمان ليس إلا ظرفاً لها لا تأثير له بها:

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٢٧﴾.

فسلطانه تعالى مطلق لا حدود له في الدنيا والآخرة، وفي هذا اليوم يخسر المبطلون، الذين ينسبون الحوادث إلى الدهر.

* * *

من مشاهد يوم القيامة

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وعرضت الآيات تعظيماً لشأن هذا اليوم ـ يوم القيامة ـ وتهويلاً له مشهداً من مشاهده:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: باركة على الركب، ممَّا يدل على شدة خوفهم وغاية خضوعهم وذلتهم.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تُدعى إلى كتاب أعمالها للحساب والجزاء، ويقال لهم: اليومَ تجزونَ ما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر.

﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: هذا كتابنا يشهد عليكم بما عملتم شهادةَ حقٍّ، لا زيادة فيها ولا نقصان، إنا كنا نأمرُ الملائكةَ الكرامَ أن تكتبَ ما كنتم تعملون.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

أي: فيدخلهم الله في رحمته الموصلة إلى جنته، فيفوزون الفوز الواضح الخالص عن الشوائب والأكدار.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وأما الذين كفروا فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن الإيمان بها، فكنتم قوماً عادتُهم الإجرام، أو عريقين في الإجرام؟! ومن إجرامكم إنكاركم يوم القيامة:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: قلتم استبعاداً لها واستغراباً: إن نظن إلا ظنّاً وما نحن بمستيقنين بوقوعها.

وكأن هؤلاء فريق آخر غير الدهرية المنكرين وجود الخالق جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أي: ظهر لهم عقوبات أعمالهم عندما عاينوا قبحها، وعرفوها، ونزل بهم جزاء استهزائهم. ولما كان الجزاء من جنس العمل يقال لهم:

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ أي: نترككم في العذاب كما تركتم في الدنيا الإيمان بهذا اليوم، فلم تبالوا به، وتركتم الاستعداد له.

﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونكم منها.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٥﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ أي: ذلكم العذاب بسبب إعراضكم عن الدلائل التي تهذب نفوسكم، وترشدكم إلى الحق، فلم تحفلوا بها، ولم تقبلوا عليها، وأقبلتم على الدنيا مغترين بها:

﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ أي: ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم لفوات أوانه.

* * *

الحمد والكبرياء لله تعالى

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٧﴾.

وختمت آيات السورة بإعلان الحمد لله، وفيه ـ كما مرَّ معنا ـ إقرار بكمال ذاته وصفاته وإحسانه، وإذعان وانقياد لآياته وأحكامه:

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦﴾.

فكل شيء مربوب لله تعالى، فهو خَلْق من خَلْقه، وتحت قهر تصرفه ومشيئته.

﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٧﴾.

﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: وله العظمة والجلال، والقدرة والكمال في كل المكونات، إذ هي أثر من آثار قدرته وصنعته، وباهر حكمته، فعظِّموه، ومجِّدوه، وأذعنوا لأحكام دينه وشرعه في تنزيله تنزيل العزيز الحكيم:

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: وهو العزيز الذي لا يُغْلَبُ، الحكيمُ في كل ما قضى وقدَّر، فالكبرياءُ صفةٌ من صفات كماله وجماله، لا يشاركه فيها أحد، ولا تليقُ بغيره جَلَّ جَلَالُهُ.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري وأبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العزُّ إزارُهُ، والكبرياءُ رداؤُهُ، فمن ينازعني عذبته**» [رواه مسلم (٢٦٢٠)].

والضمير في (**إزاره، ورداؤه**) يعود إلى الله تعالى للعلم به، وهذا وعيدٌ شديدٌ في الكبر، وتسميته إزار ورداء مجازٌ، واستعارة حسنة، كما تقول العرب: فلان شعاره الزهد، ودثاره التقوى، لا يريدون الثوب الذي هو شعار أو دثار، بل معناه: صفته كذا.

اللهم اجعلنا ممن يعظِّمُك ويمجِّدُك، ويذعن لأحكام دينك وشرعك يا رب العالمين، والحمد لله ربِّ العالمين.





تفسير سورة الأحقاف

الدَّعْوَةُ والاسْتِجَابَةُ فِي سُورَةِ الأحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

دعوة الحق ودعوة الباطل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

بدأ سبحانه سورة الأحقاف سابعةَ الحواميم كما بدأ سورة الجاثية قبلها فقال:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ الحق أصلٌ أصيل في خلق هذا الكون، ولذا قدَّر له أجلاً مسمى ينتهي إليه؛ هو يوم الحساب والجزاء:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾.

فلا يؤمنون به، ولا يستعدون له.

فأمرتِ الآياتُ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم توبيخاً وتقريعاً:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أخبروني عن حال آلهتكم التي تعبدونها من دون الله أي شيء خلقوا من الأرض؟! أم لهم شركة مع الله في خلق السماوات تستحق من أجلها العبادة؟!.

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ائتوني بكتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا القرآن، أو بقية من علم يؤثر عن الأولين شاهدةً باستحقاقهم العبادة إن كنتم صادقين في دعواكم.

فالدعوة لا تصحُّ من غير دليل عقلي أو سمعي، وحيث لم يقم عليها دليل فهي دعوى باطلة، ولهذا حكمت الآيات على أصحابها بالضلال:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

أي: لا أضل ممن يدعو آلهة من دون الله لا تسمع ولا تجيب ما دامت الدنيا، وهم أيضاً عن دعاء المشركين غافلون، لا يشعرون ولا يدرون، وكذلك لا تجيبُ أيضاً في الآخرة، فما بعد هذه الغاية يوافق ما قبلها ويزيد عليها:

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

أي: وإذا حُشر الناس يوم القيامة كان المعبودون أعداءً للعابدين، ويتبرأ المعبودون أيضاً من عبادة الكافرين إياهم، كما يتبرأُ إبليسُ عندما يقول لأهل النار: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

* * *

ردود على أباطيل

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾.

ثم انتقلت الآيات إلى حكاية ما هو أشنع وأقبح من إعراضهم، فالمشركون لم يعرضوا فقط عن دعوة النبي ﷺ، بل اتهموه بالسحر والكذب:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات في بيان ما يلزم بيانه.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بادر الذين كفروا أول سماع الحق من غير تفكير وتأمل إلى وصفه بأنه سحر مبين.

ثم أضافوا إليه قولاً أقبحَ من القول الأول، وهو اتهام الرسول ﷺ بالافتراء والكذب على الله تعالى، ولهذا حكته الآيات بأسلوب الانتقال والإضراب المتضمن الإنكار والتوبيخ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أمر رسول الله ﷺ أن يرُدَّ عليهم معلناً ضعفه وخوفه من الله تعالى: فإنْ كنتُ مفترياً كما تقولون فلا تمنعون عنِّي شيئاً من عذاب الله تعالى.

وكيف أجترئُ وأُعَرِّضُ نفسي لعقابه وانتقامه وهو العليم بكل شيء:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: هو أعلم بما تخوضون فيه من الطعن في آياته ووصفها بالسحر والافتراء.

﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: تكفيني شهادته تعالى، فهو يشهد لي بالصدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالكذب والإنكار، ومع ذلك فإنكم إن آمنتم يغفر ما سلف منكم ويرحمكم.

ولا شك أن شهادة الله العليم الخبير أعظم شهادة، قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء].

وتابعت الآيات تردُّ على أباطيلهم وضلالاتهم:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لستُ أول رسولٍ أرسل، فقد جاءت الرسل من قبلي، فلماذا تكذِّبونني، وتستنكرون بعثتي إليكم؟!.

والبِدع: بمعنى البديع، كالخِلِّ بمعنى الخليل، وهو ما لا مثل له.

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ولا أعلم الغيب، فلا أدري ما قدَّر الله لي ولكم في الدنيا، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والقول بأنَّ المراد: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم يوم القيامة، وأنه نُسِخَ بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] غيرُ صحيحٍ، لأنه خبرٌ، والنسخُ لا يكونُ في الأخبار، ولم يزل رسول الله ﷺ من أول مبعثه إلى مماته يخبر أنَّ من مات على الكفر مخلَّدٌ في النار، ومن مات على الإيمانِ واتبعه وأطاعه فهو في الجنة(١).

وأما ما ورد في الحديث الشريف الذي ترويه **أم العلاء الأنصارية**: أنها قالت عندما توفي عثمانُ بنُ مظعونٍ: رَحْمةُ الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليكَ لقد أكرمَكَ الله، فقال لها النبيُّ ﷺ: «**وما يدريكِ أنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ؟**» فقلت: لا أدري بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ، فقال رسول الله ﷺ: «**أمَّا عثمانُ فقد جاءَهُ واللهِ اليقينُ، وإنِّي لأرجو له الخيرَ، واللهِ ما أدري وأنا رسولُ اللهِ ما يُفْعَلُ بهِ**».

قالت: فواللهِ لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزنني ذلك، فنِمْتُ فأُرِيْتُ لعثمان عيناً تجري، فجئتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فأخبرته فقال: «**ذلكَ عملُه**» [رواه البخاري (٢٦٨٧)].

وفي رواية ثانية بلفظ: «**واللهِ ما أدري وأنا رسولُ اللهِ ما يُفْعَلُ بي**» [رواه البخاري (١٢٤٣)].

فمحمول هذا القول على شدة تواضعه عليه الصلاة والسلام، وإرشاد للمؤمنين كي لا يتألَّوا على الله تعالى.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إليَّ، وما أنا إلا نذير بيِّن الإنذار، أحذِّركم من عقاب الله تعالى.

* * *

شاهد من بني إسرائيل

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

وكما شهد الله على صدق النبيِّ عليه الصلاة والسلام وصحة رسالته شهد له أيضاً المؤمنون العلماء من أهل الكتاب:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: أخبروني إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن، وهي التوراة، فإنَّ ما في القرآن من التوحيدِ والوعدِ والوعيدِ يطابِقُ ما في التوراة، فآمنَ الشاهدُ، بينما استكبرتم عن الإيمان، وأعرضتم عنه.

أو: شهدت بصدقه وصحَّته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي، فبشَّرت به، وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] أي: إن ذكره والتنويه به في جميع كتب الأنبياء السابقين.

وجواب الشرط محذوفٌ تقديره: ألستم أضلَّ الناس وأظلَمهم، دل عليه قوله تعالى في ختام الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإعراض عن دعوة الحق.

والشاهد هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه عند جمهور المفسرين، ويؤيده الحديث

الشريف: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: **ما سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ لأحدٍ يمشي على الأرض: إنَّه مِنْ أهل الجنة، إلا لعبدِ اللهِ بنِ سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية:** ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [رواه البخاري (٣٨١٢)].

أو: كل من أسلم من أحبار أهل الكتاب كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم.

قال ابن كثير في تفسير الآية بعد أن عَزَى هذا القولَ إلى مسروقٍ من علماء التابعين: وهذا يعمُّ عبدَ اللهِ بنَ سلام وغيره، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ الآية [الإسراء: ١٠٧].

* * *

كبر وجهل

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

ثم بينت الآيات أنَّ الكِبْرَ هو سبب إعراضهم عن دعوة الحق:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا لأجل المؤمنين وفي شأنهم: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء.

يعنون بلالاً وعماراً وصُهيباً وخبَّاباً رضي الله عنهم وأشباههم من المؤمنين الضعفاء

الفقراء والعبيد والإماء، فإنَّ معالي الأمور في زعمهم لا ينالها الفقراء والضعفاء، وأخطؤوا في ذلك خطأً فاحشاً، فالتفاوتُ في الأرزاقِ والمواهبِ امتحانٌ واختبارٌ، سقطوا فيه كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؟!.

ومرَّ معنا أن قوم نوح قبلهم قالوا مثل ذلك: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وأن نوحاً عليه السلام ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

وأضافت الآية تبين موقفهم من القرآن الكريم، وتحكي قولهم الذي يرددونه كلَّما نزل منه نجم، فمن المعلوم أنَّ القرآن نزل منجَّماً على النبي ﷺ:

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: وظهر عنادهم واستكبارهم وجهلهم أيضاً بالإعراض عن هدي القرآن الكريم، وسيقولون كلَّما سمعوا شيئاً منه: هذا كذب قديم، كقولهم عنه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

وهو الكبر الذي وصفه النبيُّ ﷺ في الحديث الشريف: فعن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يدخلُ الجنةَ مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ**» قال رجلٌ: إنَّ الرجلَ يحبُّ أنْ يكونَ ثوبُه حسناً، ونعلُه حسنةً. قال: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناسِ**» [رواه مسلم (٨٩)].

وبطر الحق: دفعه وإنكاره تكبراً. **وغمط الناس**: احتقارهم. فالكبر منعَهم من الإذعان للحق والاستسلام له، وهو الجهل والسفه، فمن جهل شيئاً عاداه وأعرض عنه.

* * *

دعوة القرآن ودعوة التوراة

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثم صرَّحت الآياتُ بما أشارت إليه في السابق من المماثلة بين التوراة والقرآن:

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: ومن قبل القرآن الكريم أنزل الله التوراة إماماً وقدوة، يؤتم بها في دين الله وشريعته، ورحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها.

والمماثلة ليست في كلِّ الجوانب، إنما المماثلة بين القرآن والتوراة في أصل الاعتقاد، وكون كل منهما المرجع الأساس الأول للتكاليف والأحكام التي شرعها الله تعالى، فالتوراةُ كانت المرجع الأساس الأول لبني إسرائيل قبل نزول القرآن الكريم، الذي جعله الله تعالى المرجع الأساس الأول للشريعة الإسلامية، وهي الشريعةُ التي تعبَّدَ بها الإنس والجن إلى قيام الساعة.

ويبدو أن سكوت الآيات هنا عن ذكر الإنجيل، لأنه تعالى أنزله أيضاً على بني إسرائيل، يدعوهم فيه إلى التمسُّك بشريعة التوراة، فعيسى عليه السلام لم يأتِ بشريعةٍ جديدة ناسخةٍ لشريعة التوراة، إنَّما عدَّلَ بعض أحكامها كما مرَّ معنا في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥].

ولهذا فإنَّ النصارى يقدِّسون الأسفار التي يقدسها اليهود، ويسمونها: العهد القديم، رغم ما بينهم وبين اليهود من خلاف كبير في الاعتقاد، وقد

استغل اليهود تقديس النصارى للعهد القديم لكسب تأييد الدول النصرانية لإقامة دولتهم في فلسطين.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وهذا القرآنُ كتاب مصدِّق للكتب التي أنزلها الله قبله، أنزله عربيّاً فصيحاً بيِّناً واضحاً لينذرَ الرسول ﷺ به الكافرين، ويبشر المحسنين، وفي قراءة: ﴿لِتُنذِرَ﴾ بتاء الخطاب للرسول ﷺ.

فالآية تعظِّمُ شأن القرآن الكريم، وتردُّ على المشركين قولهم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]؛ فكيف يكون إفكاً وهو الكتاب الذي صدّقَ كتابَ موسى الذي كان للمؤمنين من أهل الكتاب إماماً ورحمة، وقد أنزله الله تعالى باللسان العربي المبين، فمؤيدات صدق دعوة القرآن الكريم في القرآن نفسه وهي واضحة بينة.

ثم بينت الآيات بُشرى القرآن للمحسنين بعد أن بينت إنذاره للكافرين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: إنَّ الذين جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في أمور الدين التي هي منتهى العمل، فلا خوف عليهم من لحوق مكروه، ولا هم يحزنون من فوات محبوب، فالمراد بيان دوام نفي الحزن(١)، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فلا تتحقق الاستقامةُ إلا بالدوام على الطاعة، واستمرار الشعور بمراقبة الله تعالى، وهو مقام الإحسان الذي بيَّنه النبي ﷺ في قوله: «**الإحسانُ أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فإنَّه يراكَ**» [رواه مسلم (٨)].

و(ثم) للتراخي الرتبي أو للزمني، وهي تفيدُ الاستمرارَ على الاستقامة في جميع الأوقات.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٨/ ٨٢.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: أولئك المتصفون بهذه الصفة أصحابُ الجنة، جوزوا جزاءً بما كانوا يعملون في الدنيا باتباع دعوة الحق، والتزام أحكامها.

* * *

المستجيبون لدعوة الحق

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

وعوَّدنا سبحانه في التنزيل الحكيم على ضرب الأمثال الواقعية المحكمة، فعرضت الآيات على سبيل المقارنة نموذجين بشريين لإنسانين:

أولهما: المتمسِّك بدعوة الحق والمذعن لها في جميع مراحل حياته:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وصينا الإنسان بأن يحسنَ بوالديه إحساناً، وقرئ: (حُسْناً) أي: فعلاً ذا حُسن، كأنَّه في ذاته عَيْنُ الحُسن لكثرة حُسنه، وقرئ: ﴿حَسَنًا﴾ أي: إيصاءً حَسَناً، وقرئ أيضاً: (حُسُناً).

ثم أبرزت الآية شدة معاناة الأم في حمل ولدها وإرضاعه:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: حملاً ذا كره، ووضعاً ذا كره، وقرئ بفتح الكاف، ومعناهما واحد وهو المشقة.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي: ومدة حمله إلى أن ينفصل من الرضاع ثلاثون شهراً، فالمراد من **الفصال**: الرضاع التام المنتهي بالفطام.

فدلت الآية على أنَّ أقل مدة الحمل ستة أشهر لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله أيضاً: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

ولعل تصديرَ الآيةِ بتذكير الإنسان بفضل والديه عليه، لكي يعلمَ فضل الله عليه بالأولى، فيقبل على عبادته وطاعته والاستقامة على شريعته.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: حتى إذا بلغ نهاية قوَّته، وغاية شبابه، وهو سنُّ الأربعين، قال: ربِّ ألهمني أن أشكرَ نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي، وأن أعملَ صالحاً ترضاه.

أو: رغِّبني ووفقني، من: **أوزعتُه بكذا**؛ أي: جعلتُه مولَعاً به، راغباً في تحصيله[(١)].

والمراد نعمةُ الدين وغيرها، ولا يكونُ العملُ صالحاً مقبولاً عند الله إلا إذا كان **خالصاً له وحده، موافقاً لشرعه**، فكأنه يقول: اجعل عملي على وفق رضاك.

وتشير الآيةُ إلى أنَّ العيشَ في رعاية والِدَين مسلمينَ نعمةٌ من نعم الله تعالى على الإنسان، لما لهما من تأثير قوي في تربية ولدهما تربيةً صالحةً أو فاسدة، كما مرَّ معنا في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما مِنْ مولودٍ إلا يولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يهوِّدانِهِ، أو ينصِّرانِهِ، أو يمجِّسَانِهِ، كما تنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تحسُّونَ فيها من جَدْعَاءَ**» [رواه البخاري (٤٧٧٥)].

---

(١) روح المعاني: ٢٦/١٩.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: اجعل ذريتي صالحين، أو اجعل الصلاحَ سارياً في ذريتي، راسخاً فيهم، ولهذا عُدِّي بـ (في)، فالوالد الصالح يهتمُّ بصلاح ذريته، وسلامة عقيدتهم ودينهم، وهو حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وكذلك مر معنا أن من دعاء عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ولا تقر عين الوالد الصالح بولده إلا إذا كان مثله في الصلاح والاستقامة.

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: إني تبت إليك عمَّا لا ترضاه، وإني من المستسلمين لأمرك، المنقادين لشريعتك.

وهكذا تلتقي في هذا النموذج آصرةُ النسبِ مع آصرةِ الدين، ولذلك أشارت الآية إليهم جميعاً بقوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: نتقبل عنهم الحسنات، ونثيبهم عليها أحسن ما يقتضي الثواب من الطاعات، ونتجاوز عن سيئاتهم فنغفرها ونصفح عنها.

وفي قراءة: **(يُتقبل)** و**(يُتجاوز)**، و**(أحسنُ)** على أنه نائب فاعل، وقرئ أيضاً: **(يَتقبل)** و**(يَتجاوز)** مبنيين للفاعل.

﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: كائنين مع أصحاب الجنة تحقيقاً للوعد الصادق على ألسنة الرسل في الدنيا.

* * *

المعرضون عن دعوة الحق

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثانيهما: نموذج الإنسان الجاحد المعرض عن دعوة الحق، حيث تفترق آصرة النسب عن آصرة الدين:

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أي: والذي قال لوالديه عند دعوتهما له إلى الإيمان: أف لكما، أتعدانني أن أبعثَ من القبرِ بعدَ الموتِ، وقد مضت أجيالٌ من قبلي، ولم يخرج منها أحد؟!.

والمراد من قوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ إظهارُ التضجُّرِ من دعوتهما له إلى الإيمان، إذ هو صوت يصدر عن المرء عند تضجره.

وقرئ: (أف) بالفتح والكسر بغير تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين.

وقد مرَّ معنا أن الله تعالى نهى الولدَ أن يقول لوالديه مثل هذه الكلمة فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: والوالدان يستعظمان قول ولدهما، ويسألان الله الغوث والمعونة من قبحه وشناعته، ويقولان له: ويلكَ آمن وصدِّقْ بيوم الجزاء والحساب، فهو وعد حق من الله تعالى.

ومر معنا: أن كلمة (وَيْلَ) تقال لمن أرادَ الله تعذيبه، والمراد منها هنا حث الولد وتحريضه على الإيمان، وهي تدل على شدة حرص الوالدين على هداية ولدهما وإنقاذه من هاوية الكفر والضلال، ولكن الولد العاق يصرُّ على عناده وكفره.

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي تدعوانني إلى التصديق به إلا حكايات الأولين الباطلة المسطورة في كتبهم.

فالآية تصفُ ولداً كافراً فاجراً عاقّاً لوالديه.

وما روي: أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قبلَ إسلامه؛ غيرُ صحيح، ردته السيدة **عائشة** رضي الله عنها وكذَّبته، ففي الحديثِ: أنَّ مروان بن الحكم لمَّا كانَ على الحجاز استعمله معاوية، فخطبَ فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعدَ أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيتَ عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إنَّ هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ فقالت عائشةُ من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أنَّ الله أنزل عذري. [رواه البخاري (٤٨٢٧)].

قال ابن حجر رحمه الله: «والعجبُ مما أورده الطبريُّ من طريق العوفي عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآيةُ في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقد تعقَّبه الزجاج فقال: الصحيحُ أنها نزلت في الكافر العاق، وإلا فعبدُ الرحمن قد أسلم فحسن إسلامه، وصار من خيار المسلمين»(١).

كما أن قوله تعالى بعد ذلك لا يناسب عبد الرحمن:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: أولئك الجاحدون يوم القيامة وجب عليهم قوله تعالى لإبليس ومن تبعه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [صٓ: ٨٥].

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٧٦.

من حقَّ عليه القول هو من أعلَم الله تعالى أنه لا يُسْلِمُ أبداً، وأنه من القوم الخاسرين، الذين ضيعوا حياتهم وفطرتهم باتباع الشيطان.

وفي قراءة: **(أنهم)** بفتح الهمزة على تقدير (لأنهم).

ومن المعلوم: أن عبد الرحمن بن أبي بكر قد أسلم، وكان من أفاضل الصحابة، فهذا التعقيبُ يدل على أنَّ الآياتِ عرضت أنموذجاً بشريّاً يتكرر دائماً، وما أرادت إنساناً معيناً.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝١٩﴾.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ أي: ولكل واحد من الفريقين يوم القيامة مراتب ومنازل من جزاء ما عملوا من خير وشر.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي: وليوفيهم جزاء أعمالهم وهم لا يُظلمون بنقص ثواب وزيادة عقاب. وفي قراءة: **(ولنوفيهم)** بالنون.

ثم بينت الآيات من خلال عرضها لمشهد من مشاهد يوم القيامة أن سبب تكذيبهم بهذا اليوم انشغالهم بشهوات الدنيا:

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ۝٢٠﴾.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ إما بعرضها عليهم، وكشف ما فيها من العذاب لهم، أو بتعذيبهم فيها، ويقال لهم حينئذ تقريعاً وتوبيخاً:

﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ أي: تمتعتم بالطيبات في الدنيا، واتبعتم الشهوات واللذات، فانشغلتم بها عن الاستعداد للآخرة.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ أي: فاليوم تُجزون عذاب الخزي والفضيحة بما كنتم تستعلون في الأرض بغير استحقاق، وبما كنتم تخرجون عن طاعة الله تعالى.

ولما وبَّخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات آثر النبيُّ ﷺ وأصحابُه والصالحون بعدهم اجتنابَ اللذات في الدنيا رجاء ثواب الآخرة، ومرَّ معنا وصفٌ لمعيشة النبي ﷺ عند تفسير آيتي التخيير في **سورة الأحزاب** [٢٨ ـ ٢٩]، وقوله عليه الصلاة والسلام لعمر رضي الله عنه: «**أولئك قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيباتُهم في الحياة الدنيا**» [رواه البخاري (٢٤٦٨)].

* * *

دعوة هود عليه السلام

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وانتقلت الآياتُ من إنذار الوالدين الصالحين ولدهما العاق الكافر، إلى إنذار نبي من الأنبياء أمته، واختارت نبي الله هوداً عليه السلام وإنذاره أمته الذين استكبروا في الأرض، وتمتعوا بالطيبات في الدنيا، واتبعوا الشهوات:

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي: واذكر يا محمد للمعرضين عن

دعوتك هوداً عليه السلام عندما أنذر قومه بالأحقاف، وهي منازل قومه جنوب أرض العرب في حضرموت وما حولها.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: مضت الرسل من قبل هود ومن بعده، أو أرسلت الرسل إلى مَن حول بلاده، فلم يكن عليه السلام بِدعاً من الرسل، وقال لقومه كما قال غيره:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ولكنهم أعرضوا عن دعوته:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: قالوا: أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟! فَأْتنا بما تعدنا من العذاب العظيم، إن كنتَ من الصادقين في وعدك.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قال: إنَّما العلمُ بوقت مجيء العذاب عند الله لا عندي، وأبلِّغكم ما أُرسلتُ به، فما على الرسول إلا البلاغ، ولكني أراكم قوماً تجهلون أنَّ الرسل بُعِثوا منذِرين مبلِّغين لا معذبين مقترحين.

أو: تجهلون قَدْرَ العذاب الذي ينزل بكم وطبيعته.

ويؤيد المعنى الثاني قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ﴾ أي: رأوا سحاباً عَرَضَ في أفق السماء، متوجِّهاً إلى أوديتهم، قالوا: هذا عارضٌ يأتينا بالمطر، ويبدو أنَّ المَطَرَ قد حُبِسَ عنهم، فأصيبوا بالقحط والجفاف.

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بل هو ريح فيها عذاب أليم وهو العذاب الذي استعجلتم به.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: تهلك كل شيء بمشيئة ربها، فكل شيء منوط بمشيئته تعالى.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي: فأصبح لا يرى الناظِرُ إليهم إلا مساكنهم، فلم تُبْقِ منهم الريحُ إلا الآثار والمساكن المعطلة الخاوية.

وفي قراءة: **(لا ترى إلا مساكنَهم)** بالتاء ونصب المساكن، قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: كان النبيُّ ﷺ إذا رأى مخيلةً في السماءِ أقبلَ وأدبرَ، ودخلَ وخرجَ، وتغيَّرَ وجهُهُ، فإذا أمطرتِ السماءُ سُرِّيَ عنه، فعرَّفته عائشة ذلك، فقال النبيُّ ﷺ: «**وما أدري كما قال قومُ عادٍ:** ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾» [رواه البخاري (٣٢٠٥)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُوْرِ**» [رواه البخاري (٣٢٠٦)].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الفظيع نجزي المجرمين.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ أي: ولقد مكناهم فيما لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من قوة الأبدان، وطول الأعمار، وكثرة الأموال، فقد كانوا أكثرَ

منكم أموالاً، وأشد قوة وآثاراً كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

وقوله أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ وهي وسائل التمكين التي تمكِّنهم من معرفة خالقهم ليشكروه ويعبدوه.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: فما انتفعوا بها، ولا دفعت عنهم عذاب الله عندما نزل بهم، لأنّهم كانوا يجحدون بآيات الله، وينكرون الدلائل التي تدلُّهم عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: ونزل بهم جزاء استهزائهم وتكذيبهم لأنبيائهم.

وزادت الآيات في تهديدهم ووعيدهم فخصَّصت بعد تعميم:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ـ يا أهل مكة ـ وكررنا تذكيرهم بالآيات والحجج والمواعظ لعلهم يرجعون عن الطغيان إلى الإيمان، ولكنَّهم أصرُّوا على طغيانهم وكُفرهم فأهلكناهم.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ أي: فهلَّا نصرهم وخلَّصهم

من العذاب الذين اتخذوهم آلهة يتقربون بعبادتهم إلى الله؟! فقد كان المشركون يقولون عن عبادتهم الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ولا يخفى ما في الآية من تهكم مرير بهم.

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: غابوا عنهم وهم أحوج ما يكونون إلى نصرهم.

وهذا نتيجة شركهم، وأثر افترائهم على الله، فهم الجناة على أنفسهم.

* * *

الجن المستجيبون لدعوة الحق

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وكما زادت الآيات في وعيد أهل مكة وتهديدهم، زادت في تعريضها بهم عندما تحدثت عن الجن الذين استجابوا لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتأثروا بسماع القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: اذكر لقومك المعرضين عن دعوتك خبر النفر من الجن الذين وجهناهم إليك ليستمعوا القرآن، لعلَّهم ينتبهون لجهلهم وغلطهم، وقُبح ما هم عليه من الكفر بالقرآن والإعراض عنه،

حيث إنَّهم كفروا به وهم أهل اللسان الذي نزل به، ومن جنس الرسول الذي جاء به، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عند الله، وآمنوا به، وليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ أي: فلما حضروا تلاوته قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنسمعه، وفيه إشارة إلى وجوب الإنصات لاستماع القرآن حين تلاوته كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويبدو أنه ﷺ لم يعلم بهم حتى أنطقَ الله شجرةً أعلمته بوجودهم، ففي «**صحيح البخاري**» [٣٨٥٩]: عن **ابن مسعود** رضي الله عنه: **أنَّه آذنته بهم شجرةٌ**.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: فلما أتم وفرغ من تلاوته تفرقوا وذهبوا إلى قومهم ينذرونهم ويبلغونهم دعوة الإسلام.

وفي الحديث عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: انطلقَ رسولُ اللهِ ﷺ في طائفةٍ من أصحابه عامدينَ إلى سوقِ عُكاظ، وقد حِيْلَ بين الشياطين وبين خبر السماءِ، وأُرسلتْ عليهم الشهبُ، فرجعت الشياطينُ، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حِيْلَ بيننا وبينَ خبرِ السماءِ، وأُرسلتْ علينا الشهبُ. قال: ما حال بينكم وبينَ خبرِ السماءِ إلا ما حدثَ، فاضربوا مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حالَ بينهم وبينَ خبرِ السماءِ، فانطلقَ الذين توجَّهوا نحوَ تِهامةَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بنخلةَ، وهو عامِدٌ إلى سوقِ عُكاظ، وهو يصلِّي بأصحابه صلاةَ الفجرِ، فلمَّا سمعوا القرآنَ، تسمَّعوا له، فقالوا: هذا الذي حالَ بينكم وبينَ خبرِ السماءِ. فهنالِكَ رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن]، وأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١] وإنَّما أوحي إليه قولُ الجنِّ. [رواه البخاري (٤٩٢١)].

ودلت رواية ابن عباس هذه على أنَّ الجنَّ استمعوا قراءته ﷺ، ثم رجعوا إلى قومهم.

ودلت رواية ابن مسعود رضي الله عنه أنَّهم وردوا إليه أرسالاً فوجاً بعد فوج، ففي

الحديث: عن **ابن مسعود** رضي الله عنه: أنه سُئل: هل شهد أحدٌ منكم مع رسولِ اللهِ ﷺ ليلةَ الجنِّ؟ قال: لا، ولكن كُنَّا مع رسولِ اللهِ ﷺ ذاتَ ليلةٍ، ففقدناه، فالتمسناهُ في الأوديةِ والشعاب فقلنا: استطير أو اغتيلَ، فبتنا بشرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، فلمَّا أصبحنا إذا هو جاء من قِبَلِ حِراءَ، فقلنا: يا رسولَ اللهِ فقدناكَ فطلبناكَ، فبتنا بشرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ! فقال ﷺ: «**أتاني داعي الجنِّ فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهمُ القرآنَ**» قال: فانطلقَ بنا، فأرانا آثارَهُم، وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «**لكُم كُلُّ عظمٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه يقعُ في أيديكم أوفرَ ما يكونُ لحماً، وكلُّ بعرةٍ علفٌ لدوابكم، فلا تستنجوا بهما، فإنَّهما طعامُ إخوانكم**» [رواه مسلم (١٥)].

فهؤلاء المنذَرون هم رسلُ الجنِّ الذين بلَّغوا قومَهم ما سمعوه من الرسول ﷺ.

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي: أنزل بشريعة كاملة من بعد موسى، فقد كان عيسى عليه السلام مأموراً بالعمل بمعظم ما في التوراة كما مرَّ معنا.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذا الكتاب أنزل مصدقاً للكتب السابقة قبله، ويهدي إلى العقيدة الصحيحة، والشريعة المستقيمة، فخبر القرآن صدق، وتكليفه عدل.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: أجيبوا رسول الله ﷺ، وصدِّقوا بصحة دعوته ورسالته، فهو الداعي إلى الله كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب].

وهذا يدل على عموم دعوته ﷺ للإنس والجن، وأنه ﷺ قد بلَّغ دعوته الجن، كما بلغها الإنس.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم التي سلفت منكم قبل الإسلام، ويقيكم من عذاب جهنم الأليم.

فمؤمنو الجن ـ كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ـ يدخلون الجنة كمؤمني الإنس، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولم يرد نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة، وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به.

ويؤيده عموم قوله تعالى السابق: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢]؛ لأنه قال قبلها: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ [الأنعام: ١٣٠].

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا نجاة له من الله، ولا مهرب، فهو في قبضة قدرته تعالى، وتحت قهر مشيئته في أي مكان وزمان، كما ذكر سبحانه من قول الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: وليس له أنصار يمنعونه من الله، فكما لا نجاة له بنفسه لا نجاة له بغيره.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أولئك الذين لم يجيبوا داعيَ الله في ضلال مبين، فالإعراضُ عن الحق يوقِعُ في الضلال، وليس بعدَ الحقِّ إلا الضلالُ.

* * *

موعظة بليغة

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وكما بدأ سبحانه السورة ببيان كمال قدرته في إيجاد المخلوقات، ختمها بتقرير كمال قدرته على إعادتهم بعد الموت في الأجل المسمَّى الذي سبق به علمه وتعلقت به مشيئته، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: ولم يتعب بخلقهن وإبداعهن كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

فهو تقرير لكمال قدرته جل وعلا أبداً، وأنها لا تنقص ولا تتغير بالإيجاد أبد الآباد.

﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على كل شيء من البعث وغيره.

ثم وصفت الآيات حال المعرضين عن دعوة الحق يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً:

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟! أي: أليس هذا العذاب هو الحق الذي حذركم الرسول ﷺ منه، ودعاكم إلى التصديق به؟!.

ولا يملكون حينئذٍ إلا الاعتراف المشوب بالأسف والندم:

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ثم توجهت الآيات إلى الرسول الداعي ﷺ تثبِّته على طريق الدعوة، وتواسيه عما يلقى من إعراض المعرضين عنها:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: أولو الشدة والثبات من الرسل.

وهي صفة جميع الرسل، أو صفة أصحاب الشرائع المشهورة الذين ذكرهم سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ بنزول العذاب.

وهو تثبيت له ﷺ، فما كان ﷺ يستعجل تعذيبهم، بل كان يستعجل هدايتهم، وقد يكون المرادُ: لا تستعجل تعذيبَ المستهزئين منهم المصرِّين على الكفر والتكذيب الذين قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ﴾ أي: عندما يرون العذاب يشعرون كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا وقتاً قصيراً من شدة العذاب وطول مدته.

﴿بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: هذا الذي دُعيتم إليه ووعظتم به فيه غاية الموعظة، فهو موعظة بليغة كافية شافية، فلا يهلك بعذاب الله إلا المعرضون عنه، الخارجون عن الاتعاظ به، والعمل بموجبه، فالحجةُ قائمةٌ عليهم بدعوة الرسول ﷺ، ولا عذرَ لمن بلغته الدعوة بالإعراض عنها.

❁ ❁ ❁



٤٧

تفسير سورة مُحَمَّد

الحَرْبُ والسَّلامُ في سُورَةِ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقارنة بين المؤمنين والكافرين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ (٣)﴾.

بدأ سبحانه السورة ببيان أحوال المسلمين والكافرين:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (١)﴾.

أي: الذين كفروا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام، أو صدوا غيرهم عنه؛ أبطل أعمالهم، وأحبطها، وحكم ببطلانها.

والمرادُ أعمال البر: كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وإجارة المستجير، وفك الأسير، ونحو ذلك، لأنها كانت لغيره تعالى، كما قال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

أو: أبطل ما عملوه من الكيد والمكر بالنبيِّ ﷺ والمسلمين؛ أبطلها سبحانه، وجعل الدائرة تدور عليهم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن الكريم، خصَّه بالذكر تعظيماً لشأنه، وتنبيهاً إلى أنه لا يتم الإيمان إلا به، فهو من قبيل عطف الخاص على العام، ثم أكد هذا المعنى فقال:

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فهو ناسخ للأديان كلها، ولا يردُ عليه نسخٌ، فهي جملة معترضة تفيد حصر الحق فيه.

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: سترها وأزالها، ولم يؤاخذهم بها، وأصلح حالهم في الدنيا بالتوفيق والتأييد.

فالبال: الحال والشأن، وكل ما له خطر، ولذلك يقال: ما باليتُ بكذا، أي: ما اكترثتُ به.

والتعبير يلقي ظلالَ الطمأنينة والراحة والثقة والرضا والسلام، ومتى صلحَ البال استقامَ الشعورُ والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ذلك الإضلالُ للكافرين، وإصلاحُ البال للمؤمنين، بسبب اتباع الكافرين الباطل، واتباع المؤمنين الحق في القرآن الكريم.

ففي الآية توضيحٌ بأسلوب اللف والنشر، وهو من محاسنِ الكلام، أشار سبحانه إلى حُسنه بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: مثل ذلك البيان البديع يبين الله للناس أحوالَ الفريقين المؤمنين والكافرين في الحال والمآل، والجارية مجرى الأمثال، وهي اتباع المؤمنين الحق وفوزهم وفلاحهم، واتباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم.

* * *

أحكام في القتال والأسر

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾.

ومهَّدت الآيات بهذا البيان البديع لتشريع أحكام ضرورية في قتال الكفار ومعاملة الأسرى:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي: فإذا كان الأمر كذلك، ولقيتم الذين كفروا في ميادين القتال، فاضربوا رقابهم ضرباً.

وخَصَّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثرُ ما يكون بها، والمراد: اقتلوهم.

وفي ضرب الرقاب إشارةٌ إلى الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: حتى إذا أكثرتم فيهم القتل وقهرتموهم وأضعفتموهم فأْسِروهم.

فالإثخانُ: مأخوذ من الثخين وهو الغليظ، والمراد شِدَّة التقتيل، حتى تتحطمَ قوة العدو، فلا يقدر على هجوم أو دفاع.

فما دامَ العدو قوياً فعلى المجاهدين أن يجعلوا تحطيم قوته، ودفع خطره، هدفهم الأول، وألَّا ينشغلوا بأسر جنوده، فإنَّ ذلك يؤدي إلى صرف جزء من قوتهم إلى جمع الأسرى وحراستهم، في وقت يحتاجون فيه إلى صرف كل قوتهم وحشد طاقتهم لإضعاف العدو، وإنزال أكبر الخسائر في صفوفه، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧].

والوثاق: بالفتح والكسر اسم ما يوثق به، والمعنى: فشدوا وثاق الأسرى حتى لا يفلتوا منكم.

﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: بعد الأسر إمَّا أن تمنوا عليهم منّاً بإطلاقهم بغير عِوَض، وإما أن تفادوهم فداء، بأن يفادى بأسراهم أسرى المسلمين، أو بأخذ المال منهم.

وقد رواه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة، وهو قول صاحبيه، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره لئلا يعودوا حرباً على المسلمين، فحكم الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥].

وعن مجاهد: ليس اليومَ منٌّ ولا فداءٌ، إنما هو الإسلام أو ضرب العنق(١).

وذهب أكثر العلماء إلى أنَّ الآيةَ محكمةٌ، والإمامُ مخيَّرٌ في الرجال البالغين من الكفار إذا أُسروا بين أن يقتلهم، أو يسترقَّهم، أو يمنَّ عليهم فيطلقهم بلا عوض، أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين. وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسنُ وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء، قال ابن عباس: لما كثر المسلمون

---

(١) تفسير النسفي: ٥/ ٤٩٩.

واشتد سلطانهم أنزل الله في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ هذا القولُ هو الصحيحُ، عمل به الرسول ﷺ والخلفاءُ بعده[(١)].

واختار هذا القولَ القرطبيُّ واستحسنه، لأنَّ النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ إذا جاز أن يقع التعدد، فإذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسرُ جاز القتل والاسترقاقُ والمفاداةُ والمنُّ على ما فيه الصلاح للمسلمين.

قال ابن عطية: «وإمام المسلمين يخير في أسراه في خمسة أوجه: القتل، أو الاسترقاق، أو ضرب الجزية، أو المن، أو الفداء، ويترجَّحُ النظرُ في كل أسير بحسب حاله من أذية المسلمين أو ضد ذلك»[(٢)].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى تنتهي الحرب.

وأوزار الحرب: آلاتها كالسلاح والمؤن والذخائر التي لا تقوم الحربُ إلا بها، وأسندَ وضعها إليها إسناداً مجازيّاً، وهو في الحقيقة لأهلها.

واختلفوا في الغاية التي عندها تضع الحربُ أوزارها، قال قتادة: حتى يُسْلِمَ الجميعُ، فتضع الحرب أوزارها، وقال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وقال آخرون: حتى لا تبقى للمشركين شوكةٌ، بأن تغلبوهم فيسلموا أو يستسلموا، وظاهرُ اللفظةِ أنَّها استعارةٌ يراد بها التزام الأمر أبداً[(٣)].

وقد يكون المراد هو ما ذكر تعالى في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. ومرَّ معنا في تفسيرها: أنَّ المراد: قاتلوا الكفار حتى لا يبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم.

وسيأتي مزيد تفصيل للموضوع عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥].

---

(١) تفسير الخازن: ٥/٤٨٩.

(٢) المحرر الوجيز: ١٣/٣٨٦.

(٣) المرجع السابق نفسه.

• **الحكمة من تشريع القتال:**

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: افعلوا ذلك، ولو يشاء الله لأهلكهم بغير قتال، وكفاكم أمرهم، ولكنْ أمرَكم بالقتال ليختبر المؤمنين بالكافرين، والكافرين بالمؤمنين، تمحيصاً للمؤمنين، وإهلاكاً للكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران].

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: فلن يضيعها.

وفي قراءة: **(قاتلوا)** أي: جاهدوا.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾.

أي: يثبتهم على طريق الهداية، ويحققها لهم، ويصلح حالهم.

فالعمل الصالحُ يثبِّت صاحبه على الإيمان، ويحفظه من فتن الضلال، ولا شكَّ أنَّ الجهادَ في سبيل الله من أفضل الأعمال الصالحة المؤدية إلى فضله تعالى ورحمته في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، وحياةُ الشهداء حياةٌ برزخيةٌ خاصةٌ، يتعهدها الله في الملأ الأعلى، ويزيدها هدًى وضياءً وإشراقاً.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

أي: يبينها لهم حتى يعرفَ أحدُهم منزله في الجنة من غير استدلال.

كما في الحديث الشريف: عن أبي سعيد **الخدري** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يخلصُ المؤمنون من النارِ، فيُحْبَسُون على قنطرةٍ بينَ الجنَّةِ والنارِ، فيقصُّ لبعضهم من بعض مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، حتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيده لأحدُهم أهدى بمنزله في الجنَّةِ منه بمنزلِه كان في الدنيا**» [رواه البخاري (٦٥٣٥)].

ثم مهّد تعالى بهذه الآيات المشوِّقة المثبتة لينادي المؤمنين ويكلِّفهم بنصرة دينه وحماية شريعته:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾.

أي: يثبت أقدامكم على طريق الحق والهدى، فالآية تؤكد مضمون قوله تعالى السابق: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥]، والجزاء من جنس العمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

أو: يثبت أقدامكم عند قتال العدو، أو يثبتها يوم القيامة على الصراط.

* * *

الإعراض عن شريعة الله

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾.

أي: فهلاكاً لهم وخيبة وشقوة، وأبطل أعمالهم، لأنها في طاعة الشيطان.

فالمعنى المراد من قوله: **(فتعساً لهم)** عكس تثبيت أقدام المؤمنين، نصب على المصدر على سبيل الدعاء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ذلك التعسُ والإضلالُ بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله في القرآن الكريم، وأعرضوا عن أحكام دينه وشريعته.

وهو ما نشاهده في عصرنا الحاضر من الواقع الأليم الذي انتكست إليه

المجتمعات الإسلامية نتيجة إعراضها عن تحكيم شريعة الله، وإقبالها على تحكيم الشرائع الوضعية، التي أوصلتها إلى الذلة والفرقة والضلال، وإلى الشقاء والتعاسة.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها وجعلها ضائعة خاسرة، فإحباط الأعمالِ من لوازم الكفر والإعراض عن دين الله وشريعته.

ثم التفتت الآياتُ التفاتةً قويةً إلى مصارع الأمم الهالكة، تذكِّر المعرضين عن دين الله بها، وتحذرهم من مثلها:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾.

أي: أَقَعَدوا في أماكنهم فلم يسيروا في الأرض فينظروا آثار الأمم الهالكة المكذبة؟! فإن آثارهم تُنبئ عن أخبارهم، دمَّر الله عليهم ديارهم، فخرّب بيوتهم فوق رؤوسهم، وأهلك أهلهم وأموالهم، وللكافرين المعرضين عن دين الله وشريعته أمثال عاقبتهم وتدميرهم.

* * *

الله مولى المؤمنين

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذه العقوبة للكافرين، لأن الله مولى الذين

آمنوا، يؤيدهم، وينصرهم على أعدائهم في الدنيا، إن أحسنوا التمسك بدين الله وأحكام شريعته.

﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: لا مولى لهم ينصرهم ويدفع عنهم العقاب والعذاب.

فالمولى هنا بمعنى الناصر، وأما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢] فمعناه الرب والمالك، والله رب كل شيء ومليكه، ومن ولايته تعالى للمؤمنين في الآخرة أن يكرمهم بالنعيم المقيم في جنان الخلد:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ويحرم المعرضين من هذا النعيم بسبب انشغالهم بمتاع الدنيا الزائل.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ فلا همَّة لهم إلا بطونهم وشهواتهم، لاهون بها، غافلون عما يُراد بهم، ولهذا شبههم بالأنعام، وهو تشبيه يُبعِدُهم عن كل سمات الإنسان ومعالمه، ويُلقي عليهم ظلال الأكل الحيواني الشره، والمتاع الحيواني الغليظ.

﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: والنار مثواهم ومستقرهم.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عمر** ﵄: أنه كان لا يأكلُ حتَّى يؤتى بمسكين يأكلُ معه، قال مولاه نافع: فأدخلتُ رجلاً يأكلُ معه، فأكلَ كثيراً فقال: يا نافعُ لا تدخل هذا عليَّ، فإني سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**المؤمنُ يأكلُ في معًى واحدٍ، والكافِرُ يأكلُ في سبعةِ أمعاءٍ**» [رواه البخاري (٥٣٩٣)].

قال ابن حجر ؒ: «اختلف في معنى الحديث؛ فقيل: ليس المرادُ به ظاهره، وإنَّما هو مثلٌ ضُرِبَ للمؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها، وقيل: المعنى: إنَّ المؤمنَ يأكلُ الحلالَ، والكافِرُ يأكل الحرام، وقيل: المرادُ

حَضُّ المؤمن على قِلَّةِ الأكل إذا علمَ أن كثرة الأكل صفة الكافر، وليست حقيقةُ العددِ مرادةً، فتخصيصُ السبعةِ للمبالغة في التكثيرِ، ولا يلزمُ من هذا اطراده في حق كل مؤمن وكافر، فقد يكون في المؤمنين من يأكل كثيراً إما بحسب العادة وإما لعارض يعرض له»(١).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وكم من قرية هي أشد قوة من مكة التي كان أهلُها سببَ خروجك، أهلكناهم، فلم يجدوا ناصراً ينصرهم ويمنع عنهم العذاب.

* * *

أنهار الجنة وحميم النار

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

ثم عادت الآياتُ إلى أسلوب المقارنة بين فريقي المؤمنين والكافرين، فبيّنت من خلالها السبب الرئيس الأول الذي أدى بكل فريق منهما إلى أحواله التي هو عليها:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

أي: أفمن كان مستقرّاً على حجة ظاهرة من ربه، متمسِّكاً بها، وهو القرآن

(١) فتح الباري: ٩/ ٥٣٦.

الكريم، كمن زُيِّنَ له سوءُ عمله من الكفر والمعاصي، واتبعوا بسبب ذلك التزيين أهواءَهم الزائغة.

فلا يعقل أن يكون هذان الفريقان المتفاضلان متساويين عند الله، وكما كانا مختلفين في الاعتقاد والسلوك لا بدَّ أن يكونا مختلفين في المآل والمصير، فإن من المكابرة التسوية بين المتمسك بالبينة والتابع للهوى، فهو كمن يسوي بين الجنة والنار، وشتان ما بينهما.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ أي: مثل الجنة التي وعِد المتقون مثلٌ عجيب، وشيءٌ عظيم، فيها أنهار من ماء غير متغير ولا منتن، وأنهار من لبن، لم يتغير طعمه، كما تتغير ألبان الدنيا، وأنهار من خمر، يلتذُّ بها الشاربون، ولا يكونُ معها ذهاب عقل وصداع وأسقام كخمر الدنيا، وأنهار من عسل مصفًّى، ليس فيه شمع وشوائب كعسل الدنيا.

وهذا يدل على أنَّ أشربةَ الجنة كثيرة ومتنوعة، وكلها تتفجر من الفردوس في الجنة، فقد جاء في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ في الجنَّةِ مئةَ درجةٍ، أعدَّها الله للمجاهدينَ في سبيلِ اللهِ، ما بينَ الدرجتينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فاسألوه الفردوسَ، فإنَّه أوسطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنة، ومنه تفجَّر أنهار الجنة**» وفي رواية: «**وفوقه عرشُ الرحمنِ**» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: لهم في الجنة من كل أنواع الثمرات.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ولهم مع هذا النعيم مغفرةٌ عظيمةٌ من ربهم، فلا حساب عليهم ولا عقاب في الجنة.

أو: هي مجاز عن إحلال رضوانه تعالى عليهم كما في الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبيكَ ربَّنا وسعديكَ، والخيرُ في يديكَ، فيقول: هل رضيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضى - يا ربنا - وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقِكَ، فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلكَ؟ فيقولون: يا ربنا، وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلكَ؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعدَه أبداً**» [رواه مسلم (٢٨٢٩)].

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي: أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار.

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: وسقوا ماءً حارّاً شديد الغليان فقطع من فرط حرارته أمعاءهم.

* * *

المرض الروحاني والدواء الإلهي

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

ثم عرضتِ الآياتُ بعض أصناف الناس الذين اتبعوا أهواءهم، وشُغلوا بها عن استماع الحق والانتفاع به من رسول الله ﷺ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ وهم المنافقون؛ كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامه، ولا يَعُوْنَه،



تهاوناً منهم وتغافلاً، حتى إذا خرجوا من مجلسه ﷺ قالوا للصحابة على طريقة الاستهزاء: ماذا قال آنفاً؟ أي: الآن، والمرادُ منه الساعة التي هي أقربُ الأوقاتِ إلى المتكلِّم.

﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: أولئك الذين ختم الله على قلوبهم بسبب إعراضهم وتغافلهم، ولهذا لم يؤمنوا، ولم ينتفعوا بما سمعوا من رسول الله ﷺ، ولمّا تركوا اتباع الحق اتبعوا أهواءهم، وأماتَ الله قلوبهم، فلم تَفْهَمْ ولم تَعْقِلْ.

واستمرت الآيات على أسلوب المقارنة:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

أي: والمؤمنون الذين اهتدوا بآيات الله زادهم الله بصيرة وعلماً، وشرح صدورهم لكلام رسوله ﷺ، ووفَّقهم للعمل به، وأعانهم عليه، أو أعطاهم ثواب تقواهم، أو بيَّن لهم ما يتقون، وفي إسناد التقوى إليه تعالى وإسناد الهوى إليهم إشارةٌ إلى الأدب مع الله تعالى، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وتلويح أن متابعة الهوى مرض روحاني، وملازمة التقوى دواء إلٰهي(١).

ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقوله أيضاً: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

* * *

أشراط الساعة

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: لم يبقَ من الأمور الموجبة للتذكر والاتعاظ أمرٌ مترقب سوى إتيان نفس الساعة، إذ قد جاء أشراطها وهم غافلون عنها.

ففي الآية وعيدٌ وتهديدٌ للكافرين والمنافقين، فالساعةُ تأتيهم بغتةً، وهم لا يزالون على كفرهم ونفاقهم، وسُمِّيت القيامةُ ساعةً لسرعة قيامها.

وفي الحديث: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**بادِروا بالأعمالِ سبعاً، فهل تنتظرونَ إلا فقراً مُنْسِياً، أو غنًى مُطْغِياً، أو مَرَضاً مُفْسِداً، أو هَرَماً مُفَنِّداً، أو مَوْتاً مُجْهِزاً، أو الدَّجّالَ فشرُّ غائبٍ يُنْتَظَرُ، أو الساعة والساعةُ أدهى وأمرُّ**» [رواه الترمذي (٢٣٠٧)].

وأشراطها: علاماتها وأماراتها مما ورد في القرآن الكريم أو فيما أخبر عنه ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وفي الحديث: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: شُقَّ القمرُ ونحنُ مع النبيِّ ﷺ بمنًى، فقال: «**اشهدوا**» [رواه البخاري (٣٦٣٦)].

وبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل، أكمل اللهُ تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وعن **أنس** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين**» قال: وضمَّ السبابةَ والوسطى. [رواه مسلم (٢٩٥١)].

ومن أشراط الساعة التي أخبر عنها النبي ﷺ: ما جاء في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ**

عظيمتانِ تكونُ بينهما مقتلةٌ عظيمةٌ، دعوتهما واحدةٌ، وحتَّى يُبْعَثَ دجالونَ كذَّابونَ قريبٌ من ثلاثين، كلُّهم يزعمُ أنه رسولُ اللهِ، وحتَّى يُقْبَضَ العلمُ، وتكثرَ الزلازلُ، ويتقارَبَ الزمانُ، وتظهرَ الفتنُ، ويكثُرَ الهرجُ، وهو القتلُ، وحتى يكثرَ فيكم المالُ، فيفيضُ، حتى يُهمَّ ربَّ المالِ مَنْ يقبلُ صدقته، وحتَّى يعرضَه فيقول الذي يعرضُهُ عليه: لا أربَ لي بهِ، وحتَّى يتطاولَ الناسُ في البنيانِ، وحتّى يمرَّ الرجلُ بقبرِ الرجلِ فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعتْ ورآها الناسُ آمنوا أجمعون، فذلك حينَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبلُ، أو كسبتْ في إيمانها خيراً، ولتقومنَّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرجلانِ ثوبَهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد انصرفَ الرجلُ بلبنِ لقحته، فلا يطعمُه، ولتقومنَّ الساعةُ وهو يليطُ حوضَه، فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رَفَعَ أكلته إلى فيه فلا يطعمُها» [رواه البخاري (٧١٢١)].

قال البيهقي وغيره: الأشراطُ منها صغارٌ، وقد مضى أكثرها، ومنها كبار ستأتي. وعلَّق ابنُ حجر على ما ذكر من قول البيهقي فقال: وهي ـ أي الكبار ـ التي تضمَّنها حديثُ حذيفةَ بن أَسِيد عند مسلم [٢٠٩١]؛ وهي: **«الدجال، والدابةُ، وطلوعُ الشمسِ من مغربها كالحامل المتمِّ، ونزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، والريح التي تهبُّ بعدَ موتِ عيسى فتقبضُ أرواحَ المؤمنين»**(١).

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي: فمن أين لهم التذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة، ولو تذكَّروا فإنه لا ينفعهم في ذلك الوقت، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

* * *

استغفار النبي عليه الصلاة والسلام

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

ثم عظَّمت الآيات شأن الساعة، فوجهت الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام تأمره بكثرة الاستغفار:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: فإذا جاءت الساعةُ فاعلم أنَّه لا ملجأ ولا منجى ولا مفزع عند قيامها إلا إلى الله، الذي لا إلـه إلا هو، أو دُمْ على ما أنتَ عليه من العلم، أو ازدد علماً إلى علمك، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فالعلم بالله تعالى وكماله وغناه لا حدود له.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الذي تراه ذنباً، وهو شعورك بالتقصير في شكر نعمه تعالى المتوالية عليك.

ومرَّ معنا في الحديث الشريف: عن **المغيرة** رضي الله عنه قال: إنْ كانَ النبيُّ ﷺ ليقوم ـ أو ليصلي ـ حتى ترمَ قدماه ـ أو ساقاه ـ فيقال له، فيقول: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً**» [رواه البخاري (١١٣٠)].

قال العلماء: إنَّما ألزم الأنبياءُ أنفسَهم بشدة الخوف لعلمهم بعظيم نعمة الله تعالى عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبذلوا مجهودهم في عبادته ليؤدوا بعضَ شكره، مع أنَّ حقوقَ الله أعظم من أن يقومَ بها العباد(١).

---

(١) فتح الباري: ٣/ ١٥.

وقد يكون طلبه ﷺ المغفرةَ إجلالاً وتعظيماً لربه، وعلى سبيل التواضع والهضم لنفسه، أو على سبيل التعليم لأمته لتقتديَ به.

وقد يكون سبب استغفاره ﷺ أنه لما كان ينشغل بالنظر في أمور المسلمين ومصالحهم حتى يرى أنه قد شغل بذلك ـ وإن كان من أعظم طاعة وأشرف عبادة ـ عن أرفع مقام مما هو فيه، وهو التفرُّد بربه ﷻ، وصفاء وقته معه، وخلوص همه من كل شيء سواه[1].

ولعله المعنى المراد من قوله ﷺ: «**إنَّه ليغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفرُ اللهَ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ**» [رواه مسلم (٢٧٠٢)].

و(**الغين**) هو الغيم الرقيق، والمرادُ به هنا ما يتغشى القلب، فكان هذا الشغل والهم يغشى قلبه الشريف ﷺ، ويغطيه عن غيره، فيستغفر الله منه. حكاه الشيخ النووي عن القاضي عياض.

وقال الغزالي في «الإحياء»: «كان ﷺ دائمَ الترقِّي، فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلَها دونها فاستغفر من الحالة السابقة»[2].

وقد يكون استغفاره عليه الصلاة والسلام من ذنوب أمته، فهو كالشفاعة لهم، ويقوِّيه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: استغفر لذنوبهم بالدعاء لهم.

وفي إعادة حرف الجر وحذف المضاف إشعارٌ بفرط احتياجهم إلى استغفار الرسول ﷺ، وكثرة ذنوبهم، فإنَّها جنسٌ آخر تغاير ذنبه ﷺ.

وأشارت الآية إلى أنَّ العلم قبل العمل، فالعمل تابع للعلم، فهو الأول وهو الأمير على العمل.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي: والله يعلم تصرفاتكم وأحوالكم في الدنيا ومصيركم إلى الجنة أو إلى النار يوم القيامة.

---

(١) تفسير الخازن: ٥/٥٠٧.

(٢) فتح الباري: ١١/١٠٢.

فهو سبحانه محيط بكل أعمالكم وحركاتكم وسكناتكم فاحذروه وراقبوه، وعظِّموا أمره واستغفروه، فالدنيا زائلةٌ قصيرةٌ، والآخرة باقية خالدة، وطاعته تعالى والجهاد في سبيله خير لكم في الدارين.

* * *

المتقاعسون عن القتال

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

وبعد أن زهدتهم الآيات في الدنيا بينت جُبن المنافقين وتقاعسهم عن تنفيذ أمر الله تعالى، وخاصة عندما يؤمرون بالجهاد:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هـلّا نـزلـت سـورة نـؤمـر فـيـهـا بالجهاد. فالمؤمنون حريصون على الجهاد، وأما المنافقون فشأنهم مختلف:

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: أنـزلـت سـورة لـم تُـنـسـخ، أمروا فيها بالقتال، أو سورة محكمة لا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال. وفي قراءة: (**نَزَلَتْ سورةٌ**) بالبناء للفاعل.

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: رأيت المنافقين تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً، كمن أصابته غشية الموت.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وهو وعيد وتهديد من **الوَلْي** وهو القرب، ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم الموت، أو يؤول إليه أمرهم.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: طاعة وقول معروف أفضل وأحسن من ترك امتثال أمر الله تعالى.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: فإذا جد الجد، وكلفوا بالقتال، فلو صدقوا الله، وبادروا إلى تنفيذ أمره، لكان الصدق خيراً لهم من كراهة الجهاد والتقاعس عنه.

* * *

المفسدون في الأرض وقاطعو الأرحام

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾

ثم وجهت الآيات الخطاب إليهم لتأكيد توبيخهم وتشديد تقريعهم:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس، وتأمرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم، تناحراً على الملك، وتهالُكاً على الدنيا، فإنَّ موقفكم من الجهاد ـ وهو وسيلةُ كلِّ خير وصلاح، ودفع كل شر وفساد ـ يدل على ذلك.

وقد يكون المراد من (توليتم) أعرضتم، ويكون المعنى: فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن، وفارقتم أحكامه، أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء، وأخذ الرُّشا.

وفي قراءة: (إن تُوُلِّيتم) بضم التاء والواو وكسر اللام، أي: تولاكم حكَّامٌ ظلمةٌ، خرجتم معهم، وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم.

وهذا يدل على ضعفهم في الدين، وحرصهم على الدنيا، فهم أحقاء أن يتوقع ذلك منهم كل من عرف حالهم.

ودلت الآيةُ على حرمةِ قطع الأرحام، وهي ـ كما قال القرطبي في تفسيره ـ نوعان؛ عامة، وخاصة:

فالرحم العامةُ: رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله، ونصرتهم، والنصيحةُ لهم، وترك مضارتهم...

وأما **الرحم الخاصة**: وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم حقوق خاصة وزيادة، كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوقُ بُدئ بالأقرب فالأقرب.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ الرحم التي تجبُ صلتُها هي كلُّ رحم محرم(١).

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**خلقَ اللهُ الخلقَ، فلمَّا فرغَ منه قامتِ الرحمُ، فأخذتْ بحقو الرحمنِ، فقال لها: مَهْ، قالتْ: هذا مقامُ العائذِ بكَ من القطيعةِ، قال: ألا ترضَيْنَ أَنْ أصلَ مَنْ وصلَكِ، وأقطعَ مَنْ قطعكِ؟ قالتْ: بلى يا ربِّ، قال: فذاكِ**» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [رواه البخاري (٤٨٣٠)].

قوله: «**قامت الرحم**» يحتمل أن يكون على الحقيقة، والأعراضُ يجوزُ أن تتجسَّدَ وتتكلَّمَ بإذن الله، ويحتمل أن يكون ذلك على طريق ضرب المثل والاستعارة، والمراد تعظيمُ شأنها، وفضل واصلها، وإثم قاطعها.

وقال عياض: **الحقو**: معقد الإزار، وهو الموضعُ الذي يُستجار به ويحتزمُ به على عادة العرب، لأنه من أحق ما يحامى عنه ويدفع، كما قالوا: نمنعه مما نمنع منه أُزُرنا، فاستعيرَ ذلك مجازاً للرحم، لاستعاذتها بالله من القطيعة.

وقد يطلق الحقو على الإزار نفسه، كما في حديث **أم عطية**: «فأعطاها

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٤٧.

حقوه فقال: **«أشعِرْنها إيّاهُ»** يعني إزاره، وهو المراد هنا، وهو الذي جرت العادةُ بالتمسكِ به عند الإلحاح في الاستجارة والطلب، والمعنى على هذا صحيح مع اعتقاد تنزيه الله عن الجارحة(١).

وعن **أبي أيوب الأنصاري** رضي الله عنه: أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ اللهِ أخبرني بعملٍ يدخلُني الجنةَ، فقال ﷺ: **«تعبدُ اللهَ لا تشركُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاةَ، وتؤتي الزكاةَ، وتَصِلُ الرحمَ»** [رواه البخاري (٥٩٨٣)].

والأحاديث في فضل صلة الرحم كثيرة، كما أنها أيضاً كثيرة في التحذير من قطعها. يكفي أن نذكرَ منها ما رواه **جبير بن مطعم** رضي الله عنه: أنه سمع رسولَ اللهِ ﷺ يقول: **«لا يدخلُ الجنَّة قاطِعٌ»** [رواه البخاري (٥٩٨٤)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: أولئك المخاطبون الذين أبعدهم الله من رحمته فأصمَّهم عن استماع الحق لسوء اختيارهم، وإعراضهم عنه، وأعمى أبصارهم عن رؤية دلائل الحق والانتفاع بها.

ولا شك أن لعنة الله التي ذُكرت في الآية أدت بهم إلى قسوة قلوبهم وحرمانها من هدي القرآن الكريم، ولهذا قال تعالى منكراً عليهم تغافلهم وإعراضهم عن تدبر آياته:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ألا يتأمَّلون ويتصفَّحون القرآنَ لينتفعوا بما فيه من مواعظ وزواجر؟ أم على قلوبهم أقفال، فلا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر؟!.

وأضيفت الأقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال مناسبة لها مختصة

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٨٠.

بها، لا تجانِسُ الأقفالَ المعهودةَ، وهي أقفال الكفر والختم والطبع، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

* * *

الردة والنفاق

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ
(٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ
اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ
وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ
فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤)﴾.

كما أدت لعنة الله بهم أيضاً إلى الارتداد عن الإسلام وموالاة الشيطان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥)﴾.

أي: إن الذين رجعوا إلى الكفر من بعد ما تبين لهم الهدى بالأدلة الظاهرة، الشيطانُ سهَّلَ لهم، وحَسَّنَ لهم ذلك، ومدَّ لهم في الأماني والآمال.

وفي قراءة: **(وأملي لهم)** على صيغة المتكلم، أي: الشيطان يغويهم، وأنا أنظرهم وأمهلهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: ذلك الارتداد والرجوع إلى الكفر بسبب أنهم قالوا لليهود الكارهين لنزول القرآن: سنطيعكم في بعض الأمر، وهو ما ذكره سبحانه عنهم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

وهم بنو قُريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم، أي: نطيعكم في هذا الجانب، أمّا إعلان الكفر والخروج من الإسلام، فلا نطيعكم فيه، لما كان لهم في إظهار الإسلام من المنافع الدنيوية.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: والله يعلم إخفاء ما قالوه لليهود، وفي قراءة: **(أسرارهم)** ومنها هذا الذي أظهره سبحانه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: فكيف يعملون ويحتالون إذا توفتهم الملائكة عند الموت، يضربون وجوههم وأدبارهم؛ هل يستطيعون حينئذٍ أن يقاتلوا ملائكة الموت، ويمنعون أنفسهم منه؟!.

ودلت الآيات على أن اليهود كرهوا نزول القرآن الكريم على الرسول ﷺ، وأنَّ المنافقين أولياء لهم، كما دلت على حالهم عند الموت، ووصفته بأفظع وأهول الأحوال، وكأنها تردُّ على المنافقين ما قالوه لليهود، فإنهم يخافون من الموت، ويجبنون عن القتال لأجله، فكيف يتقون ضرب الوجوه والأدبار عند نزوله بهم.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا يُتوفى أحدٌ على معصيةٍ إلا تضربُ الملائكةُ في وجهه وفي دبره.

فالكلامُ في نظره على الحقيقة، ولا مانع من ذلك وإن لم يحس بالضرب من حضر، وما ذلك إلا كسؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ(١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾.

أي: ذلك المصير الأليم والتوفي الهائل بسبب أنهم اتبعوا ما عرَّضهم لسخط الله، وكرهوا رضوانه، فأحبط أعمالهم التي عملوها حال إيمانهم.

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩﴾.

أي: أحسب المنافقون الذين وصفتهم الآيات أنَّ الله لن يفضحَهم ويظهِرَ ما في قلوبهم من حقد وعداوة لرسول الله ﷺ والمسلمين؟!.

فأمرهم هذا أمرٌ خطير لا ينبغي السكوت عليه.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ والله قادر على كشفهم وإظهار حقيقتهم لرسوله ﷺ، ولهذا قال سبحانه له: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم بعلامتهم التي تعرفهم بها، ففيه إشارةٌ إلى قوة ذلك التعريف الذي لا يقع معه اشتباه.

﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ أي: ولتعرفنهم من فحوى كلامهم ومقصده.

وهذا يدل على أنهم ما كانوا يقدرون على كتمان ما في أنفسهم، وهو جوابُ قسمٍ محذوف، فلم يتكلم بعد نزول هذه الآية منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ فلا يخفى عليه شيء منها.

---

(١) روح المعاني: ٢٦/ ٧٧.

ثم بينت الآيات أن من حكمته تعالى في تشريع الجهاد كشف المنافقين وفضحهم، وتمييز المؤمنين عنهم.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: ولنبلونكم بالقتال إعلاماً لا استعلاماً حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين عليه.

فالمراد من قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي: على الوجود والظهور، فالله تعالى عالمٌ بجميع الأشياء قبل وجودها، وقَدَّرُ سبحانه ألا يعاملنا بحسب سابق علمه فينا، بل بأعمالنا التي نكتسبها باختيارنا، فهو العلم الذي يقع به الجزاء، فهو كقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران].

﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نظهرها ونكشفها.

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهمَّ لا تبلنا، فإنَّكَ إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا وعذبتنا.

ثم توعدت الآيات اليهود الذين كانوا يمالئون المنافقين ويصدُّون الناس عن اتباع الرسول ﷺ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: وعادوا الرسول ﷺ من بعد ما شاهدوا من نعوته عليه الصلاة والسلام في التوراة، وما أنزل عليه من الآيات.

﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لن يضروا رسول الله ﷺ شيئاً بمشاقته وعداوته، وسيحبط مكايدهم التي نصبوها له عليه الصلاة والسلام، ولا يخفى ما في الآية من تعظيم لشأن رسول الله ﷺ، فمعاداته معاداة لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

ثم توجهت الآيات تخاطب المؤمنين تحذرهم من الوقوع في حبائل اليهود ومكرهم، وترك طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام والإعراض عن أحكام شريعته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

كما أبطل المنافقون أعمالهم بموالاة أعداء الإسلام.

فالردة تحبط جميع الأعمال الصالحة، وأما الرياء والعُجب والمنُّ والأذى فتبطل ثواب الصدقات، واحتجَّ بعض العلماء كمالك وأبي حنيفة بالآية على وجوبِ إتمامِ ما شرع من نوافل الأعمال، فأوجبوا إتمامه وقضاءه إذا أبطل.

فاثبتوا على الإيمان، وتمسَّكوا بالإسلام، حتى ينزل بكم نازل الموت، فالذين يموتون على الكفر لا يغفر الله لهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.

* * *

السلام والاستعداد

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾

وبعد التحذير من الردة ثبتتهم الآيات في مواجهة الكفار:

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: فلا تضعفوا وتدعوا الكفار إلى الصلح خَوَراً وجبناً، وأنتم في حال علو وتفوُّق على عدوكم، فالإسلامُ دينُ السلامِ لا دينُ الاستسلام، فإنَّ كونهم الأعلون، وكونه تعالى ناصرهم من موجبات الثبات، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وفي قراءة: ﴿**السِّلم**﴾ بالكسر.

ولا تتعارض الآية مع قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

فالآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال، فلا تجوزُ مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين(١).

ومرَّ معنا في الحديث عن آية **سورة الأنفال** أنه يجوز لولي أمر المسلمين أن يصالحَ الأعداءَ ويسالمهم إذا رأى في ذلك مصلحة للمسلمين، وسيأتي معنا في

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/٢٥٦.

سورة الفتح أنَّ النبيَّ ﷺ صالحَ قريشاً صلح الحديبية، وكان فيه مصلحةٌ كبيرة للإسلام والمسلمين، حتَّى سماه الله تعالى فتحاً بقوله الكريم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

فأمر الصلح والحرب منوط برأي ولي أمر المسلمين، وليس بحتم أن يقاتل الكفار أبداً أو يجانبوا إلى الهدنة أبداً، ولا تعني مصالحة الأعداء ترك الاستعداد، فإعداد القوة أمر واجب على المسلمين في جميع الأحوال.

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: والله معكم بالنصر والتأييد، ولن ينقصكم أجر أعمالكم وجهادكم.

ثم زهَّدتهم الآياتُ بالدنيا، حتى لا تؤدِّي مسالمةُ العدو إلى تعلقهم بها، وانشغالهم بها عن طلب الآخرة، كما حثتهم على الإنفاق في سبيل الله لإعداد القوة والاستعداد.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: باطل وغرور إلا ما كان منها في طاعة الله وعبادته.

واللعب: ما يشغل الإنسان، وليس فيه منفعة في الحال وفي المآل، وإن شغله عن مهمة نفسه فهو **اللهو**.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه عليكم فهو سبحانه غني عنكم.

﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: إن يسألكموها، ويبالغ في المسألة، تبخلوا بها، ويظهر بغضكم وعداوتكم، فالبخل يخرج الأضغان.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنتم أيها المخاطبون تدعون لتنفقوا جزءاً من أموالكم في سبيل الله كالجهاد والزكاة وغيرهما.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ أي: فمنكم من يبخل، ويمتنع عن الإنفاق، ويعود ضرر بخله على نفسه، والبخل يتضمن معنى الإمساك ولهذا عُدِّي بـ (عن).

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ فما يأمركم به لمنفعتكم، فهو غنيٌّ عن عبادتكم، وأنتم المحتاجون إليه سبحانه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: وإن تعرضوا عن حمل الرسالة، والقيام بتكاليفها، يخلف عليها قوماً آخرين كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ أي: لا يكونوا أمثالكم في التولِّي عن الإيمان والتقوى، بل يكونون راغبين فيهما.

وجاء في الحديث الشريف الذي أخرجه **عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والترمذي**، وهو حديث صحيح على شرط مسلم: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟...﴾ فقالوا: يا رسول الله مَنْ هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ولا يكونون أمثالنا؟ فضرب رسولُ اللهِ ﷺ على منكبِ سلمان ثم قال: «**هذا وقومُه، والذي نفسي بيده، لو كانَ الإيمانُ منوطاً بالثريا لتناوله رجالٌ من فارس**».

ويقويه ما في «**الصحيحين**» [البخاري (٤٨٩٧) ومسلم (٢٥٤٦)]: من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبيِّ ﷺ فأنزلت عليه **سورة الجمعة** [٣]: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قلت: مَنْ هم يا رسول الله؟ فلم يرجعه حتى سأل ثلاثاً، وفينا سلمانُ الفارسيُّ، وضع رسولُ اللهِ ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «**لو كانَ الإيمانُ عندَ الثريا لناله رجالٌ ـ أو رجلٌ ـ من هؤلاءِ**».

قال ابن حجر رحمه الله: «وقع في بعض طرقه عند أحمد بلفظ: «**لو كانَ العلمُ عند الثريا**». وفي بعض الطرق عند أبي نُعيم أنَّ ذلك كان عند نزول قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، ويحتمل أن يكون ذلك صدر عند نزول كل من الآيتين»[١].



(١) فتح الباري: ٨/ ٦٢٣.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفتح الأعظم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

حملت سورةُ الفتحِ في مستهلِّها البشائر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

أي: مكَّناك ونصرناك نصراً بيناً ظاهراً مفرِّقاً بين الحق والباطل بغير قتال، أو بقتال، أو: إنا قضينا وحكمنا لك فتحاً مبيناً ظاهراً.

والمرادُ به صلحُ الحديبية حين صدَّه المشركون في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجعَ عامه هذا، ثم يأتي من قابل، فأجابهم ﷺ إلى ذلك على كُرهٍ من جماعة من الصحابة، منهم: عمر بن

الخطاب رضي الله عنه، فلمَّا نحرَ هديه حيثُ أُحْصِرَ، ورجع، أنزل الله ﷻ هذه السورة، وجعل ذلك الصلحَ فتحاً باعتبار ما آل إليه من المصلحة.

عن البراء رضي الله عنه قال: **تعدُّونَ أنتم الفتحَ فتحَ مكةَ، وقد كان فتحُ مكةَ فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرضوانِ يومَ الحديبيةِ، كنا مع النبيِّ ﷺ أربعَ عشرةَ مئةً، والحديبيةُ بئرٌ، فنزحناها، فلم نتركْ فيها قطرةً، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فأتاها، فجلسَ على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ، ثم مضمض ودعا، ثم صبَّه فيها، فتركناها غيرَ بعيدٍ، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا وركابنا.** [رواه البخاري (٤١٥٠)].

قال ابن حجر: «المراد بالفتح هنا الحديبيةُ، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصلح الذي وقعَ من الأمن ورفع الحرب، وتمكَّنَ مَنْ يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك، كما وقع لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما، ثم تبعت الأسبابُ بعضها بعضاً إلى أن كملَ الفتحُ، وقد ذكر ابن إسحاق في «المغازي» عن الزهري قال: لم يكن في الإسلام فتحٌ قبل فتح الحديبية أعظمَ منه، إنما كان الكفر حيث القتال، فلمَّا أمن الناسُ كلهم، كلَّم بعضهم بعضاً، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكن أحدٌ في الإسلام يعقل شيئاً إلا بادر إلى الدخول فيه، فلقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»[١].

وذهب جماعة إلى أنه فتح مكة، وهو كما في «**زاد المعاد**» الفتح الأعظم، الذي أعزَّ الله تعالى به دينه، واستنقذ به بلده، وطهر حرمه، واستبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس بعده في دين الله ﷻ أفواجاً، وأشرق وجه الدهر ضياء وابتهاجاً، وكان سنة ثمانٍ[٢].

وقال مجاهد والعوفي: هو فتح خيبر، والأول أكثر، وخيبر إنما كانت وعداً وعدوه على ما يأتي بيانه[٣].

---

(١) فتح الباري: ٧/٤٤١.
(٢) روح المعاني: ٢٦/٨٦.
(٣) تفسير القرطبي: ١٦/٢٦١.

وقيل: هو فتح فارس والروم وسائر بلاد الإسلام التي يفتحها الله ﷻ له.

ثم بينت الآيات ما جمع الله للنبي ﷺ بالفتح من غايات كريمة ومقاصد رفيعة:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي: ليغفر لك الله كل ما تراه ذنباً كما مرَّ معنا في قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

فبالفتح تحققتِ المساعي الطيبة المباركة، التي بذلها النبيُّ ﷺ فأقر الله عينه به.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين».

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وبما أفاضه سبحانه على نبيه من النعم الدينية والدنيوية حتى خضع له وتذلل من كان يتكبر عليه.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة.

ولهذا بادر ﷺ بعد صلح الحديبية إلى إرسال الرسائل إلى ملوك الأرض يدعوهم فيها إلى الإسلام، ففي الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ نبيَّ الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ**. [رواه مسلم (١٧٧٤)].

فكأنه قال: ويهدي بك صراطاً مستقيماً، أو يثبتك على الهدى.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

أي: نصراً غالباً منيعاً لا يتبعه ذل، أو يَعزُّ وجود مثل هذا النصر.

وإظهار الاسم الجليل مع النصر لإظهار كمال العناية بشأنه، وفيه إشارة إلى

أنه لا يكون إلا من عند الله تعالى، ولهذا قال النبي ﷺ لما أنزلت عليه هذه الآية: «**لقد أنزلتْ عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً**» [رواه مسلم (١٧٨٦)].

* * *

جنود الله

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥)﴾.

ثم بينت الآيات بعد هذا التعظيم والتشريف للنبي عليه الصلاة والسلام ما أفاض سبحانه على أصحابه من بداية الفتح:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ أي: الله أنـــزل الطمأنينة والثبات في قلوبهم ليزدادوا يقيناً منضمّاً إلى يقينهم.

ولعله مثل الطمأنينة التي سألها إبراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

أكرم الله بمثلها أصحاب النبي ﷺ، فأراهم تحقق ما وعدهم من النصر والفتح، وتيسير الأمن بعد الخوف.

والمراد من إنزال السكينة خَلْقُها وإيجادُها، وفي التعبير بالإنزال إيماءٌ إلى علوِّ شأنها، قال الراغب: «إنزال الله تعالى نعمته على عبده إعطاؤه تعالى إياها»(١).

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يعلمُ جنودَه سبحانه إلا هو، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

ومرَّ معنا أنَّ **الرعب** جندي من جنوده تعالى حمى به أصحاب الكهف، وسخَّره للنبي ﷺ ونصره به، وكذلك **الحُبُّ** جندي من جنوده تعالى حمى به نبيه موسى عليه السلام فقال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، وكذلك **السكينةُ** من جنوده سبحانه، أنزلها في قلوب الصحابة، فإن من لوازمها ثباتُ الأقدام عند اللقاء في الحروب، فكان ذلك من أسباب النصر.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بجنوده وأحوال مخلوقاته حكيماً في تقديره وتدبيره.

- **زيادة الإيمان ونقصانه:**

واحتجَّ بالآية القائلون بزيادة الإيمان ونقصه، وهم جمهور الأشاعرة والفقهاء والمحدِّثون والمعتزلة، ونقل ذلك عن الشافعي ومالك، قال البخاري: لقيتُ أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيتُ أحداً منهم يختلف في أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، يزيدُ وينقصُ.

وقال النووي ومحققون من علماء الكلام: إنَّ الإيمان بمعنى التصديق القلبي يزيد وينقص أيضاً بكثرة النظر، ووضوح الأدلة، وعدم ذلك، ولهذا كان إيمان الصدِّيقين أقوى من إيمان غيرهم. . .

وقال جماعة من العلماء أعظمهم الإمام أبو حنيفة، وتبعه أصحابه وكثير من المتكلمين: الإيمانُ لا يزيدُ ولا ينقص. واختاره إمام الحرمين، واحتجُّوا بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان، وهذا لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان، والزيادة في الآية بحسب الدوام والثبات، وكثرة الزمان والأوقات، أو ثمرته

---

(١) روح المعاني: ٢٦/ ٩٢.

وإشراق نوره في القلب، فإنَّ نور الإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي(١).

والجدير بالذكر أنَّ الإمام البخاري بوَّب في صحيحه باباً خاصّاً في زيادة الإيمان ونقصانه فقال: [٣٣] باب زيادة الإيمان ونقصانه، وقول الله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فإذا ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص.

ثم أورد رَحِمَهُ اللهُ حديث **أنس** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: [٤٤] عن النبيِّ ﷺ قال: «**يخرجُ مِنَ النارِ مَنْ قال: لا إلٰه إلا الله، وفي قلبه وزنُ شعيرةٍ مِنْ خيرٍ، ويخرجُ من النارِ مَنْ قال: لا إلٰه إلا الله، وفي قلبه وزنُ بُرَّةٍ مِنْ خيرٍ، ويخرجُ من النار مَنْ قال: لا إلٰه إلا الله، وفي قلبه وزنُ ذَرَّةٍ من خير**».

ثم ذكر تعليقاً رواية أخرى [٤٤] للحديث بلفظ: «**من إيمانٍ**» مكان «**من خيرٍ**»(٢).

ثم بيَّن سبحانه فضله على المؤمنين يوم القيامة:

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: ليغطي سيئاتهم ولا يظهرها.

وقدمت الآية إدخال الجنة على التكفير مع أنَّ تكفير السيئات قبل دخول الجنة، مسارعة إلى بيان المطلب الأعلى، وهو دخول الجنة. فالآيات حملت البشائر فبدأت بأعلاها وأعظمها.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: وكان ذلك في علم الله فوزاً عظيماً، لأنه منتهى ما تطمحُ إليه قلوبُ المؤمنين والمؤمنات.

* * *

---

(١) روح المعاني: ٢٦/٩٣.

(٢) فتح الباري: ١/١٠٣.

دائرة السوء

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

وفي مقابل ما حملت الآيات من البشائر للمؤمنين والمؤمنات، حملت التهديد والوعيد للمنافقين والمشركين والمشركات:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ظن الأمر السوء أنه تعالى لا ينصرُ رسوله ﷺ والمؤمنين الذي سيأتي معنا عند قوله سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

وسوء الظن بالله تعالى كفرٌ، لما فيه من تكذيب لله سبحانه، واتهام له جل جلاله في حكمه، فهو ظن مُرْدٍ ومهلك، قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: عليهم دائرة ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين، فهو دائر عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وفي قراءة: (دائرة السُّوء) بالضم، وهما لغتان، غير أنَّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه، والمضموم جرى مجرى الشر الذي هو نقيض الخير، وكلاهما في الأصل مصدر(١).

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٦/ ٧.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: وساءت جهنم منقلباً، هكذا توعدتهم الآية بالشر في الدنيا وإبعادهم عن رحمته تعالى، وبالعذاب الشديد في الآخرة.

وأكد سبحانه قدرته على الانتقام من أعداء رسوله ﷺ ودينه، قال:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

ففي جنود السماوات والأرض مَنْ هو للرحمة وتثبيت المؤمنين، وفيهم أيضاً من هو للعذاب.

وعلمَ اللهُ ضعفَ المؤمنين، فناسب أن تكون خاتمة الآية الأولى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، ولما بالغ في وصف تعذيب الكافر والمنافق وشدته ناسب أن تكون خاتمة الآية الثانية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

* * *

البَيْعة على الموت

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

وعادت الآياتُ مرةً ثانيةً تخاطِبُ النبيَّ ﷺ وهي تمجِّده وتعظِّمه، وتبين وجوب تعظيمه واتباعه وطاعته على المؤمنين:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾.

أي: شاهداً على أمتك يوم القيامة، ومبشِّراً المؤمنين بفضل الله ورحمته، ومنذراً المعرضين بعذابه وسخطه.

﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾.

﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: لتؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، وتعظموا الرسول ﷺ بنصره وتقويته، ومنعه من أعدائه، وتحترموه، وتعرفوا فضله ومكانته، فالضمير فيهما للنبيِّ ﷺ، وهنا وقف تام، ويمكن أن يكون الضميرُ فيهما لله تعالى، فلا وقفَ ولا تشتيتَ للضمائر، ويكون المعنى: وتعزروه سبحانه بنصر دينه ورسوله، وتوقروه بتعظيمه ﷻ.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: وتنزهوا الله في أول النهار وآخره، أو تصلوا لله تعالى وفيها التسبيح، وفي قراءة: (**ليؤمنوا، ويعزروه، ويوقروه، ويسبحوه**) بالياء.

وتعظيم النبيِّ ﷺ واحترامه تعظيم لله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: إن الذين يبايعونك يا محمد يوم الحديبية على الموت في نصرتك، أو على أن لا يفروا إنما يبايعون الله، لأنَّهم يقصدون طاعته كما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وكان السبب في البيعة: أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أراد أن يبعث رجلاً إلى قريش، يبلغهم ما جاء له، فدعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة فيبلِّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إنِّي أخافُ قريشاً على نفسي، وليس بمكةَ من عدي بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفتْ قريشٌ عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلُّكَ على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان.

فدعا رسولُ اللهِ ﷺ عثمان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأتِ لحربٍ، وأنه إنَّما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظِّماً لحرمته، فخرجَ

عثمانُ إلى مكة، فبلَّغ رسالة رسول الله ﷺ، فقالوا له: إنْ شئتَ أَنْ تطوفَ في البيتِ فطف، فقال: ما كنتُ لأفعلَ حتى يطوفَ به رسولُ اللهِ ﷺ.

واحتبسته قريشٌ عندها، فبلغَ رسولَ اللهِ ﷺ والمسلمين أنَّ عثمانَ بنَ عفان قد قُتل، فقال ﷺ: «**لا نبرحُ حتَّى نناجزَ القوم**» فدعا الناسَ إلى البيعةِ، فكانت بيعةُ الرضوان تحتَ الشجرةِ[1].

وفي الحديث الشريف: أنَّ رجلاً من أهل مصر سأل ابنَ عمر رضي الله عنهما قال: إنِّي سائلكَ عن شيءٍ فحدثني عنه: هل تعلمُ أنَّ عثمانَ فرَّ يومَ أُحُدٍ؟ قال: نعم. فقال: تعلمُ أنَّه تغيَّبَ عن بدرٍ، ولم يشهدها؟ قال: نعم. قال الرجلُ: هل تعلمُ أنَّه تغيَّبَ عن بيعةِ الرضوانِ فلم يشهدْها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر. قال ابنُ عمرَ: تعال أبيِّنْ لكَ: أمَّا فراره يومَ أحدٍ فأشهدُ أنَّ الله عفا عنه وغفرَ له، وأمَّا تغيبه عن بدرٍ، فإنَّه كانتْ تحته بنتُ رسولِ اللهِ ﷺ، وكانت مريضةً، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ لكَ أجرَ رجلٍ ممَّنْ شهدَ بدراً وسهمَه**». وأمَّا تغيبه عن بيعةِ الرضوانِ فلو كانَ أحدٌ أعزَّ ببطنِ مكةَ من عثمانَ لبعثه مكانه، فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عثمانَ، وكانت بيعةُ الرضوانِ بعدما ذهبَ عثمانُ إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليُمنى: «**هذِهِ يدُ عثمانَ**» فضربَ بها على يدِهِ، فقال: «**هذِهِ لعثمانَ**» فقال له ابنُ عمرَ: اذهبْ بها الآن معك. [رواه البخاري (٣٦٩٩)].

ففي الآية تعظيم لشأن هذه البيعة أكده سبحانه بقوله بعد ذلك:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما.

أو هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايعُ بواسطة رسوله ﷺ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٠١.

وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

واليد في حق الله تعالى صفة من صفات ذاته ليست جارحة، ومذهب السلف السكوتُ عن التأويل، وإمرارُ آيات الصفات كما جاءت، وتفسيرها قراءتها والإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي: فمن نقض عهده فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ومن وفى بما عاهد عليه الله في البيعة فسيؤتيه أجراً عظيماً يوم القيامة.

وضمَّ هاءَ **(عليهُ)** حفصٌ في قراءته، وفي قراءة: **(فسنؤتيه)** بالنون.

ولما سئل **سلمة بن الأكوع** ﷺ: على أيِّ شيءٍ كنتم تبايعونَ يومئذٍ؟ قال: **على الموتِ**. [رواه البخاري (٢٩٦٠)].

وقال بعضهم: بايعهم على ألا يفرُّوا. ولا تنافي بينهما لاحتمال أن يكونَ ذلك في مقامين، أو أحدهما يستلزم الآخر.

* * *

أعذار المتخلِّفين

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

ثم عرضت الآيات للذين حرموا أنفسهم من هذا الأجر العظيم، وتخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجوا معه، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً، استنفر مَنْ حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، فتثاقل عنه كثير منهم، واعتلوا بالشغل فأنزل الله فيهم:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: سيقولون لك إذا رجعت إليهم من عمرتك: شغلتنا أموالنا وأهلونا، فاستغفر لنا بسبب تخلفنا. قالوا ذلك على وجه التقية والمصانعة، فكذَّبهم سبحانه:

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فهم كاذبون في طلب الاستغفار، لا يبالون أستغفر لهم النبيُّ ﷺ أم لا.

ولهذا أمر عليه الصلاة والسلام أن يتوعدهم بدل أن يستغفر لهم:

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أي: لا أحد يمنع عنكم ما قدَّره الله لكم من ضر أو نفع.

وذلك أنهم ظنوا أن تخلفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضر، أو يجلب لهم النفع بالسلامة من مخاطر الخروج معه، وفي قراءة: (ضُرّاً) بضم الضاد، ومعناه: سوء الحال.

﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي: ليس الأمر كما تقولون، بل كان الله خبيراً بحقيقة تخلفكم ومجازيكم عليه.

ثم فضحهم سبحانه وبيَّن سبب تخلفهم:

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: بل ظننتم أن لن يرجع الرسول ﷺ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، بأن يستأصلهم المشركون بالمرة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: وحسن هذا الظن في قلوبكم، وانشرحت له صدوركم وعملتم به.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: وظننتم أنَّ الله سبحانه لا ينصر رسوله ﷺ، وصرتم بسبب ذلك الظن الفاسد قوماً بائرين هالكين لا خير فيكم.

ثم دعتهم الآياتُ بأسلوبٍ غيرِ مباشر إلى الإيمان الصادق قبل أن ينزل بهم العذاب:

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

وهي نار جهنم، ونكَّرها تهويلاً لها.

ثم أخبر تعالى عن كمال ملكه وسلطانه وطلاقة مشيئته:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

ولا يغفر سبحانه إلا لمن تقتضي الحكمةُ أن يغفر له ممن يؤمن بالله ورسوله ﷺ بصدق وإخلاص.

* * *

عقوبة المتخلِّفين

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

وكما بينت الآيات جبن المتخلفين وتثاقلهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ بينت أيضاً طمعهم الشديد، وتعلق قلوبهم بالمنافع الدنيوية والمكاسب المادية:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ﴾ أي: سيقول لك المخلفون المذكورون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر لتأخذوها حسبما وعدكم الله إياها: دعونا نخرجْ معكم، ونشارككم في المغانم.

وهذا يدل على أنهم كانوا يرون ضعف العدو، ويتحققون النصر، فقد جاء في الأخبار الصحيحة: أنَّ الله تعالى وعدَ أهلَ الحديبيةِ أن يعوِّضهم عن مغانم مكة مغانم خيبر(١).

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ بأن يشاركوا بالغنائم التي خصها الله بأهل الحديبية، فإنَّه عليه الصلاة والسلام رجعَ من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، وأقام بالمدينة بقيتها، ثم غزا خيبر في أوائل سنة سبع بمن شهد الحديبية ففتحها، وغنمَ أموالاً كثيرة فخصَّها بهم، ولا ينافي هذا إعطاؤه عليه الصلاة والسلام بعض مهاجري الحبشة القادمين مع جعفر، وبعض الدَّوسيين والأشعريين، وهم أصحاب السفينة، فلعلَّه كان برضا الغانمين، أو أعطاهم من الخمس الذي هو حقه عليه الصلاة والسلام، فكلام الله وعده بتلك الغنائم لأهل الحديبية، وفي قراءة: **(كلم الله)**.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تتبعونا، فإنه نفي في معنى النهي عن الاتباع للمبالغة.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل تهيئكم للخروج إلى خيبر.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: لم يأمركم الله بذلك، بل تحسُدوننا أن نشارككم بالغنيمة، وقرئ: **(بل تحسِدوننا)** بكسر السين.

﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بل كانوا لا يفهمون إلا فهماً قليلاً، وهو فهمهم لأمور الدنيا، وهو رد لقولهم الباطل في المؤمنين، ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد، وهو الجهل المفرط، وسوء الفهم في أمور الدين.

إنَّ منع المتخلفين عن المشاركة في فتح خيبر كان عقوبة مؤقتة لهم بسبب تخلفهم عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الحديبية، ولهذا أمر ﷺ أن يخبرهم بأنَّ بابَ الجهاد مفتوحٌ لهم، وأنه يمكنهم أن يتلافوا ما سلف من تقاعس وتثاقل:

---

(١) روح المعاني: ٢٦/ ١٠١.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ﴾ أي: ستدعون إلى قوم أولي قوة شديدة تقاتلونهم حتى يسلموا فيدخلوا بالإسلام، أو ينقادوا ويستسلموا لأحكامه بإعطاء الجزية.

واختلفوا في تعيين هؤلاء القوم، وتعددت آراؤهم: ثقيف وهوازن، أهل الردة، الروم والفرس، المغول والتتر، ولا مانع من حمل الآية على جميع أعداء الإسلام، وفطن القرطبيُّ في تفسيرها إلى لطيفة في الآية فقال: في هذه الآية دليلٌ على صِحَّة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم.

لكن من المعلوم أن قتال فارس والروم بدأ في عهد أبي بكر، واستمر في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهم.

﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ﴾ وهو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: إن تتولوا عن الاستجابة لدعوة الجهاد كما توليتم من قبلُ عن الخروج إلى الحديبية يعذبكم عذاباً أليماً.

ثم استثنت الآيات أصحاب الأعذار من الوعيد على التخلف:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ﴾ أي: لا تكليف عليهم ولا مسؤولية في التخلف عن القتال، فإن مدار التكليف على الاستطاعة، فهذه الأعذارُ ظاهرةٌ في ترك الجهاد، ويلحق بها أمثالها، كما يلحق بها الفقر الذي لا يمكن صاحبه من الخروج إلى الجهاد، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ

وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: ومن يعرض عن الطاعة، ويستمر على الكفر والنفاق يعذِّبه عذاباً أليماً. وفي قراءة: (**ندخله، نعذبه**) بالنون.

* * *

بَيْعة الرضوان

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن عظَّمت الآياتُ شأن البيعة في الحديبية، ونددت بالمتخلفين عن الخروج إليها، بيَّنت فضلَ الذين استجابوا للرسول ﷺ وخرجوا معه وبايعوه، فأخبر تعالى عن رضاه عنهم:

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وفي الحديث الشريف: عن **جابر** رضي الله عنه قال: قال لنا رسولُ اللهِ ﷺ يوم الحديبية: «**أنتم خيرُ أهلِ الأرضِ**» وكنا ألفاً وأربعمئة، ولو كنتُ أبصِرُ اليومَ لأريتكم مكان الشجرة. [رواه البخاري (٤١٥٤)].

قال ابن حجر: هذا صريحٌ في فضل أصحاب الشجرة، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكة وبالمدينة وبغيرهما. وعند مسلم [٢٤٩٥]: من حديث **جابر** مرفوعاً: «**لا يدخلُ النارَ مَنْ شَهِدَ بدراً والحديبية**». وروى مسلم

[٢٤٩٦] أيضاً: من حديث أم مبشر: أنها سمعتِ النبيَّ ﷺ يقول: «**لا يدخلُ النارَ أحدٌ مِنْ أصحابِ الشجرةِ**»(١).

ويبدو أنَّ الله تعالى قدَّر أن يخفى عليهم أمرُ تعيين مكانها، فعن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها. [رواه البخاري (٢٩٥٨)].

وعن سعيد بن المسيب قال: حدثني أبي أنَّه كان فيمن بايع رسولَ اللهِ ﷺ تحتَ الشجرةِ، قال: فلمَّا خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها. [رواه البخاري (٤١٦٣)].

قال ابن حجر: وجدتُ عند ابن سعد بإسنادٍ صحيح: عن نافع: أنَّ عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرةَ، فيصلُّون عندها، فتوعدهم، ثم أمر بقطعها فقُطِعَتْ(٢).

ولعلَّهم فعلوا ذلك بشجرة ظنّاً منهم أنها شجرة البيعة.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فعلم سبحانه ما في قلوبهم من الصدق والإخلاص عند مبايعتهم، فأنزل عليهمُ الطمأنينةَ والأمنَ وسكونَ النفس، وأثابهم فتحاً قريباً، هو فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية.

ففي الآية شهادة عظيمة من الله تعالى بإخلاص أصحاب بيعة الرضوان، مما يدل على فضلهم رضي الله عنهم كما مرَّ معنا.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ من أموال خيبر، وكانت ذات غنى بالأموال والمزارع والنخيل، وفي قراءة: (**تأخذونها**) بالتاء والالتفات بالخطاب لتشريفهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: كان الله ولا يزال منيعاً لا يغلب، حكيماً في ما يحكم ويقدِّر.

* * *

(١) فتح الباري: ٧/ ٤٤٣.

(٢) المرجع السابق: ٧/ ٤٤٨.

مقدمة الفتوح وتوالي البشائر

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

وكانت غنائم خيبر مقدمةً لمغانم كثيرة متوالية مع امتداد الفتوح وتوالي النصر:

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: فعجَّل لكم غنيمة خيبر.

ففي الآية إشارةٌ إلى كثرة الفتوحات والغنائم التي يكرمهم الله تعالى بها في المستقبل، فغنيمةُ خيبر في جنب ما وعدهم الله به من الغنائم كالقليل من الكثير.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: وكفَّ أيدي حلفاء أهل خيبر من بني أسد وغطفان حين هموا بنصرتهم، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب فنكصوا، أو كفَّ أيدي مشركي قريش عنكم بالصلح.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولتكونَ هذه الأحداثُ أمارةً للمؤمنين، يعرفون بها فضله تعالى عليهم، وصدق رسوله ﷺ في كل ما أخبرهم به.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ بالتوفيق والتثبيت.

واستمرت الآيات تحمل البشائر بالنصر والفتح للنبي عليه الصلاة والسلام ولأصحابه:

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ أي: وعجَّل لكم مغانم أخرى، وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، لم تقدروا عليها في أول الأمر عندما حدث ما حدث من الفرار، قد أظهركم الله عليها، وقدَّرها لكم، أو حفظها لكم، ومنعها من غيركم.

وقد يكون المعنى: وعدكم الله فتح بلاد أخرى لم تقدروا عليها بعد، وهي بلاد فارس والروم وكل فتح يفتحه المسلمون إلى آخر الزمان، فهي كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وقال هنا أيضاً:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فقدرته سبحانه تامة لا تختص بشيء دون شيء.

ومن الدلائل التي تدل على كمال قدرته جل وعلا:

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ولو قاتلكم مشركو مكة، ولم يصالحوا لانهزموا، ثم لا يجدونَ لهم ناصراً ولا مساعداً لأن الله خذلهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ﴾ أي: سُنَّة الله في نصر أنبيائه وأوليائه سُنَّة قديمة، ونصبت على المصدر، أو كسنة الله، وهي الطريقة والسيرة.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ولا يستطيعُ أحدٌ تغيير سنته تعالى.

* * *

محل الهدي

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

شرعت الآيات بعد ذلك تصفُ بعضَ ما حدث في الحديبية، وتبين فضله تعالى على المؤمنين:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وهو الذي كفَّ أيدي أهل مكة عنكم وأيديكم عنهم في داخل مكة، فبعض الحديبية من مكة، من بعد أن مكنكم منهم.

وفي الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** ﷺ: أنَّ ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسولِ اللهِ ﷺ من جبل التنعيم، متسلِّحين يريدون غرَّة النبيِّ ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً فاستحياهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾. [رواه مسلم (١٨٠٨)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: فيجازيكم عليه. وفي قراءة: **(بما يعملون)** بالياء، فيكون تهديداً للكفار.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: هَمَّ الذين كفروا ومنعوكم أن تصلوا إلى المسجد الحرام وتطوفوا به، وصدُّوا الهديَ وهو محبوسٌ مِنْ أن يبلغَ مكانه الذي يحلُّ فيه نحره، وهو أرض الحرم، أو محلها المعهودُ الذي هو مِنًى.

والهدي: ما يُهْدَى إلى الكعبةِ من الأنعام.

والمَحِلُّ بالكسر: غاية الشيء، وبالفتح الموضع الذي يحله الناس.

وقد استدل أبو حنيفة رحمه الله بالآية على أنَّ المحصر مَحِلُّ هديه الحرم، وقال غيره: يذبح المحصرُ الهدي حيث يَحِلُّ من إحرامه، وقد سبق تفصيلُ المسألة عند قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩].

- **حرمة المؤمنين والمؤمنات:**

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعرفوهم بأعيانهم، أن توقعوا بهم وتهلكوهم فتصيبكم من جهتهم مشقَّة ومكروه، وأنتم غيرُ عالمين بهم.

وجواب (**لولا**) محذوف، لدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين الكافرين غير عالمين بهم، فيصيبكم بذلك مكروه، لما كَفَّ أيديكم عنهم.

وكانوا ـ على ما أخرج أبو نعيم بسند جيد وغيره عن أبي جمعة بن جنيد ـ تسعة نفر، سبعة رجال وهو منهم، وامرأتين[(١)].

---

(١) روح المعاني: ٢٦/ ١١٣.

ودل قوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ﴾ على فضل الصحابة، فقد أخبر عن صفتهم الكريمة من العفَّة عن المعصية، والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا أحداً من ذلك لكان عن غير قصد.

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: لم يأذن لكم في قتال المشركين ليُسلم منهم من قدَّر له الإسلام.

﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لو تفرَّقوا وتميَّز بعضهم من بعض لعذبنا الذين كفروا عذاباً أليماً بقتلهم وأسرهم.

ففي هذه الآية دليلٌ على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن، إذ لا يمكن أذيةُ الكافرِ إلا بأذية المؤمن، قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: أرأيت لو أن قوماً من المشركين في حصن من حصونهم، حصرهم أهل الإسلام وفيهم من المسلمين أسارى في أيديهم، أيحرق هذا الحصن أم لا؟ قال: سمعتُ مالكاً وسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم النار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ فقال مالك: لا أرى ذلك، لقوله تعالى لأهل مكة: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وكذلك لو تترَّس كافر بمسلم لم يجز رميه. . .

قلت: قد يجوز قتل الترس ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانتِ المصلحةُ ضروريةً كليةً قطعيةً، فمعنى كونها **ضرورية**: أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس، ومعنى أنها **كلية**: أنها قاطعة لكل الأمة حتى يحصل مِنْ قَتْل الترس مصلحة كل المسلمين، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس، واستولوا على كل الأمة، ومعنى كونها **قطعية**: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً[١].

* * *

(١) تفسير القرطبي: ١٦/٢٨٦.

حمية الجاهلية وكلمة التقوى

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الأنفةَ والغضبَ، وذلك حين صدُّوا رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابه عن البيت، ولم يقرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وأنكروا أن يكونَ محمَّدٌ رسولَ اللهِ ﷺ، وهي حمية الجاهلية التي تمنع الإذعان للحق.

ففي حديث صلح الحديبية: أنه لما جاء سهيلُ بنُ عمرٍو قال النبيُّ ﷺ: «**قد سهلَ لكم مِنْ أمركم**» فقال سهيل: هاتِ اكتبْ بيننا وبينك كتاباً. فدعا النبيُّ ﷺ الكاتِبَ فقال: «**بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال سهيلٌ: أمَّا الرحمنُ فواللهِ ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمكَ اللهمَّ كما كنتَ تكتبُ. فقال المسلمون: واللهِ لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبيُّ ﷺ: «**اكتبْ باسمكَ اللهمَّ**» ثم قال: «**هذا ما قاضى عليه محمَّدٌ رسولُ اللهِ**» فقال سهيلٌ: واللهِ لو كنا نعلمُ أنَّكَ رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتبْ: محمَّد بن عبد الله. فقال النبيُّ ﷺ: «**واللهِ إنِّي لرسولُ اللهِ وإن كذبتموني، اكتبْ: محمَّدُ بنُ عبد الله**»... فقال له النبيُّ ﷺ: «**على أن تخلُّوا بيننا وبين البيتِ، فنطوف به**» فقال سهيلٌ: والله لا تتحدَّث العربُ أنَّا أُخِذْنا ضغطةً، ولكن ذلك من العامِ

المقبل... وكانت حميتُهم أنهم لم يقرُّوا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينه وبين البيت. [رواه البخاري (٢٧٣٢)].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فأنزل الله عليهم الثبات والوقار، فتوقروا وحلموا، فلم يدخلهم شيء من حمية الجاهلية كما حدث للمشركين.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: جعلهم يتمسَّكون بكلمة التقوى، وهي: **لا إلـه إلا الله**، التي يُتقى بها الشرك، فهي رأسُ كلِّ تقوى، ومنها طاعة رسول الله ﷺ.

ففي حديث الصلح: أن النبيَّ ﷺ لما فرغَ من قضيةِ الكتابِ قال لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**» قال: فواللهِ ما قامَ منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ، فلمَّا لم يقمْ منهم أحدٌ دخلَ على أُمِّ سلمةَ، فذكرَ لها ما لقيَ من الناسِ، فقالتْ أمُّ سلمةَ: يا نبيَّ الله أتحبُّ ذلك؟ اخرجْ، ثم لا تكلِّم أحداً منهم كلمةً حتى تنحرَ بُدْنَكَ، وتدعو حالِقَكَ فيحلقك. فخرجَ فلم يكلِّمْ أحداً منهم، حتى فعل ذلك، نحرَ بُدْنَهُ، ودعا حالقه فحلقَه، فلمَّا رأوا قاموا ونحروا، وجعل بعضُهم يحلِقُ بعضاً حتى كادَ بعضُهم يقتل بعضاً.

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي: وكانوا أحق بها من غيرهم، والمستأهلين لها، وهذا ثناء آخر على الصحابة الذين شهدوا الحديبية من ربهم إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل الله على قلوبهم من سكينة، وما جعل فيها من تقوى، وهو تكريمٌ بعدَ تكريم صادرٍ عن علم وتقدير.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم من يستحق الخير ممن لا يستحقه.

* * *

الرؤيا الصادقة

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

عادت الآيات بعد أن فرغت من وصف ما حدث بالحديبية إلى بداية الأحداث تبين السبب المباشر لها:

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: صدق الله رسوله ﷺ في رؤياه، وأراه الرؤيا الصادقة.

ومرَّ معنا أن رؤيا الأنبياء وحي، وكان رسول الله ﷺ قد رأى بالمنام أنه دخلَ مكةَ، وطافَ بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة.

وفي حديث الصلح: أنَّ **عمرَ بنَ الخطاب** رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: أوليسَ كنتَ تحدِّثنا أنا سنأتي البيتَ فنطوفَ به؟ قال: «**بلى، فأخبرتُكَ أنَّا نأتيه العامَ؟**» قال: قلتُ: لا. قال: «**فإنَّكَ آتيه ومطوفٌ بهِ**».

فقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: صدقاً متلبساً بالحق، فما رآه رسول الله ﷺ كائنٌ لا محالة في الوقت المقدر له وهو العام القابل.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليماً لعباده الأدبَ، ولتحقيق الخبر وتوكيده.

وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أثبتَ لهم الأمنَ وهم يؤدُّون مناسك العمرة، حتى ينتهوا منها بحلق رؤوسهم، وتقصيرها عند الإحلال.

وفي الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهمَّ ارحمِ المحلِّقينَ**» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «**اللهمَّ ارحمِ المحلِّقين**» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «**والمقصرينَ**» [رواه البخاري (١٧٢٧)].

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ فلا يخافون من عدوِّهم وهم في داخل بلده.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي: فعلم سبحانه أنَّ الصلاح كان في الصلح وتأخير دخول مكة.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فجعل من دون دخول مكة فتحاً قريباً، هو فتح خيبر، أو صلح الحديبية، يستأنس به المؤمنون، حتى يتيسَّر الموعودُ، وتتحقق رؤيا رسول الله ﷺ.

وفُتِحَتْ خيبرُ، ودخل النبيُّ ﷺ وأصحابه مكة معتمرين آمنين، وفُتِحَتْ بعد ذلك مكة، وتوالت الفتوح، وأظهر الله تعالى دينه على كل دين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ليُعْليه على جميع الأديان وينسخها به، فلا يقبل الله تعالى غير الإسلام ديناً.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صدق رسوله ﷺ، وأن ما وعده به كائن، وكيف لا يَشْهَدُ اللهُ له بالصدق وهو رسوله ﷺ.

* * *

جند النصر والفتح

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ فالذي أرسله ليظهره على الدين كله هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو الرسول المرسل بالهدى ودين الحق. وقرئ: (**رسولَ**) بالنصب على الفتح.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ والمراد بهم الذين شهدوا الحديبية، أو جميع أصحابه عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنهم، فهم في غلظةٍ وشدةٍ على أعداء الإسلام، ورحمةٍ ورقةٍ على المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ثم وصفهم سبحانه بكثرة الصلاة، وهي أفضل الأعمال، وشهد لهم بالإخلاص فيها:

﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ أي:

تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين يبتغون ثواباً ورضاً من الله، وإن آثار الصلاة من خشوع وتواضع وسمت حَسَن ونظافة ووضاءة بادية عليهم، فالصحابة ﷺ خَلُصت نيَّاتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سَمتهم وهديهم.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: ذلك الوصف العجيب الشأن الذي ذُكر صفتهم في التوراة.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: وصِفَتُهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وأولاده فقواه وأعانه حتى قوي وغلظ واشتد، وقام على عوده، الذي يحمله ويقوم عليه.

وهو مثل ضربه الله لأصحاب محمد ﷺ مكتوبٌ في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون.

قال ابن كثير: هذه الأمة معظَّمةٌ في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوَّه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة.

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يعجب الزراع بكثافته وقوته وحُسن منظره.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: إنما قوَّاهم وكثَّرهم ليغيظ بهم الكفار.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله تكفيرَ الروافض الذين يبغضون الصحابة ﷺ لأنهم يغيظونهم.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ أي: وعد الله الصحابة مغفرةً وأجراً عظيماً، فقوله: (منهم) لبيان الجنس لا للتبعيض، فلهم كلهم الفضل والسبق والكمال.

فالآية تدل على فضل الصحابة رضوان الله عليهم، وتردُّ على كل من يكرههم وينتقدهم، فلا يجوزُ الطعنُ عليهم، أو التعرض لهم بسوء، كما لا يجوز

أن يضمر في قلبه بغضاً لأحد منهم، فمن انتقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد ردَّ على الله ربِّ العالمين، وأبطل شرائع المسلمين.

قال القرطبي: **فالصحابةُ كلُّهم عدولٌ أولياء الله تعالى وأصفياؤه وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله**، هذا مذهبُ أهل السُّنَّة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة.





٤٩

تفسير سورة الحجرات

أَخْلَاقٌ وَمَبَادِئُ فِي سُورَةِ الحُجُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تأديب وتحذير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة الحجرات بنداءٍ وجهه للمؤمنين، أدَّبهم فيه بآداب كريمة، يجب عليهم أن يتحلَّوا بها في معاملة رسول الله ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: لا تسرعوا بقول أو فعل قبل أن يقوله رسول الله ﷺ وقبل أن يفعله.

وفيه إشارةٌ إلى احترام رسول الله، والانقياد لأوامره ونواهيه، وذِكر (الله) تعظيماً له، وإشعاراً بأنه من الله بمكانٍ يوجِبُ إجلاله.

وقرئت: (**لا تَقَدَّمُوا**) بفتح التاء والدال من التقدم، و(**لا تُقدِموا**) بضم التاء وكسر الدال من التقديم.

قال القرطبي: كان في العرب جَفَاءٌ وسوءُ أدبٍ في خطاب النبي ﷺ، فأنزل الله السورة يعلِّمهم فيها مكارمَ الأخلاق ورعاية الآداب.

وقال ابن كثير: هذه آياتٌ أدَّبَ الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون بها الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واتقوا الله في كل ما أمركم به إنه سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم.

ثم حذَّرهم ﷻ ونهاهم عن رفع الصوت بحضرة رسول الله ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: لا تجعلوا كلامكم مرتفعاً على كلام النبي عليه الصلاة والسلام، لأن رفع الصوتِ دليلٌ على قلَّة الاحتشام وترك الاحترام.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم.

أو: لا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً، وخاطبوه بالنبيِّ أو الرسول كما خاطبه ربُّ العزة والجلال، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

فلم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالمخافتة، وإنَّما نهوا عن جهر مخصوص، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه فيما بينهم، وهو الخالي عن مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها[1].

---

(١) تفسير النسفي: ٦/٣٩.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لئلا تحبط أعمالكم، أو مخافة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون بذلك.

قال ابن كثير: أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري.

وقال القرطبي: وقد كره بعضُ العلماء رفعَ الصوت عند قبره ﷺ، وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفاً لهم؛ إذ هم ورثة الأنبياء.

قال القاضي أبو بكر ابن العربي: حرمةُ النبيِّ ﷺ ميتاً كحرمته حيّاً، وكلامه المأثورُ بعدَ موته في الرفعةِ مثالُ كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجبَ على كلِّ حاضرٍ ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به(١).

وفي الوعيد بحبوط العمل ولو بغير قصدِ المخالفةِ دليلٌ على خطورة ما نُهوا عنه، ولهذا خاف الصحابة رضي الله عنهم خوفاً شديداً، حتى إنَّ بعضهم اعتزل مجلسه عليه الصلاة والسلام، وبعضهم كان يكلمه سرّاً.

فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ افتقدَ ثابتَ بن قيسٍ، فقال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ أنا أعلمُ لكَ عِلْمَه، فأتاه فوجدَه جالساً في بيته منكِّساً رأسه، فقال له: ما شأنُكَ؟ فقال: شرٌّ، كان يرفع صوته فوقَ صوت النبيِّ ﷺ فقد حبطَ عملُه، وهو مِنْ أهلِ النارِ، فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال: «**اذهبْ إليه فقل له: إنَّكَ لستَ مِنْ أهلِ النار، ولكنَّك مِنْ أهلِ الجنَّةِ**» [رواه البخاري (٤٨٤٦)].

وعن **ابن أبي مليكة** قال: كاد الخيِّرانِ أن يهلكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبيِّ ﷺ حين قدم عليه ركبُ بني تميم، فأشارَ أحدُهما بالأقرع بن حابس، وأشارَ الآخرُ برجلٍ آخر، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ الآية(٢).

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/٣٠٧.

(٢) روح المعاني: ٢٦/١٣٩.

ثم أثنت الآيات على الذين يتخلَّقون بهذه الأخلاق:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

أي: أولئك الذين طهَّر الله قلوبهم من كل قبيح وشرحها للتقوى فأخلصها لها، وفي التصريح بجزائهم تعريض بسوء حال من ليس مثلهم.

* * *

المنادُون من وراء الحجرات

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾.

وهم الذين نادوا رسول الله ﷺ من خارج الحجرات، قال تعالى فيهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

فلو كان لهم عقل لما فعلوا هذا الفعل القبيح الدال على سوء الأدب مع رسول الله ﷺ. وكانوا من جفاةِ الأعراب، الغالبِ عليهم الجهلُ، والحكم على الأكثر دون الكل بذلك، لأن منهم من لم يقصد تركَ الأدب بل نادى لأمر ما.

والحجرات: بيوتُ نسائه أمهات المؤمنين، وكانت تسعاً، لكل واحدة منهن حُجْرة، وكانت ـ كما أخرج ابن سعد عن عطاء الخراساني ـ من جريدِ النخل، على أبوابها المسوحُ من شعرٍ أسودَ.

وأخرج **البخاري** في الأدب، **وابن أبي الدنيا والبيهقي**: عن داود بن قيس

قال: رأيتُ الحجراتِ من جريدِ النخلِ مغشى من خارج بمسوحِ الشعرِ، وأظنُّ عرضَ البيت من بابِ الحُجرةِ ستة أو سبعة أذرع...

وأخرجوا عن الحسن: أنه قال: كنتُ أدخلُ بيوتَ أزواجِ النبيِّ ﷺ في خلافةِ عثمانَ بنِ عفان، فأتناولُ سقفها بيدي، وقد أُدخلتْ في عهد الوليد بن عبد الملك بأمره في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، وبكى الناس لذلك، وقال سعيد بن المسيِّب يومئذٍ: والله لوددتُ أنهم تركوها على حالها، لينشأ أناس من أهل المدينة، ويقدم القادم من أهل الآفاقِ فيرى ما اكتفى به رسولُ اللهِ ﷺ في حياته، فيكونُ ذلك ممَّا يزهد الناس في التكاثر والتفاخر(١).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

أي: ولو تحقق صبرهم وانتظارهم لكان الصبرُ المذكور خيراً لهم من الاستعجال، لما فيه من رعاية حسن الأدب مع الرسول ﷺ، والله واسعُ المغفرةِ والرحمةِ، يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا وأصلحوا فالتزموا هذه الآداب مع رسول الله ﷺ.

ثم أضافتِ الآياتُ تبيِّن عاقبة الاستعجال وترك التأني والتثبت:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ أي: فتوقفوا فيه، وتحققوا من صحَّته، ولا تعتمدوا قولَ الفاسق، لأنَّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذبَ الذي هو نوع منه.

والفاسق: الخارج عن حدود الشرع، وفي تنكير الفاسق والنبأ تعميم

(١) تفسير النسفي: ٦/ ٤٤.

للفساق والأنباء، ودلت الآية على جواز قبول خبر العدل الواحد، لأنا لو توقفنا في خبره لسوَّينا بينه وبين الفاسق.

وفي قراءة: (فتثبَّتوا) أي: فتوقفوا إلى أن يتبيَّنَ لكم الحال.

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ أي: كيلا تصيبوا قوماً جاهلين حالهم وحقيقة أمرهم فتصبحوا على ما فعلتم من إصابتكم بالخطأ نادمين على العجلة وترك التأنِّي.

وأجمعوا أنها نزلت في الوليد بن عقبة، وقد بعثه رسولُ اللهِ ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم إحنةٌ في الجاهلية، فلما شارفَ ديارهم ركبوا مستقبلينَ إليه، فحسبهم مقاتليه، فرجعَ وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدُّوا ومنعوا الزكاةَ، فبعثَ خالدَ بنَ الوليد فوجدهم يصلُّون، فسلَّموا إليه الصدقات ورجع. [رواه أحمد في المسند برقم (١٥٣٧)].

* * *

الراشدون

﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾

﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾.

﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: فاتقوا الله ولا تكذِّبوا، فإنَّ فيكم رسول الله ﷺ يخبره الله ويعرِّفه حالكم فتُفتضحوا،

فارجعوا إليه، واطلبوا رأيه، فإنه أعلمُ بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، فلو أطاعكم في كثير مما تخبرونه به لوقعتم في العَنَت، وهو الجهد والهلاك.

وهذا يدل على أنَّ بعضهم أشارَ على الرسول ﷺ بالإيقاع ببني المصطلق.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: حبَّبه إلى نفوسكم، وحسنه في قلوبكم.

وهو استدراك يبين عُذرهم، فهم من فرط حبهم الإيمان أشاروا على الرسول عليه الصلاة والسلام بالإيقاع ببني المصطلق.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ أي: وبغَّض إليكم الكفر والكذب وجميع المعاصي، وهذا التدريج لبيان كمال النعمة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين أصابوا طريق الحق ولم يميلوا عن الاستقامة والرشد.

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾.

أي: فعل ذلك بكم فضلاً منه ونعمة عليكم، والله عليم بمن يستحق الهداية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

أخرج الترمذي [٣٢٦٩] وصححه: عن **أبي نضرة** قال: قرأ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه هذه الآية فقال: هذا نبيكم ﷺ يوحى إليه، وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا، فكيف بكم اليوم؟!.

* * *

مبدأ الإصلاح بين المتخاصمين

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾.

ومما شرعه سبحانه عند حدوث الاقتتال بين طائفتين من المؤمنين الإصلاح بينهما:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ أي: إن طائفتان من المؤمنين تقاتلوا؛ فأصلحوا بينهما بالنصح والموعظة والدعوة إلى حكم الله.

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: فإن تعدَّت إحداهُما على الأخرى، وأبتِ الاستجابةَ إلى حكمِ اللهِ؛ فقاتلوا التي تبغي حتى ترجعَ إلى حكم الله وأمره وشرعه.

﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالإنصاف القائم على العدل، وَقَيَّدَ الإصلاح بالعدل لأنه مظنةُ الحيفِ والجَوْرِ، لكونه بعد المقاتلة.

وفي الحديث: عن **جابر** رضي الله عنه قال: اقتتل غلامانِ، غلامٌ من المهاجرين، وغلامٌ من الأنصار، فنادى المهاجري: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**ما هذا؟! دعوى أهلِ الجاهليةِ؟!**» قالوا: لا يا رسول الله إلا أنَّ غلامينِ اقتتلا فكسعَ (ضرب) أحدُهما الآخرَ. قال: «**فلا بأسَ ولينصرِ الرجلُ أخاه ظالِماً أو مظلوماً، إنْ كان ظالِماً فلينهه، فإنَّه له نصرٌ، وإن كان مظلوماً فلينصُرْهُ**» [رواه مسلم (٢٥٨٤)].

﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: واعدلوا في كل الأمور إنَّ الله يحب العادلين.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ المقسطينَ عِنْدَ اللهِ على منابرَ من نورٍ عن يمينِ الرحمن ﷻ، وكلتا يديه يمينٌ، الذينَ يعدِلُونَ في حكمهم وأهليهم وما وَلوا**» [رواه مسلم (١٨٢٧)].

وروي في سبب نزولها: عن **أنس** رضي الله عنه، قال: قيل للنبيِّ ﷺ: لو أتيتَ عبدَ الله بن أُبي، فانطلقَ النبيُّ ﷺ وركبَ حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرضٌ سبخةٌ، فلمَّا أتاه النبيُّ ﷺ قال: إليكَ عنِّي، واللهِ لقد آذاني نتنُ حمارِكَ، فقال رجلٌ من الأنصار: واللهِ لحمارُ رسولِ اللهِ ﷺ أطيبُ ريحاً منكَ، فغضبَ لعبدِ اللهِ رجلٌ من قومه، فشتمه، فغضبَ لكلٍّ واحدٍ منهما أصحابه، فكان بينهما ضربٌ بالجريدِ والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾[1].

والجديرُ بالذكر: أنَّ العلماءَ حذَّروا من سبِّ الصحابة وانتقادهم بسبب ما شجر بينهم بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، قال القرطبي رحمه الله: «لا يجوزُ أن ينسبَ إلى أحد من الصحابة خطأٌ مقطوعٌ به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا الله ﷻ، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبّدنا بالكفّ عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبيِّ ﷺ عن سبهم، وأنَّ الله غفرَ لهم وأخبرَ بالرضا عنهم»[2].

ثم أكد سبحانه مبدأ الأمر بالإصلاح، بتقرير مبدأ هام يقوم عليه المجتمع الإسلامي:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ٣٢١.
(٢) المرجع السابق: ١٦/ ٣٢٣.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي: إنهم منتسبون إلى أصل واحد، ورحم واحد، وهو الإيمان، وهو يوجب الإصلاح بينهم.

وفي هذه الآية والتي قبلَها دليلٌ على أنَّ البغيَ لا يزيلُ اسمَ الإيمان، لأنَّ الله تعالى سمَّاهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين.

ولما سُئِلَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن قتالِ أهل البغي من أهل الجمل وصفِّين: أمشركونَ هم؟ قال: لا، مِنَ الشركِ فرُّوا، فقيل: منافقون؟ قال: لا، لأنَّ المنافقين لا يذكرونَ الله إلا قليلاً، قيل له: فما حالُهم، قال: إخوانُنا بَغَوْا علينا.

وقد أكد النبيُّ ﷺ مبدأ الأخوة بين المؤمنين في أحاديث كثيرة؛ منها: قوله ﷺ: «**المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمُه، ولا يُسْلِمُه، مَنْ كانَ في حاجةِ أخيه كانَ الله في حاجتِهِ، ومن فرَّجَ عن مسلمٍ كربةً، فرَّجَ الله عنه بها كربةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَنْ سترَ مُسلِماً، ستره الله يومَ القيامةِ**» [رواه مسلم (٢٥٨٠)].

ومنها أيضاً: قوله عليه الصلاة والسلام: «**المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُه بعضاً**» [رواه مسلم (٢٥٨٥)].

ومنها أيضاً: قوله عليه الصلاة والسلام: «**مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مثل الجسدِ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائِرُ الجسدِ بالسهر والحُمَّى**» [رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦)].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فالتقوى تحملكم على التواصل والتراحم وتحقيق مبدأ الأخوة بينكم، وتجعلكم ترجون رحمة الله.

* * *

تحريم أسباب الخصام

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾

ثم حرم سبحانه كل ما يؤدي إلى الاختلاف والخصام بين المؤمنين فنهى عنها بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: عسى أن يكون المسخورُ منهم خيراً عند الله من الساخرين، فهو تعليل للنهي، ولمَّا كان الخبرُ مختصّاً بالرجال أكد النهي بالنسبة للنساء، وأفردهنَّ بالذكر لأن السخرية منهنَّ أكثر.

﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ أي: ولا يسخر نساء من نساء عسى أن تكون المسخوراتُ منهن خيراً من الساخراتِ، فالله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم كما في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله لا ينظرُ إلى صورِكم وأموالِكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالكم**» [رواه مسلم].

وقال أيضاً: «**رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبوابِ لو أقسمَ على الله لأبرَّهُ**» [رواه مسلم (٢٦٢٢)].

﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: ولا يعب بعضُكم بعضاً، فإنَّ المؤمنين كنفس

واحدة. أو: لا تفعلوا ما تُلمزون به، فإنَّ من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه. والأول أوجه كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] وهو الذي يزدري الناسَ وينتقصهم، وينبه على معايبهم.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أي: لا يدعوا بعضكم بعضاً باللقب، وخُصَّ عُرفاً بما يكرهه الشخص من الألقاب، قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اتفق العلماءُ على تحريمِ تلقيبِ الإنسان بما يكره، سواء كان صفةً له أو لأبيه أو لأمه أو لغيرهما.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بئس الاسمُ أن تقولوا له: يا يهودي أو يا نصراني بعدما أسلمَ، أو يا منافق بعدما تاب، أو من فعل ما نهي عنه من السخرية واللمز فهو فاسق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا اسم الفسوق.

فالمبدأ الذي تقرره الآية أنَّ كلَّ مَنْ لقَّبَ أخاه بلقبٍ يكرهه أو سَخِرَ منه فهو فاسق، وذلك لا يجوزُ، أكد هذا المبدأ النبيُّ ﷺ بقوله: «**إذا قالَ الرجلُ لأخيه: يا كافرُ؛ فقد باءَ به أحدُهما**» [رواه البخاري (٦١٠٣)].

ويُستثنى من ذلك ما يرادُ به الصفة والتعريف، لا العيبَ مثل: حميد الطويل، وسليمان الأعمش، وكان في أصحاب النبيِّ ﷺ رجل في يديه طول يدعوه ذا اليدين.

ثم ختم الله الآية بوعيد المصرِّين على هذه المعاصي:

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب، ووضع العصيان موضع الطاعة.

* * *

تحريم ظن السوء وما يؤدي إليه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ أي: تباعدوا منه.

فالآية أمرتْ باجتنابِ بعض الظن، والمرادُ منه ظن السوء، ووصفته بالكثرة، وأشارت إلى خطورته، فأمرت باجتناب الكثير منه ليقع التحرُّزُ عن القليل.

والظنُّ: عبارةٌ عما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب.

وسوءُ الظن حرامٌ كسوء القول، فكما يحرمُ أن تحدث غيرك بمساوئ الناس يحرم أن تحدِّث نفسَك بمساوئ غيرك، ويُستثنى من ذلك الخواطر والهواجس، وما لا تستطيعُ دفعَه عن نفسك.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة ﵁، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إياكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً**» [رواه البخاري (٦٠٦٤)].

وقال القرطبي: المراد بالظن هنا التهمة التي لا سبب لها، كمن يتهم رجلاً بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها.

وأمَّا ما ورد في الحديث: عن النبيِّ ﷺ: «**ما أظنُّ فلاناً وفلاناً يعرِفان من ديننا شيئاً**» فكان لرجلين من المنافقين، ومثل هذا ليس من الظن المنهي عنه، لأنه في مقام التحذير من مثل من كان حاله كحال الرجلين، والنهي إنما هو عن

ظن السوء بالمسلم السالم في دينه وعرضه، وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما: إنا كنا إذا فقدنا الرجلَ في عشاءِ الآخرة أسأنا به الظنَّ[1].

فعلى المسلم أن يتحفَّظَ، وأن يجتنب أماكن الشبهات، وما يعرِّضه لسوء الظن، ويحرص على سلامة دينه وعرضه.

ويؤدي سوء الظن إلى التجسس؛ ولهذا قال تعالى بعد أن نهى عن سوء الظن:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ أي: ولا تبحثوا على عيوب الناس ومعايبهم، وتطلعوا على ما ستر الله منها، وذلك أنَّ الشخص يقعُ له خاطِرُ التهمة، فيريد أن يتحقق، فيتجسس، ويبحث، ويستمع، فنُهي عن ذلك.

وسبق معنا في الحديثِ السابقِ: قوله عليه الصلاة والسلام: «**إياكُم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا**».

وفي «**المعجم الكبير**» للطبراني: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**إذا ظننتَ فلا تحقِّقَ، وإذا حسدتَ فاستغفر، وإذا تطيَّرتَ فامضِ**».

- **تحريم الغيبة:**

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾ أي: ولا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره في غيبته.

فالغيبة: ذكرُ العيب في ظهر الغيب، ويدخل فيها الرمز والإشارة ونحوهما والتعريض، كأن يمشي مثل مشيته، أو يغمز بعينه عند ذكره، أو يقول عند ذكره: الحمد لله الذي عافانا.

وفي الحديث الشريف: أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «**أتدرونَ ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذِكْرُكَ أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيتَ إذا كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كانَ فيه ما تقولُ فقد اغتبتَهُ، وإنْ لم يكنْ فيه فقد بَهتَّه**» [رواه مسلم (٢٥٨٩)].

فالإسلام يحرص على صيانة عرض المسلم غاية الصيانة لتقدم النهي عن

---

(١) فتح الباري: ١٠/ ٤٨١.

الخوض فيه بالظن، فإن قال الظانُّ: أبحثُ لأتحققَ. قيل له: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾. فإن قال: تحققتُ من غير تجسس. قيل له: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾.

والجديرُ بالذكر: أنَّ المستمعَ لا يخرجُ عن إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه، فإن خافَ فبقلبه، فإنْ كان قادراً على القيامِ أو قطعِ الكلامِ بكلامٍ آخرَ يلزمه، وإن اغتابَ الفاسقَ ليحذِّرَ منه الناسَ يُثاب عليه، لأنه من النهي عن المنكر، ولا إثم عليه، ولو ذكر مساوئَ أخيه على وجه الاهتمام لا يكون غيبة، إنَّما الغيبةُ أن يذكره على وجه الغضبِ، وله أن يذكرَ ما يعرِفُ لمثل مشورةٍ في نكاحٍ، وسفرٍ، وشركةٍ، ومجاورةٍ، وإيداعٍ، ونحوها على قصد النصح(١).

وقد تكون الغيبة واجبةً كجرح المجروحين والشهود، وبيان العيب للمشتري، قال العلماء: تباحُ الغيبةُ في كلِّ غرضٍ صحيحٍ شرعاً، حيث تعيَّن طريقاً إلى الوصول إليه بها، كالتظلم والاستعانة على تغيير المنكر والاستفتاء والمحاكمة والتحذير من الشر(٢).

ثم مثَّلت الآية لما يناله المغتاب من عِرض الذي يغتابه بأفحش صورة وأقبحها:

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ فكما تكره أن تأكلَ لحمَ أخيك ميتاً فعليك أن تكره لحمه وهو حيٌّ، فعرضُ الإنسان كلحمه ودمه، والإنسانُ يتألَّم قلبُه إذا ذُكِرَ بسوءٍ كما يتألم جسده إذا أكل لحمه.

روى أبو داود [٤٨٧٨]: من حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لمَّا عُرِجَ بي مررت بقومٍ لهم أظفارٌ من نُحاسٍ يَخْمِشونَ وجوهَهم وصدورَهم، قلتُ: مَنْ هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذينَ يأكلونَ لحومَ الناسِ، ويقعونَ في أعراضِهم**».

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: واتقوا الله باجتناب ما نُهيتم عنه، والندم على ما صدر منكم، فإنه سبحانه يقبل توبتكم ويرحمكم.

---

(١) الهدية العلائية، ص٢٥٧.

(٢) فتح الباري: ١٠/ ٤٧٢.

فعلى المغتابِ أن يقلعَ عن ذلك، ويعزم على ألا يعود، وأن يتحلل من الذي اغتابه إذا علمَ أنه لا يتأذى، أو يثني عليه في المجالس التي اغتابه فيها.

* * *

المساواة في الأصل والتفاضل بالتقوى

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

ثم قرر سبحانه مبدأ الأخوة الإنسانية الداعية إلى التعاون والائتلاف، والمانعة من الاختلاف والاختصام والسخرية واللمز والاغتياب:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي: خلقناكم من أصل واحد هما آدم وحواء، وحواء خُلِقَتْ كما سبق معنا من آدم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ وقرئت: **(لتتعارفوا)** بتاءين على الأصل. أي: وجعلناكم جموعاً عظيمة وقبائل متفرعة عن هذه الجموع ليعرفَ بعضُكم بعضاً بنسَبه، لا للتفاخر بالآباء والقبائل، ولهذا قال تعالى بعد تقرير هذا المبدأ:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، ولما سُئل النبي ﷺ: مَنْ أكرمُ الناسِ؟ قال: «**أتقاهُم للهِ**» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فأكرمُ الناسِ يوسفُ نبيُّ اللهِ ابن نبيِّ اللهِ ابن نبيِّ اللهِ ابن خليلِ اللهِ**» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فَعَنْ معادِنِ**

العربِ تسألونني؟ الناسُ معادِنُ، خيارُهم في الجاهليةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فقِهوا» [رواه البخاري (٣٨٣)].

وفي **صحيحي ابن خزيمة وابن حبان** [٣٢٧٠] وتفسير ابن مردويه: عن ابن عمر قال: خطبَ النبيُّ ﷺ يومَ الفتحِ فقال: «**أمَّا بعدُ يا أيها الناس، فإنّ الله قد أذهبَ عنكم عيبةَ الجاهليةِ وفخرَها، يا أيها الناس، الناسُ رجلانِ: مؤمنٌ تقيٌّ كريمٌ على الله، وفاجِرٌ شقيٌّ هيِّنٌ على اللهِ**» ثم تلى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ . . .﴾.

وروى **أحمد وابن أبي حاتم**: من طريق أبي نضرة: حدّثني مَنْ شهدَ خطبةَ النبيِّ ﷺ بمنى وهو على بعيرٍ يقول: «**يا أيها الناسُ إنَّ ربَّكُم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، ألا لا فَضْلَ لعربيٍّ على عَجَمِيٍّ، ولا لأسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى، خيرُكم عندَ الله أتقاكُم**»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ أي: إن الله عليم بكم وبأعمالكم، خبير بباطن أحوالكم.

ودلت الآية على تحريم دعوى الجاهلية، والافتخار بالأنساب، أكد ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**ليسَ مِنَّا من ضَرَبَ الخدودَ، وشقَّ الجيوبَ، ودعا بدعوى الجاهلية**» [رواه البخاري (١٢٩٧)].

وقال ﷺ أيضاً: «**مَنْ خرجَ مِنَ الطاعةِ، وفارقَ الجماعةَ فماتَ، ماتَ مِيتةً جاهليةً، وَمَنْ قاتلَ تحتَ رايةٍ عُميةٍ يغضبُ لعصبةٍ، أو يدعو إلى عصبةٍ، أو ينصرُ عصبةً، فَقُتِلَ فَقِتْلَتُهُ جاهليةٌ، ومَنْ خرجَ على أمتي يضرِبُ برَّها وفاجرَها، ولا يتحاشى مِنْ مؤمنِها، ولا يفي لذي عهدٍ عهدَه، فليسَ منِّي ولستُ منه**» [رواه مسلم (١٨٤٨)].

والمعنى: يغضب ويقاتل ويدعو غيره لا لنصرة الدين والحق، بل لمحض التعصب لقومه ولهواه، كما كان أهل الجاهلية.

وهكذا تتوارى جميعُ أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص

---

(١) روح المعاني: ٢٦/ ١٦٣.

جميعُ القيم التي يتكالبُ عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للأُلفة والتعاون، وهو هذا المبدأ الذي قرره الإسلام، مبدأُ الأصل الإنساني الواحد، والدين الواحد، الذي أساسه عبادة الله الواحد.

* * *

الإيمـان والإسلام

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

ثم بيَّن تعالى أنَّ أساس التقوى التي يتفاضل فيها الناس ـ وهو الإيمان بالله وحده ـ موضعه في القلب:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أي: قال بعضُ الأعرابِ، وهم بنو أسد، قدموا المدينةَ، فأظهروا الإسلام طمعاً في الصَّدَقة.

فالإيمان هو التصديقُ، **والإسلامُ** الدخول في الإسلام بإظهار الشهادتين وترك محاربة المسلمين.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تواطِئْ قلوبُكم ألسنتَكم بعدُ، فالإقرار باللسان من غير موافقة القلبِ إسلامٌ، وما واطأ فيه القلبُ اللسانَ فهو إيمانٌ،

وهذا من حيث اللغة، وأما في الشرع فالإيمان والإسلام واحد، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات].

وفي قوله: (لمَّا) إشارة إلى توقع دخول الإيمان في قلوبهم.

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: وإن تخلصوا في طاعة الله ورسوله ﷺ لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً، وفي قراءة: (**لا يألتكم**) بمعنى ينقصكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفرُ ما فرط من تقصيركم ويرحمكم.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: ثم لم يشُكُّوا، ولم تحدث لهم ريبة. و(ثم) للتراخي الزماني، أفادتِ الثباتَ والدوامَ والاستمرار.

﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله.

والمجاهدة بالأموال والأنفس تنسَحِبُ على كل العبادات المالية والبدنية.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الذين صدقوا بادعاء الإيمان.

ويبدو أنَّه لما نزلت هذه الآية جاؤوا وحلفوا أنهم مخلصون فأنزل الله:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرون الله بتصديق قلوبكم؟!.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه يعلم المنافقين والمخلصين الصادقين.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ وهو قولهم: أسلمنا ولم نحاربك. يمنُّون بذلك على رسول الله ﷺ.

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ أي: لا تمنوا عليَّ بإسلامكم، فنُصِبَ بنزعِ الخافض.

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان.

وفي سياق الآية لطف، وهو أنَّهم لمَّا سمُّوا ما صدر عنهم إيماناً ومنُّوا به، نفى أنه إيمان وسمَّاه إسلاماً، بأن قال: يمنون عليك بما هو في الحقيقة إسلام، وليس بجدير أن يُمَنَّ به عليك، بل لو صحَّ ادعاؤهم الإيمانَ فللهِ المِنَّةُ عليهم بالهداية لا لهم[١].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم. وفي قراءة: **(يعملون)** بالياء.

والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

(١) تفسير البيضاوي: ٦/٥٩.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الأمر العجيب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾.

بدأ الله تعالى السورة بقوله:

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾.

﴿قٓ﴾ وهو حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل بعض السور؛ مثل قوله تعالى: (صٓ)، (نٓ). وقد سبق الكلام عليها في أول **سورة البقرة**، وسورة (قٓ) هي السورة الثانية المبدوءة بحرف واحد، سمِّيت باسم الحرف الذي افتتحت به، كما سميت (**سورة صٓ**) باسم الحرف الذي افتتحت به.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ وهو قسم بالقرآن ذي المجد والشرف، ووصف القرآن به لكثرة ما يتضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية، أو لأنه كلامُ المجيدِ، فهو وصف بصفة قائله، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج].

وجوابُ القسمِ محذوفٌ، يشعر به الكلام، وهو إثبات صدق نبوَّته ﷺ، وإثبات المعادِ والجزاءِ والحسابِ، وله نظائر في أقسام القرآن، كما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [صٓ].

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: إنا أنزلناه لتنذر به الناس، فلم يؤمنوا به، بل تعجَّبوا من إرسال رسول إليهم من البشر.

و(**بل**) للإضراب عما ينبئُ عنه جواب القسم المحذوف، قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ وهو الأمر الذي يُتعجَّبُ منه، ولم يقل: (**فقالوا**)، بل قبَّح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر، وليس هذا بعجيب، وإنَّما الأمرُ العجيبُ إنكارهم وعنادهم.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

أي: أئذا متنا وصرنا تراباً كيف يمكن أن نرجعَ إلى هذه البنية والتركيب؟! ذلك رجعٌ بعيدُ الوقوعِ.

فإنكارهم العودةَ إلى الحياة بعدَ الموتِ هو الأمر العجيب حقّاً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ [الرعد: ٥].

وفي قراءة: (**إذا متنا**) بهمزة واحدة، ويكون استفهاماً حُذفت منه الهمزة.

* * *

الكتاب الحفيظ

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

وردَّ سبحانه عليهم قائلاً:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾ أي: ما تأكل الأرض من أجسادهم.

فمن عمَّ علمه ولطف حتى انتهى إلى حيثُ علم ما تنقصُ الأرضُ من أجساد الموتى، وتأكل من لحومهم وعظامهم في كلّ لحظة من الزمن المتطاول الذي تتفتت فيه أجسادهم وتبلى، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا؟! فأحوال أبدانهم بعدَ الموتِ معلومة لله تعالى، يعلم أين ذهبت، وإلى أين صارت، قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء].

وهذا يدلُّ على كمالِ علمه سبحانه، فهو عليمٌ بتفاصيل الأشياء كلِّياتها وجزئياتها على أتمِّ وجه، وإذا حدث تداخل بين الأجساد بعد الموت، فإنَّه سبحانه يميِّزُ بينها بكمال علمه وقدرته، فهو يعلم الأصيل من الدخيل.

والجديرُ بالذكر أنَّ عُجْبَ الذَّنَبِ لا يبلى، وهو العظمُ اللطيفُ الذي في أسفل الصلب، وهو رأسُ العُصْعُصِ، ويقال له: **(عجم)** بالميم، وهو الذي يبقى من جسم الإنسان ليعادَ تركيبُ الخَلْقِ عليه.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**كُلُّ ابنِ آدمَ يأكلُه الترابُ إلا عُجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ، وفيه يُرَكَّبُ**» [رواه مسلم (٢٩٥٥)].

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أي: عندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ومقاديرها، أثبتَ الله فيه كل ما يكون، وهذا الكتاب محفوظ أيضاً من التغيير، وهو تأكيد لكمال علمه تعالى بها بثبوتها في اللوح المحفوظ.

ثم وصف سبحانه حقيقةَ حالِ المعرضين عن الحق المنكرين بعث الأجساد بعد التفتت والبلى فقال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

أي: فهم في أمر مضطرب قلق حائر.

فالحقُّ ثابتٌ قوي راسخ، فمن تجاوزه زلَّت قدمه، وفقد الثبات والاستقرار والطمأنينة والسكينة، التي يشعر بها المؤمنون، فتتقاذفه أمواج الباطل، وتقلقه الشكوك، وتتأرجح مواقفه، وتتغير كما تتغير أهواؤه وأمزجته.

* * *

النظر إلى السماء

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾.

وقوة الحق وثباته بسبب قيامه على النظر والتفكير والدليل والبرهان، وهو ما دعتهم الآيات إليه وحثتهم عليه:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي: أغفلوا أو أعموا فلم ينظروا إلى السماء فوقهم؟!.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أنَّ المرادَ النظر إلى جهة السماء، وقوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يشير إلى ذلك، وظواهر الآيات ناطقة بأنَّ السماءَ مرئيةٌ، وجمهورُ العلماءِ

يقررون ذلك وهم معذورون، ورحمَ الله العلامة الآلوسي عندما قال: «وأنتَ تعلمُ أنَّ الأصحابَ مع الظواهرِ حتى يظهرَ دليلٌ على امتناعِ ما يدلُّ عليه، وحينئذٍ يؤولونها»(١).

وقد أثبت العلماء في العصر الحاضر أنَّ المسافاتِ بين النجوم هائلةٌ، تقاس بالسنين الضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة، ومن المعلوم أنَّ سرعةَ الضوء في الثانية الواحدة مئةٌ وستة وثمانون ألف ميل، وثمة نجوم تبعد عن الأرض مئات السنين الضوئية كما يقول العلماء، فالفضاء الممتد من الأرض إلى السماء الدنيا أوسع بكثير مما كان يظنُّ قديماً، فالأرضُ جسمٌ صغيرٌ يسبح في الفضاء بين مجموعة كبيرة من الأجرام، وقد يكونُ حجم الأرض بالنسبة لها كحبَّة رمل، فالأرض الجرم الثالث من المجموعة الشمسية من مجرة درب التبَّانة، ويقرر علماء الفلك أنَّ في هذه المجرة ما يقرب من ألف مليون نجم.

وهذا يزيدنا معرفة بعظمة خالقه ومبدعه ﷻ، ولا يعني ذلك أن السماء هي هذه الكواكب والأجرام العلوية السابحة في الفضاء، فهذه الأجرام كلها دون السماء الدنيا، فللسماء حقيقتها المستقلة، وهي بناء متماسك له أبواب؛ وهي سبع سماوات بعضها فوق بعض، كما صرحت بذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ذات الدلالة القطعية.

﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي: كيف رفعناها وأحكمناها وزيناها بالكواكب والنجوم اللامعة المضيئة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي: وما لها من فتوق وشقوق، والمراد أنها سليمة من العيوب، لا فتقَ فيها، ولا صدعَ ولا خللَ(٢)، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

---

(١) روح المعاني: ٢٦/ ١٧٥.
(٢) تفسير النسفي: ٦/ ٦١.

فالبناءُ محكمٌ متقنٌ لا خللَ فيه ولا عيب، وهذا يزيدنا يقيناً بكمال قدرته تعالى وباهر حكمته.

* * *

التبصرة والذكرى

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطناها وجعلناها ممتدة منبسطة بالنسبة إليكم، وهذا لا ينافي كرويتها بالنسبة لضخامة حجمها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابتَ تمنعُها من الاضطراب، كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض من كل صنف حسن بهيج يسر الناظرين إليه، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً لكل عبد راجع إلى ربه.

فالتفكيرُ في بدائع صنعه سبحانه يرد الشاردين الحائرين إلى الحق إذا تطلعوا إليه، وأخلصوا في طلبه، فبين العلم والإيمان آصرةٌ قويةٌ ينشغل عنها أكثرُ العلماء العاملين في مراكز البحوث، لأن تفكيرهم متجه إلى استثمار كل حقيقة

علمية يتوصَّلون إليها لتحقيق السيطرة والمكاسب المادية، وبهذا تنقطع هذه الآصرةُ، وتنطمس في عقولهم وقلوبهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

ودلت الآيات على أنَّ آفاق التفكير والنظر في الإسلام واسعةٌ شاملةٌ كل ما يستطيعُ الإنسان النظر إليه والتفكير فيه، ابتداءً من نفسه وتكوينه، إلى الأرض التي يعيشُ عليها، ثم إلى الفضاء الواسع الممتد حوله بكل ما فيه من أجرام وكواكب ونجوم، فإنْ كانَ مؤمناً فإنه لن يجدَ في هذه المكونات إلا ما يقوِّي إيمانه بربه، ويزيده تعظيماً له سبحانه وخشية منه، وإن كان مرتاباً كافراً فإنَّ نظره وتفكيره يردُّه إلى ربه، وإلى أصل فطرته التي فطره جل وعلا عليها.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي: نزَّلنا من السحاب الذي هو في جهة السماء ماءً كثير المنافع وهو ماء المطر.

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي: حب الزرع الذي من شأنه أن يُحصد كالقمح والشعير.

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾.

أي: وأنبتنا النخل الطوال أو الحوامل، لها ثمر يطلع ويظهر، متراكب بعضه على بعض.

* * *

الخروج من القبور

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ
﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا
بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: جعلنا ذلك رزقاً للعباد.

وفي تقديم الآيات للاستبصار والتذكر على الرزق إشارة إلى أهميتهما، وأنَّهما مقدَّمان على المنافع المادية، ولكنَّ شأنَ أكثر الباحثين في العصر الحاضر الاهتمامُ بالانتفاع، والتغافلُ عن الاستبصار والتذكر.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: وأحيينا بالمطر أرضاً يابسة لا نبات فيها، فصارت تهتزُّ وتنمو بعدما كانت جامدةً هامدةً، كذلك خروجُ الناسِ وبعثهم من القبور.

وتذكير ﴿مَّيْتًا﴾ لأنَّ المرادَ البلدُ والمكانُ، وقرئ (ميِّتاً) بالتشديد.

وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن حياة الموتى بالخروج، تفخيمٌ لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث، فكأنه سبحانه يقول لمنكري البعث: إنَّه لأمرٌ هيِّنٌ سهلُ التحققِ والوقوع كما في قوله: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله أيضاً: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

ثم بيَّنت الآيات أنّ جميع الأنبياء السابقين دعوا إلى التصديق بأمر البعث ويوم الحساب والجزاء، وأنَّ جميعَ الأمم التي أرسلوا إليها قد أنكروه واستبعدوه:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ﴾ وقد سبق الحديثُ عن هؤلاء الأقوام في عدد من السور.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: كل هؤلاء المذكورين كذبوا الرسل، ومن كذَّب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل، فوجب عليهم وعيدي وعذابي.

وتساءلت الآيات بعد هذا البيان مقررة حقيقة البعث ومنكرة على المكذبين به:

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ﴾ أي: أفعجزنا حين خلقناهم أول مرة حتى نعجز عن إعادتهم؟! **والعي بالأمر**: العجز عنه، فابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بل هم في خلط وشبهة من خلق مستأنف، فهم تركوا الاستدلال الصحيح، ووقعوا في خلط وشبهة وحيرة.

* * *

الرقابة الإلـهيّة

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

ثم أخبرت الآياتُ الإنسانَ أنَّ الله تعالى ما أهمله بعد خلقه، بل هو تحت

رقابته الإلٰهية، وأنَّ جميع أقواله وأعماله معلومة لله جل وعلا، وأنه سبحانه خصص له أيضاً ملائكة تسجل له جميع أقواله وأفعاله:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ﴾ أي: ونعلم ما حدَّثته به نفسه، وما يختلج في سرِّه وضميره من خواطر وهواجس.

والوسوسةُ في الأصل: حديثُ النفس، وقد جاء في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ تجاوزَ لأُمَّتي ما حدَّثتْ به أنفسَها ما لم يتكلَّموا أو يعملوا به**» [رواه مسلم (١٢٧)].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي: وملائكتنا أقربُ إلى الإنسانِ من حبل وريده إليه.

أو: ونحنُ أعلمُ بحاله ممن كان أقربَ إليه من حبل الوريد، لأنَّ القربَ من الشيء في العادة سببُ العلم به وبأحواله.

وحبلُ الوريدِ: هو العرقُ الممتدُّ في صفحةِ العنقِ يمثَّلُ به للقربِ، وهما عرقان.

والمعنى الأول أقوى، وهو ما ذكره ابن كثير في معنى الآية، ثم قال بعده: ومن تأوله على العلم فإنَّما فرَّ لئلا يَلْزَمَ حلولٌ أو اتحادٌ، وهما منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس، واللفظ لا يقتضيه، فإنَّه لم يقل: وأنا أقربُ إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يعني: ملائكته.

ويؤيده أيضاً قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

أي: إذ يتلقى الملكانِ اللذانِ يكتبان عمل الإنسان وأقواله، وأحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله.

والتلقي: التلقن بالحفظ والكتابة. والمراد **بالقعيد** هنا: الملازم الثابت لا ضدَّ القائم، فهما ملازمان للإنسان، يرصدان أعماله وأقواله، فالله أعلم بحال الإنسان من كل قريب حين يتلقى المتلقيان الحفيظان ما يتلفظ به:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ما يتكلم من كلمة إلا عنده ملك حافظ حاضر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار].

* * *

سَكَرات الموت

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾

ثم كشفت الآيات للإنسان بأسلوب المواجهة والتحدي حقيقة ما ينتظره عندما يحين أجله وتنتهي حياته في الدنيا:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي: وجاءت غمرةُ الموتِ وشدته التي تغشى الإنسان عند الموت بحقيقة الموت، أو بالحقِّ من أمر الآخرة، فبينت للإنسان ما لم يكن بيِّناً من أمر الآخرة الذي كان يشك فيه.

ودلت الآيةُ على أنَّ للموت سكرات، وقد جاء في حديث **عائشة** رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ عندما توفي جعلَ يُدْخِلُ يديه في ركوةِ ماءٍ، فيمسحُ بهما وجهه يقول: «**لا إلـه إلا الله، إنَّ للموتِ سكرات**» ثم نصب يده، فجعل يقول: «**في الرفيقِ الأَعْلى**» حتى قُبض ومالت يده. [رواه البخاري (٤٤٤٩)].

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: ذلك الحق ما كنتَ منه تميل وتنفر، قد حلَّ بك ونزل بساحتك فلا تقدر على الفرار منه.

والموت أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغَ منه، أو يبعد شبحه عن خاطره، ولكن أنَّى له ذلك والموتُ طالِبٌ لا يَملُّ الطلب، ولا يبطئ الخُطا، ولا يخلف الميعاد[١].

وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وجاء التعبير بصيغة الماضي هنا وفي ما بعده لتحقق الوقوع وتأكيده.

وانتقلتِ الآياتُ من الموت وسكراته إلى يوم القيامة وأهواله، فهو اليوم الذي كان المشركون ينكرونه ويستبعدون وقوعه:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ذلك اليوم الذي يتحقق فيه الوعيد بالسؤال والجزاء.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وجاءت كل نفس إلى أرض المحشر معها ملك يسوقها، وشهيد يشهد عليها، ويبدو أنهما الملكان المتلقيان اللذان سبق ذكرهما.

وقال بعضهم: السائق ملك، والشهيد النبيُّ المرسل إلى هذا الإنسان.

أو: السائق ملك، والشهيد العمل الذي يشهد على صاحبه.

وقيل: السائق والشهيد ملك واحد، والعطف للمغايرة.

وقيل: السائق والشهيد اسما جنس للملائكة، فالسائق الملائكة الموكلون بذلك، والشهيد الحفظة.

* * *

(١) في ظلال القرآن، ص٣٣٦٤.

غطاء الغفلة

﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: يقال للكافر المنكر يوم القيامة: لقد كنتَ في غفلةٍ من هذا الذي تعاينه، فأزلنا غفلتَك بما تشاهِدُه وتبصرُه.

فجعلت الغفلة كأنها غطاء وغشاوة على عينيه، فما كان يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة انتبه من غفلته وتيقظ، فعرف الحقيقة وأبصرها.

وتنكير الغفلة وجعله فيها يدل على أنها غفلة تامة، والمراد منها الانهماك في المحسوسات والشهوات، وقصر النظر عليها كما ذكرنا عند قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

فالانهماك في الدنيا وشهواتها ومنافعها الدنيوية هو الذي جعلهم يغفلون عن أمور الآخرة وقطع الآصرة بينهم وبين التصديق بها.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي نافذ ترى ما كان محجوباً عنك في الدنيا، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وقد يكون المعنى المراد: فبصر قلبك وبصيرتك اليوم قويةٌ نافذةٌ، ويقوِّي هذا المعنى أن الكفار يحشرون يوم القيامة عمي الأعين، قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه].

ويمكن القول بأنَّ يوم القيامة يوم طويل، يُحشر الكافر في أول الأمر وبصره حديد، ثم يعمى بعد ذلك.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: وقال الملك الموكل بسَوقه: هذا ما كلَّفتني به قد أحضرته.

فيقول الله تعالى:

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: كل كفَّار معاند للحق، جاحد له، ويبدو أنه خطاب للسائق والشاهد، أو خطاب للسائق بلفظ الاثنين، وهو من كلام العرب الفصيح.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: كثير المنع للخير، ظالم، شاك في الله تعالى أو في يوم الجزاء والحساب.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

وهو تكرير لتأكيد الأمر السابق جاء بعد وصفه بتلك الأوصاف التي تبيِّن استحقاقه للعذاب في جهنم.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: شيطانه الذي قُيِّض لهذا الكافر في الدنيا، كما سبق ذكره

عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف].

فقرينه هنا هو شيطانه بغير اختلاف، وأخليت عن الواو دون الأولى، لأنَّ الأولى عطفت على ما قبلها، للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها، واستؤنفت هنا لأنها جواب لمحذوف.

ويبدو أن الكافر حين يوافي العذابَ يقول: ربنا أطغاني شيطاني، فيقول شيطانه ردّاً عليه:

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ما أوقعته في الطغيان، ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى، فهو كقول الشيطان يوم القيامة للمعذَّبين في النار: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: قال تعالى: لا تختصموا في موقف الحساب، فإنه لا فائدة فيه، وقد قدَّمْتُ إليكم إنذاري على ألسن رسلي، فما تركتُ لكم حجة.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي: لا تبديل لوعيدي بتعذيب المعرضين عن عبادتي المكذِّبين رسلي.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فأعذِّب من لا يستحق العذاب، فهو سبحانه يتنزه عن الظلم، ويستحيل صدوره منه، وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى.

* * *

يوم المزيد

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وقد أعدَّ سبحانه جهنم لتحقيق وعيده، وقال يصف سعتها بأسلوب الترهيب والوعيد:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

وهذا يدل على شدة غضب جهنم وتشبثها بالكفار والفجار.

وفي قراءة: (يوم يقول) بالياء.

وفي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: أنه قال: «**لا تزالُ جهنَّمُ يُلقى فيها وتقولُ: هل من مزيدٍ، حتى يضعَ ربُّ العزَّةِ فيها قدمَه، فينزوي بعضُها إلى بعضٍ، وتقول: قط قط، بعزَّتِكَ وكرمِكَ، ولا يزالُ في الجنَّةِ فضلٌ حتَّى ينشِئَ الله لها خلقاً، فيُسْكِنهم فضلَ الجنةِ**» [رواه مسلم (٢٨٤٨)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «**تحاجَّتِ الجنةُ والنارُ، فقالتِ النارُ: أوثرتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرينَ، وقالت الجنَّةُ: ما لي لا يدخلُني إلا ضعفاءُ الناس وسَقَطُهم، قال الله تبارك وتعالى للجنَّةِ: أنتِ رحمتي أرحمُ بكِ من أشاءُ من عبادي، وقال للنارِ: إنَّما أنتِ عذابي أعذِّبُ بكِ من أشاءُ من عبادي، ولكلِّ واحدةٍ منكما مِلْؤها، فأمَّا النارُ فلا تمتلئُ حتَّى يضعَ رجلَه فتقول: قط، قط، قط ـ أي: حسبي حسبي ـ فهنالك تمتلئ، ويُزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأمَّا الجنَّةُ فإنَّ الله عز وجل ينشِئُ لها خلقاً**» [رواه البخاري (٤٨٥٠)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «واختُلِفَ في المراد من القَدَم، فطريقة السلف في هذا وغيرِه مشهورةٌ، وهو أن تُمَرَّ كما جاءت، ولا يتعرَّض لتأويله، بل نعتقدُ استحالةَ ما يوهِمُ النقصَ على الله، وخاضَ كثيرٌ من أهل العلم في تأويل ذلك، فقال بعضُهم: المرادُ إذلالُ جهنم، فإنَّها إذا بالغت في الطغيان وطلبِ المزيدِ أذلَّها الله، ووضعها تحتَ القدمِ، وليس المرادُ حقيقة القدم، والعرب تستعمل ألفاظ الأعضاء في ضرب الأمثال، ولا تريدُ أعيانها، كقولهم: (**رغمَ أنفُهُ**) و(**أُسْقِطَ في يده**)»(١). وثمة أقوال أخرى ذكرها بعد هذا القول لا حاجة إلى ذكرها.

ولما فرغتِ الآيات من وصف أحوال المعذَّبين في جهنم ذكرت أحوال المنعَّمين في الجنة، وأبرزت من خلالها بعض صفاتهم وأعمالهم:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

أي: قُرِّبت الجنة للمتقين بحيث يشاهدونها، ويرون ما فيها من النعيم.

وفي تقريب الجنة للمتقين تكريم عظيم لهم.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ويقال لهم: هذا الجزاء الذي وعدتم به في الدنيا لكل رجَّاع إلى الله تعالى، حافظ لأوامره، فهو كثير التوبة والاستغفار، لا يصرُّ على الذنب، بل يبادر إلى الاستغفار والتوبة كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أي: وقَّاف عند حدود الله تعالى حافظ لها.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: من خشي الرحمن فأطاعه ولم يره، أو خافه في

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٥٩٦.

الخلوة بحيث لا يراه أحدٌ كما جاء في حديث السبعة الذين يظلُّهم الله في ظله يوم القيامة: «**ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضت عيناه**» [رواه البخاري (١٤٢٣)].

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: وجاء بقلب مقبل على الله، راجع إليه، مستبصر بدلائله، منتفع بمواعظه، كما مرَّ معنا عند قوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [قٓ: ٨].

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ ويقال لهم: ادخلوا الجنة بسلام من الله وملائكته: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

أو: سالمين من العذاب والهموم، آمنين من زوال النعم.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ في الجنة فلا موتَ بعده.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي: لهم ما يشتهون في الجنة، فمهما اختاروا وجدوا من أي نوع من أنواع النعيم.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: ولدينا مزيد من النعم لا تخطر ببالهم مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقد يكونُ المزيدُ لذة النظر إلى الله سبحانه ورؤيته بلا كيف كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

* * *

بصائر ومواعظ

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

ثم عادتِ الآياتُ إلى تذكير المعاندين الجاحدين بمواعظها البليغة:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: كثيراً ما أهلكنا قبل كفار مكة من قرن، كقوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد... الذين سبقَ ذكرُهم في آياتِ السورةِ؛ هم أشد قوة وسطوة من كفار مكة.

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: ساروا وتقلَّبوا في البلادِ، وسلكوا كل طريق، فلم يجدوا لهم مهرباً من أمر الله أو من الموت.

وفي قراءة: (فنقِّبوا) على صيغة الأمر، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتحدي، وإظهار عجز المعاندين المُعْرضين.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: إنَّ ما ذكر في السورة لتذكرةٌ وعظةٌ لمن كان له قلب واعٍ يدرك الحقائق، وينتفع بالمواعظ. أو أصغى لما يتلى عليه وهو حاضر غير غافل، فهما فريقانِ: فريقٌ له قلبٌ يَفْقَه، وفريقٌ يسمع ويصغي لينتفع ويتذكر.

ففي آياتِ السورةِ كثيرٌ من البصائر والمواعظ، ولعلَّ ذلك سرُّ قراءة النبي ﷺ بها في المجامع الكبار كالعيد والجمع.

وكما بيَّن تعالى في معرض الرد على منكري البعث كمال علمه بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [قٓ: ٤] بيَّن أيضاً كمال قدرته ﷻ فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: خلقنا هذه المكونات العظيمة خلقاً متدرجاً في ستة أوقات، وما أصابنا بذلك من تعب ولا نصب ولا إعياء، وقد مرَّ معنا تفصيل ذلك في عدد من الآيات.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: اصبر يا محمد على ما يقول المشركون في شأن البعث الذي سبق ذكره في صدر السورة: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [قٓ: ٣].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ ونزِّهه تعالى عن العجز وعن وقوع الخُلْفِ في أخباره، ومن جملتها الإخبار عن بعثهم يوم القيامة، حامداً له تعالى على كماله وإنعامه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

والمراد: صلِّ في هذين الوقتين، وكانت الصلاةُ المفروضةُ قبل أن تفرضَ الصلوات الخمس قبل طلوع الشمس وقبل الغروب في وقت العصر.

وفي الحديث: عن **جرير بن عبد الله** رضي الله عنه قال: كُنَّا جلوساً ليلةً مع النبيِّ ﷺ، فنظرَ إلى القمرِ ليلةَ أربعَ عشرةَ فقال: «**إنَّكم سترونَ ربَّكُم كما ترونَ هذا لا تضامونَ في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغْلَبُوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ غروبها فافعلوا**» ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾. [رواه البخاري (٤٨٥١)].

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: وسبِّحه بعض الليل وأعقاب الصلوات. وعن مجاهد: قال ابن عباس: أمره أن يسبِّحَ في أدبار الصلوات كلها. [رواه البخاري (٤٨٥٢)].

وفي قراءة: (**وإدبار السجود**) بكسر الهمزة على المصدر، والمعنى وقت انقضاء السجود.

وفي الحديث: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سبَّحَ اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين، وحمدَ اللهَ ثلاثاً وثلاثين، وكبَّرَ اللهَ ثلاثاً وثلاثين، فتلكَ تسعةٌ**

وتسعون، وقال تمامَ المئةِ: **لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمد، وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، غُفِرَتْ خطاياه وإن كانت مثلَ زبدِ البحرِ»** [رواه مسلم (٥٩٧)].

فللصلاة دور كبير في تثبيت الداعية على طريق الدعوة، والتغلب على ما يَلْقى من مصاعب وشدائد، ولهذا كان **عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّى**، كما أخرج أبو داود من حديث **حذيفة** [١٣١٩]، ومرَّ معنا قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

* * *

صيحة الحق

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾.

أي: وانتظر يوم ينادي المنادي من مكان قريب بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء. والمراد: نفخة البعث من القبور التي سبق ذكرها عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

أو: استمع بما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفيه تعظيمٌ وتهويلٌ للمخبر به، ويؤيده قراءة الوقف على: **(واستمع)**.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: يوم يسمعون الصيحة المذكورة المحققة، أو الصيحة المتلبِّسة بالحق؛ وهي صيحة البعث من القبور، ذلك اليوم يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: إنا نحن نحيي ونميتُ لا يشاركنا أحد في ذلك، وإلينا الرجوع إلى الجزاء والحساب يوم القيامة لا إلى غيرنا.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾ أي: يوم تشقق الأرض عنهم مسرعين إلى أرض المحشر.

وقرئ: (**تشَّقق**) بتشديد الشين، و(**تُشقق**) على البناء للمفعول، و(**تنشق**).

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: ذلك حشر علينا هيِّن.

وفي ختام السورة قال تعالى تسليةً لرسوله ﷺ عما يلقى من عنادهم وإعراضهم، وتهديداً لهم:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ﴾ أي: وما أنت عليهم بمتسلِّط تجبرهم على الإيمان، إنما بعثت مذكِّراً كما في قوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية].

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: عِظْ بالقرآنِ مَنْ يخافُ وعيدي.

وقُرِئَتْ (**وعيدي**) بإثباتِ الياء في الوقف والوصل، وأثبتها بعضهم في الوصل دون الوقف.

فالقرآن الكريم تبصرةٌ وعظةٌ، فيه الحجة البالغة والموعظة البليغة. ونحن نقول مع قتادة رحمه الله: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك.

❁ ❁ ❁



فهرس الموضوعات

تفسير سورة سبأ
الرِّسَالَةُ والسَّاعَةُ فِي سُورَةِ سَبَأ

تفسير سورة فاطر

الاخْتِلَافُ في المَخْلُوقَاتِ، وَوَحْدَةُ الخَالِقِ في سُورَةِ فَاطِر

تفسير سورة يسٓ

مَرْقَاةُ الوُصُولِ فِي سُورَةِ يسٓ

تفسير سورة الصافات

مَقَامُ العُبُودِيَّةِ في سُورَةِ الصَّافَّاتِ

تفسير سورة صٓ

القُرْآنُ والمُغَيَّبَاتُ في سُورَةِ صٓ

تفسير سورة الزُّمَر

الهُدَى وَالضَّلالُ في سُورَةِ الزُّمَرِ

التَّزْكِيَةُ والتَّرْبِيَةُ في الحَوَامِيمِ

تفسير سورة غافر

الدُّعَاءُ والتَّفْوِيضُ في سُورَةِ غَافِرٍ

تفسير سورة فصلت

القُرْآنُ والتَّزْكِيَةُ فِي سُوَرَةِ فُصِّلَتْ

تفسير سورة الشورى

الوَحْيُ والشَّرِيعَةُ في سُورَةِ الشُّورَى

تفسير سورة الزخرف

القُدْوَةُ وَالمَثَلُ في سُورَةِ الزُّخْرُفِ

تفسير سورة الدخان

إِنْذَارٌ وانْتِقَامٌ في سُورَةِ الدُّخَانِ

تفسير سورة الجاثية

اسْتِسْلَامٌ وَإِذْعَانٌ في سُورَةِ الجَاثِيَةِ

تفسير سورة الأحقاف

الدَّعْوَةُ والاسْتِجَابَةُ فِي سُورَةِ الأحْقَافِ

تفسير سورة محمد

الحَرْبُ والسَّلامُ في سُورَةِ مُحَمَّدٍ

تفسير سورة الفتح

بَشَائِرُ النَّصْرِ فِي سُورَةِ الفَتْحِ

تفسير سورة الحجرات

أَخْلَاقٌ وَمَبَادِئُ في سُورَةِ الحُجُرَاتِ

تفسير سورة قٓ

البَصِيرَةُ وَالمَوْعِظَةُ فِي سُورَةِ قٓ

❁ ❁ ❁